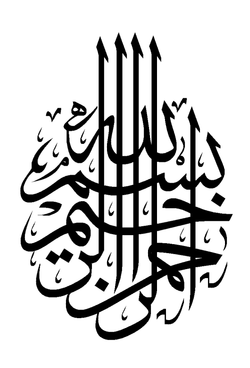


أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله



أُصُولُ الاِحْتِفَالِ

بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ فِي الْمَغْرِبِ

الكتاب: أصول الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب.

المؤلف: الحسين أكرُّوم بن أحمد الساحلي.

مراجعة: الدكتور الحسن مكراز.

النشر: المجلس العلمي المحلي لاشتوكة أيت باها.

الطبعة الأولى: 1439هـ/ 2018م.

الإيداع القانوني: 2018 MO 0089.

ردمك: 978-9954-9870-0-1.

الطبع: دار الأمان - الرباط.



منشورات المجلس العلمي المحلي لاشتوكة آيت باها

أُصُولُ الاِحْتِفَالِ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ فِي الْمَغْرِبِ

تأليف :

الحسين أكرّوم بن أحمد الساحلي

راجعه :

الدكتور الحسن مكراز

أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة أكادير

وعضو المجلس العلمي المحلي لإقليم اشتوكة أيت باها



الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأنعم على أمته بولادته المصحوبة بالمعجزات والخوارق، وفضل نبيه ﷺ على سائر الخلق، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المبعوث بالحق، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم وصار على دربهم إِلَى يوم الدين.

تصدير:

لا غرو أن الجدال حول مفهوم البدعة قَلَّ فِي مصنفات المتقدمين لشدة بيانه، وقوة وضوحه؛ بيد أنه فِي هذا العصر تكاثر دورانه على ألسنة الناس، وشاع بسطه فِي الرسائل والمصنفات، وامتدت شظاياه إِلَى العوام فتشاغلوا به فِي المجامع والمنتديات؛ حتى ضاقت أبواب البدعة بكثرة الداخلين عليها وفيها، مما استوجب بيان مفهوم البدعة، وتأصيل مشروعيتها، وتقنين ضوابطها، وتمييز الحسنة منها من الضالة.

ومن هنا تأتِي أهمية الكلام عن حكم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي يتجدد الخصام حوله كلما بزغ هلال الربيع النبوي من كل سنة، فتتسارع الأقلام للدفاع عنه حينًا، ودفعه أحيانًا، فتشابكت الآراء، وتضاربت المواقف، فاتسع الخرق على الراقع.

ولعل من نافلة القول التذكير بأن الاحتفال بالمولد النبوي لا يدخل فِي الحديث النبوي الشريف "من أحدث فِي أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد.." لأنه احتفال بولادة نبِي الرحمة محمد ﷺ الغرض منه؛ ربط الأمة الإسلامية بنبيها عليه أفضل الصلاة والتسليم، مع العكوف على دراسة جوانب من سيرته، للاقتداء بهديه، والاستقامة على منهجه.

وقد أحس المجلس العلمي المحلي بضرورة الالتفات إِلَى هذا الأمر، وبيان مسلك المغاربة فِي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عبر القرون، سواء على المستوى الرسمي، أو الشعبِي، وقد حاول الباحث فِي هذا الكتاب أن يبين الأصول التاريخية للمولد النبوي فِي المغرب، وأسباب استحداثه فيه عبر التاريخ، وأفاض فِي استعراض المجالس الرسمية لسلاطين وملوك المغرب، وطرق احتفالهم بالمولد منذ أواخر عصر الموحدين إِلَى الآن، وفند كثيراً من الشبه الجديدة التِي أثارها المخالفون حول المولد، فضلاً عن إطنابه فِي الجانب التأصيلي الذي بناه على أدلة مستقاة من الأصلين، وقواعد أصول الفقه، مع عرضه لكثير من الحجج التِي يستدل بها المنكرون، وتعقَّبَها واحدة واحدة، ونحسبه بهذا التنوع المنهجي قد حالفه التوفيق والنجاح.

أما المباحث الجديدة التِي أثارها الكتاب لأول مرة، فهي تخصيصه لبحث مستقل فِي تاريخ دخول المولد النبوي لسوس، حيث أن كل البحوث العلمية المثيرة لذلك يروج فيها أن تافراوت الملود أول مكان أقيم فيه المولد بإيداولتيت، مقابل ترجيح أَبِي زيد التمنارتِي أن شيخه ابن الوقاد هو أول من احتفل بتارودانت فِي نهاية المائة العاشرة، مع وجود نقول مخفية فِي كتاب: "وصف إفريقيا" للحسن الوزان تضاد النقول المذكورة.

ونأمل من الله سبحانه وتعالَى أن يسد هذا الكتاب ثغرة فِي بابه، وأن يجازي صاحبه، وأن يجعل أجر الاستفادة منه فِي ميزان حسنات أمير المؤمنين محمد السادس زاده الله نصراً وتأييداً آمين.

المجلس العلمي المحلي لاشتوكة أيت باها



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة، وعلى آله وصحابته الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار.

مُقدِّمة

أما بعد :

فَمِمَّا لا شك فيه أن الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف بدعة حسنة، وعادة شريفة، استُحدِثت في المغرب في الربع الأول من القرن السابع الهجري، واسْتَحْسنها جَمعٌ غفير من الفقهاء المحققِّين، وأساطين العلماء الرَّاسخين، وشاع الاحتفال بها بينهم شُيُوعـًا جعلها من أهم المناسبات الدينية التِي تُقَام في مساجدهم منذ عُصُور، فيَتَفَنَّنُون في لياليها بأنواع الصدقات وصُنُوف الطاعات كما هو مشهُور، لذا اتصل إجماعهم بها سَلَفـًا عن خلف وجيلاً عن جِيلٍ منذ دُهُور.

ولَم يَأْتِ تشبث المغاربة بهذه العادة -كما قد يُظَن- من خارجِ أصول الشريعة ومقاصدها؛ أو أنها آتية من أعراف وعاداتٍ فاسدة لا مُسْتَنَد لها؛ بل استخرجوها من أُصولٍ سُنِّية صحيحة، وفَرَّعُوها على قواعدَ وضوابط شرعية متينة.

بَيْدَ أن البعض حاول أن يُؤَصِّلَ لِبُطلانها، ويُقعِّد لنُكْرَانها، ويسعى إِلَى منعها؛ وذلك بالاعتماد على تخريجاتٍ غريبة، وتأويلاتٍ واهية، ومُسوِّغَاتٍ مرجوحة، ما يجعلنا نتساءل: هل يمكن أن نَسْتَدِلَّ بقواعد الشرع بأن ذكرى المولد بدعة حسنة وعادة شريفة؟ ونستدل بها -في الوقت نفسه- بأنها بدعة منكَرَة؟ هل الإشكال واقع في ضوابط التأويل على أصول الشرع ومقاصده؟ أم أن المسألة تتفرع على

غير أصولها وضوابطها الخاصة، ومن ثَم يَحصل الاختلاف في النتائج، والتَّضَاد في الأحكام؟

وعند النظر إلَى مناهج الفريقين في التخريج – ومحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة ولو عَرَضاً – يظهر أن هناك اختلافاً كبيراً وبَوْناً شاسعاً في منابع التقعيد، ومن ثَمَّ خلافاً –لا اختلافاً– في الأحكام المترتبة عنها، والنتائج الـمُخَرَّجَة عليها، مما يصعب معه تقريب الشقة بين الفريقين، وجمع الكلمة بين المختلفين، بما يتوافق مع قاعدة: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويَعْذُرُ بعضُنا بعضاً فيما اختلفنا فيه".

وقد لاحظَت هذه الرسالة مدى صعوبة تدبير ذلك الخلاف واستحالة حسمه في ظل تعدد أُصُول التفريع، فعلاوة على إجماع جمهور العلماء المجيزين بأَنَّ ذكرى المولد تتفرع على أحكام الأعراف والعادات؛ ذهب المنكرون إلَى أنها تُفَرَّع على أصول الديانات والاعتقادات، وهو خطأ فاحش في التأصيل، ومنهج مَعِيبٌ في التقعيد، تَرَتَّب عنه إصدار أحكام غريبة من قبيل: أن ذكرى المولد النبوي معصية، وبدعة مُنكرة، وأن المحتفلين بها تلزمهم التوبة، بل بلغ الأمر بِبَعْضِهِم –كما سيأتِي– أن فَرَّع على نفس الأصل حُكماً غريباً وصف المحتفلين بأنهم انحرفوا عن الشريعة، وبالغ حتى أخرجهم من المِلَّة، وأدرجهم ضمن المغضوب عليهم والضَّالين !! نَسْأَلُ الله السلامة والصَّوْن.

وما كان لنا أن نخوض في ذكرى المولد النبوي التِي أوشكت –أو كادت– أن ينعقد عليها إجماع فُضَلاَء المتأخرين حتى قبل أن يُولَد الـمُبَدِّعون لها؛ لولا أن هؤلاء انحرفوا عن أصول التأصيل، وزاغوا عن قواعد التفريع، فأخرجوا السواد الأعظم من المسلمين من الملَّة، عِلْماً بأن هذا النوع من الخلاف المفضي إلَى هذا التَّشَتُّت تأتِي أدلته قطعية كلية لا تحتمل التأويل، ولا يدخلها الاجتهاد، لذا من العسير جِدّاً أن يتراجع الـمُنْكِرُون عن موقفهم، وينتقلوا من المنع إلَى الجواز، ويحتفلوا بالمولد النبوي مع المؤيدين، لأنه سَيُخَيَّلُ لهم –فِي ظل تفريعهم المولد على أصول الاعتقادات– أن احتفالهم ذاك غَدَا وكأنه أشبه بالانتقال من دِينٍ إلَى دِينٍ !!

ومن هنا تأتِي أهمية هذه الرسالة المتواضعة لتُصَحِّحَ مسار انحراف هذه التفريعات بتأصيلات شرعية مُخَرَّجَة من أصول السنة النبوية ومقاصدها -تلكم التخريجات المؤصِّلة لذكرى المولد النبوي الشريف- خَرَّجَها الحفاظ الكبار من أمثال: الحافظ ابن الجزري [ت833هـ] والحافظ ابن حجر[ت852هـ] والجلال السيوطي [ت911هـ] وغيرهم، استدلَلْتُ بها في هذه الرسالة لتكون نِبْرَاساً في التخريج، ومِنْهَاجاً في التفريع، وعوناً على التأصيل، لأنَّا إذا لَم نُعَجِّل ببيان أصول هذه الاستخراجات وتكييفاتها الفقهية؛ سَيَتَوَلَّد عنها التخاصم، والتهاجر، والعداء فِي الحال، ومن ثَم التشتت، والنزاع، وتفريق الكلمة فِي المآل.

ونتمنى من الله سبحانه أن يفتح لنا مغاليق العلم، وأن يوفقنا إلَى ما فيه الخير والصواب، وأن يهدينا إلَى صراطه المستقيم، وأن يحشرنا مع الذين أنعم عليهم من النبيئين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه بِقبيلة مجاط بشيشاوة؛ عبد ربه الفقيرُ إلَى رحمة الله ورضوانه؛ الحسين بن أحمد، بن محمد، بن عبلا، أكروم الساحلي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين، وقد وافق تمامُ تصنيفه ليلة الثلاثاء فاتح ربيع الأول عام 1432 من هجرة المصطفى ﷺ الموافق لـ 7 فبراير 2011.

ثُم راجعت مسودته الأخيرة، وزدت فيها ونقصت، وقدمت منها وأخرت، في أواخر ربيع الآخر من هذا العام 1439هـ، بهشتوكة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.



الفصل الأول:

أصول نشأة المولد النبوي بالـمغرب عبر التاريخ

المبحث الأول: الأصول التاريخية لنشوء ذكرى المولد النبوي بالمغرب

المبحث الثانِي: الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب من حاضرة سبتة إلى أعماق منطقة سوس

المبحث الثالث: أنواع الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب المعاصر

المبحث الرابع: مظاهر محافظة المغاربة على العوائد الاجتماعية الخاصة بالمولد النبوي

الفصل الأول: أصول نشأة المولد بالـمغرب عبر التاريخ

لا شك أن ذكرى المولد النبوي الشريف بدعة مستحدثة فِي الملة، أجمع على ذلك المؤيدون لها والمانعون، واتفق عليه الموافِقون والمخالِفون.

غير أن استحداثها فِي مختلِف الأقطار؛ يختلف من قُطْر إلَى قطر، فناسب أن نُبَيِّن نشوءَها، وظهورها، وأصولها التاريخية فِي المغرب، ولذلك افتتحتُ هذه الرسالة به كمبحث أول، ثُم أتبعته بمبحث ثانٍ يروم بيان تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي فِي سبتة، وكيفية انتقاله إلَى أعماق سوس، مسهباً القول فِي ذلك؛ لأن الباحثين تغافلوا عنه، والنبش فِي مظاهر الاحتفال به فِي سوس، معرجاً في المبحث الثالث على أنواعه التسعة، مبيناً أعراف كل نوع، وطريقة الاحتفاء به.

وقد تعمدت عدم ذكر ما هو معلوم فِي مباحث المولد الشريف بالضرورة؛ لأن ذلك لا يعدو أن يكون تَكراراً لِما سبق، وتسويداً للورق، فضلاً عن أن ذلك لا يزيد للبحث العلمي إلا استنساخ ما مضى أن نُسخ، لذا تَجنَّبْتُ كل ذلك، محاولاً ابتكار مباحث تثار لأول مرة، وحتى بعضها وإن سبق أن أُثير؛ لكني أُضيف لها ما بدا لِي فيه فائدة زائدة، مع عرضها بمنهج جديد، كما سيتضح لمن له أدنَى إلمام بالاطلاع على مختلِف التصانيف التِي أُلفت فِي المولد الشريف.

ثُم ختمت هذا الفصل بإبراز أهم مظاهر العناية بالعوائد الاجتماعية فِي المولد النبوي عند المغاربة، معدداً أصنافها، بدءً بعوائد سلاطين وملوك الدولة العلوية، ومروراً بالعوائد الاجتماعية، وانتهاء بالعوائد السوسية، ممثلاً لكل صنف بأمثلة عملية، ونماذج مختارة، مستمداً إياها من أصول التقاليد الشعبية المغربية الرائجة فِي ليالِي المولد الشريف، لاسيما وأن عوائد المولد بدأت تندرس شيئاً فشيئاً، فاتجهت العناية إلى الاهتمام بجمعها، وتدوين فصولها، باعتبارها من أهم فنون الهوية الحضارية المغربية.

المبحث الأول: الأصول التاريخية لنشأة ذكرى المولد النبوي فِي المغرب:

من المعلوم أن قلوب المغاربة تطبعت منذ تشرفهم بالإسلام على محبة المصطفىﷺ والشغف به، فخصصوا للجانب النبوي قصائد رائقة فِي تبجيله، وأنظاماً جليلة فِي مدحه والثناء عليه، وبدأت تجليات هذه المظاهر تلوح في الأفق قبل ظهور الاحتفال بالمولد النبوي فِي المغرب، وكأنها أشبه بمقدمات تمهيدية للاحتفال بالمولد النبوي؛ فنظم أبو عبد الله الشقراطيسي المتوفَّى سنة [466هـ] قصيدة مشهورة سميت باسمه: "الشقراطيسية" ومفتتحها:

الحمد لله منا باعث الرسل ۞ هدى بأحمد منا أحمد السبل

ثُم تتابعت القصائد النبوية؛ فنظم كاتبُ السلطان علي بن يوسف بن تاشفين؛ ابن أبِي الخصال المتوفَّى سنة [540هـ] قصيدةً سماها: "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" هذا مطلعها:

إليك فهمي والفؤاد بيثرب ۞ وإن عاقنِي عن مطلع الوحي مغربي

ثُم ظهر كتاب "الشفا" للقاضي عياض المتوفَّى سنة [544هـ] وهو على صغر حجمه أشهر الكتب المدونة فِي السيرة النبوية، ولعل الفقيه المغربِي أبو الخطاب بن دحية غرف من بحر معينه، ونهل من نسيم نفحاته، فقدِم على الملك الأيوبِي للمشاركة فِي الاحتفال بالمولد الشريف، وعن ذلك يقول ابن خلكان: «وقدم -أي ابن دحية- مدينة إربل فِي سنة أربع وستمائة، وهو متوجه إلَى خراسان، فرأى صاحبها الملك المعظم مظفر الدين بن زيد الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى مولعاً بعمل مولد النبِي ﷺ عظيم الاحتفال به، فعمل له كتاباً سماه: "التنوير فِي مولد السراج المنير" وقرأه عليه بنفسه، وسمعناه على الملك المعظم فِي ست مجالس فِي جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين..[1]».

---

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (3/ 449) تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر بيروت الطبعة الأولَى/ 1900.

ولو أراد البحث أن يستقصي اعتناء المغاربة بالجانب النبوي نظمـاً ونثراً لتعذر عليه ذلك، فدونك قصيدتَيْ البردة[1] والهمزية لرئيس الشعراء، وعميد الأدباء؛ شرف الدين البوصيري المتوفَّى سنة [696هـ] ذي الأصول المغربية الذي عجز من قبله عن صنيعه من سبك المعانِي، وتوضيح المبانِي فِي بيان أسرار مدح المصطفى ﷺ كما لَم يستطع مَن بعده أن ينسج على منواله، فكأنه سد باب البيان فِي مدح المصطفى ﷺ وإلا فقد حاول أمير الشعراء أحمد شوقي أن يعارض القصيدتين المذكورتين؛ لكنه لَم يستطع أن يجاريه.

أما من اطلع على كثير من تصانيف المغاربة فِي السيرة النبوية عبر التاريخ فِي كتاب أستاذنا الدكتور سيدي محمد يسف الموسوم بـ: "المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومصنفوها" فإنه سيتعجب من تلكم المصنفات الرائقة، والدواوين الكبيرة فِي السيرة النبوية، ولَن يتردد بعد ذلك أن يقول بلسان واحد مع أستاذنا: بأن كثرة تلكم المؤلفات التِي ألَّفها علماء الغرب الإسلامي فِي ألوان شتى من فنون السيرة النبوية «تشهد بأن المغرب كان دار سيرة..[2]» فكان كل ما سلف بمثابة الارهاصات الأولية للاحتفال بالمولد النبوي، وإن لَم يقصد بعضٌ ممن ذُكروا أن يصل إلَى اتخاذه موسماً رسمياً يُحتفل به فِي سائر أنحاء البلاد.

أول من دعا إلَى الاحتفال بذكرى المولد النبوي في المغرب:

ترجع الجذور الأُولى لذكرى الاحتفال بالمولد النبوي فِي المغرب؛ إلَى عهد الخليفة الموحدي أبِي حفص عمر المرتضى، المتوفى سنة [665هـ] وبالتحديد فِي أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري، لأسباب ودوافعَ فرضتها أحوال اجتماعية، وأوجبتها دواعٍ دينية وعقدية، بِحُكْم الاختلاط بين المغاربة وأهل الأندلس، ذلك أن سبتة أقرب المدن المغربية جواراً للمسيحيين، فأدى ذلك إلى

---

(1) سماها: الكواكب الدرية فِي مدح خير البرية.

(2) المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومصنفوها (2/ 244) مطبعة المعارف الجديدة الرباط/ 1992م.

مشاركة بعض المسلمين المغاربة في الاحتفال بيوم النيروز، والمهرجان، وميلاد المسيح عليه السلام فلاحظ أحد أعلام المغرب وهو أبو العباس العزفِي [ت633هـ] هذا الاختلاط الشنيع، وذاك التقليد الأعمى، ففطن إِلَى التفكير بما يَمْلأ الفراغ الروحي والشعور الإيمانِي لهم، فاستحسن إحداث الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف.

فيكون بذلك الإمام أبو العباس العزفِي السبتِي -المعروف بابن عزفة[1]- أول من دعا إِلَى الاحتفال بذكرى المولد فِي المغرب، بل أَلَّف كتاباً فِي ذلك سماه: "الدُّرَّ المُنَظَّم فِي مولد النبِي المعظم"[2] لكنه وَافَتْه المَنِيَّة قبل أن يكمله، فأتمه ابنه أبو القاسم أمير سبتة.

وقد تضاربت آراء بعض أهل السير المتأخرين والمعاصرين فيه؛ فذكروا أن "الدر المنظم" أَلَّفَه أبو العباس العزفِي كاملاً ولم يشيروا إلى ابنه، في حين يرى البعض الآخر أن ابنه علَّق عليه، والآخرون يروْن أنه كَمّلَه وأتمه، وقد أَزَالَ أستاذنا العلامة سيدي محمد يسف حفظه الله هذا اللبس والتناقض بقوله: «إن أبا القاسم العزفِي قام بإكمال كتاب والده الدر المنظم، وأخرجه فِي نسختين: صُغْرَى وكُبْرَى، وهو يُميِّز فِي هذه الأخيرة كلام والده فيترجم عنه" قال المُؤَلِّف" ثُم يعنون زياداته بكلمة "قُلتُ"..[3]» وبهذه الإشارة تتضح ضمائر معنَى تلك الألغاز التِي تحير مشاهير الباحثين.

(1) قال أستاذنا الدكتور محمد يسف: لَم أقف له على ترجمة مستقلة فِي غير: برنامج الرعينِي 42 ت 14. وتوجد نُتَف من أخباره فِي: أزهار الرياض للمقري (1/ 39 -243- 2/ 375) واختصار الأخبار (ص/ 22) ورحلة البلوي (2/ 95) والحلل السندسية فِي الأخبار التونسية (3/ 824) انظر المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومُصَنِّفُوهَا (1/ 176 هامش- 1).

(2) حققته الباحثة فاطمة اليازدي وحصلت بموجبه على دبلوم الدراسات العليا المعمقة فِي قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط برسم السنة الجامعية 1986-1987. ثم قام الدكتور عبد الله حمادي بدراسة مستفيضة عنه، ونشرته دار دروب للنشر والتوزيع، عمان الطبعة الأولى/ 2015.

(3) المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومصنفوها (1/ 179).

الأسباب والدوافع الباعثة على استحداث المولد النبوي بشمال المغرب:

بين أبو العباس فِي كتابه: "الدر المنظم" الدواعي التِي جعلته يفكر فِي استحداث المولد النبوي، موضحاً عدداً من الممارسات العملية التِي تبع فيها المسلمون النصارى بسبتة، وبالغوا فِي ذلك حتى قلدوهم فِي تواريخهم، ومنشأ ذلك عائد إلَى الاحتفال معهم بميلاد المسيح عليه السلام، لذا قال العزفي مستغرباً: «وإن تعجب – أيها الناصح لنفسه– فعجب من إحصائهم لتواريخها.. والاعتناء بمواقيتها، فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى على نبينا عليه السلام، وعن يناير سابع ولادته، وعن العنصرة ميلاد يحيى، على نبينا وعليه السلام..[1]».

ثُم استنكر العزفِي ذلك كثيراً، وبالغ فِي الشدة على رعيته بسبتة، لمشاركتهم النصارى فِي أعيادهم؛ لأنه عايش تلك الممارسات، وعاين تلكم الطقوس وشاهدها، لاستمرار أهل سبتة عليها، حتى رانت على قلوب كبارهم، وصغارهم، لتجددها كل سنة، فصاروا على هذه العوائد ردحاً من الزمن، وما خطر لأحدهم قط أنها ليست من شريعتنا، ولا بلغ إلَى سَمْعه أن ينكرها أحد، ولو بقلبه.

وكل هذه الوقائع جعلت صاحب "الدُّر المُنَظَّم فِي مولد النبي المعظم" يتساءل عن أسباب استمرار هذا التقليد قائلاً ومحتجاً: «وما أعانهم التوفيق، ولا العزيز المرشد، ولا الرفيق؛ أن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيهم محمد ﷺ خيرة الله من خلقه.. هاديهم من ضلالهم، ومرشدهم من غيهم؛ العزيز.. الحريص على هداهم، الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرؤوف الرحيم شفيعهم؛ الذي ضوعف لهم به ثواب محسنهم، وتجووز عن مذنبهم..[2]».

---

(1) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟" منشور بمجلة دعوة الحق عدد 277 الصادر فِي جمادى الأولَى 1410هـ الموافق لـ: دجنبر/ 1989 (ص/ 50).

(2) نفسه.

وبعد أن شنَّع على السواد الأعظم من سكان سبتة على صنيعهم ذاك؛ وجَّه كذلك طعنات قوية للعلماء والفقهاء عن تقاعسهم فِي الصد لما يجري بين أعينهم، وسكوتهم عما يقع بين أظهرهم، فقال عاطفـاً لومه على السابقين: «بل عن جماهير عامتهم، ودهمائهم، بل الذين يدعونه بطلبتهم، وعلمائهم، لا يعرفونه ولا يتعرفون.. بل يقتنعون بأنه فِي كتبهم ويكتفون !! والحمد لله فقد انتهى اليوم إلَى العذراء فِي خدرها، والحرة المصونة فِي سترها ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] بقيام حجتها، وانقطاع عذرها، والله يعيذنا من الفتن، ويقينا غوائل شرها.. [2]».

وهـذا النقـد الـلاذع الـذي وجّـهَه حـاكم سـبتة للأعيـان والفقهـاء، وعامـة أصـناف الناس؛ ما هو فِي الحقيقة إلا استشعارٌ بالأمانة التِي طوق بها، والاحساس بالمسؤولية التِي تقلدها باعتباره أمير سبتة، فأراد أن يُظهر للناس مـا يخـتلج فِـي صـدره ليشـاركوه فِي مقصده، ويتعاونوا معه فِي الوصـول إلَـى مبتـغاه، ولـيعلم مـنهم الشـاهد الغائـب؛ لكـن ذلك لَم يحصل له رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي عصره؛ ولَم يحتفل بالمولد كما أراده؛ وإنمـا ابتكـر المولد النبوي ونظَّر له، وأصَّلَ لِمشروعيته؛ لكن ابنه هو الذي طبـق نظـريته، فاحتفـل به عمليـاً بعده.

ولَم يكـن الاهتمام بالتاريخ الميلادي وحده هو السبب الـذي جعـل العزفِـي يوجـه سهام النقد لمجتمعه؛ بل سرد سـيلاً مـن العوائـد الأخـرى المصـاحبة للاحتفـال بعيـد المسيح عليه السلام، ذلك أن أهل سبتة فِي كل عيـد مسيحي يقومـون بِـ«بـدَعٍ وشـنع ابتدعوها، وسـنن واضـحة أضـاعوها، بموائـد نصبوهـا لأبنـائهم ونسـائهم، وصـنعوها وتهادوا فيها بالتحف التِي انتخبوها، والمدائن التِي صوروا فيهـا الصـور واخترعوهـا،

---

(1) سورة الأنفال من الآية 43.

(2) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسـوم بــ: "لمـاذا عيـد المولـد النبوي فِي الغـرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟"(ص/ 51).

ونصب ذوو اليسار نصبات[1] فِي الديار كما تصل أهل الحوانيت فنضدوها.. فقوم أباحوا أكلها لعيالهم، وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تعلق دونها الأبواب، وفِي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها ثُم باعوها..[2]».

إنها إذن حججٌ واضحة وضوحَ الشمس فِي رابعة النهار، مصحوبة بأدلة واقعية استقاها العزفِي من واقع المجتمع السبتِي فِي الربع الأول من القرن السابع الهجري؛ بل زاد عليها بَيِّنات أخرى استمدها من العدوة الأخرى، لتكتمل عنده بِنْيَة الاحتجاج النظري بالممارسات العملية، والوقائع المتكررة، لتكون تذكرة وعبرة لمن يخشى، ومدخلاً للإصلاح، بدل المواجهة بالنصوص الشرعية؛ والخوض في لجاج الأدلة النصية، وهذا مسلك دقيق، ونظر عميق يعينهم على ترك ما ألفوه، وأسلوب مبتكر فِي العدول عما اعتادوه.

وغير خافٍ أن انغماس السواد الأعظم من الناس فِي عوائد غيرهم، واتباعها شبراً بشبر؛ يحتاج إلَى التروي فِي التنزيل، والحكمة فِي التدرج، مع تشخيص واقع الحال، والتبصر فِي متوقع المآل، وهذا النظر الدقيق لا يجتمع إلا فِي عقول المصلحين الكبار المهرة، كالإمام العزفِي الذي يَعْرف كيف يُعَرِّف بالوقائع المؤلمة، والتحذير منها، ويستعرض مساوئها الفاسدة لتنفير النفوس منها، ليُحدث ذلك تغييراً عكسياً فِي قلوب الناس، بعد أن رانت على قلوبهم مجموعة من العوائد الفاسدة حيناً من الدهر، وكأنِّي بالعزفِي أراد أن يحس أهل سبتة بالحسرة والألَم عما يجري بينهم، ليكونا سببين فِي تغيير ما فِي داخلهم، بدل أن يحدث هو تغييراً فيهم.

ولذا نجده يسترسل فِي تتبع العوائد المنتشرة فِي الأندلس، فيقول: «ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين؛ أن النصبة ببعض بلاد الأندلس- جبرها الله وأمنها- بلغ ثمنها سبعين ديناراً، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطير السكار، وأرباع الفانيد،

---

(1) علق الدكتور عبد الهادي التازي على النصبة بقوله: «يقصد بها شجرة عيد الميلاد التِي كانت أحياناً تطرز بأنواع الحلوى كذلك، علاوة على الشموع..» هامش- 7 من مقاله المذكور.

(2) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟" .

وأنواع الفواكه، ومن غراير التمر، وأعدال الزبيب، والتين على اختلاف أنواعها، وأصنافها، وألوانها، وضروب ذوات القشور من الجوز، واللوز، والجلوز، والقسطل، والصنوبر، والبلوط، إلَى قصب السكار، ورائع الأترج، والنارنج، والليم، وفِي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهماً إلَى نحوها..[1]».

وكل ما ساقه العزفِي هنا؛ قَصَد به تنبيهَ المسلمين على ترك عوائد النصارى، وكان غاية قصده ومرماه رَحِمَهُ ٱللَّهُ العزوف عن الاحتفال برأس السنة الميلادية؛ ومن ثَم التفكير فِي الاحتفال بالمولد النبوي، حتى آل ذلك بمجموعه إلَى بداية تأسيس البواكير الأولَى للاحتفال بالمولد النبوي فِي الشمال المغربِي، ولذلك يتعمد سرد كثير من التفاصيل الجزئية الرائجة يوم عيد المسيح ابن مريم عليه السلام، وينبه المسلمين على عدم مجاراة النصارى فِي عاداتهم، والسير على نهج تقاليدهم، منتقداً إياها، معترضاً عليها، فآل به الأمر إلَى الإغارة على المقلدين فوجه لهم طعنات قوية، لأنهم فِي نظره أعانوا النصارى على ترسيخ هويتهم الحضارية ببلاد المغرب دون قصد، فِي وقت بدأت حصون المغرب تتساقط شيئاً فشيئاً داخل الأندلس، فيزداد نفوذهم السياسي بذلك، حتى غدا تقليد النصارى والتشبث بعاداتهم -فِي نظر العزفِي- وكأنه بمثابة مقدّمات تمهيدية للتوسع الإسبانِي خارج رقعتهم مستقبلاً، والتخطيط للعبور نحو المغرب لأول مرة فِي التاريخ، وكذلك كان.

وما زال العزفِي ماضياً فِي استعراض آثار تلك العوائد النصرانية على الوحدة المغربية علَّه يستميل النفوس إلَى التفطن لخطورتها، فقال متأسفاً على سد الحوانيت بسبتة، ومدى إضرار الناس بذلك: «وقد شاهدت فِي بعض الأعوام سد الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه كسوق القيسارية، والعطارين، وغيرهما من الأسواق، وفِي ذلك لضعفائهم من الدلالين وغيرهم قَطْعُ المعايش، وتعذر الأرزاق، ويطلقون الميزان من المكاتيب، ويشربون بذلك قلوبهم حب البدع الرواتب، فهذه أفعالنا فهل منا من تائب، لائم لنفسه معاتب، وكان هذا فِي يناير، ثُم صنعوا نحواً منه

---

(1) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟" (ص/ 51).

فِي العنصرة، وفِي الميلاد، فكيف ينشأ عن هذه الفتنة إلا مُصِرّ عليها، ومائل إليها من الأولاد.. يقولون.. إنه مَن عمل مثل هذا العمل؛ لَم يخل عمله ذلك من رغد العيش، وسَعة الرزق، وبلوغ الأمل، وربما جعلوا جمارة تحت أسرتهم تفاؤلاً.. ليكونوا فِي عامهم ذلك أكسى من الجمارة !!..[1]».

وبعد أن أطال العزفِي فِي بيان كل العوائد المصاحبة لمولد سيدنا عيسى عليه السلام في سبتة، صاح صيحة مشهورة، وتألم غاية الألم بكل ما جرى، فقال منادياً أولِي العزيمة والغُيُر على الهوية المغربية: «هل سمعتم يا أولِي الألباب بأعجب من هذا العجاب.. طاعة ذوي النهي والأحلام من الرجال، إلَى الولدان، وربات الحجال، [وأرى أنه ما جر على أهل الأندلس إلَى جزار النصارى، دمرهم الله من جيران !!][2] ومخالطتهم لتجارتهم، ومكاشفتهم عند الكينونة فِي أسارهم، ولذلك حذرنا من ترائي النيران، قال النبِي ﷺ: " أنا بريء من كل مسلم مع مشرك تراءى ناراهما"[3] وما سرى ذلك إلَى هذه العدوة؛ إلا بالاتباع لهم، والقدوة، وما عبر من ذلك البر إلَى هذا البر بدعة أشنع منها ولا أمر..[4]».

وعادة ما يكون فِي كل المجتمعات من يقف ضد العوائد الدخيلة، والتقاليد الفاسدة؛ لكن كيف السبيل لأن تندرس تلك العوائد من سبتة وتزول منها، والناس من "طاعة ذوي النهي والأحلام من الرجال، إلَى الولدان، وربات الحجال" تأثروا بها، وسعوا إلى نشرها، والمداومة عليها، والانقياد لها، كما قال العزفِي؟

---

(1) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟" (ص/ 52).

(2) ما بين القوسين مضطرب فِي الأصل.

(3) أخرجه أبو داود فِي سننه عن جابر بن عبد الله فِي كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود تحت رقم [2645] تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد نشر المكتبة العصرية، صيدا بيروت طبع دون تاريخ.

(4) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه" منشور بمجلة دعوة الحق عدد 277 الصادر فِي جمادى الأولَى 1410هـ الموافق لـ: 1989.

حقـًا إن عوائد أعياد المغاربة فِي سبتة كانت مرضية وحسنة فِي عصر المرابطين، وزمنـًا غير يسير من عصر الموحدين؛ لكنها فِي عصر العزفِي شنيعة مبتدعة متداخلة بتقاليد أخرى ممزوجة بالمظاهر الاجتماعية للنصارى، وما هو إلا كلمح البصر أو هو أقرب؛ حتى دخلها الدخيل، والتبس فيها الصحيح بالعليل؛ غير أن تنقية تلك العوائد من الشوائب؛ يحتاج أولاً لثورة جديدة على المؤثرات الدخيلة، مع التصدي للتسربات الخارجية، لاستنهاض الهمم نحو ترسيخ الوازع الديني، والتشبث بالعوائد الإسلامية، دون العدول عن تشوف النفوس إلَى بديلٍ لتلك الأعياد، لتستمد منه، وتستقوى به، وتستريح فيه.

ولَمّا كانت نفوس أهل سبتة تتوق إلَى ما يحل محل تلك العوائد التِي ألفتها فِي العيد الميلادي؛ فإنها متشوقة إلَى بديل جديد يكون متفقـًا مع العادة الأولَى فِي المسلك التطبيقي، وإن خالفه فِي التنزيل العملي، وقد بات من الصعب أن يكون خارج تلك العادة، فاقتضى النظر أن يقاس على أصلها، مع استحداث أخرى من جنسها، وهذا الطريق هو الذي اقتفاه العزفِي، فاستطاع بذكائه الخارق ودهائه الوقاد أن يُغَيِّر عادة بأخرى أحسن منها، وإن اشتركتا معـًا فِي الاحتفال بمولد النبِي المرسل.

لكن قواعد الشريعة لا ترى مانعـًا فِي استخراجها منها ما دامت لا تصادم صميم العوائد الإسلامية، ولا تتخالف مع منابعها الصافية، وتضاد أصول مقاصدها المرنة، ومما لا يخفى على كل ذي بصيرة؛ أن مشروعية ذلك تشهد له شواهد من الأصلين، وتؤيده فروع لا تدخل تحت الحصر مخرجة على أشهر أصول مالك كسد الذرائع، والعرف، وشرع من قبلنا، وهذا المعنَى هو الذي دندن حوله العزفِي مرات، وحام نحو حماه كرات، حتى وقع عليه أخيراً؛ لما انتبه إلَى استحداث الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فِي المغرب لأول مرة.

موازنة تاريخية بين استحداث المولد النبوي فِي المشرق والمغرب:

لا تخفى على أحد أسباب استحداث المولد الشريف فِي المشرق عند العبيديين الشيعة أولاً، وعند ملك إربل كوكبوري[1] ثانياً؛ حيث إن أصل احتفال الشيعة بالمولد كان من أجل إضفاء نوع من المشروعية الدينية على نظامهم السياسي كالاحتفال بِمولد سيدنا علي بن أبِي طالب، ومولد ابنيه؛ الحسن، والحسين، وفاطمة، وزوجه رضي الله على الجميع، لاستمالة الجمهور بحب المصطفى ﷺ فغالوا فِي ذلك؛ حتى إن مفتِي الديار المصرية العلامة محمد بخيت المطيعي الحنفي بعد أن ذكر عدداً من موالد الشيعة المشهورة؛ قال بأنهم زادوا عليها أضعافاً مضاعفة لأغراض مختلفة: «حتى كادت الموالِد الآن لا تُحصى..[2]» مما يدل على أن عقد النية فِي استحداث تلك الموالد أصالة لَم يكن مُؤَسَّساً على التقوى من أول يوم.

ويكفيك لبيان ذلك؛ أن ذاك الاحتفال اندرست آثاره، وانمحت مآثره، وتناسى الناس عوائده، قال الفاضل ابن عاشور: «وقد استمرت هذه العادة طول مدة الحكم الفاطمي بالديار المصرية حتى إذا سقطت دولتهم أواسط القرن السادس، كان هذا فِي جملة ما أبطلت الدولة الأيوبية من عوائدهم، ومحت آثارهم..[3]» خلافاً للمغرب والحمد لله، فقد استمرت فيه الاحتفالات بالمولد منذ تأسيسها إلى الآن، وما من عام إلا والذي بعده خير منه، مما يدل على حسن طوية أبِي العباس العزفِي، وصفاء سريرته، فدونك حكاية ابن مرزوق لموقف متأخري المالكية من احتفال أبي العباس العزفي بالمولد الشريف: «لا شك أن المسلك الذي سلكه العزفي مسلك حسن..[4]».

---

(1) كوكبري: وهو اسم تركي معناه بالعربية: ذئب أزرق.. كذا قاله محقق البداية والنهاية لابن كثير (13/ 159 هامش-2).

(2) أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام (ص/ 60).

(3) ومضات فكر للعلامة محمد الفاضل ابن عاشور(1/ 201) نشر الدار العربية للكتاب الطبعة الأولَى/ 1981.

(4) المعيار (11/ 280).

فاعلم -أرشدنا الله وإياك إِلَى الصواب- أن سبب استحداث المولد الشريف فِي المشرق والمغرب يختلفان؛ بل ويتقابلان تقابل المشرق مع المغرب؛ فقد رام العزفِي من وراء ذلك الدفاعَ عن بيضة الإسلام، والذب عن مكانة نبينا محمد ﷺ والتضييق على عوائد النصارى، مع خشيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فساد عقائد الصبيان، كما سبق بيانه بأوضح إشارة، وأصرح عبارة، وكل هذا يجعل الباحث المنصف لا يتردد فِي أن استحداث المولد فِي المغرب كان لأغراض جليلة، ومقاصد شريفة.

نعم قد تكون بعض الفِرق الدينية تستغل الاحتفال بالمولد، وتتفنن فِي الاحتفاء به، لا بقصد محبة النبِي ﷺ ولكن بقصد بقائهم فِي الحكم، فاستغلوا الدين لأهداف سياسية، وأسروا حسواً فِي ارتغاء؛ أما العزفِي فلم يكن طامعاً فِي الحكم لأنه أمير سبتة، وإنما غاية قصده؛ هو عدم تقليد صبيان ونساء أهل سبتة للنصارى فِي أعيادهم، والتشبث بعاداتهم، لما يؤول إليه ذلك من انسلاخ عن الهوية الإسلامية، فضلاً عما تنطوي عليه آثار ذلك من مفاسد ومضار على أصول الأمن الحضاري للمغرب الكبير.

ويتضح بعد هذه المقارنة أن المولد النبوي استُحدث فِي المشرق من أجل جلب المنافع والمصالح الشخصية، خلافاً للمغرب فقد شُرع فيه لأجل دفع المفاسد والمضار عن الدين الإسلامي، وإن شئت قلتَ: قام به العزفِي حماية لبيضة الإسلام، وسداً للذريعة، وهي كما عرفها القاضي عبد الوهاب البغدادي فِي الإشراف: «منع ظاهر الشيء المباح؛ إذا كان فيه تطرق لأهل البدع إِلَى الشيء المحظور..[1]».

وقد ظهر ذلك التطبيق العملي لسد الذرائع لما احتفل بعد أبي العباس العزفِي ابنُه أبو القاسم، فعلل فِي تكملة كتاب والده: "الدر المنظم" دواعي ذلك، فقال:

---

(1) الإشراف على نكت مسائل الخلاف (2/ 9) نشر دار ابن عفان ودار ابن القيم ، الطبعة الأولَى/ 2008.

«لِيَتَّخِذوا مولده الكريم موسماً يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم التِي يجب لمغانيها أن تعطل، ولمبانيها أن تهدم..[1]».

وقد استحسن ابن حجر الهيتمي الاحتفال بالمولد الشريف فعلل جوازه بعلل مختلفة، منها: ما اشتمل: «عليه من الإحسان الكثير للفقراء، ومن قراءة القرآن، وإكثار الذكر، والصلاة على النبِي ﷺ وإظهار السرور بمولده ﷺ والفرح به، وإغاظة أهل الزيغ والعناد من الزنادقة، والملحدين، والكفرة، والمشركين..[2]» فتطابقت بعض وجوه علل استحداث المولد عند ابن حجر مع التِي ذكرها ابن العزفِي، مع سبق الأخير الأول بأكثر من ثلاثة قرون.

ولولا أن عوائد النصارى التي اختلطت بأعراف أهل سبتة اختلاط الماء باللبن حتى فسدت عقائد صبيانهم؛ ما خطر للعزفِي أن يستحدث المولد، وقد سبق بإسهاب بيان كيفية تأثرهم بعاداتهم بما لا مزيد عن إعادة ذكره هنا، فدفعه ذلك إلَى ذلك، ووافقه السواد الأعظم من العلماء فِي عصره، واستحسنوا قصده، وأيدوا نظره، ألا ترى أن الطعون موجهة لأهل المشرق فِي أبعاد استحداثهم للمولد، خلافاً للمغرب؛ فقد تواترت آراء علمائهم على استحسانه، ووقع عليه الائتلاف والاتفاق، ومن ثَم حصل عليه بعد ذلك الإجماع والإطباق.

ويجدر التذكير هنا؛ أن المنكرين للمولد يوردون فِي معرض ردهم على المغاربة شبهاً وحججاً من قبيل: أن الشيعة هم أول من سبقوا إليه، ويعللون ذلك الإنكار بأن غاية قصدهم فيه غير سليمة، لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، ثُم قلدهم آخرون، **وخفي على هؤلاء أن المولد لو لَم يظهر فِي المشرق لسبق إليه المغرب، لتوفر دواعي استحداثه، وأسباب بروزه، فتبين أن سبق العزفِي إليه يجري مجرى توارد الخواطر،**

(1) المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومُصنفوها لشيخنا الدكتور محمد يسف (1/ 178).
(2) إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم لابن حجر (ص/ 21) نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 2001.

ووقوع الحافر على الحافر؛ لا أن العزفِي حضر المولد فِي المشرق فتأثر به، ثُم نقله إلَى المغرب.

وما زال الاحتفال بالمولد كذلك فِي المشرق فِي تجاذب وتنافس حتى ابتكره العزفِي فِي المغرب، فاختلف معهما فِي العمق والجوهر؛ وإن اتفقا فِي الشكل والصورة، والقصد من إيراد هذا الكلام؛ ألا يغتر الباحثون ببعض الشبه التِي يثيرها بعض المعاصرين من قبيل: «ويكفي فِي بطلان المولد والتدليل على نكارته؛ أن أول من قام به العبيديون المسمون بالفاطميين، وهم من الزندقة والتشيع..[1]».

ومن هنا تجب الإشارة إلَى ملحظ دقيق، مفاده؛ أن اعتراض المنكرين على احتفال المغاربة بعلة سبق الشيعة إليه لا يستقيم لوجوه عديدة؛ أقواها: تخالف نيات استحداثهم، وتباين مقاصد نشأته عند كل واحد منهم، فوجب ألا يتحد تنزيل الحكم عليهما لاختلاف أصول الاستحداث، ألا ترى أن النبِي ﷺ صام يوم تاسع وعاشر محرم واتفق مع اليهود فِي ذلك، ورغم اتحاد الصيام عند الجميع؛ لكن المآل العقدي لنيات الصائمين تختلف، فوجب أن يختلف معها الحكمُ قطعاً.

ومن تأمل عصر أبِي العباس العزفِي فِي سبتة فِي العقود الأولَى من القرن السابع، وقارنه بهذا العصر الذي نعيشه الآن؛ سيجزم أن هناك تشابهاً فِي الوقائع، وتطابقاً فِي الأحداث، كالاحتفال برأس السنة الميلادية الذي يقام فِي كل مدائن الإسلام بطرق وأساليب تضاهي بكثير تأثر أهل سبتة بأعياد النصارى بالأندلس فِي عهد العزفِي، فتبين أن أسباب التمسك بالاحتفال بالمولد النبوي فِي هذا العصر أقوى عما كانت عليه قبلُ، ويكفيك فِي ذلك؛ ظهورُ الرسوم المسيئة للنبِي ﷺ على الصفحات الأولَى لأشهر الجرائد، والمجلات، وتصوير أفلام تنقص من قدره، واتهام جنابه الشريف بما لا يليق به، وإلصاقه له تهماً كالإرهاب، والقتل، والكراهية، وغيرها من المكائد

(1) الكلام من تعليق محقق كتاب: جامع الآثار فِي السير ومولد المختار لابن ناصر الدمشقي (1/ 62 هامش-3) تحقيق أبِي يعقوب نشأت كمال، نشر وزارة الأوقاف قطر الطبعة الأولَى/ 2010.

التِي نشرتها -ولا زالت تنشرها- المذاهب المادية، والتيارات الحديثة، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾(1) وأعانهم عليها قوم آخرون.

اتخاذ يوم المولد النبوي عطلة:

إن الاحتكاك الذي أشرنا إليه آنفًا بين المغاربة -وبالتحديد أهل سبتة- والنصارى فِي الأندلس فِي القرن السابع، نَشَأَ عنه نوع من الاختلاط فِي العادات والأعراف، وامتد ذلك التمازج ليصل بالمغاربة إلَى مشاركة هؤلاء النصارى فِي احتفالاتهم وأعيادهم، ولما رأى أبو العباس العزفي ما رأى؛ أراد أن يَصْرِفَهُم عن ذلك، وفِي هذا يقول المرحوم محمد المنونِي مُوَضِّحًا أبعاد هذا الاستحداث، شارحًا مغزى نشوء هذه السُّنَّة الحَسَنَة: «فدفعه هذا -أي العزفِي- إلَى التفكير فيما يَشْغَلُ عن هذه البدع، ويقْضِي على هذه المناكر ولو بأمر مباح، فوقع فِي نفسه أن يُنَبِّهَ أهل زمانه على الاعتناء بمولد الرسول ﷺ ثُم رأى أن تَلْقِينَ ذلك لِلنَّشْءِ الصغير أَجْدَى وأنفع، فأخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسبتة، ويشرح للصغار فيها مغزى هذا الاحتفال حتى يسْرِي ذلك لآبائهم وأمهاتهم عن طريقهم، ثُم دعا إلَى تعطيل قراءة الصبيان فِي هذا المولد العظيم، وهكذا نشأ هذا الاحتفال لمقاومة التقليد الدينِي المسيحي..(2)».

وسَرعان ما تبعه فِي هذه العادة الحميدة علماء آخرون، فقد نقل الحافظ السيوطي عن المؤرخ الكمال الأدفوي(3) فِي كتابه: "الطالع السعيد" قولَه: «حكى لنا صاحبنا العدل ناصر الدين محمود بن العماد أن أبا الطيب محمد بن إبراهيم السبتِي المتوفَّى سنة [695هـ] نزيل قوص؛ كان يجوزُ (4) بالمكتب فِي يوم مولده عليه السلام فيقول: يا فقيه

---

(1) من الآية 64 من سورة المؤمنون.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين (ص/ 518-519).

(3) نسبة إلَى بلد أدفو فِي صعيد مصر، توفِّي سنة [748هـ] تنظر ترجمته فِي: الدرر الكامنة لابن حجر (2/ 86) وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (6/ 153) والأعلام للزركلي (2/ 122-123).

(4) وقد نقل الأستاذ محمد المنونِي فِي كتابه: ورقات عن حضارة المرينيين (ص/ 583 هامش- 100) هذا النقل من الطالع السعيد (ص/ 163) قائلاً: «إن أبا الطيب كان يجتاز بالفقيه عثمان باليوم الذي

هذا يوم سرور؛ اصرف الصبيان؛ فيصرفنا..[1]».

وهذه العادة الحسنة التِي سَنَّهَا أبو العباس العزفِي -أعنِي تعطيل قراءة الصبيان يوم المولد- ما زالت منتشرة فِي المغرب، وترَسَّخَت فيه عَمَلِيّاً منذ ذلك الحين إلَى الآن، وخاصة عند الناشئة وطلاب العلم حتى غدت من الأعراف المتبعة فِي الكتاتيب القرآنية، والتقاليد المَرْعِيَّة فِي المَدَارِس العلمية العتيقة، بل تحولت بِحُكم تقادم الأزمان، وانصرام الأعصار؛ لِتصبح من أهم المناسبات الدينية والوطنية.

وعن ذلك يقول الدكتور عبد الهادي التازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَم تلبث هذه المناسبة أن أصبحت فِي عداد الأيام التِي تحتفل بها الدولة على المستوى الرسمي فِي سائر الجهات المشمولة بحكم بنِي مرين، سواء فِي بلاد المغرب، أو الأندلس، وهكذا وجدنا السلطان أبا يعقوب يوسف يصدر ظهيراً [مرسوماً ملكياً] شتاء [691هـ]..[2]» فأصبح منذ ذلك الحين الاحتفال بالمولد النبوي عيداً رسمياً للمغاربة.

أول من احتفل بالمولد النبوي فِي المغرب :

إذا كان أبو العباس السبتِي له ولع خاص بالاحتفال وشغف كبير بالمولد حتى أَلَّف فيه تأليفاً مُستقِلاً؛ فإنه- حسب المصادر التاريخية- لَم يحتفل به فِي عصره بالْهَيئة المعهودة اليوم، أو على الأقل بالطريقة والكيفية التِي كان يَوَدُّ أن يكون به؛ وإنما تَأَتَّى ذلك لابنه أبِي القاسم حين شاءت الأقدار أن يتولَّى إمارةَ سبتة، فاجتمعت

فيه مولده ﷺ فيقول يا فقيه إلخ...» . ويظهر أن السيوطي رواها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمعنَى، ولَم ينقل تلك الفقرة كما هي فِي الأصل !

(1) حُسن المقصد فِي عمل المولد لجلال الدين السيوطي(ص/ 66 –67) تحقيق عبد القادر عطا نشر دار الكتب العلمية بيروت/ 1985.

(2) من مقال للدكتور عبد الهادي التازي تحت عنوان: **"الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام"** منشور بمجلة دعوة الحق عدد [227] (ص/ 162) الصادر فِي جمادى الأولَى 1403 الموافق لسنة 1983.

له بذلك السلطة السياسية والدينية واستطاع بهما أن ينفذ وصية أبيه، فاحتفل فِي هذه المدينة سبتة المحبوبة الـمَسْلُوبة -أعادها الله إلينا بفضله وكرمه- بأول ذكرى للمولد الشريف فِي المغرب بعد إمارته على تلك المدينة سنة [648هـ] واستمر على ذلك إلَى أن وافته المنية سنة [677هـ].

وبعد مرور أربعة عقود أو تزيد من تاريخ هذا الاحتفال؛ احتفل السلطان يوسف المرينِي بأول احتفال رسمي بالمولد الشريف، وعن هذا يقول المؤرخ أحمد الناصري فِي كتابه الاستقصا: «وَفِي سنة إحدى وتِسعين وسِتمائة؛ أَمر السلطان يوسف بن يعْقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه، والاحتفال له، وصيَّرَهُ عيداً من الأعياد فِي جميع بِلاده، وذلك فِي شهر ربيع الأول من السّنة المذكورة..[1]».

وهكذا بقي ملوك وسلاطين الدولة المرينية يحتفلون بمولده الشريف خلفًا عن سلف، ويبالغون فِي تعظيمه، فدونك قول صاحب سلوة الأنفاس فِي ترجمة السلطان أبي عنان فارس بن أَبِي الحسن بن أَبِي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينِي المتوفَّى سنة [759هـ]: «ويحتفل بالمولد النبوي احتفالاً عظيمًا..[2]» واستمر ذلك فِي سلاطين الأشراف المرينيين جيلاً عن جيل؛ حتى انتقَلَت مجموعة من عوائد ذلك الاحتفال من المغرب إلَى الأندلس، وقد لاحظ العلامة ابن خلدون ذلك التأثر، فقال لَما حضر المولد عند أحد ملوك الأندلس: «ثُم حضرت ليلة المولد النبوي الخامسة، وكان يحتفل فِي الصنيع فيها، والدعوة، وإنشاد الشعر، اقتداء بملوك المغرب..[3]».

(1) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى(3/ 90) تحقيق جعفر ومحمد الناصريَيْن دار الكتاب الدار البيضاء، طبع دون تاريخ.

(2) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس (3/ 225).

(3) تاريخ ابن خلدون (7/ 551) تحقيق خليل شحادة نشر دار الفكر بيروت الطبعة الثانية/ 1988.

وقد أجمع المؤرخون على أن الإمام أبا العباس العزفِي أول من قام بالمولد الشريف فِي المغرب، وإلَى ذلك يشير المقَّرِي فِي "أزهار الرياض" بقوله: «العزفِي صاحب سبتة هو الذي سَنَّ ذلك فِي بلاد المغرب، وأتى بزلفى تدنيه إلَى الله وتقربه، واقتفى الناس سننه، وتقلدوا مننه تعظيمًا للجانب الذي له السمو والعلو..[1]» بل تجاوز المغاربة ذلكم الاعتياد؛ حين جعلوا هذه المناسبة الشريفة ثابتًا من ثوابتهم الدينية، وشعاراً من شعاراتهم الوطنية.

طريقة احتفال الأمير أبِي القاسم السبتي :

وصف ابن عذارى احتفال أمير سبتة أبِي القاسم العزفِي قائلاً: «ومن مآثره العظام قيامه بمولد النبِي ﷺ من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألْوَانَ الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنائع والحوانيت، يمشون في الأزقة يُصَلُّون على النبِي ﷺ وفِي طول اليوم المذكور يُسَمِّعُ المُسَمِّعُون بجميع أهل البلد مدح النبِي ﷺ بالفرح والسرور، والإطعام، للخاص والعام، جَارٍ ذلك على الدَّوَام، فِي كل عام من الأعْوَام..[2]».

وقد تَجاوز أمر الاحتفال بالمولد النطاق الجغرافِي لسبتة إلَى حد انتشاره بالمغرب كلِّه؛ حين أهدى أبو القاسم المذكور للخليفة الموحدي كتاب والده: "الدر المنظم" طالبًا منه أن يَسُنَّ هذه السُّنة الحسنة، فصار الخليفة المرتضى يقوم بإحياء ليلة المولد النبوي بمراكش، ويحتفل بها احتفالاً كبيراً، فانتشرت هذه العادة الحميدة فِي كل الأقطار، واستحسنها مَنْ بعْدَهُ مِن ذوي الأبصَار، ولَم يختلف أهلُ العلم الحُذَّاقُ والراسخون فِي ذلك الاحتفال على مدى الأعْصَار، لذا اتصل استحسان المغاربة وجرى عرفهم عليه جيلاً عن جيل إلَى الآن فِي كل المداشر والأمصار.

---

(1) أزهار الرياض(1/ 536) منشورات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي في حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية.

(2) البيان المعرب فِي أخبار الأندلس والمغرب (3/ 401) نشر دار الثقافة بيروت/ 1980.

والجدير بالذكر أن المملكة المغربية الشريفة هي السباقة تاريخياً إلَى استحداث هذه السُّنة الحسنة فِي الغرب الإسلامي، فنبتت فِي المغرب أصول تلكم الشجرة الطيبة الباسقة لتُخرج أغصانها المليئة بالثمرات، وفروعها العامرة بالخيرات إلَى ما وراء حدوده، وبعد بُدُوِّ الصلاح: بدأ من هم خارج الحديقة كغرناطة، وإشبيلية، وقرطبة، ونواحيها، والجزائر، وطرابلس الغرب، وتونس وما والاها، والسنغال، ومالِي، والنيجر، والسودان وما وراءها؛ يَجنون الثمار، ورغم كثرة القاطفين؛ لا تنتهي ثمارها، وكأنها توتِي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولو أردنا أن نُطْلِق على أصل تلك الشجرة اسْماً محدداً؛ لوجب أن نسميه: أبا العباس العزفِي، نعم أبو العباس العزفِي؛ أول من استحدث المولد الشريف بالمغرب، وأشهر شرفائه، وكبار صلحائه، وخير من يصدق فيهم قولهﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده..[1]» الحديث.

وبهذا تكون ذكرى المولد النبوي بالمغرب فِي هذا العام [1439] من هجرة المصطفى ﷺ قد استكملتْ منذ استحداثها فِي سبتة؛ سبعَمائةٍ وواحد وتسعين سنة [791] وستصادف -إن أطال الله بقاء عمر هذه الأمة- بحلول سنة [1648هـ] الذكرى الألفية الرسمية للمولد النبوي الشريف[2] تحقيقاً لقولهﷺ: «لا يزال أهل المغرب[3] ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[4]».

---

(1) جزء من حديث رواه مسلم فِي كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلَى هدى أو ضلالة تحت رقم [1017].

(2) وأقصد بالذكرى الألفية؛ بداية تاريخ استحداث الاحتفال بالمغرب، لا تاريخ ولادة الرسول ﷺ كما هو ظاهر.

(3) للوقوف على حقيقة لفظ المغرب فِي الحديث ينظر المسالك لابن العربِي (5/ 24 هامش-3). وكذا المفهم للقرطبِي (3/ 764).

(4) أخرجه بهذا اللفظ أبو عوانة فِي مستخرجه (5/ 474) تحت رقم [7955] وأبو عمرو الدانِي فِي السنن الواردة فِي الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها (3/ 740) تحت رقم [362] وأبو نعيم فِي الحلية (3/ 95).

وليس سِرّاً إن بُحْت بأن قلمي قد عَجَزَ الآن عن الكتابة؛ لأنِّي تخيلت ذلكم العدد الهائل من الاحتفالات الذائعة فِي كل مصر، وتلكم المجالس الكثيرة التِي لا تدخل تحت حصر، فقلت مع نفسي والقُشَعْرِيرَةُ غمرت جسمي: تُرَى كم صُرِفَ من الخيرات والنعم فِي تلك المجالس؟ وكم من فقير، ومِسْكِينٍ، أُغْدِقَ عليه فِي مولدهﷺ بالإكرام والصدقات؟ وكم من صالِح، ونَاسِكٍ، وعابد، فضلاً عن الفقهاء، والعلماء، وعامة الناس؛ غرِقُوا فِي ذلك اليومِ فِي أنواع المبرات والطاعات؟ وطوبَى لمن استُجِيبَتْ لهم الدعوات، وسَبَّبُوا فِي صَرِيرِ أقلام الملائكة لتسجيل تلك الحسنات.

بل نتجاوز كل تلكم النفحات؛ لنذكر بعض ما جرى لأبِي لهب عم صاحب المعجزات، عندما تَلَقَّى أعظم المبشرات، فَأَعْتَقَ ثُوَيْبَةَ سُرُوراً بمولد خاتِم الرسالات، فَيُخَفِّفُ عنه عذاب النار فِي ذلك اليوم[1] والقصة ثابتة فِي صحيح البخاري وإن كانت من الـمُعلقات[2] وإياك أن تغتر بمن أدخلها فِي الضعيفات؛ أو المرسلات، لأن الحافظ ابن حجر؛ وَصَلَ أسانيد كل تلك المعلقات، فإذا هي كلها صحيحات، فتجاوزت بذلك أحاديث الصحيحين القنطرة كما قال الـحُفَّاظ الثقات، ومن بعضها استخرج العلماء استحسان المولد كما سيتبين فِي قسم التأْصِيلات، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.



(1) فِي كل اثنين يوم مولده ﷺ.

(2) صحيح البخاري كتاب النكاح باب: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ رقم الحديث [5101] وانظر كذلك متن البخاري بحاشية السندي (3/ 243) دار صعب بيروت د.ت.

المبحث الثانِي : الاحتفال بالمولد النبوي فِي المغرب من حاضرة سبتة إلَى أعماق سوس:

لا شك أن عادات احتفال السوسيين بالمولد النبوي تشكلت عبر قرون عديدة بفضل التأثير والتأثر بين مختلف القبائل المغربية؛ غير أنه لحد الآن لا يُعْرف كيف دخل المولد النبوي لسوس، وكيف كان أجدادنا فِي القرنين الثامن والتاسع يحتفلون[1] على ما بأيدي الناس اليوم من مصادر تاريخية؛ لكن بعد البحث عن أصول ذلك؛ أفضى إلَى الوقوف على أقدم نص فِي أوائل القرن العاشر يتحدث عن اجتماع أهل جزولة قاطبة فِي شهر ربيع الأول فِي سوق كبير يضم جميع القبائل.

وأعنِي به؛ ما أشار إليه الحسن الوزان فِي كتابه: "وصف إفريقيا" فقد ذكر هناك طبائع أهل جزولة، ووسائل عيشهم، وتقاليدهم، ثُم عرج على وصف سوق كبير يستمر شهرين، ويقدَّم فيه للغرباء الطعام مجانـًا، ولو بلغ عددهم عشرة آلاف: «ويبتدئ ذلك السوق يوم المولد النبوي؛ الذي هو الثانِي عشر من ربيع الأول، ثالث أشهر السنة العربية فِي حسابهم[2] وقد ذهبت إلَى هذا السوق مع الأمير الشريف السعدي، وأقمت فيه خمسة عشر يومـًا للنزهة سنة 920هـ..[3]».

ولَم يزد ليون الإفريقي تفاصيل أخرى على ذلك، ولا أشار إلَى عوائد الذين حل بين أظهرهم يوم العيد، مع العلم أن الحروب تضع أوزارها بين القبائل طيلة تلك الفترة، ويشيع الأمن والهدوء إلَى نهاية موسم عيد المولد، ويتبين من ظاهر رواية الحسن الوزان؛ أن بلاد جزولة على طولها، وشساعة أطرافها تجتمع فِي ذلك الموسم، وربما أقيمت فيه بعض عوائد الاحتفال بالمولد، ومن ثَم انتقلت تلك

---

(1) هذا على تقدير أنهم كانوا يحتفلون بالمولد النبوي فِي ذلك الوقت.

(2) يوجد خلاف كبير بين المؤرخين حول تَنَصُّر الحسن الوزان من عدمه قال محققا الكتاب مدافعين عن إسلامه: «كلما تَحَدَّث المؤلف عن عادة، أو عيد، أو غير ذلك مما يخص المسلمين نسبه إلَى نفسه مع جماعة المسلمين قائلاً عندنا، وهذا فِي الكتاب كثير..» انظر وصف إفريقيا مقدمة المحققين (1/ 11) **قلت**: إطلاق الكلام على عموم الأعياد فيه نظر؛ لأنه قال هنا: «فِي حسابهم..» إشارة إلَى المسلمين أو العرب، وعلى كلا التقديرين فيه دليل على أنه لَم يكن مسلمـًا؛ لأنه أخرج نفسه منهم.

(3) وصف إفريقيا (1/ 146).

الأعراف إلَى الزوايا، والمدارس العلمية الكبيرة، كمدرسة تفراوت التِي اشتهرت منذ نشأتها فِي أواسط القرن العاشر الهجري وإلَى الآن بـ: "تفراوت الملود" ويرجع شرف تلك التسمية حسب صاحب كتاب: "منار السعود" إلَى أنها «أول مكان أُقِيم فيه الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف فِي إِدَاوْلْتِيتْ كلها.. ولا نستبعد أن يكون ذلك فِي أواسط القرن العاشر الهجري..[1]».

أما أول احتفال بذكرى مولده ﷺ بجزولة؛ فأعتقد أنه هو ذلك المكان الذي ذكره الوزان، وقد يُعَكِّر على ذلك ظهور أول احتفال رسمي بالمولد النبوي بمراكش منذ سنة 691هـ وتم تعميمه فِي سائر أنحاء المغرب، وسيأتِي احتفال الولية الصالحة للاَّعزيزة به بشيشاوة -أي: أقصى الجنوب الشرقي لمراكش فِي أوائل النصف الأخير من القرن الثامن الهجري- وربما تسرَّبت آثار بعض تلك الاحتفالات إلَى أعماق سوس جنوباً بحكم التواصل الحضاري، والتمازج بين العرب والأمازيغ، والتأثر بمظاهر تقاليد القبائل الأخرى، لاسيما في أواخر العصر المريني، وأوائل الحكم الوطاسي.

ابن الوقاد التلمسانِي أول من احتفل بالمولد بتارودانت:

أجمع المؤرخون والمترجمون؛ أن أبا عبد الله ابن الوقاد [ت 1001هـ] هو أول من احتفل بالمولد بجزولة، قال عنه تلميذه أبو زيد التمنارتِي عاطفاً على جملة من محاسنه: «وهو أول من أحيا بهذه الحاضرة[2] ليلة مولد رسول الله ﷺ باجتماع الناس فِي منزله، وقراءة قصائد مدحه ﷺ والأناشيد بها، وكان ينفق فِي ذلك نفقة عظيمة، وله صبابة، ورقة، وشوق إلَى ذلك المعنَى..[3]».

ظاهر هذا النص يفيد بأن سوس بدأ فيها الاحتفال بالمولد النبوي عن طريق

(1) منار السعود عن تفراوت الملود ومدرستها العتيقة (ص/ 277) للفقيه أيت بومهاوت امحمد الوسخيني الطبعة الأولَى/ 1994.

(2) يريد مدينة تارودانت.

(3) الفوائد الجمة فِي إسناد علوم الأمة لأبِي زيد عبد الرحمن التمنارتِي (ص/ 87) تحقيق الدكتور اليزيد الراضي، نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية/ 2007.

الخواص فِي منازلهم، مما يدل على وقوع هذا النوع من الاحتفال فِي العقود الأخيرة من القرن العاشر؛ لأن ابن الوقاد خرج من تارودانت زمناً إلَى سجلماسة وأقام بها مدة، ثُم انتقل لمكناسة، ثُم انتهى لفاس، وكل هذه المواطن الثلاثة مكث فِي كل منها وقتاً غير يسير، وتولَّى فيها مهمة القضاء، وتصدى للفتيا، وتصدر للتدريس، ومارس الخطابة حيناً من الدهر، ثُم رجع بعد صولات وجولات لتارودانت.

ولا يبعد أن يكون استقراره النهائِي فِي تارودانت آيلاً إلَى التفكير فِي إقامة المولد الشريف فيها، تأثراً بتلك الأماكن التِي قضى فيها ما قضى، لأن الاحتفال بالمولد كان وقتها يروج فِي تلك المدن، كسجلماسة، وفاس، وأحوازهما، نشره فيها أحفاد آل العزفِي، ويقيمه كذلك الصلحاء في زواياهم المنتشرة بتلك النواحي، وترسخ ترسيمه أكثر عن طريق سلاطين المرينيين، ومن ثَم أدخل ابن الوقاد هذه العادة الحسنة إلَى رودانة فِي العقدين الأخيرين من القرن العاشر، لأن طبعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ميال إلَى الكرم، والإحسان، والتكفل بالضعفاء وإطعامهم، وتعظيم الجناب النبوي، ويؤيد ذلك وصف تلميذه التمنارتِي لمنزله بقوله: «داره حرم ومأوى للأرامل، والأيتام، والغرباء، وطلبة العلم، وكان لا يبالِي بالدنيا، ولا يستقر بيده شيء منها..[1]».

اعتراض وجوابه:

تقدم قول الفقيه أيت بومهاوت فِي سبق "تافروات الملود" بالاحتفال بالمولد النبوي بما نصه: «ولا نستبعد أن يكون ذلك فِي أواسط القرن العاشر الهجري..[2]» وقد يعترض عليه معترض فيقول محتجاً: إن قوله ذاك قد يكون معارضاً بسبق ابن الوقاد بالاحتفال بالمولد؛ أو اتفاقهما على الأقل، لكن على كلا التقديرين يصير ذلك الخلاف وفاقاً؛ لأن الفقيه بومهاوت قَيَّد مكان الاحتفال بإداولتيت، وابن الوقاد احتفل بمنزله بتارودانت، فيزول ذلك التعارض، لأن المكانين منفصلان ومختلفان، ولو اتحدا لصح الاعتراض، لكن مناط الإشكال أن الكثيرين ظنوا أن الفقيه بومهاوت أطلق القول فِي سوس كلها، والحال أنه خصَّصَه بإداولتيت، والشيء نفسه يصدق

(1) الفوائد الجمة فِي إسناد علماء الأمة (ص/ 86).

(2) منار السعود (ص/ 277).

على سبق العلامة ابن الوقاد بالاحتفال بالمولد بتارودانت خاصة، لا سوس عامة، فأطلق هؤلاء القول فِي موضع التقييد، وعمموه فِي محل الخصوص.

وبعد بزوغ القرن الحادي عشر؛ بدأت تلوح في الأفق بعض الإشارات حول الاحتفال بالمولد، كعقد مجالس رسمية للمولد الشريف فِي عهد الأمير بودميعة بإيليغ، وعنها يقول مؤرخ سوس في كتابه "سوس العالمة":« ففي أول يوم بويع فيه علي بودميعة [1021هـ] رأينا الشاعر أمحَّاولو الإيسي قام بقصيدة يلقيها على مسامع الحاضرين، فيها الإشادة بالأمير الجديد.. ثُم يخلفه فيه ولده أحمد وهو شاعر أيضاً، كما رأينا أحمد بن مُحمد الشاعر التاغاتيني يستقدم إلَى إيليغ، ويؤمر بِملازمة الحضرة، ثُم لَحق الشاعر مُحمد بن الْحَسن اللكوسي المانوزي بإيليغ، وبَيْن يدي نَجواه قصيدة عينية، ثُم هناك من بَيْن قضاة الجماعة الشعراء، والأدباء.. ويقولون فيه أمداحاً خاصة، ويقولون فِي رثائه بعد وفاته، ويقولون فِي ليالِي المولد النبوي، فتعارض قصيدة الفشتالِي النونية النبوية بلسان أحد شعراء الشباب..[1]».

العلامة عبد الرحمان التمنارتِي والاحتفال الرسمي بالمولد بتارودانت:

لا غرو أن بعض الإشارات الخاطفة تَظهَرُ فِي بعض المصنفات السوسية حول الاحتفال بالمولد النبوي فِي بداية القرن الحادي عشر، من ذلك استشكال أبِي زيد التمنارتِي [ت1060هـ] تسريح الصبيان فِي الأعياد قائلاً: «وأما عاشوراء ومولده ﷺ فلم أقف فيهما الآن على شيء، وقد جرت العادة فيما بلغ علمنا من هذه البلاد بالتسريح اليسير الذي لا يبلغ التسريح فِي العيدين فيهما، والتسريح فِي مولده ﷺ أوسع منه فِي عاشوراء؛ لاختصاصه بمزيد فرح وسرور، لا سيما فِي الحواضر، وأهل العلم والصلاح فيها متوافرون، والأمة لا تجتمع على ضلالة..[2]».

ويفهم من ظاهر كلام أبي زيد؛ أن اشتهار العرف بتسريح الصبية في المولد الشريف؛ فيه دليل على احتفال أهل سوس بالمولد قبل التمنارتِي بمديد الأزمان،

---

(1) سوس العالمة (ص/ 63) نشر مؤسسة بنميد للطباعة والنشر الدار البيضاء/ 1984.

(2) الفوائد الجمة فِي إسناد علوم الأمة لأبِي زيد عبد الرحمن التمنارتِي (ص/ 508).

لأن جريان العرف بالتسريح؛ لا يشتهر عادة إلا بعد مضي الأعوام، وانصرام الأعصار، ولا يبعد أن يكون لذلك التقليد تاريخ قديم جداً دأب عليه السوسيون فِي أعياد المولد الشريف منذ القرن التاسع الهجري، أو الثامن، وليس بغريب أن يكون كما قال التمنارتِي: "جرت عليه العادة" بحكم كثرة الممارسة العملية؛ ولا يكتفون باتخاذه عطلة فقط، بل سيحتفلون به كسائر الأمصار والمدائن المغربية.

ولئن كانت هذه الإشارات والتأويلات تجري مجرى الشكوك والظنون؛ فإن الأحداث الحقيقية التِي وقعت فِي عصر التمنارتِي هي إصابته بالعمى فِي محرم سنة [1014هـ] فنظم قصيدة توسل بها للمصطفى ﷺ ليلة المولد، فعوفِي من مرضه، وقال بعدها: «ولما تبدلت لِي بهذه الوسيلة بشائر الفرح، ونفخت عليَّ بسببها نفحات الأرج، أضفت إليها هذه القصيدة فِي مدح رسول الله ﷺ فِي مولده من ربيع الأول من العام المذكور..[1]».

ويظهر أن التمنارتِي شغوف بمحبة المصطفى ﷺ مُواظب على إلقاء القصائد النبوية فِي كل مولد، لكنه للأسف لَم يشر إلَى كل تلك الموالد التِي حضرها، ولا ندري ما إذا كانت منقطعة بسبب تكاثر الفتن، والتصارع على السلطنة فِي تارودانت؟ أم أنه غفل عن ذكرها؟ لأننِي تتبعت كتابه: "الفوائد الجمة" فوجدته ضرب صفحاً عن أعوام كثيرة، إلَى أن قال: «وفِي سنة [1029هـ] استدعى الأمير أبو زكرياء من الطلبة قصائد تعرض عليه فِي ميلاده فرفعت إليه هذه..[2]» وهي ميمية فِي بحر الطويل فِي 60 بيتاً[3] ومنها:

ومولد خير العالمين ولحده ❁ عليهن من رب السلام سلام

وهذا يدل على أن مجالس المولد كان يشرف عليها وقتها الرؤساء، ويُستدعى إليها الشعراء الكبار لإلقاء القصائد، والأنظام حول جنابه الشريف، والتنافس في

---

(1) الفوائد الجمة فِي إسناد علوم الأمة للتمنارتي (ص/ 321).

(2) الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 367) وربما سقط شيء هنا من النص الأصلي؛ لأن السياق مضطرب.

(3) نفسه (ص/ 368-375).

بيان هديهﷺ فِي أخلاقه وتعامله وسائر تفاصيل سيرته، وتكاد هذه المجالس تشبه مجالس سلاطين الموحدين، والمرينيين، علماً بأن مجالس المولد لأمراء رودانة كيحيى الحاحي، والأمير بودميعة، وآل سعيد بن عبد المنعم الخاصة بإحياء عيد المولد النبوي الشريف بالجنوب المغربي؛ هي التي رسخت انتشار الاحتفال بالمولد النبوي في سوس، نعم قد تكون هناك مجالس لسلاطين الأشراف السعديين الأوائل؛ لكن تفاصيلها لا تسعفنا بها المصادر التاريخية.

قال صاحب "الفوائد الجمة" مبيناً أحد هذه المجالس: «وفِي سنة [1034هـ] استدعى شيخنا أبو الفضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطلبة أن يرفعوا إليه القصائد فِي موسمها الميلادي، فرَفَعْتُ إليه هذه المنظومة..[1]» وهي دالية فِي 43 بيتاً من الطويل[2] وظاهر كلام التمنارتِي يوحي بأنه يقصد يحيى الحاحي -الذي استقل بأمر رودانة- عندما خاطبه فِي أحد أبيات تلك القصيدة بقوله:

وكن لأمير المؤمنين بها رِداً ۞ أبا الفضل صدراً فِي الأمور وموردا

وأبو زيد التمنارتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان وقْتَ إلقائه هذه القصيدة بين يدي يحيى الحاحي معزولاً عن القضاء، بسبب خلافٍ حاد وقع بينهما حول أحباس مدينة رودانة، لأن الإشراف عليها وتدبير شؤونها موكول للقضاة، فأراد الحاحي -الذي تسلطن على المدينة- أن يدفعها له القاضي لتقوية جيوشه، لِيُحَوِّل منافعها إلَى غير مصارفها، وعلى خلاف مقاصدها، فأبى التمنارتِي ذلك، وكان له بالمرصاد، فوقعت بينهم وحشة عظيمة؛ أوجبت أن يعزله يحيى، وذلك حوالَى سنة 1031هـ[3].

ويظهر أن الاحتفال بالمولد النبوي بتارودانت كانت تطغى عليه المجالس الرسمية، ويُستدعى إليها الشعراء والمداحون، ومن الطريف أن بعض الطلبة والمتدربين على الأشعار يحشرون أنفسهم مع كبار مشاهير شعراء حاشية السلطان

---

(1) الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 375).

(2) ينظر: الفوائد الجمة (ص/ 375-376-377-378).

(3) الفوائد الجمة (ص/ 365). وانظر كذلك (ص/ 27 هامش- 77).

فيُلقـون بـدورهم قصـائد، وينافسـون الكبـار، ممـا حـذا بـبعض الحـذاق إلَـى توجيـه انتقـادات لاذعـة لبعضـهم، لأن أشـعارهم مهلهلـة مـع مـا يعتريهـا مـن ركاكـة فِـي الأسلوب، وكسور فِي الوزن، وقصور فِي النظم، وفِي هـذا يقـول التمنارتِي:« وعـاب بعض الطلبة لبعضهم قصيدته لقصورها عن مدارك العربية لغة، ونحواً، ووزنـًا، فشكا ذلـك إلَـيَّ..[1]» فكتـب لـه التمنـارتِي قصـيدة ميميـة موصـولة مـن الطويـل فِـي عشـر أبيات[2] وكأنه لا يرى بأسـًا بوقوع اللحن فيها، فنصحه ألاّ يُكثر فِيه بقوله:

فلا تكثرن باللحن فِي مدح أحمد ۞ فمـدحك مقبـول لديـه نظامـه

ويبدو أن اللحن فِي الأمداح النبوية بدأ يتنامى منذ عصر الوطاسيين حتى أصبح ظاهرة فِي المجالس الرسمية على عهد الدولة السعدية، قـال مـؤرخ دولـة الأشـراف؛ الأديب البليغ أبو فارس الفشتالِي فِي معرض ذكـره لتسامح السـلاطين لـرديء الشـعر فِي المجالس المولدية ما نصه: «وكان الخلفاء رضـوان الله علـيهم يتسـاهلون في اتبـاع الغث الذي يلهج به من ذلك العوام المتشاعرون بما يلفقون سفساف القـول، وسـافل الكـلام المصـقول بشـرك القافيـة الواهيـة، والـوزن الخـارج عـن نسـب الاجـادة، ومصطلح الأوزان العروضية..[3]».

ولا شك أن شعراء سوس تأثروا فِي أمداحهم بكثير من المصادر المهمة فِي السيرة النبوية كحديث أم معبد فِي الأوصاف الحسية للرسـول ﷺ وشـعر حسـان بـن ثابـت، وقصيدتَي البردة والهمزية للبوصـيري، ومن هذه المنـابع اسـتقى الشـعراء السوسـيون أصول الأمـداح النبوية، وأكثروا منها إكثاراً جعل بعـض المعاصـرين يقـول: «وأعتقـد أنـه لا يوجـد شـاعر فِـي سـوس لَـم يقـل شـعراً فِـي مـدح الرسـول ﷺ لشـدة تشـبثهم

(1) الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 378).
(2) انظرها إن شئت فِي الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 378).
(3) مناهل الصفا فِي مآثر موالينا الشرفاء لأبِي فـارس الفشـتالِي (ص/ 237-238) بتصـرف يسير تحقيـق عبد الكريم كريم مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة طبع دون تاريخ.

بالإسلام، وقوة تغلغلهم بالرسول ﷺ وتفانيهم فِي حبه، وحب آل بيته..[1]».

ومن روائع الفرح عند الفقهاء والشعراء؛ أنهم يطلقون على القصائد التِي قيلت فِي مدح المتوفَّى رثاء؛ خلافاً لما نُظِم في مولده، ووفاته معاً عليه السلام يسمى مدحاً لا رثاء، لأن الوصف الأول يُذَكّر بالحزن، والضيق، وتعكير الخاطر؛ بخلاف الوصف الثانِي؛ فهو يجدد الفرح، ويدخل السرور، ويشيع الحبور.

وصفوة القول أن ابن الوقاد وإن بانت أوليته فِي الاحتفال بالمولد بتارودانت؛ فإنه خفي متى قام بذلك بالتحديد، مثله فِي ذلك مَثَل أخبار تلميذه التمنارتِي، حيث ما زال الغموض يلف حضوره فِي كثير من الاحتفالات الرسمية للمولد؛ وإلا فقد وصف لنا أربع مولديات حضر فيها فقط[2] فِي حياته كلها، وعرض فِي كتابه "الفوائد الجمة" القصائد التِي أنشدها فيها بطولها، وترك العشرات من المجالس لَم يذكرها، ولا أشار إليها.

وهذا القصور فِي بيان أحداث احتفال السوسيين بالمولد وبسط وقائعه، قبل التمنارتِي وبعده؛ مرده ضعف السوسيين فِي علم التاريخ، وعدم اهتمامهم به، ولعل أبا زيد نفسه أحس بذلك لما قال:« وهذا الفن لَم أر له فِي بلادنا السوسية مع تقادم الأجيال وتوافر الرجال ذاكراً، ولا سنح لِي مِن خَلَفِهم مَن رسم فِي سلف أفاضلهم أولاً ولا آخراً..[3]» وهذا أول انتقاد وُجِّه للسوسيين فِي عدم اعتنائهم بتاريخهم.

وبعد هذه الفترة بقليل؛ ذكر المختار السوسي قصيدة مولدية رائقة -رفعت فِي بعض المجالس المولدية- فِي ترجمة الشيخ سيدي سعيد بن محمد العباسي

---

(1) ديوان الحسن البونعمانِي للحسين أفا (ص/ 114) منشورات كلية الآداب الرباط مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولَى/ 1996.

(2) انظر كذلك الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 397-398).

(3) الفوائد الجمة للتمنارتِي (ص/ 67).

السملالِي:[1] تلاها فِي بلاط إيليغ، فقال ما نصه: «وسترى ما يدل على أنه قالها فِي حفلة نبوية أقيمتْ فِي بلاط إيليغ؛ إما فِي عصر علي أبو دميعة وإما فِي عصر ولده محمد، قبل أن يدب إليه من المولَى الرشيد من خرَّب عليه وعلى حزبه السقف..[2]» ثُم نقل تلك القصيدة الرائعة بطولها، فلينظرها من شاء فِي محلها.

فلو لَم يستدرك المختار السوسي فِي تاريخ سوس ما استدرك؛ لأصبح تراثنا في خبر كان، وهذه طبيعة منغرسة فِي المغاربة جميعـًا؛ لا سوس وحدها، وقد تأسّف صاحب المعسول على ضياع أخبار بعض العلماء العباقرة فقال عاطفـًا على تأسفه: «كما انمحت من آلاف مؤلّفة من أمثاله فِي المغرب الذي عشَّشَ فيه التفريط وفَرَّخَ، وبَذَّ فيه سكانُه جميعَ سكانِ الكرة الأرضية، وما أضيع أمة أضاعت تاريخها..[3]».

وزاد معاصره المسند عبد الحي الكتانِي على ذلكم المعنَى نفسه، فِي ترجمة العلامة المعمر؛ أبي محمد يحيى البكري الجراري؛ فقال: «ولكن الإهمال مغربِي، ففي المغرب الأقصى ولد، وباض، وفرخ، وتناسل، وتكاثر، فلا يدل إهمالهم لشيء على عدم وجوده..[4]» وذكر ذلك؛ لما أهمل المترجمون التعريف به، سيما بكتابه: "ضوء المصباح فِي الأسانيد الصحاح"[5].

لكن السؤال الذي يبقى عالقـًا هو: ترى متى احتُفل بأول ذكرى المولد النبوي فِي سوس؟ ومن أدخله إليه؟ ولعلنا نرجئ الجواب عنه إلَى وقت لاحق؛ أما الآن فيتعذر الخوض فيه ولو من باب الرجم بالغيب؛ لأن الأدلة حوله ضنينة جداً، اللهم إذا أردنا أن نقوم بتأويلات وتساؤلات قد لا تخلو من تكلف؛ من قبيل:

---

(1) ابن العلامة محمد العباسي المصنف البارع، ترجمه الحضيكي في الطبقات، وذكر أنه توفِّي سنة [1074هـ] (1/ 73).

(2) المعسول (18/ 409) نشر مطبعة النجاح الطبعة الأولى/ 1380 هـ.

(3) المعسول (18/ 148) وكذا (18/ 144) أفادنِي بهذا النقل سيدي إبراهيم بن صالح الإلغي.

(4) فهرس الفهارس (2/ 719).

(5) وأشتغل فِي تحقيقه بمعية بعض أصدقائنا.

هل الاحتفال بالمولد النبوي بسوس آتٍ من مراكش أو من الصحراء؟

ساد اعتقاد كثيرين أن تسَرّبات المولد النبوي بسوس جاء من مراكش أيام كانت الدولة المرينية تحتفل به، وتأمر ولاتها على الحواضر الكبرى أن يحتفلوا به، ومن ثَم شاع فِي عدد من الأصقاع بالمغرب، غير أن سوس -وبحكم قربها من مراكش- تأخر ظهور الاحتفال بالمولد فيها إلَى أواسط القرن العاشر الهجري.

وتكاد لا تجد إشارة أو نقلاً حول احتفال السوسيين بالمولد على طول القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وإن تعجب فعجب احتفال أهل "أسا" بالمولد قبل انصرام العقد الثالث من القرن الثامن الهجري، مما يدل على سبقهم أهل سوسَ بالاحتفال بالمولد، مع أن المنطق يستوجب أن تكون سوس صلة وصل لنقل أعراف المولد وتقاليده من مراكش إلَى الجنوب المغربِي، نعم قد تكون هناك احتفالات أهل سوس بالمولد فطمسها التاريخ، واندرست معالمها، لقلة من يهتم بمثل تلك الأخبار فِي تلك الفترة عند السوسيين.

جاء فِي آخر ترجمة الولِي الصالح سيدي يعزى ويهدى المتوفَّى سنة [726هـ] من "المعسول" ما نصه: «وأما البلدُ الذي مات فيه أبو يَعْزَى فإنه مات فِي وسط الزاوية فِي بلد أسا، ودُفن فِي بقعةِ خَلوته هنَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأما مدةُ عمره فاثْنَتَان وثمانون سنة، وقد توفِّي أول ربيع الأول عام ستٍّ وعشرين وسبع مائة، عند ضحى يوم الجمعة، ثُم صلى عليه من الخلائق من لا يحصي عددهم إلا الله، [واتخذ الفقراءُ بعده ذلك اليومَ موسمَ رباطه، وهو اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول، ويجتمع فيه الفقراء والصالحون، ويخفى الخاصة بين العامة سوى الظاهرين للخلائق، وهم مشهورون][1] فِي كل قرن..[2]».

---

(1) ما بين القوسين نقله المختار السوسي من "بشارة الزائرين الباحثين فِي الصالحين" لداود الكرامي، انظر (ص/ 58-59) تحقيق الطالب: الحسين بوشغلي، وحصل به على شهادة الإجازة العليا، شعبة التاريخ بكلية الآداب ابن زهر، تحت إشراف الأستاذ: شفيق أرفاك، برسم السنة الجامعية/ 1996-1997.

(2) المعسول (10/ 172).

رفع بودميعة للقاضي التمنارتي سؤالاً عن حكم احتفال أهل أسا بالمولد النبوي:

إن ذيوع صيت الاحتفال بالمولد النبوي بالزاوية الأساوية، ورواجه على ألسنة السوسيين؛ جعل أبا الحسن علي بودميعة السملالي يسأل عن مدى مشروعية الاحتفال بالمولد برابطة أسا؟ فأجابه التمنارتي قائلاً: «وعلى سيدنا الإمام العادل الصالح سيدنا أَبِي الحسن، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فقد سألتنِي أيدك الله عما تصنع القبائل "برابطة أسا" من اجتماعهم بها ليلة مولده ﷺ ويومها للذكر والتلاوة وتشريفه ﷺ وغيرها من أنواع البر، وأن بعض الطلبة قدح فِي ذلك، وأنه بدعة لا يجوز..[1]» .

فتبين من هذا الجواب سبْقُ أهل أسا منطقة سوس بالاحتفال بالمولد بمديد الأزمان حسب المصادر التاريخية الموجودة، وإلا فلو احتفل أهل سوس بالمولد قبلهم ما احتاج للتمثيل بأسا على بُعدها، مع العلم أن أسا وقتها هي آخر معاقل سوس وداخلة تحت نفوذه، ولَم يظهر اقترانها بالصحراء إلا بعد أن خرجت زمرة من إخواننا عن ربقة الجماعة، وأخلعت من عنقها فروض الولاء والطاعة[2] مما يدل على أن بودميعة وقتها لَم يحتفل بعدُ بالمولد النبوي؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يجرؤ على معارضته، ومن ثَم اتجه بالسؤال نحو زاوية أسا، فكان رفعه للقاضي أَبِي زيد التمنارتِي بمثابة مشاورة العلماء لمعرفة حكم الشرع فِي ذلك، لإضفاء نوع من المشروعية الدينية عليه.

وربما يسأل سائل؛ تُرى ما السبب الذي جعل بودميعة يسأل عن احتفال أهل أسا، وكأن الاحتفال بالمولد عنده غريب، لَم يُعْرَف فِي سوس ولا ظهر به، سيما وقد سبقه إلَى ذلك يحيى الحاحي المستولِي على تارودانت قبله بأعوام؟ بل إن ابن الوقاد أول من سن فِي الحضرة الرودانية تلك السُّنَّة قبل يحيى المذكور؟ وكيف يمكن

---

(1) فقه النوازل فِي سوس قضايا وأعلام للدكتور الحسن العبادي (ص/ 396) نشر مطبعة النجاح الطبعة الأولَى/ 1999.

(2) على عهد الملك الراحل الحسن الثانِي؛ أي: الربع الأخير من القرن الماضي، وبالتحديد 28 فبراير 1976.

تجاهل عدد من المجالس المولدية التِي مرت فِي تارودانت على عهد أبِي زكرياء الحاحي، والتِي ألقى فيها القاضي التمنارتِي -صاحب الجواب- عدداً من القصائد الأدبية كما تقدم؟ أليست هذه كافية للتمثيل بها، والقياس عليها، سيما وأن عوائد المولد تكاد لا تختلف تفاصيلها بين سوس وأسا، اللهم اختلافات يسيرة بحكم الطابع القبلي، والنوازع التقليدية المرعية فِي كل موسم.

ومن تأمل مضمون السؤال وتدبر أبعاده؛ سيتضح له أنه انطوى على آثار الصراع السياسي الدائر بين يحيى الحاحي، وبودميعة السملالِي، والظاهر أن هذا الأخير توقع أن يكون رد التمنارتِي على الجواب بالإيجاب؛ أعنِي: الجواز، وكأنه ضمَّن فِي سؤاله ما يشبه أن يكون تعريضاً غير مباشر ليحيى الحاحي، وتَجَاهُل مجالسه المولدية، فكأن لسان حاله يقول: أريد الاقتفاء بالأعيان الكبار، والاقتداء بالصلحاء الوهداويين الأخيار.

وإلا فلو لَم يَسأل التمنارتِي عن احتفال أسا، وبادر بالاحتفال به دون مساءلة أحد؛ لقال الناس إن بودميعة اتبع عادة يحيى الحاحي فِي المولد، وعلى منهجه كذلك مشى وصار فِي تدبير أحوال السياسة، وكيف يفعل وبينهما عداوة كبيرة لخصها الإفرانِي الصغير فِي ترجمة بودميعة بقوله: «واستولَى على تارودانت وعمالتها، إلَى أن أخرجه عنها الفقيه المرابط أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بعد حروب وفتن عظيمة..[1]».

والحاصل من بسط هذه النقول؛ التنبيه على أن ظنون المؤرخين والباحثين استولَى عليها؛ أن الاحتفال بالمولد النبوي، بدأ بالجنوب المغربِي فِي القرن العاشر الهجري على أقصى تقدير، وفق النقول الموجودة فِي المصادر التاريخية، وخفي على بعضهم أن الزاوية الأساوية -التِي كانت لها امتدادات تاريخية، وصلات علمية قديمة بسوس- كانت تحتفل بذكرى المولد النبوي فِي ليلة الثانِي عشر من ربيع الأول منذ أواسط العقد الثانِي من القرن الثامن الهجري، نعم إنها فِي الأصل ذكرى الشيخ

---

(1) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفرانِي (ص/ 445) تحقيق: عبد اللطيف الشاذلِي، نشر المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية/ 2015.

سيدي يعزى ويهدى؛ لأنه توفِّي فِي أول شهر ربيع الأول؛ لكنَّ مريديه وتلامذته تعمدوا تحويلها إلَى ليلة الثانِي عشر، جمعـًا بين الاحتفال بميلاده عليه السلام، والاحتفاء بذكرى الشيخ سيدي يعزى ويهدى.

وليس ببعيد أن تكون تسمية رباط أسا بـ: "ملكى الصالحين" آتية من كثرة اجتماع الأولياء والصلحاء فِي هذا الموسم الكبير من كل الآفاق، ومن ثَم صار تداول أسماء ألئك الصلحاء فِي الذاكرة الشعبية الأساوية لتصبح -بحكم تطور الأزمان، وانصرام الأعصار- عادةً منغرسة في التراث الشفاهي منذ موت الشيخ سيدي يعزى ويهدى إلى الآن، سيما وأن الباحثين بأحد المراكز العلمية بالصحراء[1] لاحظوا أن مصطلح: "ملكى الصالحين" كَثُر تواتره على ألسنة الأساويين سلفـًا عن خلف؛ حتى ظُنَّ أن ذلك مردُّه؛ توافد أفواج كبيرة من الأولياء نحو الزاوية الأساوية من بلدان بعيدة كـ: « السودان، وتلمسان، وأغمات، وغيرها.. فيلتقون فيها للاجتماع.. وإحياء الليالِي، ذِكراً، وقرآنـًا، وقراءة، وإنشاداً لبعض الأمداح النبوية المأثورة، وخاصة منها الهمزية فِي الثانِي عشر من ربيع الأول من كل سنة..[2]».

وقد ذكر المختار السوسي نتفـًا من عوائد أهل أسا فِي الاحتفال بالمولد النبوي منها؛ تسميتُه من يتولَّى دعاء الختم فِي الموسم، قال فِي "المعسول" فِي معرض تعداده لطبقات علماء آل عبد الواسع: «محمد بن مولود بن بلقاسم آل عبد الواسع، وكان يحضر أيضـًا فِي موسم زاوية أسا، وهو الذي يدعو فيه للناس..[3]».

ومن تلك العوائد كذلك؛ عودة الغائبين والمفقودين الذين خرجوا لطلب العلم فِي المدارس العلمية بسوس، كهروب العلامة سيدي محمد بن أحمد الأساوي من أهله لَما كان صغيراً جراء «الشدة التِي يلاقيها فِي التعليم من أهله حتى فارق مسقط رأسه

---

(1) أعنِي: مركز الصحراء للدراسات والأبحاث الميدانية أسا، المعروف اختصاراً بـ: [C.S.E.R.T].

(2) موسم زاوية آسا تاريخ يحمل نبراسـًا (ص/ 9) تأليف مجموعة من الباحثين سويدي تمكليت، وعبدالقادر أنزيض، وسعيد ريش، وحافيظ الأسوي، ومبارك الطلب، نشر مركز الصحراء للدراسات والأبحاث الميدانية أسا الزاك الطبعة الأولَى/ 2016.

(3) المعسول (17/ 84).

إلَى قبيلة "أيت صواب" ثُم جال قليلاً إلَى أن استقر به القرار فِي قرية "أَسَكْنْ" عند الفقيه سيدي علي بن الحاج داود، فألقى هناك عصاه إلَى أن استتم حفظ القرآن، وأخذ عنه بعض المبادئ، وقد كان أثيراً عنده، ثُم من هناك إلَى مدرسة "إِيكُونْكَا" عند الفقيه سيدي الحاج محمد بن الحاج عابد البوشواري، ثُم.. إلَى مدرسة "إِيمْزِي" من "أَزُورْ إيغالن".. ثُم أخذ بعد ذلك عن الأستاذ سيدي محمد الحدوري ما شاء الله، ثُم عن الأستاذ سيدي محمد بن أحمد التيوازينِي، تلميذ سيدي الحاج الحبيب..[1]».

ثُم بَيَّن المختار السوسي الباعث الذي جعله يرجع إلَى أهله يوم الاحتفال بالمولد، فقال: «وقد طالتْ سِنون رحلته هذه فِي تلك الجبال إلَى اثنتَي عشرة، ولَم يكن يرى خبراً لأهله؛ إلَى أن وردت عليه رسالة من والده يوماً فأبكته كثيراً، فأجابهم بأنه حفظ القرآن، وحصل العلم، ووعدهم بالمجيء فِي موسم المولود الذي يقام فِي أسا، فلما ذهب تلقاه والداه معاً بكل فرح، ثُم استأذن والده لمراجعة إتمام دروسه، فزوَّدَه، وأذن له، ثُم صار يتعهد زيارة بلده فَيْنَة بعد فينة.. وكان محَصِّلاً ممتازاً، ولقلة المؤونة انتقل إلَى الأستاذ سيدي الحاج إبراهيم فِي مدرسة "إِدَا وْمْنُّو" لتوفر المعيشة فيها، وفِي أوائل رمضان 1364هـ فارقه لزيارة أهله، فصادف والده فِي آخر ساعات حياته، فودعه وأقبره، وقد كان يطلب الله دائماً أن يحضر وفاته، ثُم استأذن والدته فِي الرحلة لاستتمام أخذه..[2]».

فبان أن الاحتفال بالمولد النبوي بأسا اشتهر كثيراً منذ موت مؤسس رباط أسا؛ الولِي الصالح سيدي يعزى ويهدى المتوفى سنة [726هـ] وذاع صيته أكثر عند كبار مشاهير متصوفة غرب إفريقيا، يأتون إليه من كل فج عميق، سيما من تلمسان، وبلاد السنغال، والسودان، وسائر بلاد إفريقيا، وحسبنا فِي ذلك قول أبِي العباس بن مبارك السجلماسي: «وهذا الموضع يُقال له: زاوية أسا.. فيحضره أولياء السودان، ومنهم من لا يحضر الديوان إلا فِي تلك الليلة، ويأذن الله تعالَى، ويسوق أهل آفاق تلك

(1) المعسول (10/ 210).

(2) نفسه.

الأراضي، ويجتمعون بالموضع المذكور قبل الليلة؛ ليلة عيد المولد النبوي الشريف بيوم أو بيومين، وبعدها كذلك..[1]».

ومن هنا لا يُسْتبعد أن تكون قبائل سوس متأثرة بموسم أسا للاحتفال بالمولد النبوي؛ لأن كثيراً من الأسر العلمية كانت بينها وبين صنوتها فِي أقصى الجنوب المغربِي صلات عريقة فِي وقت مبكر جداً قبل المائة التاسعة، فحدث نوع من التمازج الفكري أفضى إلَى نقل كثير من أعراف الاحتفال بالمولد النبوي ليعم بعد ذلك في القبائل السوسية، خلافــًا لكثير من المؤرخين الذين يرون أن سوس دخل إليها الاحتفال بالمولد عن طريق علاقات المرينيين واحتفالهم به، وترسخ فِي أواخر عهد الأشراف السعديين.

ومهما يكن؛ ففرضية تأثُّر أهل سوس بشيوخ صالحي "أسا" واردة، ودلائل اشتراكهما فِي الأعراف والعادات قائمة، ولعل الأيام المقبلة ستكشف لنا خيوط هذا الإمداد والاستمداد؛ أهو آتٍ إلَى سوس من عاصمة المرينية مراكش شمالاً؛ أم هو قادم إليه من تأثيرات موسم الشيخ سيدي يعزى وهدي بالزاوية الأساوية جنوبـًا.

وبالجملة فقد كثرت التأويلات حول أخبار المولد النبوي بسوس، وتاريخ الاحتفال به، ومرد ذلك آتٍ من ضمور الدراسات حوله، مما أفضى إلَى نوع من المغامرة فِي التحليل، والجرأة فِي إثارة بعض الشكوك، والاسترسال فِي توسيع دائرة الاحتمالات، والتكلف فِي تخمين بعض الفرضيات، ما جعلنِي أقول مع المختار السوسي بأننا «نقنع بالموجود، ونكتفي بما نفهم من ورائه..[2]» وإن شئت قلتَ معه فِي موطن آخر: «لَم نخرج بَعد كل هذا البحث؛ إلا بمثل ما دخلنا به من الشك..[3]»!



(1) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ للعلامة أبِي العباس بن مبارك السجلماسي (ص/ 288) نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1987.

(2) سوس العالمة (ص/ 62).

(3) المعسول (1/ 120).

المبحث الثالث: أنواع الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فِي المغرب المعاصر:

بعد البحث والنظر فِي أصناف الاحتفال بالمولد النبوي المنتشرة فِي سائر أنحاء المملكة الشريفة؛ ظهر لِي -بعد التتبع والاستقراء- أنها ثمانية أنواع، لذا سأحاول قدر المستطاع أن أبين حال كل نوع، وتفصيلاتٍ دقيقة عنه، تمهيداً لتحقيق المناط فيه، ومن ثَم سيتبين للمنصفين بأوضح بيان؛ ما إذا كانت الموالد بجميع أنواعها بدعة حسنة، وعادة محمودة؛ أم أن بعض المنكرات والمحرمات التِي تصاحب بعض الأنواع هي التِي يعتمد عليها المنكرون، وتنطلق منها جل حملات المانعين، وتنسل منها أغلب اعتراضات المعارضين، وبدون مزيد من المقدمات؛ وما يستوجبه بسط هذه الأنواع من توطئات؛ أشرع فِي بيان المراد، مستعرضاً تلكم الأصناف الثمانية، مبيناً القول فِيها، مع مزج كل نوع بالعوائد الجارية فِيه، فأقول:

النوع الأول: احتفالات الخواص:

ظهر هذا النوع فِي المغرب منذ أوائل القرن السابع الهجري على يد العلامة الزاهد أبِي العباس العزفِي كما سبق، ثُم تبعه على ذلك جماعة من المتصوفين والزهاد، يخصُّون ليلة مولده بالاجتماع، ويتذاكرون فيها حول سيرته ﷺ ويُلْقُون بدورهم قصائدَ ويسردون أمداحاً: فقد كان أبو مروان عبد الملك الريفي يُقِيم بمنزله فِي سبتة المولد النبوي بحضور المريدين ومن إليهم: «ويحتفل لذلك بالإطعام، وإنارة المكان، بقناديل الزجاج، والشموع..[1]» ؛ «ويصنع ليلة المولد طعاماً للفقراء يأكلونه، وكان طعامه الكعك، والعسل، ويحضر تلك الليلة الفقراء، والمحبون يعمل فيها السماع..[2]» .

وسَرعان ما اتسع نطاق تلكم الاحتفالات الخاصة فِي المدن، والمداشر، والقرى،

---

(1) ورقات عن حضارة المرينيين للأستاذ محمد المنوني (ص/ 526).

(2) المقصد الشريف فِي التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق بن إسماعيل البادسي (ص/ 100-101) تحقيق سعيد أعراب، نشر المطبعة الملكية، الطبعة الثانية/ 1993.

لِتَعُمَّ المغربَ كاملاً، فهذا القاضي العجل الوزروالِي[1] المتوفى سنة [856هـ] سَأَل الإمام عبد الله العبدوسي[2] « عن جماعة منقطعين إِلَى العبادة، ويجتمعون فِي المولد للوعظ، والتذكير..[3]» فَجَوَّزَ العبدوسي ذلك واستحسنه، واجتمع كذلك الولِي الصالح ابن عاشر مع عدد من أصحابه فِي يوم المولد[4] كما تقدم قريبًا، وكذا الإمام البرزلِي نقل عن أحد شيوخه: « حضوره مرة مع ابن عبد السلام المالكي، وابن هارون، والسطي فِي ليلة المولد..[5]».

ولا تكاد تجد مدينة من مدن المغرب –سيما بعد القرن العاشر الهجري – تخلو من احتفال العلماء فِي ديارهم بالمولد النبوي، فدونك قول السملالِي فِي ترجمة علي بن محمد بن علي العكاري المراكشي المتوفَّى سنة [1118هـ]: «كان كثير الاتباع للسنة والتحريض عليها، وكان يعمل المولد النبوي، وله مناقب كثيرة..[6]» وقوله فِي ترجمة الفاضل بن عبد المجيد السرغينِي المتوفَّى سنة [1322هـ] «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاضلاً، ناسكًا، نزيهًا، حسن السمت، له معرفة ببعض العلوم، كالنحو، والفقه، وأَمَّ بجامع "تشنباشت" الكبير من مراكش، وخطب بالحضرة الشريفة بها،

(1) وهو زوج جدة محتسب الصوفية العارف أحمد زروق انظر ترجمته فِي نيل الابتهاج للتنبكتِي (2/ 122) نشر دار الكاتب طرابلس/ 2000.

(2) للإمام العبدوسي أجوبة حسنة ومفيدة فِي مجموع محفوظ فِي الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم [14056] انظر كشاف الكتب المخطوطة بالخزانة الحسنية (ص/ 19) المطبعة الوطنية مراكش الطبعة الأولَى/ 2007.

(3) المعيار المعرب (11/ 37).

(4) قال الإمام الونشريسي: «ذكر ابن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونفع به؛ أنه خرج فِي يوم ميلاده عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى خارج البلاد، فوجد الولِي الصالح الحاج ابن عاشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع جماعة من أصحابه فاستدعوه لأكل الطعام قال: فاعتذرت بأَنِّي صائم، فنظر إِلَيَّ الشيخ نظرة مُنكرة وقال لي: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور، فلا يستقيم فيه الصيام لأنه يوم عيد، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتأملت كلامه فوجدته حقًا وكأَنِّي كنت نائما فأيقظنِي..». المعيار المعرب (11/ 279).

(5) فتاوى البرزلِي (1/ 293) تحقيق محمد الحبيب الهيلة نشر دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى/ 2002 بيروت.

(6) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم السملالِي (9/ 226-227) نشر المطبعة الملكية الرباط الطبعة الثانية/ 1997.

وكان يعمل المولد كل سنة بداره، يحضره العامة الذين فيهم مزيد اعتقاد..[1]».

غير أن ما أثار انتباهي؛ أن بعض الفقهاء المغاربة المقيمين خارج بلدهم يحتفلون هم أيضاً فِي منازلهم بالمولد الشريف، فهذا العلامة عبد الرحمن الجبرتِي يقول فِي كتابه: "تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار" أثناء الكلام على حوادث [1188هـ]: «ومات العمدة، المبجل، الفاضل؛ الشيخ أحمد بن محمد بن عبد السلام الشرفِي المغربِي الأصل، المصري المولد.. كان له معرفة بعلم الميقات، ومشاركة حسنة، وفيه صداقة ود، وحسن عشرة مع الإخوان، ومكارم أخلاق، ويدعو الناس، والعلماء فِي المولد النبوي إلَى بيته بالأزبكية، ويقدم لهم الموائد، والحلوى، وشراب السكر، وكان لديه فوائد ومآثر حسنة، توفِّي سابع ربيع الأول من السنة، وقد جاوز السبعين..[2]».

والحاصل أن أولياء المغرب وفقهاءه يعقدون عبر التاريخ مجالس خاصة بالمولد الشريف، فهذا العلامة عبد السلام بن سودة ذكر فِي فهرسة شيوخه فِي ترجمة إدريس بن أبِي جيدة الفاسي؛ أنه «يجعل فِي كل صباح يوم عيد المولد النبوي حفلة يستدعي إليها جل أهل الخير والصلاح، وكنت أحضرها غالباً -يضيف بن سودة- فتكون ساعة مباركة يتجلى فيها الخير والبركة..[3]».

أما احتفال الخواص بالمولد فِي المشرق؛ فقد وصفه تاج الدين الفاكهانِي [ت734هـ] وصفاً حسناً، فتعجبت منه لما مال إلَى كراهته، وزاد عجبِي أكثر حين صرح هو نفسه من خلوه من المنكرات والمحرمات؛ ثُم حكم بشناعته، بعد أن قال عن صورته: «أن يعمل الرجل من عين ماله لأهله وأصحابه، وعياله، لا يجاوزون فِي ذلك الاجتماع على أكل الطعام، ولا يقربون شيئاً من الآثام، وهذا الذي وصفناه بأنه

---

(1) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم السملالِي (8/ 17).

(2) تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتِي (1/ 470) دار الجيل بيروت.

(3) سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال (ص/ 179).تحقيق محمد حجي دار الغرب الإسلامي/ 1997.

بدعة مكروهة وشناعة..[1]» وسيأتِي الرد على هذه الشبهة فِي قسم التأصيلات[2].

ومما يدل على كثرة انتشار مجالس المولد فِي المشرق؛ تراجمُ عدد من الصالحين والعباد، والفقهاء فِي كتب التراجم والطبقات، فقد ذكر الحافظ ابن حجر فِي ترجمة إسماعيل بن يوسف الأنبابِي؛ أنه يحتفل بالمولد الشريف فِي منزله قائلاً: «وكانت الموالد تعمل عنده..[3]» وكذا الإمام الزاهد القدوة المُعَمَّر «أبو إسحاق إبراهيم بن جماعة المقيم بالمدينة المنورة، كان يعمل المولد فِي منزله، ويُطعم الناس، ويقول: لو تمكنت لعمِلْت بطول الشهر كل يوم مولداً..[4]» وقال غيره:

ولو أنا عملنا كل يوم ❁ لأحمدَ مولداً فالكل واجب

ومن الطرائف فِي هذا الباب؛ أن مُلاَ علي القارئ لما ذكر احتفال الصالِح ابن جماعة فِي منزله؛ يبدو وكأنه يغبطه على ذلك، وتمنَّى هو الآخر القيام بذلك؛ لكن قصر ذات اليد جعلته يقول: « وأنا لما عجزت عن الضيافة الصورية؛ كتبت هذه الأوراق لتصير ضيافة معنوية نورية مستمرة على صفحات الدهر، غير مختصة بالسنة والشهر، وسميته: بالمورد الروي فِي مولد النبِي..[5]».

ومن تصفح كتب التراجم والطبقات؛ يجدها حافلة باحتفال علماء المشارقة بالمولد النبوي، فقد ذكر المرادي فِي كتابه: "سلك الدرر فِي أعيان القرن الثانِي عشر" احتفال عدد من المشارقة بالمولد الشريف فِي منازلهم، وذَكَر مناقب أبيه فِي ذلك العلامة علي المرادي مفتِي الحنفية بدمشق المتوفَّى سنة [1084هـ] فقال: «ومما اتفق فِي المولد الشريف الذي نصنعه كل سنة فِي دارنا الكائنة فِي محلة "سوق صاروجا"؛ أنه لما تمت قراءة المولد الشريف والناس مجتمعون كعادتهم وحاكم دمشق، والقاضي، وجميع الأعيان، والعلماء، وجمع غفير؛ إذ لفظ تخت من الخشب

(1) حسن المقصد فِي عمل المولد للسيوطي (ص/ 47).

(2) انظر (ص/ 250-251) من هذا البحث.

(3) انظر الدرر الكامنة لابن جحر (1/ 457).

(4) مواكب ربيع فِي مولد الشفيع (ص/ 308) لشهاب الدين الحلوانِي.

(5) المورد الروي فِي مولد النبِي (ص/ 17).

كان فِي الدار، فعظم الاضطراب.. عند ذكره الشريف تتحرك الجمادات، ثُم إن الوالد حفه رضوان ربه، أنشد ارتجالاً بقوله:

ما تعجبوا من ذكر أحمد سادتِي ۞ فالتخت نادى معلناً بصفاته

نطق الجماد بأسره فِي مولد ۞ وأنا الذي قد همت من بركاته

وكان نزيلاً عندنا إذ ذاك العالم الشيخ محمد التافلالتِي المغربِي نزيل القدس..[1]».

وذكر صلاح الدين الصفدي فِي ترجمة الأمير قراسنقر المنصوري فِي كتابه: "الوافِي بالوفيات" أن ابن عبود: «كان إذا عمل المولد الشريف النبوي حضر إليه الأمراء، وسائر الناس، فعمل المولد مرة فِي سنة من السنين فحضره قراسنقر، وكان فِي المولد رجل صالِح مغربِي يعرف بـ: "المراكشي" فلما مدت الأسمطة؛ قام قراسنقر وقلع سيفه وتشمَّر، ومد السماط المختص بالفقراء، وقدم بيده الطعام، وشرع يقطع المشوي لهم، ولا يدع أحداً يتولَّى خدمتهم سواه، فقال المراكشي: من هذا؟ قالوا له: هذا الأمير شمس الدين قراسنقر أمير كبير صفته نعته ومكانته من الدولة كبيرة، فقال: لا إله إلا الله يعيش سعيداً..[2]» والنص وإن سيق مساق تواضع الأمير؛ لكن محل الشاهد؛ هو شيوع احتفال الخواص بالمولد فِي المشرق عامة، وحضور صلحاء المغرب فيه خاصة.

وذكر كذلك تقي الدين المقريزي [ت845هـ] فِي كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" حضور عدد من علماء المغرب عند سلاطين المشرق أثناء احتفالهم بليلة المولد النبوي، فقال: «فلما كانت أيام الظاهر برقوق؛ عمل المولد النبويّ بهذا الحوض فِي أوّل ليلة جمعة من شهر ربيع الأوّل فِي كلّ عام؛ فإذا كان

---

(1) سلك الدرر فِي أعيان القرن الثانِي عشر لمحمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسينِي (3/ 225-226) نشر دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة/ 1988.

(2) الوافِي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (24/ 165) تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى نشر دار إحياء التراث بيروت الطبعة الأولَى/ 2000.

وقت ذلك؛ ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوض، وجلس السلطان، وعن يمينه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصر البلقينيّ، ويليه الشيخ المعتقد إبراهيم برهان الدين بن محمد بن بهادر بن أحمد بن رفاعة المغربِي، ويليه ولد شيخ الإسلام، ومن دونه، وعن يسار السلطان؛ الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامة التوزريّ المغربِي..[1]».

ومن تصفح كتاب: "الدرر الكامنة" للحافظ ابن حجر؛ سيجد فيه أن كثيراً من الفقهاء يحتفلون بالمولد فِي المشرق، جاء فِي ترجمة أبِي بكر بن أيبك الحسامي: «كان يعمل المولد فيبالغ فِي الاحتفال فيه، وفيه تودد للعلماء، والصلحاء مات فِي ذي القعدة سنة [756هـ]..[2]».

وقد لوحظ فِي مختلِف النقول السالفة؛ أن عدداً من المغاربة يحضرون فِي المجالس الخاصة للاحتفال بالمولد عند نظرائهم المشارقة، كما يحضر فقهاء المشارقة عند المغاربة، فوقع الاجتماع من كلا العدوتين على محبة المصطفى ﷺ وتمجيد يوم ولادته، والتنافس فِي ثنائه، والاحتفاء بمدحه، ولا يخفى ما يفضي إليه ذلك من وشائج التلاقِي على محبته عليه السلام وما يؤول إليه هذا الترابط من نقل محاسن العادات، وأعراف مجالس الاحتفال، علاوة على تقوية أواصر المحبة، وتوطيد أواصر الصلات العلمية بين ورثة الأنبياء، فيعم الفرح والسرور فِي جميع الأرجاء، على ولادة خير الأنبياء.

وبِهذه الصورة الرائعة ترسخت أصول احتفال الخواص بالمولد النبوي الشريف فِي المغرب بين فقهائها وعلمائها وصلحائها، وما هو إلا كلمح البصر أو هو أقرب؛ حتى انتشر بين عامة الناس فِي جميع أنحاء المملكة شمالاً وجنوبـًا، شرقـًا وغربـًا،

---

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (3/ 399) نشر دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولَى/ 1989.

(2) الدرر الكامنة فِي أعيان المائة الثامنة (1/ 527).

وكأنهم تواطئوا على مقصود قوله سبحانه: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1] مُتلهفين بوصول ذكرى المولد، مشتاقين لها، ولسان حالهم يتلو قولَه تعالَى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2]. وصدق شيخنا الدكتور فريد الأنصاري لما قال:« إن المغرب بلد صوفِي بامتياز، فالتدين الشعبِي فيه إنما شكلته من الناحية التاريخية المدارس الصوفية، ولذلك ما أسرع أن تنجح فيه المبادرات الصوفية..[3]».

ولئن كانت طريقة احتفال المغاربة بهذا النوع من الاحتفال تختلف حسب الأزمان والأعصار؛ فإن شكلها فِي هذا العصر؛ أن يجتمع فضلاء الناس وعامتهم، وأهل القبيلة عند أَلئك الخواص فِي منازلهم فِي ذكرى مولده ﷺ وبعد صلاة المغرب لليلة الثانِي عشر من ربيع الأول، وقراءة الحزب الراتب؛ يستفتحون عادة بقصيدة البردة للإمام البوصيري، أو قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، ثُم يُعَطِّرُون مجلسهم بألف صلاة على النبِي ﷺ وغيرها من الأذكار المشروعة، إلَى أن يُؤْتَى بصُنُوف الحلويات، والمأكولات، وقَبْلَها بشتى أنواع الأشربة والمكسرات، ثُم يلي هذا – على عادة أهل سوس – مُبَاحثات ومُذَاكَرَات للفقراء لِفُصُولٍ جليلة، ومباحثَ منيفة، من نظم [أَوْزَالْ][4] وهو مُؤَلَّف لِسيدي مْحَمْدْ أُوعلي الهوزالِي السوسي [ت1162هـ][5] يشاركهم فِي ذلك عامة الناس، فيتفقهون فِي أمور دينهم.

ثُم بعد هذه المذاكرات؛ يقرؤون قصيدةَ الهمزية بأجود الألحان المتنوعة حتى يختموها منتصفَ الليل تقريباً، آنئذ يحضر الفقيه، أو صاحب المنزل، فيلتئم ذاك الجمع المبارك للدعاء، ويسمونه –الدعاء الأول– ثُم يُشعِر صاحب المنزل ربة البيت لكي تُعلم النساء بالختم، والاستعداد للدعاء، لأنهن يعقدن مجالسهن الخاصة أيضاً

---

(1) من الآية 26 من سورة المطففين.

(2) من الآية 50 من سورة المائدة.

(3) الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب (ص/ 162-163) منشورات رسالة القرآن رقم– 2– الطبعة الأولَى/ 2007.

(4) وهو ترجمة لمختصر سيدي خليل بلسان قومه.

(5) نسبة إلَى إِنْدُوزَال قبيلة من قبائل سوس ترجمه تلميذُه الإمام محمد الحضيكي فِي طبقاته (2/ 292) وابنُ القاضي فِي درة الحجال (2/ 333).

-كما سيأتِي مفصلاً فِي النوع الثالث- فينصرف أصحاب الأشغال وذوُو الحاجات مرفوقين بنسائهم.

ثُم يستأنف الباقون إحياء ما تبقى من الليلة المولدية لسماع مزيد من الدروس حول جوانب عديدة من سيرته ﷺ وتَتَخَلَّلُ هذه الجلسات نُكَت علمية في السيرة النبوية، ومُسْتَمْلَحَات فقهية، وأدعية مختلفة، وأذكار نبوية، فضلاً عن أشعارٍ وأبيات، ممزوجة بابتهالات دعوية، وتوسلات مديحية حول جنابه الشريف إلى صلاة الصبح.

وبعد قراءة الحزب الراتب؛ يؤتى بالصبوح في أنواع الأطباق، وأشكال الحلويات، والشاي، والقهوة، على حسب عادة القوم، بعدها موعظة خاصة ليجعلوا مسك الختام الدعاء الصالح لجميع المسلمين في صباح يوم العيد[1] ثم يفترق ذلكم الجمع المبارك، بعد أن استمتعوا بليلة عامرة بالحسنات والخيرات، فترسخت بذلك عند الأسر المغربية أصول هذه العادات الشريفة، وإن طال الزمان ودَار، ونادراً جداً ما تختلف فِي المولد المقبل عادة أهل الدَّار، وحتى إنْ حصل شيء من ذلك؛ فإنه يكون بمقدَار.

وبالجملة فقد انتشر احتفال الخواص بالمولد النبوي فِي كل أنحاء سوس تقريباً، وخاصة عند الأسر العلمية، قال بعض المعاصرين عاطفاً على احتفالات أُلئك الخواص: «وكذلك العلامة الأستاذ سيدي علي بن عبد الله الإلغي يحتفل بالمولد النبوي فِي داره.. ويحضره خاصة الناس وعامتهم بإِلْغ..[2]» قلت: وما زالت تلك الأسرة العالمة مستمرة على تلك السُّنة الحسنة بمنزلهم بـ: "إِلْغ" كما أفادنِي بذلك بعض أحفاد تلك الأسرة العلمية العريقة.

وكذا المقرئ الكبير سيدي محمد بن إبراهيم أعْجلي البعقيلي السوسي المتوفَّى

---

(1) ينظر توجيهات لمقاصد إطلاق العيد على هذا اليوم فِي (ص/ 226-227) من هذا البحث.

(2) من مقال الأستاذ يحيا التجاجتِي: "زاوية تيمكلجت وإقامة المولد النبوي الشريف" (ص/ 207) العدد الثامن زاوية تيمكيلجت بين الإشعاع الصوفِي والعلمي منشورات جمعية علماء سوس.

سنة [1271هـ]؛ ذكر المختار السوسي فِي كتابه "رجالات العلم العربِي فِي سوس" أنه: «كان يُقيم موسِمًا نبوياً فِي كل ربيع الأول..[1]» والظاهر أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يحتفل بالمولد بمختلف المدارس التِي شارط فيها بسوس كإيكضي، وتازروالت، وغيرها[2] وكذا الفقيه عمر الإكضييي التملي المتوفَّى سنة [1335هـ] ذكر المختار السوسي فِي كتابه: "المعسول" أنه «هو الذي سَنَّ لأودلاه إلَى الآن إحياء ليلة المولد النبوي بمدح رسول الله ﷺ..[3]» وبمثل هذه المواقف؛ تترسخ أصول احتفال الخواص بالمولد الشريف فِي سوس بين كثير من الأسر العلمية.

ولَم يقف أمر الاحتفالات الخاصة بالمولد النبوي فحسب عند حد الأُسَر العلمية والفقهاء، والأعيان، وبعض الفضلاء، والفُضْلَيَات؛ بل تجاوز ذلك فِي الآونة الأخيرة إلَى عامة الناس من موظفين، وكُتبِيِّين، وتجار، وأصحاب الحرف، والمُحِبِّين للخير عامة، حيث يستدعون عائلاتهم، وأصدقاءهم، ويلتئم الجميع بنية الاحتفال بمولده عليه السلام وتعظيم قَدْرِهِ، فَيَغْرِفُ الحاضرون فِي تلك المجالس من محبته ﷺ كل منهم على قدر إِنَائه، فطوبَى لِمن كان تعظيمه للمصطفى غاية قصده ومرماه، وقد ظن البعض أن ذلك يعد غلوّاً وإطراء، ولَم يعرفوا أن الإنسان مهما غلا فِي محبة رسول الله ﷺ فلن يصل غالباً إلَى القدر الذي أمر به رسول الله ﷺ لما قال والحديث فِي الصحيحين: «لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من والده، وَوَلَدِه والناس أجمعين[4]».

ومما يدل على اختلاف العادات التِي يفعلها كثير من الخواص فِي ليلة المولد الشريف فِي بلدان أخرى؛ ما لاحظه صاحبُ "الإبداع فِي مضار الابتداع" فِي بلده مصر قائلاً: «ومنها تطلب الرياء، والسمعة، بما ينفق فِي سبيل المولد، فترى الأغنياء

---

(1) رجالات العلم العربِي فِي سوس من القرن الخامس الهجري إلَى منتصف القرن الرابع عشر للمختار السوسي (ص/ 225) الطبعة الأولَى/ 1989.

(2) انظر المعسول (5/ 294).

(3) المعسول (17/ 204).

(4) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ رقم الحديث [13].

يتنافسون فِي الليالِي التِي يُحيونها بأسمائهم، وكل يجتهد فِي أن تكون ليلته أحسن الليالِي لِيُقَالَ..[1]».

وعلى تقدير صحة ذلك فِي مصر؛ فالمغرب على خلافه تماماً قلباً وقالباً، ظاهراً وباطناً، لأن هؤلاء المحتفلين فِي المغرب فقهاء، وعلماء، وصالحون، وزهاد، غالبهم من عامة الناس وبسطائهم، أو ما يمكن أن نسميهم بلغة العصر بالطبقة الوسطى، انعدمت فيهم تلك العلل بالجملة، وتَملَّكت الأخلاق الفاضلة قلوبهم بالكلية، وتَمرَّنوا على ذلك حتى ألِفُوه بطبعهم، فأصبحت تلكم الآداب الرفيعة – بحكم تقادم الأزمان، وانصرام الأعصار– كالغريزة لهم.

ولا شك بعد هذا؛ أن اجتماع هؤلاء الخواص فِي أشرف الليالِي وأعزها أمر مندوب إليه فِي الشرع؛ لأن مجامعهم حسنة لا تشوبها شائبة، عامرة بالطاعات والقربات، بعيدة عن المكروهات، بله المحرمات، ومذاكراتهم مفيدة، وقلوبهم صافية، ومجالسهم تحفُّها الملائكة، تُسْرَد فِي منازلهم الأمداح، وتلقى فيها الدروس، ويفيض فيها الإنعام والخير، وتَقْوَى بذلك أواصر المحبة بين الأحباء، وتزداد الأُلفة بين الأصدقاء، وغالباً ما تنتهي عند حدود الدعاء الأول– مُنْتَصف الليل– ولا بأس فِي ذلك: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[2].

وصفوة القول؛ أن مقاصد هذه المجالس جليلة ومباركة، لأنها عن تلك المنكرات والمحرَّمات بريئة، وعن الاختلاط والرقص والاستغاثة بعيدة، وبضوابط مجالس أهل العلم متمسكة، وعلى نهج علماء المغرب فِي الاحتفال منذ غابر الأزمان ماضية.

النوع الثانِي: احتفالات سلاطين وملوك المغرب:

لا شك أن هذا النوع بدأ فِي عصر السلطان الموحدي عمر المرتضَى المتوفَّى سنة [665هـ] وهو أول سلطان مغربِي يحتفل بالمولد النبوي بشكل رسمي، واستمر

(1) الإبداع فِي مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ (ص/ 252).

(2) من الآية 264 من سورة البقرة.

ذلك فِي عاصمة مملكته مراكش دون أن يتجاوزها إِلَى غيرها، ولَم تُشر الدواوين التاريخية أنه عممه فِي سائر إيالته، وعلى صنيعه مشى من جاء بعده من سلاطين الموحدين حتى انقرضت دولتهم.

فجاء بعدهم المرينيون، وبادر أول سلاطينهم؛ يعقوبُ بن عبد الحق المريني الذي اعتلى الحكم سنة [656هـ] بفاس، ونحى منحى الموحدين، حيث كانت فاس هي من يُحتفل فيها بالاحتفال الرسمي دون غيرها، فِي العصر المرينِي الأول؛ حتى عممه ابنه يوسف بن يعقوب في سائر أنحاء المغرب عام 691هـ كما هو مشهور فِي المصنفات التاريخية، وما زال الأمر كذلك وزيادة حتى عصر ملكنا المحبوب محمد السادس العلوي، فقد خصصت هذا النوع بدراسة مستقلة.

النوع الثالث: **احتفالات النساء**:

يخطئ من يظن أن الرجال وحدهم هم من يحتفلون بالمولد النبوي؛ كلا !! بل تقوم النساء الصالحات المغربيات -كذلك- بإحياء هذه الليلة فِي مكان منفصلٍ عن الرجال داخل المدارس العتيقة، أو فِي منزل الفقيه المجاور عادة للمدارس العلْمية، أو بمحاذاة الزوايا الصوفية، أو عند الخواص، أو فِي منازلهن، وغالباً ما تكون ثلاث فقيهات، صالحات، قانتات، حافظات، أو أكثر؛ يُلْقِين بالتوالِي عدداً من الدروس حول سيرته ﷺ ويُشْرِفْن على ترديد ابتهالات جماعية بالأمازيغية حول سيرته ﷺ بألحانٍ مختلفة، وتوسلات متنوعة، تتخللها كلمات جامعة مانعة، وأذكار متعددة ملحونة بألفاظ فصيحة مُسَجَّعة، جرت العادة بإنشاد ما ذكر بعد طلعة الربيع النبوي بأغلب زوايا، ومداشر سوس، وتكاد تلك الألْحان تُشْبه عندي إِلَى حد كبير فِي فحوى مضمونها، ودقة نظمها قصيدتَيْ البردة، والهمزية، ولَم أستطع أن أتَمَلَّكَ نفسي مَرَّات، وذرفت عيني بالدموع كَرَّات، لما سمعت لأشعارهن حول بعض معجزاتهﷺ بتلك الرنَّات.

وقد ذكر العلامة سيدي محمد المختار السوسي أن: «للفقيه عبد الله بن يحيَى

الحامدي ترجمة البردة إِلَى الشلحة..[1]» ولا يَبعُد أن تكون تلك الأمداح والأهازيج التِي تنشدها النساء منتزعة من قصيدة البردة هذه؛ ثُم تحولتْ لتصبح من أهم مصادر التراث الشفهي للسيرة النبوية فِي سوس، تُنشدها النساء عادة فِي المولد النبوي الشريف.

والعجيب أن العلامة المطلع عبد الحي الكتانِي عدَّد فِي رسالته: "التآليف المولدية" [125] مولداً، وقال مُعَرِّفاً بالسابع والستين: «مولد بربري باللغة البربرية سمعت البربر يسردونه بلغتهم، وهو إذا تُرجم آية..[2]» ولعل الشريف الكتانِي سمع فِي بعض مجالس المولد لترجمة البردة إِلَى الأمازيغية، أو نَظْم بوشِكْرْ[3] وإن كنت أشك أنه يقصد هذا الأخير لعذوبة ألفاظه، وسلاسة نظمه[4] ولشهرته عند العامة والخاصة، يحفظ جُلَّهُ الكثيرون من الرجال، والنساء، والصبيان، وبعض العارفات الصوفيات، وخاصة كبار المربين بسوس، فضلاً عن أتباع مختلف الزوايا، وخاصة أتباع الطائفة الدرقاوية، يتلونه فِي مجالس الذكر عامة، وفِي المولد النبوي خاصة.

ويجدر التذكير؛ بأن تلك الأهازيج تحتاج إِلَى بحث تأصيلي مفرد؛ يُقارَن بين مقاصد تلك الألفاظ على نحو يشبه الاستقراء والحصر، ثُم توازَن تلك الأناشيد المذكورة بشكل دقيق مع قصائد الإمام البوصيري لنعرف أصول استمدادها، وقد لا تكون تلك الأمداح مخرجة ومُعَرَّبة مما ذُكِر؛ وإنما هي من إنشاء بعض العارفات الصوفيات؛ كالشريفة للاَّ فاطمة تعلاط التِي نظمت كثيراً من الأمداح والابتهالات عن المصطفى ﷺ وإِلَى ذلك يشير المرحوم العلامة محمد البوقدوري بقوله:

---

(1) سوس العالمة للعلامة سيدي محمد المختار السوسي (ص/ 188) . والفقيه الحامدي من علماء القرن الحادي عشر، وتوجد نسخة من الكتاب المذكور عند صاحبنا الدكتور محمد الصالحي صاحب كتاب "المنظومات التعليمية بسوس".

(2) التآليف المولدية (ص/ 63).

(3) انظر ترجمته فِي رجالات العلم العربِي فِي سوس للمختار السوسي (ص/ 134).

(4) مطلعها: بِسْمِ اللهِ أَوَلْ إِيعْدْلْنْ إِزْوَرَاكْ إِوَلْوْنِي ۞ نْتَّنْ أَسْبْدغْ أَشْكُو لْبَرَكَ تْلَّدِدْسِي.

وقد عددت أبيات هذا النظم المتين فوجدتها 164 بيتاً. قال المختار السوسي عن صاحب النظم المذكور: «علامة جليل القدر صالح كبير، وقد أتقن السيرة النبوية كوالده، وهو صاحب البوشكرية المنظومة الشلحية المشهورة توفِّي [1282هـ]..» انظر رجالات العلم العربِي فِي سوس (ص/ 134).

«وللسيدة فاطمة تعلاط قصائد شعرية كثيرة باللغة الأمازيغية السوسية فِي موضوع التوسل، والنصائح، ومدح الرسول..[1]».

ومن الفوائد التاريخية النادرة التِي وقف عليها البحث؛ أن الولية الصالحة عائشة بنت أحمد الحسنية المتوفاة سنة [969هـ] كانت من أوائل النساء المغربيات اللَّواتِي احتفلن بالمولد النبوي حسب ما فِي المصادر التاريخية، ويُؤْثَرُ عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبار ومناقب حسنة، ونوادر وكرامات عجيبة، فهي من موالد أواخر القرن التاسع، وعنها يقول الحضيكي فِي طبقاته: «كانت -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تُعَظِّم المولد النبوي، وتَعتنِي به، وتُطعم فيه الطعام، وتذبح فيه البقر والغنم؛ حُبّـًا فِي النبِي ﷺ على عادة فضلاء أهل المغرب فِي هذا العهد: سنة سبع وخمسين وتسعمائة..[2]».

وقد ذكر الإمام الحضيكي كرامة وقعت للشريفة المذكورة؛ عائشة الحسنية فِي ليلة مولده عليه السلام فقال: «بينما هي واقفة فِي صحن الزاوية ليلة المولد والطعام يفرَّق على النساء والصبيان؛ وإذا برَجُلَيْنِ متلصصين معروفين بذلك، أخذ فيهما الشراب، فخرجا فِي الليل بسيوفهما على عادة أهل الفساد، فمرا فوق الزاوية، فسمعا أصوات الناس بالزاوية، فضربا بحجرتين إلَى الزاوية وهي واقفة فِي وسط الزاوية، فارتاع الناس لذلك، فقالت: لا بأس عليكم إن شاء الله، وسيقطع الله اليد التِي ضربت بذلك، فما تَم الحديث حتى لقي الرجلان شخصـًا كان يدعى عبد السلام العلج، فحمل عليه أحدهما اسمه عثمان، وكان شجاعـًا بسيفه، فرفع عبد السلام سيفه ليرد سيف اللص به، فصادف السيف يده، فطارت يد اللص، فقال لصاحبه: اضربه لعن الله أباك، فضربه الآخر فرفع عبد السلام سيفه أيضـًا ليرده، فصادف يد الثانِي فقطعها أيضـًا، وهذه القضية شائعة عند الكافة..[3]».

وما كاد القرن الرابع عشر الهجري أن ينتصف؛ حتى اشتهر عقد مجالس خاصة

---

(1) تاريخ قبائل هلالة للأستاذ محمد البوقدوري (ص/ 289) مطبعة النجاح الطبعة الأولَى/ 2001.

(2) طبقات الحضيكي لأبِي عبد الله الحضيكي (2/ 449).

(3) طبقات الحضيكي (2/ 449-450).

بالمولد عند صالحات المغرب في دارهن، حباً فِي المصطفى ﷺ وفرحاً بولادته، وعن ذلك يقول ابن سودة فِي ترجمة جدته لأمه؛ السيدة زينب بنت المهدي بن سودة المتوفاة سنة [1344هـ]: «وكانت تقيم حفلة المولد النبوي في رابع عيد المولد من كل سنة، يحضرها العلماء، والأفاضل، وأهل إنشاد المديح، وتنفق في ذلك أموالاً لا يستهان بها؛ ابتغاء مرضاة الله..[1]».

ولا شك أن احتفال النساء بالمولد فِي المغرب له علاقة بالزوايا الصوفية، إذ من النادر تصور احتفال النساء دون الاستمداد من الزاوية، والاعتماد عليها، فدونك قول الرهونِي فِي صالحات تيطَّاوين: «وهكذا تقيم هذه الليلة المباركة عدة من الشريفات الريسونيات، والوزانيات، بالأفراح، والأمداح، والتبشير بتاج الملاح ﷺ وتطعَم فِي هذه الليلة عدة أطعمة..[2]» .

أما عادات النساء فِي عيد المولد الشريف شرق المغرب؛ فقد وصف أستاذنا العلامة محمد يسف بعض مظاهرها فِي حوار خص به بعض مجلات المجلس العلمي قائلاً: «كانت السيدات يخرجن يوم العيد لزيارة أضرحة الأولياء، ومقامات الصالحين، والمرابطين، وهن يرددن أهازيج، وأذكاراً، وإنشادات محفوظة لهن تتضمن؛ مقاطع مختارة من السيرة العطرة، يصحبها أحياناً نَقْرٌ هادئ على الدفوف، وتتخللها زغاريد معبرة عن عميق الحب، والتعلق..[3]».

ولا شك أن ترديد النساء لمختلِف الابتهالات، وأنواع التوسلات فِي المولد النبوي وفِي الأفراح الدينية عامة له أصل أصيل فِي الشرع، ويشهد لذلك فعل النبِيﷺ لما نزل بعد الهجرة فِي حي بنِي النجار، فبدأَت نساء ذلك الحي يُطلقن هتافات إشعاراً بحبه، ويرددن أهازيج فرحاً بهجرته، وينشدن أشعاراً سروراً بقدومه،

---

(1) سل النصال للنضال (ص/ 39).

(2) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأبِي العباس أحمد الرهوني (2/ 227) تحقيق الدكتور جعفر بن الحاج السلمي نشر جمعية تطاون أسمير الطبعة الأولَى/ 2001.

(3) مقتطف من حواره الخاص مع هيئة تحرير مجلة التذكرة التِي يصدرها المجلس العلمي بالدار البيضاء (ص/ 64) المجلد الثانِي العدد الخامس الصادر سنة 1427 الموافق لـ: 2006.

وتعددت صنوف احتفالاتهن؛ حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن نساء بنِي النجار لما نزل النبي ﷺ فِي حيِّهِنَّ فرِحْن بجواره؛ فأنشدن:

نحن جَوارٍ من بنِي النجَّارِ ❁ يا حبَّذَا محمد من جار

فلم ينهَهُن النبي ﷺ عن ذلك، بل قال لهن: أتحببنني؛ فقلن: نعم، فقال: «الله أعلم أن قلبِي يحبكن[1]».

فدل ظاهر الروايات المذكورة؛ أن الاحتفال والابتهاج بنعمة سارة، أو بشرى تُفرِح المسلمين؛ لا ترى أصول الشرع مانعـًا عند إظهار الاحتفال بها، والسرور لها، بل يندب المبالغة فِي إظهار الفرح بسببها، حتى ولَو لَم يكن فِي الشرع نظير لها، فكيف وقد ثبت ما يقوي ذلك من وجوه عدة، ويكفيك للتدليل على ذلك؛ إقرار النبِي ﷺ لتلكم الصحابيات على فرحهن، ألا تراه لَم ينههن على صنيعهن؛ بل شاركن فِي سرورهن، ومن ثَم تبين بأوضح بيان؛ أن الفرح قَبله عليه السلام أثناء قدومه إلَى المدينة؛ فبالأولَى أن يكون قبوله له آكد فِي يوم مولده لاجتماع الفرح والسرور فيهما.

وصفوة القول أن عادةَ اجتماع النساء فِي مولده عليه السلام تعتبر ولا شك من أشهر العادات الشريفة الضاربة فِي عمق التاريخ الاسلامي، فهذا الملا علي القارئ المتوفَّى سنة [1014هـ] يصف بعض أنواع احتفال الأعاجم بالمولد الشريف، مُنبِّهـًا على منافسة النساء لكبار الرؤساء، والأعيان فِي الخيرات، والنعم المعتادة فِي المولد، فقال متعجبـًا منهن: «حتى بعض العجائز من غزلهن ونسجهن يجْمَعْن ما يقمن بجمعه الأكابر والأعيان، وبضيافتهن ما يقدرن عليه فِي ذلك الزمان، ومن تعظيم مشايخهم وعلمائهم هذا المولد المعظم.. أنه لا يأباه أحد فِي حضوره..[2]» وهذا فيه إشارة إلَى أن استعدادات النساء للمولد النبوي -وما يروج فِي مجالسهن من طعام، وخيرات متنوعة، ونِعَم جزيلة- يضاهي ما هو معتاد فِي نظائر مجالس الرؤساء والأعيان.

---

(1) مروج الذهب للمسعودي (2/ 279) والخبر أورده الألباني في الضعيفة (7 / 437).

(2) المورد الروي فِي مولد النبي (ص/ 14) هكذا بنصه ولَم أتصرف فيه.

وقد يظن البعض أن مسألة اجتماع النساء فِي الموالد تأخرت قليلاً عن اجتماع الرجال؛ لكن ذلك مدفوع بوصف تاج الدين الفاكهانِي المتوفَّى [734هـ] لبعض مجالس النساء فِي أوائل القرن الثامن الهجري، لذا لا يبعد أن يقترن ظهور مجالسهن بمجالس الرجال لقربهما فِي زمن استحداثهما، وعن مجالسهن تلك يقول الفاكهانِي عاطفاً على إنكار مجالس الرجال: «وكذلك النساء إذا اجتمعن على انفراد رافعات أصواتهن بالتنهيد، والتطريب فِي الإنشاد، والخروج فِي التلاوة، والذكر عن المشروع، وعن المعتاد، غافلات عن قوله تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1]» وسيأتِي فِي قسم التأصيلات الرد على التاج الفاكهانِي كما سبقت الإشارة إلَى ذلك.

ويبدو أن انتشار مجالس النساء للاحتفال بالمولد الشريف؛ ظل عند بعض العارفات، والصوفيات محصوراً فِي أماكن خاصة، ومجالس محدودة؛ لكن سَرعان ما انتقل إلَى قصور الملوك والسلاطين؛ ليصبح احتفال النساء من العوائد المرعية، والتقاليد الرسمية. وفِي هذا يقول المؤرخ يوسف بن تغري بردي فِي حوادث سنة [867هـ]: «وفِي يوم الأحد ثالث عشر؛ عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من قلعة الجبل على العادة من كل سنة، وأصبح من الغد عمل مولداً آخر لزوجته خوند الأحمدية..[2]».

ومن مبالغات ابن الحاج فِي مدخله؛ أنه منع احتفال النساء بالمولد، وعلل ذلك بقوله: «وخروجهن للمولد ليس لضرورة شرعية؛ بل للبدع، والمناكير، والمحرمات كما تقدم ذكره، ثُم إنهن لا يجتمعن للمولد الذي احتوى على ما تقدم ذكره من المفاسد المذكورة إلا بحضور من يزعمن أنها شيخة على عرفهن، وقد تكون وهو الغالب ممن تدخل نفسها فِي التفسير لكتاب الله عز وجل، فتفسر، وتحكي قصص الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وتزيد وتنقص، وربما وقعت فِي الكفر الصريح وهي لا تشعر بنفسها، وليس ثم من يردها ويرشدها، وقد بلغنِي أنه

(1) حسن المقصد فِي عمل المولد (ص/ 48).

(2) النجوم الزاهرة فِي ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغري بردي (16/ 274) نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار الكتب المصرية

وقع ذلك منها فِي بيت شيخ من الشيوخ المعتبرين فِي الوقت، ولا غير عليها أحد، بل أكرموها، وأعطوها..[1]» .

وعلى أي حال؛ فاحتفال النساء بالمولد النبوي؛ عادة حسنة قديمة، ومَكْرَمة فريدة شريفة استحسنها كبار الفقهاء فِي مختلف العصور؛ لكن بعض الشيوخ المعاصرين نقل كلام ابن الحاج دون عزوه له، فمنع اجتماع النساء بالمولد وزاد على العلل التِي ذكرها ابن الحاج عللاً أخرى واهية من قبيل: «افتتانهن فِي الاعتقاد، وذلك لأنهن لا يحضرن للمولد إلا ومعهن شيخة تتكلم فِي كتاب الله، وفِي قصص الأنبياء بما لا يليق، فربما تقع فِي الكفر الصريح وهي لا تشعر، لأنها لا تعرف الصحيح من السقيم والحق من الكذب، فتدخل النسوة فِي الغالب وهن مؤمنات، ويخرجن وهن مفتَتَنَات فِي الاعتقاد، أو فروع الدين..[2]».

وكتاب "المدخل" كتاب نفيس حوى كثيراً من البدع المتنوعة، لكن صاحبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ -ومع أنه من المجوزين للمولد كما سيأتِي- يبالغ أحيانـاً فِي رد بعضها، لذا تعقبه الحافظ ابن حجر بعد أن قال عن كتابه المدخل: «هو كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس، وأكثرها مما يُنْكَر، وبعضها مما يُـحْتَمَل..[3]» فشكك الحافظ فِي

(1) المدخل (2/ 12-13).

(2) من فتوى للشيخ محمد بن إبراهيم حكم المولد النبوي تحت رابط:

http://muslm.net/vb/archive/index.php/t-158045.html

(3) قلت: ورغم إشادة ابن حجر بهذا الكتاب؛ إلا أن بعض المعاصرين تكلموا فيه، وبالغوا فِي ذلك كثيراً حتى عدَّه تلميذ الشيخ الألبانِي مشهور حسن من الكتب التِي حذر منها العلماء، ومن الغريب أن ينقل مشهور كلام ابن حجر أعلاه مستدلاً به، وكأنه يحذر منه؛ بينما الحافظ يُشِيدُ به كما لا يخفى، انظر كتاب مشهور الموسوم بـ: كُتُبٌ حَذَّرَ منها العلماء (1/ 310 -311- 312) وكان مشهور فِي كتابه ذاك مُولَعـًا بنقل مواقف شيخه الألبانِي فِي عدد من المصنفات التِي حذر منها، وفاته نقل فِي أحد هوامش كتب شيخه وهو حجة النبِي ﷺ لما قال عن ابن الحاج: «وهذا الرجل مع فضله وكون كتابه المذكور مرجعـًا حسنـًا لمعرفة البدع، فإنه فِي نفسه مخرف لا يعتمد عليه فِي التوحيد والعقيدة.. » حجة النبِي ﷺ كما رواها عنه جابر (ص/ 138 هامش- 178) المكتب الإسلامي ط/ السابعة 1985. وغالَى زميل مشهور عبد الكريم الحميد لما ألف رسالة سماها: "السراج لكشف ظلمات الشرك فِي مدخل ابن الحاج".

←

حقيقة بعض البدع التِي ظنها ابن الحاج كذلك؛ وهي على خلاف ذلك.

نعم بعضها مما يحتمل كما قال الحافظ؛ وليست بدعـًا منكرة كما ظنها ابن الحاج، لذا لا أبالغ إن قلت: بأن استدلاله على منع احتفال النساء بالمولد؛ لا يَقوى أمام الأدلة الشرعية، فهو خلاف قياس الأولَى، ويكفيك لبطلان ذلك؛ أن الإمام البخاري عقد بابـًا فِي صحيحه سماه: "باب ذهاب النّساء والصبيان إِلَى العُرس" استدل فيه بحديث أَنس، لَما أَبصر النَّبِي ﷺ نساءً، وصِبيانـًا، مُقبِلينَ من عرس، فقامَ مـمتَنًّا، فقال: "اللَّهم أَنتمْ من أَحب النَّاس إِلَي"[1] ونقل ابن بطال عن المهلب بن صفرة بيان معنَى فقه هذا الحديث فقال: «فيه استحسان شهود النساء والصبيان للأعراس؛ لأنها شهادة لهم عليها..[2]».

قلت: فإذا استُحسن شرعـًا اجتماعهن فِي الأعراس والمناسبات العامة؛ أفلا يكون من باب أولَى اجتماعهن للاحتفال بليلة مولده ﷺ جائزاً ومشروعـًا؛ وإلا فالاستماع إِلَى سيرته، والأمداح النبوية حول جنابه الشريف؛ أفضل بكثير شرعـًا، وعُرفـًا، وعقلاً، من ارتفاع أصواتهن بألوان الأغانِي، وصنوف الزغاريد فِي الأعراس، وربما ينجر الأمر فِي بعض الأحيان إِلَى ما لا ينبغي. ومن هنا يتبين أن اجتماعهنَّ فِي المولد أمر آكد ومشروع بقياس الأولَى؛ فكيف لو انضاف إِلَى هذه الحجج أدلة أخرى مستقاة من عموم النصوص كقوله تعالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ

ولَم يستحيى مشهور حين ذكر فِي مصنفه ذاك، إحياء علوم الدين للغزالِي، والشفا للقاضي عياض (2/ 218-219) بدعوى أن فيهما أحاديث موضوعة !! فلما يا ترى لَم يُدْرِج فيه مسند الامام أحمد؛ عِلْمـًا بأن الحافظ العراقي ألف جُزْءاً خاصـًا بموضوعات المسند لاشتراكهما فِي نفس العلة!! ولعله تفطن إِلَى هذا فذكر المسند فِي آخر الجزء الثانِي (2/ 390-396) مدافعـًا عنه، مفنِّداً كل الدعاوي المثارة حوله.

(1) أخرجه البخاري فِي كتاب النكاح باب ذهاب النساء والصبيان إِلَى العرس تحت رقم [5180].

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال (7/ 291) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم نشر دار النشر مكتبة الرشد السعودية، الرياض الطبعة الثانية/ 2003.

ـ ايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[1] وقوله ﷺ: «يشهدن الخير ودعوة المسلمين[2]».

ومن مقاصد شهودهن لدعوة الخير فِي يوم المولد؛ تلكم الدروس الدعوية التِي يلقيها على مسامع النساء عدد من الفقهاء فِي سوس وغيرها، فتعم الفائدة بينهن، علاوة على فضل الاجتماع والتزاور، وصلة الأرحام. وبالجملة فأهم المقاصد المستفادة غير ما ذُكر تعميق معارفهن بأسرار سيرته ﷺ وجنابه الشريف، وعن بعض تلك المجالس يقول المختار السوسي فِي ترجمة أبِي عبد الله الكرسيفي معدداً محاسنه، عاطفًا عليها: «كما ظهرت عليه كثرة محبة المصطفى ﷺ لا يخفى ذلك على من عرفه، ولذلك كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكثر من قراءة الفنون من أمداح نبوية أيام المولد النبوي، ويبين، ويفسر للرِّجَال والنساء من فضل نبينا ﷺ ما تبلغه عقولهم من شرفه، وطيب طهارة نسبه، ومن معجزاته، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ دؤوبًا مع نسكه على تعليم ما أمكن من فنون علوم الشرع، فقهًا، ونحواً، وحديثًا، وتفسيراً، لكنه يقدم أوراده على تدريس العلم، فَقَلَّ لأجل ذلك الآخذون عنه..[3]».

فظهر بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن الفتنة الواقعة للنساء فِي فروع الدين؛ مَحَلُّها تلك البلدان التِي تشرف النساء على بعض مجالس الذكر فيها، فيبقى ذلك الحكم مقرونًا بعلته فِي موطنه، أما المغرب والحمد لله ومنذ غابر الأزمنة؛ مشهور باجتماع النساء المتفقهات الصالحات فِي مجالس العلم، فهذا ابن الزيات التادلِي يقول فِي ترجمة الولية الصالحية مينة بنت ميمون الدكالِي المكناسية؛ المتوفاة بمراكش سنة [595هـ] أنها كانت برباط شاكر بمعية جمع غفير من الصالحات، فقالت واصفة عدد العابدات فِي ذلك المجلس المبارك: «أنه حضر بهذا الرباط ألف امرأة فِي سنة واحدة..[4]».

---

(1) سورة الأحزاب من الآية 43.

(2) متفق عليه أخرجه البخاري كتاب الحيض باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى تحت رقم [324].

(3) المعسول (17/ 141).

(4) التشوف إلَى رجال التصوف (ص/ 313) تحقيق الأستاذ أحمد توفيق منشورات جامعة محمد الخامس سلسلة بحوث رقم [22].

بل أكثر من هذا؛ أن العلامة اليوسي؛ وهو من رجال القرن الحادي عشر وصف الركراكيين الذين انتشروا فِي المغرب وصحرائه أنه كان: «يَحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب 6760 من الرجال و 500 من النساء..[1]» مِما يدل على أن مجالس الذكر، والاجتماع على المعروف، وإحياء ليالِي المولد عبر تاريخ المغرب[2]؛ تُشرِف عليه عالمات، مالكيات، أشعريات، جنيديات، صالحات.

واستمر المغرب على النهج نفسه فِي العصر الحديث فِي تكوين العالمات والمرشدات بقيادة المنصور بالله أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حين فتح للمرأة باب الإرشاد الدينِي، والنُّصْح الدعوي على مصراعيه، ونادراً جداً ما تصادف منطقةً فِي المغرب شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً ليست بها مرشدة دينية، وواعظة، وهن المشرفات على هذه المجالس، وفِي هذا يقول أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، فِي رسالة موجهة إِلَى المشاركات فِي اللقاء الأول -من نوعه فِي العالَم العربِي- للعالمات والمرشدات المؤطرات للشأن الدينِي، قال حفظه الله:

«**وفِي هذا السياق عملنا على إدماج المرأة العالمة فِي محيط العلم والعلماء ففتحنا فِي وجهها باب المشاركة فِي المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بوصفها عضواً كامل العضوية فِي المؤسسة العلمية..**[3]» ونبهَهُن جلالته فِي رسالته السامية تلك؛ على أمثال هذه الاعتقادات الفاسدة التِي تروج فِي مجالس النساء قائلاً: «**فأنتن مدعوات اليوم إِلَى المساهمة الفاعلة فِي مُحاربة التخلف، والإقصاء، وتنوير العقول والقلوب، وتنقيتها من سقيم الفكر، وفاسد الاعتقاد، ومن نزوعات التطرف والانغلاق..**».

---

(1) المعسول (4/ 9).

(2) انظر عدداً من الصوفيات العالمات المشرفات على مجالس الذكر فِي كتاب: المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (3/ 559) نشر دار الرشاد الحديثة البيضاء الطبعة الثانية/ 2002.

(3) من الرسالة السامية الموجهة إِلَى المشاركات فِي اللقاء الأول للعالمات والمرشدات المؤطرات للشأن الدينِي 17 يوليوز 2009 منشورة فِي صدر مجلة المجلس عدد 8 و9 الصادرة فِي محرم 1431 (ص/ 2- 6).

ولئن كان الكلام قد جَرَّنا قليلاً فِي احتفال النساء بالمولد النبوي؛ فإن ذلك لا يعدو أن يكون فِي الأخير جزء من الكل؛ لأن منافسة النساء للرجال فِي الاحتفال بميلاده ﷺ تكاد أن تكون فِي هذا العصر للذكر مثل حظ الأنثى؛ بل إن الكفة فِي غالب الأحايين تميل إليهن -والحق يقال- لأنهن جُبِلْن على شدة الإحساس بذلك اليوم، والشغف به، متعطشات بوصوله، قصد الغرف منه، والإخلاص التام فِي القيام به، وإكثار الدعاء وطلب المغفرة فيه، ناهيك عما يتخلل ذلك من الصدقات إلَى الأرامل، والإحسان إلَى العجائز، والإغداق عليهن بِملْءِ اليدين، وبعضهن إذا سمعن تلك الأناشيد الدينية، والابتهالات، والتوسلات الخاصة بسيرة المصطفى يتذكرن ما يتذكرن، ولرقة قلوبهن لا يترددن فِي البكاء؛ لأن طبعهن -دائمًا- هكذا كان، ولِمَ لا وهن: «رائدات الشفقة، وبَطَلاَت الحنان..[1]» على حد تعبير مجدد بلاد الأناضول: بديع الزمان النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأحب أن أجعل مسك ختام احتفال النساء بفائدة مفادها؛ أن النساء فِي المولد النبوي استولَى على الظنون اعتيادهن إنشاد الأمداح، والابتهالات، والتوسلات، وضرب الدفوف، لكنهن في الوقت نفسه زاحمن الرجال كذلك في التأليف في المولد النبوي، فقد ذكر العلامة عبد الحي الكتانِي في رسالته: "التآليف المولدية" أن «عائشة الباعونية الدمشقية؛ الشيخة الأديبة ابنة عبد الوهاب؛ لها مولد طبع بدمشق عام 1301[2]» ثُم علق مُحقق الكتاب على ذلك بقوله: «لها مولد اسمه المورد الأهنَى في المولد الأسنى..[3]» ويضاف إلى هذا ما أفادنا به العلامة المطلع الدكتور محمد الرواندي[4] لَما اقترحتُ عليه تحقيق مولد العزفي "الدر المنظم"

---

(1) رسائل النور اللمعات (3/ 307) ترجمة إحسان قاسم الصالِحي نشر دار سولز للنشر إستانبول الطبعة الأولَى/ 2002.

(2) التآليف المولدية (ص/ 76).

(3) التآليف المولدية (ص/ 76 هامش- 3).

(4) من أشهر أساتذة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا بالرباط، وعضو المجلس العلمي الأعلى.

فأجاب: بأنه حققته بعض الباحثات فِي إحدى الجامعات المغربية لكنه لَم يُطبع بعدُ[1].

النوع الرابع: احتفالات الزوايا:

لا غرو أن أشهر الزوايا بالمغرب هي الدلائية، والشرقاوية، والناصرية، والعياشية، والفاسية، وغالبها ظهر فِي النصف الأول من القرن الحادي عشر فِي فترات متقاربة جداً، ويرجع سندها جميعاً إلَى الشيخ العارف أبِي الحسن الشاذلِي عن طريقيْ الإمام الجزولِي، والشيخ زروق، وكثر الأولياء والصالحون فِي شتى بقاع المغرب، حتى قيل: "المشرقُ للأنبياء، والمغرب للأولياء".

وكان لهذه الزوايا دور كبير فِي إنقاذ الحياة العلمية والروحية فِي المملكة الشريفة، حتى إن المغاربة درجوا على قولة مشهورة: «لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب فِي القرن الحادي عشر لكثرة الفتن التِي ظهرت فيه؛ وهم: سيدي امحمد بن ناصر فِي درعة، وسيدي محمد بن أبِي بكر الدلائي فِي الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي..[2]».

ويعتبر الاحتفال بالمولد النبوي من أهم المواسم التِي جددتها تلك الزوايا فِي مختلف مناطق المغرب، حيث يقرؤون الأمداح، والقصائد النبوية، وتُلْقَى الدروس العلمية، ويعطِّرُون مجالسهم بكثير من الأذكار النبوية، فهذا الشيخ عبد الحي الكتانِي يصف احتفال الزاوية الدلائية فِي معرض ذكره لمولد خاله الشريف جعفر بن إدريس الكتانِي قائلاً:

«ومما حفظته عن لفظه من مولده هذا؛ أن شيخ الإسلام بالمغرب وفخره أبا عبد الله محمد بن أبِي بكر الدِّلائي؛ كان يحتفل بالمولد النبوي غاية الاحتفال، وكان يأتيه

---

(1) حققته الباحثة فاطمة اليازدي وحصلت بموجبه على دبلوم الدراسات العليا المعمقة قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط برسم السنة الجامعية 1986-1987.

(2) طلعة المشتري (1/ 133).

الناس لحضور احتفاله بزاويته من حواضر البلاد وبواديها، ما بين شرفاء، وعلماء، وأولياء، وأغنياء، وفقراء، وسوقة، ورؤساء، وكان يطعمهم بالأطعمة المتنوعة على طبقاتهم بما لا يعهد مثله عند غيره فِي زاوية من زوايا المغرب، وإنما يكون ذلك عند أعاظم الملوك.

وكان يرفع إليه الشعراء الأمداح[1] فتقرأ بين يديه، ويجيزهم عليها بالجوائز السَّنية، وحكى أن رجلاً أديباً أتى إليه فِي الموسم الشريف بقصيدتين إحداهما؛ فِي مدح المولود فيه عليه السلام وأخرى فِي مدح الشيخ، فلما انقضى الموسم أخرج له الشيخ صرة فيها مئة دينار فِي يده اليمنَى، وفِي اليسرى فلس واحد، وقال له: هذه المئة دينار جائزة مدح النبِي ﷺ وهذا الفلس على مدح محمد بن أبِي بكر..[2]» .

وقد وصف الدكتور محمد حجي كيف كان شيخ الجماعة محمد بن أبِي بكر الدلائي يحتفل بالمولد فِي زاويته فِي كتابه الرائع "الزاوية الدلائية" فقال: «فكان عيد المولد الشريف مناسبة يقصدها الناس فيه سواء منهم العلماء، والأدباء، والأغنياء، والفقراء، والسوقة، والرؤساء، فينزلون على الرحب والسعة، وينالهم من حفاوة ابن أبِي بكر وإكرامه ما تقر به أعينهم، وترتاح له أفئدتهم، ويقضون فِي تلك البقعة الطيبة أياماً يظل المنشدون فيها يرددون القصائد، والمقطعات، والموشحات فِي مدح الرسول الكريم، خصوصاً بردة الإمام البوصيري، لاسيما منهم شاعر الزاوية أحمد الدغوغي الذي كان يذيل مولدياته بمدح الشيخ محمد بن أبِي بكر، والدعاء له، فيرتاح لذلك الشيخ، وتطيب نفسه، وقد شجع الشعراء على نظم القصائد، والتفنن فِي صوغها، ورفعها إلَى محمد بن أبِي بكر بهذه المناسبة، لِما كانوا يلقونه منه من جزيل الصلات، وكريم المكافآت، وكان لا يثيب منهم إلا من مدح الرسول ﷺ

---

(1) انظر إحدى هذه القصائد فِي كتاب الزاوية الدلائية ودورها العلمي والدينِي والسياسي للدكتور محمد حجي وهو فِي الأصل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ملحق رقم [3] (ص/ 273) نشر المطبعة الوطنية بالرباط/ 1964.

(2) التآليف المولدية (ص/ 51).

وأشاد بمفاخر الإسلام..[1]» .

وكذلك الخليفة الرابع للزاوية الشرقاوية؛ الشيخ محمد المعطي، كان يعمل المولد فِي زاويته ويحتفل به كسالفيه احتفالاً كبيراً، وتأثر بمجالس الجانب النبوي تأثراً جعله يغالِي فِي محبة النبِي ﷺ على حد تعبير الدكتور أحمد عمالك، وتجلى ذلك فِي نظره: «فِي تأليفه لذخيرة المحتاج[2] الذي يعتبر أكبر موسوعة مغربية للأمداح النبوية والصلاة على النبِي ﷺ..[3]» واشتهر بِمثل ذلك؛ المتصوفُ الأديب؛ أبو سالِم العياشي فِي زاويته حيث يحكى عنه[4] أنه نظم سيلاً من الأمداح، وعدداً من الأنظام، وكثيراً من الأشعار حول المصطفى ﷺ تُسرَد وتنشد فِي زاويته بمناسبة المولد الشريف.

وكان شيخ زاوية الفاسيين العالِم الربانِي يوسف بن عبد الله المعروف بأبِي المحاسن: «يرخص فِي السماع للمولد الشريف، فيجتمع لذلك عنده خلق عظيم، ويحضر أهل السماع الذين يحفظون مقطعات الشيخ أبِي الحسن الششتري وما يجري مجراها.. كالميلاديات المعربة على عروض البلد وغيره على العادة فِي ذلك بحضرة فاس..[5]».

ولئن كانت بعض هذه المقطعات التِي ينشدها السامعون والمداحون تتخللها بين

---

(1) الزاوية الدلائية ودورها العلمي والديني والسياسي للدكتور محمد حجي(ص/ 47) نشر المطبعة الوطنية بالرباط/ 1964.

(2) ذخيرة المحتاج فِي الصلاة على صاحب اللواء والتاج طبعت فِي 56 مجلداً، فِي حلة أنيقة، مزخرفة، ومزركشة بالألوان.

(3) جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلَى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1/ 207) للدكتور أحمد عمالك نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2006.

(4) من أعلام الفكر والأدب فِي فجر الدولة العلوية: أبو سالِم العياشي المتصوف الأديب (ص/ 183-240) للأستاذ عبد الله بنصر العلوي نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 1998.

(5) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبِي المحاسن لأبِي حامد الفاسي الفهري (ص/ 279-280) تحقيق حمزة الكتانِي نشر مركز التراث الثقافِي المغربِي ودار ابن حزم الطبعة الأولَى/ 2008.

فينة وأخرى أمور لا ترضى شرعاً؛ فإن ما يتبع ذلك من الأناشيد، والموشحات، والأهازيج والرقص ونحوه، فهو فِي نظر الحافظ ابن حجر يكون «مباحاً بحيث يقتضي السرور بذلك اليوم لا بأس بإلحاقه به، وما كان حراماً أو مكروهاً فيمنع، وكذا ما كان خلاف الأولَى..[1]».

أما أعيان مكناس ورؤساؤها فيحتفلون «يوم سابع العيد النبوي بموسمي أبِي محمد عبد القادر الجيلانِي بزاويته بمكناس؛ وأبِي الحسن على بن حمدوش.. يبتدئ الاحتفال به بزاوية زرهون، ويختم بالمدشر الذي به تُربَته..[2]» مما يدل على أن الزوايا المنتشرة فِي ربوع المغرب وفروعها يحتفل غالبها بالمولد النبوي الشريف.

أما فِي شمال المغرب كطنجة، وتطوان وأحوازهما؛ فقد وصف مؤرخ تلك الناحية أبو العباس الرهونِي كيفية احتفال زواياها بالمولد النبوي، فقال واصفاً مجالسهم بعد اجتماع المريدين، وأكل الطعام: «ثُم تتلى الأمداح النبوية، والقصائد المولدية فِي كل ضريح، وزاوية بين العشاءين، ويشتغل العلماء بتدريس الهمزية، والبردة، وغيرهما من كتب السير، حتى إذا كانت ليلة اليوم الثانِي عشر على ما جرى به العمل فِي العالم الإسلامي كله؛ أنيرت المساجد، والزوايا، والضرائح، وخصوصاً زاوية سيدي علي بن ريسون، وسيدي عبد الله الحاج، وسيدي السعيدي، وسيدي علي بركة وغيرهم، واشتغل المنشدون بقراءة الهمزية، والبردة، وقصائد المولد، والحضرات على أنوار الشموع، والكهرباء، ودخان الطيب بأصوات تثير الخشوع، وتحرك الكامن فِي الضلوع، من حب سيد الأفراد ﷺ ولا سيما فِي الزاوية التجانية، والزاوية الريسونية، والزاوية الدرقاوية..[3]».

---

(1) انظر الحاوي للفتاوي لجلال الدين السيوطي (ص/ 189) وكذا "مولد الروي" لملا علي القاري (ص/ 12)، ورسالة "البشرى بمولد خير الورى" للأستاذ المختار بن أحمد فال الشنقيطي (ص/ 35 –36) دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

(2) إتحاف أعلام الناس (6/ 197) بتصرف يسير، طبعة الأوقاف المغربية.

(3) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين (2/ 226–227).

وكذلك الشريف العلامة محمد بن الصديق[1] والد الحافظ أبي الفيض أحمد الغماري، كان يحتفل فِي زاويته بطنجة بالمولد الشريف، وعنه يقول الأديب محمد بن عبد الصمد كنون[2]: «حضرت مجلسه ذات يوم فِي زاويته ليلة المولد الشريف وهو يشرح حديث الصحيح "كلمتان حبيبتان إلَى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فِي الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[3] فأتى بالعجب العجاب، واستمر يُملي من حفظه نحو الساعتين كأنما يقرأ فِي كتاب، فقلت: تبارك الخالق الوهاب ﴿ يُوتِي اِ۬لْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ وَمَنْ يُّوتَ اَ۬لْحِكْمَةَ فَقَدُ اُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ اُ۬لَالْبَٰبِ﴾[4] ورحم الله ابن مالك إذ يقول: وإذا كانت العلوم مِنحًا إلهية، ومواهب اختصاصية؛ فغير مستغرب أن يَدَّخِر لبعض المتأخرين ما عَسُر على كثير من المتقدمين..[5]».

أما بلدتنا سوس؛ فهي مليئة بالزوايا، وغالبها تحتفل بالمولد النبوي، وعن بعضها يقول المختار السوسي:« أما فِي سوس فِي إلْغ زاوية للفقراء، ومدرسة العلماء، وكلتاهما تعمر فِي ليلة المولد النبوي، فالزاوية بالأذكار، وربُّ المدرسة يملأ مجلسه بالأمداح النبوية، وقد اعتاد العلماء، والطلبة الذين يجاورون إلْغ أن يحضروا فِي تلك الليلة التِي تُتلى فيها بالتغنِي على ألسنة المنشدين قصائد الهمزية، والبردة، وبانت سعاد، ثُم تقال قصائد نبوية على ألسنة أصحاب القريض من الحاضرين، فمن هناك منبع كثير من قصائد شيخنا سيدي الطاهر بن محمد، فيلقيها بنفسه إن حضر، وإن لَم

---

(1) ولد سنة 1295هـ، وهو من كبار شيوخ العلم والتربية، له شهرة واسعة، ألف ابنه أحمد كتابين فِي أخباره ومناقبه سمى الأول: "سبحة العقيق بذكر مناقب الشيخ سيدي محمد بن الصديق"، والثانِي: "التصور والتصديق بأخبار الشيخ محمد بن الصديق".

(2) علامة أديب، ولد بفاس، هاجر مع أسرته إلَى طنجة سنة [1914] من مؤلفاته: نفحات الأزهار فِي بدائع الأشعار، وحقيقة الفوائد للأولاد والحفائد، وتوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة [1990].

(3) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالَى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم الحديث [7563].

(4) سورة البقرة الآية 268.

(5) مواكب النصر وكواكب العصر العلامة الأديب محمد كنون (ص/ 38).

يرسلها من إفران؛ فتلقى هناك فِي حضرة شيخه سيدي علي بن عبد الله، فهناك مطلع قصيدة من هذه القصائد النبوية الطاهرية:

بَــرِحَ الْخَفَــاءُ وَصَــرَّحَ الْوَجْــدُ ❁ وبَـدَا الـذي مـا خلتـه يَبْـدُو[1]».

ولم يقتصر احتفال الزوايا بالمولد في المغرب فحسب؛ بل امتد إلى شتى بقاع العالَم الإسلامي. قال الحافظ السخاوي فِي ترجمة برهان الدين المصري الشافعي المتوفَّى سنة [889هـ] «وابتنَى زاوية؛ بل مدرسة على شاطئ النيل تجاه المقياس، تقام فيها الجمعة، والجماعات، فكانت مقصودة لكثير من الصالحين، والفضلاء سيما مع مزيد أدبه، وتودده، ورفده، ومدده، وذكائه، وتواضعه فِي انتهائه وابتدائه، وفِي كل سنة يعمل المولد بالزاوية النعمانية التِي تحت نظره، فيجتمع عنده الأعيان من كل صنف..[2]» .

وخلاصة القول أن هذه الزوايا هي التِي بثت أنواعًا من العلوم المختلفة فِي ربوع المغرب شرقه وغربه، شماله وجنوبه، ثُم تفرعت عن كل واحدة منها العشرات من الزوايا الأخرى، حتى غدت تلك الفروع مَثَلُها فِي ذلك: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فسارت مختلف تلك الفروع فِي احتفالها بالمولد على نهج أعراف وعادات الزوايا الكبرى، وسرعان ما انتشرتْ مجالسُ الموالد بالمغرب فِي كل قطر من أقطاره، خصوصًا بعد القرن الحادي والثانِي عشر الهجريين، غير أن تلك الزوايا الكبرى بدأ نفوذها يتراجع سياسيًا، واجتماعيًا، وعلميًا، لكنها قبل ذلك انبثقت منها مختلف الفروع التِي أطلق عليها فيما بعد "المدارس العتيقة" واستمرت هي الأخرى تكافح فِي تدريس العلم الشرعي، وفض المنازعات بين القبائل، وإن كان أغلبها ليست كحال الزوايا الكبرى فِي المكانة العلمية، ولا فِي التربية الروحية.

---

(1) المعسول (1/ 31). وانظر نص القصيدة في المعسول (7/ 175-176).

(2) الضوء اللامع (1/ 79).

(3) من الآية 260 من سورة البقرة.

ومما لا مراء فيه؛ أن احتفال أطفال الكتاب القرآنِي قديم جداً، سبق احتفال الزوايا بالمولد، بله المدارس العتيقة بمديد الأزمان، فناسب أن نبدأ به أولاً، تليه احتفالات تلك المدارس، جمعًا بين الحفاظ على نسق السبق التاريخي، ومراعاة للترتيب الزمنِي.

النوع الخامس: احتفال أطفال الكُتّاب القرآنِي:

من الطريف أن يكون أطفال الكتاب القرآنِي هم المؤسسين العمليين للمولد النبوي فِي المغرب؛ وغريب حقًا أن يكون ذلك كذلك؛ لأن أبا العباس العزفِي لما خطر له الاحتفال بالمولد لأول مرة بسبتة، واتخاذه عيداً؛ شرع يطوف أولاً فِي الكتاتيب القرآنية بسبتة، ويُعَرِّف الصبيان، والأطفال بآداب مولد النبِي ﷺ وتاريخه، وأن نبينا أفضل من سائر الأنبياء، لأنهم كانوا يخالطون أبناء النصارى فِي احتفالاتهم بمولد عيسى عليه السلام، ويشاركونهم فِي مهرجاناتهم، فخشي على عقيدتهم، وتأسَّف للحال، وتشوف للمآل، فكان ذلك سبباً فِي استحداثه المولد النبوي الشريف.

والقصد من هذا الاستهلال؛ أن أبا العزفِي جعل من أطفال سبتة مقدمات نظرية، للتطبيق العملي للاحتفال بالمولد، سيما فِي المراحل الأولَى لبروزه، ومن ثَم أصبح بعد زمن يسير احتفالاً رسمياً فِي سائر أنحاء المغرب، ليعم بعد ذلك فِي كل أرجاء الغرب الإسلامي.

ومن الإشارات النادرة فِي ذلك ما نقله أبو العباس الونشريسي عن بعض الفضلاء بعد إيراده لفتوى ابن عباد حول جواز المولد فقال: «فكلام هذا الولِي يدل على كمال محبته وحسن طريقته، وما أنكر من أنكر ما يقع فِي هذا الزمان من الاجتماع فِي المكاتب للأطفال إلا خيفة المناكر، واختلاط النساء، والرجال، فأما إذا أُمن ذلك؛ فلا شك فِي حسن ما يفعل من الاجتماع، وذكر محاسنه، والصلاة عليه ﷺ فِي سائر البقاع، ويحرم استعمال آلة اللهو عند الاجتماع فِي هذه الليلة، ولا يجوز تعظيم نبِي الله تعالَى إلا بما يرضيه، ويرضي الله تعالَى..[1]» والقصد من إيراد هذا النص؛ ظهور

---

(1) المعيار (11/ 279).

احتفال الأطفال بالمولد الشريف فِي عصر ابن عباد المتوفى سنة [792هـ].

غير أن جل المصادر التاريخية الممتدة من غروب الدولة الموحدية إلَى نهاية حكم المرينيين؛ لَم تظهر فيها احتفالات موحدة يمكن أن تكون بمجموعها اتجاهـاً خاصاً لمظاهر الاحتفال بالمولد عند الأطفال، نعم تجدد شيء من ذلك فِي كتاتيب القرآن بفاس -البالغة على عهد الدولة الوطاسية قرابة مائتَي مدرسة - وزادوا على ذلك؛ فابتكروا عوائد متبعة يسلكونها فِي الاحتفال بالمولد.

وقد خصص الحسن الوزان فصلاً فِي كتابه "وصف إفريقيا" سماه: "مدارس الأطفال" فقال بعد أن بيَّن كيفية احتفالهم بختم القرآن: « ويحتفل هؤلاء الأطفال أيضاً؛ بعيد المولد النبوي، ويلزم آباءهم أن يرسلوا شمعة إلَى المدرسة، فيأتِي كل طفل بشمعته، ويحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلاً، أو أكثر أو أقل، وهي شموع جميلة مزخرفة جداً مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من شمع توقد فِي مطلع الفجر، وتطفأ عند بزوغ الشمس..[1]».

ويظهر أن ذلك ترسخ فِي عصر الوطاسيين أكثر؛ حتى أصبح تقليداً مرعياً لا يتخطاه أطفال الكُتّاب فِي كل عيد نبوي، فدونك قول الحسن الوزان: «ومن عادة المعلم أن يدعو بعض المسمعين لينشدوا أمداحاً نبوية، وينتهي الحفل بمجرد طلوع الشمس، وهذا أحسن مورد لمعلمي المدارس؛ لأنهم قد يبيعون من الشمع ما قيمته مائة مثقال أو أكثر من ذلك بحسب عدد تلاميذهم، ولا يؤدي أحد منهم كراء عن هذه المدارس؛ لأنها أوقاف، وصدقات جارية على أرواح الواقفين؛ أما فواكه تلك الشموع وأزهارها؛ فتعطى هدايا للأطفال..[2]».

ويبدو أن هذه العادة اشتهرت فِي المغرب وقتها اشتهاراً جعل العلامة الونشريسي يُبوِّب فِي معياره عنواناً سماه: "اعتاد أهل المغرب الأوسط والأقصى

---

(1) وصف إفريقيا (1/ 261-262).

(2) وصف إفريقيا (1/ 262).

أن يعطوا المعلمين شمعـاً فِي المولد"[1] فعُممت هذه العادة فِي سائر الكتاتيب القرآنية على طول ما يسمى الآن بـ: "المغرب الكبير" فوحَّدت تلك الشموع أعراف الأطفال يوم المولد، ولطالما ينتظرون وصوله بأقصى شغف؛ لحمل الشموع فيها، وتزيين مجالسهم بها، والتسلّي بأضوائها.

وإذا كان إدخال السرور على الأطفال فِي العيد النبوي قد أصبح عندهم عادة تتجدد كل سنة؛ فإنهم يفرحون أكثر بفواكه تلك الشموع، وأزهارها كما قال ليون الإفريقي، ويمتد الفرح ليصل إلَى المعلم فيفرح بدوره بتلك الشموع؛ لأنه يبيعها بقدر كبير، فيحصل السرور والابتهاج لكليهما، وهو المقصود الأصلي الذي استُحدث المولد من أجله.

ومن تتبع أصول أخبار احتفال كُتّاب الأطفال عبر تاريخ المغرب؛ سيجدها غير منضبطة على مسلك خاص، وغير متوافقة على منهج متحد، سيما فِي العصور الأخيرة، جاء فِي أخبار السلطان مولاي سليمان العلوي أن وزيره «السيد محمد بن الحاج عبد السلام السلاوي خرج فِي المولد لضريح سيدي محمد، وأطعم الطعام، وبعث لبعض الطلبة من سلا، ومن الرباط، فختموا البردة وفرق عليهم الدراهم..[2]».

ثُم ظهرت عادة أخرى فِي العصر نفسه، وعنها يقول صاحب كتاب الدولة السعيدة: «وفِي 1 ربيع الأول وهو يوم الثلاثاء؛ بعث الفقيه السيد محمد بن زاكور وراء الطلبة وعرضهم المختصر -وهم أهل المدارس- وعرض عليه الفقيه السيد محمد الحميانِي وغيره ممن يحفظ المختصر، ثُم وجههم للسلطان ورتبهم فِي زمامه، وأعطى لكل طالب مائة ريال، ولما وجد من يحفظ حمزة والمختصر؛ أعطاه مائتَي ريال، ومنهم من أعطاه خمسين ريالاً، ومنهم من أعطاه المال، وقفطاناً من الملف، وكل من صبيان فاس وطلبتهم؛ الذين يحفظون خليل، كأولاد الفقيه ابن سودة..[3]».

---

(1) المعيار (8/ 254).

(2) تاريخ الدولة السعيدة لأبِي عبد الله محمد الضعيف (ص/ 332) تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات الطبعة الأولَى/ 1986.

(3) تاريخ الضعيف، أو تاريخ الدولة السعيدة (ص/ 309).

فهـذه عـادة أخـرى جديـدة جاريـة عنـد الأطفـال والطلبـة، يُسـتدعون للاختبـار بمناسبة المولد النبوي؛ لكنها غير مستقرة، ولا معممة فِي سائر المملكة؛ بل تشوبها نوع من الفوضى أحيانـًا، كما وقـع لما اجتمع طلبة المدارس بمناسبة المولـد في عصر مولاي سليمان: «وطلعوا على السلطان على أن يعطيهم شيئًا يتنزهـون بـه، ودخلوا مدرسة فاس الجديد، فأغرى عليهم ابـن عثمان، وأوقعت بهم المخازنية، وضربوهم بالعصا وذلك حسداً منه..[1]» ويقصد الضعيف؛ ابن عثمان، لا مولاي سليمان، كما هو ظاهر.

وقد بات من الصعب أن تستمر تجمعات الأطفال بمناسبة المولد النبوي بعد تدخل السلطان لمنعهم، ولا يخفى أن قصده فِي ذلك؛ ألا يُتَخذ يوم مولده عليه السلام يومـًا للاسترزاق والتسول، لأنه خُصَّ بالفرح والحبور، نعم لاحتفال الأطفال عادات قارة، وتقاليد مرعية، كعقد مجالس علمية للطلبة لامتحانهم، واستدعائهم للقصور الملكية لإنشاد البردة والهمزية، فضلاً عن تلاوتهم توسلات نبوية، وابتهالات دينية بأنغام مؤثرة داخل الزوايا والأضرحة، وما عدا ذلك لا يعدو أن يكون فِي نظر السلطان فوضى عارمة اخترقت هيبة الأعراف العريقة الجارية فِي ليالِي مولده عليه السلام، فوجب منع احتفالات عشوائية خارجة عن أسوار نظام قانون العوائد المولدية، لأنها تُشوِّه جمالها، وتخدش بريقها، وتنقص من بهجتها، ولا عيب بعد ذلك أن يقتلع السلطان أمثال هذه التصرفات من جذورها.

ولئن كانت هذه الوقائع حدثت فِي أول حكم السلطان مولاي سليمان سنة 1213هـ؛ فقد تجددت بعد مرور قرن ونصف تقريبـًا فِي عهد الملك محمد الخامس، وإن كان ألئك الأطفال هذه المرة لَم يتجهوا إلَى باب السلطان لأخذ العطايا والمنح، وإنما سعوا إلَى محاولة تأسيس عرف جديد خاص باحتفالاتهم بالمولد النبوي بعيداً عن البلاط الملكي.

وقد فصّل النقيب ابن زيدان ذلك بأوضح عبارة، فقال: «ثُم إن قدماء تلاميذ

(1) تاريخ الضعيف (ص/ 309).

مدارس مكناس؛ راموا إقامة مهرجان يوم العيد النبوي، وقرروا جعل أناشيد يكلفون صبيان المكاتب بحفظها، ويظلون يوم العيد يطوفون بأزقة البلد، ينشدون تلك الأناشيد، راكبين متون السيارات البخارية، ومعهم المطربون فِي سيارة خاصة مغطاة بالزرابِي، ومكللة بالأزهار، يُغنون وينقرون آلات الطرب، ويكون ختم مطافهم بضريح الشيخ الكامل[1] مقلدين فِي ذلك ما يجري بطنجة يوم سابع عيد المولد كل عام فِي موسم السيد محمد الحاج بوعراقية من البدع التِي لا تحل فِي دين..[2]».

ويتضح أن قدماء تلاميذ مدارس مكناس استعدوا للاحتفال، وحشدوا السيارات، وزوقوها بالزرابِي والأزهار، مصحوبين بالمنشدين، مما يدل على مدى دقة تنفيذ الخطط المرسومة سلفًا، ويبدو أن السبب الباعث على ذلك؛ إحساسهم فِي مجالس احتفالات الرجال والنساء بالمولد، الاستخفاف بهم، والانصياغ لأوامر المشرفين عليهم، وضرورة الالتزام بالقانون العام الضابط للمجالس المولدية، والذي عادة لا يتوافق مع مزاج الصبيان، وتصرفات الأطفال، وهذا يفسر طريقتهم فِي الاندفاع نحو استحداث طريقتهم للتعبير عن الفرح والسرور، كما يحلو لهم دون أدنَى قيود، وهذه نتيجة حتمية أملتها ردة فعل عكسية تُفجر ذاك الضيق -وإن شئت قلتَ: الطيش- الذي يشعرون به فِي أنفسهم.

وقد علل مؤرخ الدولة العلوية النقيب ابن زيدان أسباب منع الملك محمد الخامس احتفالاتهم بقوله: «وقد غاب عن ذلك الشباب الناهض أن ما صمموا على فعله هو من باب غسل دم بدم، وحسبوا بعدما نهوا عن ذلك أنهم يحسنون صنعًا، ولما شاع عنهم ذلك وذاع حتى بلغ العلم الشريف؛ أصدر أوامره المطاعة للباشا بالضرب على أيديهم، ومنعهم منعًا كليًا من كل ما يخالف المقرر..[3]».

وقد نقل مولاي عبد الرحمن بن زيدان رسالة ملكية تأمر باشا مكناس منع احتفال ألئك الأطفال بالمولد بتلك الطريقة، وهذا نصها: «وبعد؛ فبناء على ما تقرر لك

(1) القصد هو: الولِي الصالح ابن عيسى المكناسي صاحب الطريقة العيساوية [ت 1041هـ].
(2) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان (ص/ 193-194).
(3) الدرر الفاخرة (ص/ 194) نشر شركة نوابغ الفكر القاهرة الطبعة الأولَى/ 2008.

هنالك فِي الجلسة التِي حضرها نائب الجنرال حاكمًا الناحية، ورئيس البلدية فِي شأن موسم عيساوة؛ قد بلغ الآن لشريف علم سيدنا؛ أن بعض المغرضين يهيئون خرق ذلك بإقامة مهرجان على ظهر الطوموبيلات، وذلك يُعد محاولة لخرق الأوامر المقررة، وعليه فعن الأمر الشريف أسماه الله؛ امنع كل محاولة تخالف ما تقرر، واضرب على يد من يريد خرقها، واتخذْ لذلك كل الوسائل الموصلة لتنفيذه بالحرف طبق أمر مولانا المعتز بالله، وعلى المحبة والسلام فِي 22 صفر عام 1353هـ، محمد المقري..[1]».

ويظهر أن ألئك الأطفال احتفلوا بتلك الهيئات المذكورة في الربيع النبوي لسنة 1352هـ؛ لأن الأوصاف التي ذكرها النقيب؛ استمدها فيما يبدو من طوافهم في المدينة، لما أظهروا طريقة ابتهاجهم فيها، فاستعدوا بعد ذلك للاحتفال بالمولد في السنة المقبلة جريًا على عوائدهم السابقة، وربما استرق مخبرو باشا مكناس السمع، فوصل خبرهم إليه، فأشعر على التو السلطات العليا بذلك، فاحتاطت لإفشاله، ومن ثَم أصدر الملك رسالة عاجلة -لاتخاذ ما يشبه أن يسمى تجاوزاً بالإجراءات الإحترازية- وذلك قبل وصول المولد النبوي الموالِي بنصف شهر تقريبًا، أي: فِي صفر عام 1353هـ، فاتخذ باشا مكناس الحيطة والحذر، فانتهض لذلك، وتصدى لهم، فكان ذلك سببًا فِي قطع دابر ذاك النوع من الاحتفال.

أما فِي هذا العصر؛ فليس للأطفال طقوس محددة، ولا احتفالات خاصة بهم، نعم يستريحون كالعادة أيامًا فِي المولد النبوي. قال بعض العلماء المعاصرين الموريتانيين مبينًا عدد أيام العطل المحضرية في الأعياد الدينية: «ثلاثة أيام بمناسبة العيدين؛ الفطر، والأضحى، وعيد المولد..[2]» والشيء نفسه يجري فِي البلدان المغاربية، أعنِي العطل؛ أما أمدها فيختلف حسب أعرافها.

---

(1) الدرر الفاخرة (ص/ 194).

(2) بلاد شنقيط المنارة والرباط للخليل النحوي (ص/ 168) المنظمة العربية للتربية والثقافة تونس ط الأولَى/ 1967.

أما فِي المغرب فتبتدئ عطلة المولد النبوي الشريف كما قال الدكتور عبد الهادي حميتو: « فِي فاتح شهر ربيع الأول إلَى عشرين منه أو ما يقاربها، ويخرج فيها التلاميذ أيضا "للتصراف" باللوح المزخرف، كما يشاركون أيضاً فِي بعض الجهات من المغرب فِي الحفلات ليوم المولد والتهيئ لها..[1]» وخالفه شيخنا المرحوم سيدي صالح الإلغي لما حصر عطلة المولد فِي أسبوعين فقط[2] ولعل الأول عرف دكالة، والثانِي عرف سوسي.

النوع السادس: احتفالات الـمدارس العتيقة:

تكاد عوائد المدارس العلمية العتيقة فِي مختلف أنحاء المغرب تتطابق فِي الأمداح التِي تُقرأ بها، حيث يبادر الفقيه، والطلبة النجباء على إلقاء دروس وعظية حول سيرته ﷺ ومُحاضراتٍ حول أخلاقه وأسلوب دعوته، طيلة ليلة مولده عليه السلام وغالباً ما يحضرها الفقهاء، والشعراء، الذين يسردون بدورهم منظوماتٍ وأشعاراً ومدائحَ حول جَنَابِه الشريف، كقصيدتَيْ البردة[3] والهمزية، ويحضرها عددٌ من

(1) حياة الكتاب وأدبيات المحضرة للدكتور عبد الهادي حميتو (2/ 956) نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2006.

(2) المدرسة الأولَى (ص/ 99).

(3) ذكر محمود مهدي الإستانبولِي أحد تلامذة الشيخ الألبانِي فِي رسالته كتب ليست من الإسلام (ص/ 11-26) قصيدة البردة للإمام البوصيري وحذر منها، ولَم يكتف بنقد بعض الأبيات المعهودة التِي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة -التِي يطعن فيها بعض إخواننا- بل بالغ فِي ذلك حتى عدَّ منها 47 بيتاً، ولعله لَم يجد مآخذ عليها جميعاً، لذلك انتقد خُمُسَها بتأويلات غريبة، أقل ما يقال عنها أنها مرجوحة، وزاد على ذلك فأنكر عدداً من الإرهاصات المصاحبة لمولده ﷺ كما مر بيانه، فضلاً عن وجود أخطاء فِي بعض أبيات البردة للإمام البوصيري، بل وحتى فِي بعض الآيات القرآنية انظر (ص/ 24 و 34) وزاد جهالة على ما سلف أن نسب دعاء العلامة سيدي امحمد الناصري الدرعي المشهور، للتاج السبكي فِي (ص/ 36) ولما أحس بعدم بلوغ المراد برسالته تلك، استنجد فِي مقدمتها قائلاً: «فنأمل من المسلمين الواعين؛ مساعدتنا فِي إحباط هذه المؤامرة، والابتعاد عن هاتين المفسدتين: دلائل الخيرات، والبردة..» (ص/ 5) وطعن فِي شيخ الأزهر المفكر الإسلامي الكبير عبد الحليم محمود لـمَّا حقق جملة من كتب التصوف ومنها "إيقاظ الهمم" لابن عجيبة وقال: «وقد سجدت إلَى الله تعالَى سجدة شكر لما علمت بموته..» (ص/ 93) لأنه فِي نظره: «ملأ العالَم

الوعاظ، والخطباء، والفقهاء، والأئمة، وعامة الناس، فضلاً عن وُجَهاء المنطقة وفُضَلائها وأعيانها.

فهذا أحد المعاصرين يصف هذه الاحتفالات فِي إحدى المدارس العتيقة بسوس قائلاً: «ويتم ذلك فِي جو بهيج يتسم بجمالية المديح، وطمأنينة القلب، وسمو الأرواح، بحيث يُختَم القرآن عدة ختمات، ثُم تُنشَد الأمداح النبوية بأصوات ندية خاشعة يطمئن إليها قلب المؤمن، ويرتاح لها العقل السليم، وكما هو معروف لدى الأوساط السوسية؛ أنهم غالباً ما يحفظون هذه الأمداح عن ظهر قلب، وقلما تجد طالباً من الطلبة إلا ويحفظ الشيء الكثير منها..[1]».

وقد بلغ الأمر ببعض هذه المدارس العتيقة أن أُطلق عليها اسم [الملود] اقتباساً من ليلة ولادته عليه السلام فاشتهرت منذ نشأتها فِي أواسط القرن العاشر الهجري وإلَى الآن باسم "تفراوت الملود" ويرجع شرف تلك التسمية إلَى أنها: «أول منطقة بجزولة أُقِيم بها الاحتفال بهذه الذكرى..[2]» وهذه فائدة تاريخية نفيسة، وإن كان يبدو أن المولد ظهر فِي جزولة قبل هذه الفترة بقليل، وبالجملة فللنَّظر فِي ذلك مجال، سبق إيراد شيء منه، فِي المبحث الثانِي من هذا الفصل فليراجَع[3].

ولهذا يفرحون كثيراً بهذه الأسبقية، فتَتَجنَّد القبيلة صغيراً وكبيراً، وعلى مدار يومين كاملين؛ لتقديم خدماتٍ للزوار، مُظهرين الفرح والسرور، منشغلين بترتيبات سَيْر الاحتفال وطريقته التِي يُشْرف عليها فقيه المدرسة.

وقد وصف الفقيه أيت بومهاوت عادات مدرسة تفراوت الملود وصفاً حسناً؛

الإسلامي بكتب الصوفية الخرقاء الهدامة..» وفق تعبيره !! وتوجد هَنَاتٍ ومآخذ أخرى عليه -على صغر حجم تلك الرسالة- يضيق ذكرها هنا عند استعراضها.

(1) مدرسة أنزا العتيقة بين الأصالة والمعاصرة (ص/ 70) لعبد الله جعفر أبو القاسم مطبوعات السنتيسي/ 2007.

(2) منار السعود عن تفراوت الملود ومدرستها العتيقة (ص/ 114) للفقيه أيت بومهاوت أمحمد الوسخيني الطبعة الأولَى/ 1994.

(3) راجع (ص/ 37-38) من هذا البحث.

فقال: «وقد اعتاد أن تُلقي خلال هذا الاحتفال ثلاثة دروس دينية، وبعد انتهاء الدرس تقام صلاة العشاء ليتناول وجبة العشاء مع بعض الزوار، لأن المجلس لا يستوعبهم جميعًا.. وبعد ذلك وأثناء شرب الشاي؛ يَنْكَب هؤلاء ومعهم طلبة المدرسة على إنشاد الأمداح النبوية من قصيدتَيْ الهمزية والبردة، وتتخلل هذه التلاوة بين الحين والآخر موعظة، حيث يقوم الفقيه بشرح مضمون المقاطع المقروءة باللهجة المحلية، وتستمر التلاوة والشرح حتى منتصف الليل، حين يختم المجلس بتلاوة حزب الصباح الراتب والدعاء..[1]».

هذا ما يتعلق باليوم الأول؛ أما يوم الاحتفال فقد تابع صاحب كتاب: "منار السعود" ما يجري فيه قائلاً: «وفِي صبيحة اليوم التالِي؛ يعود الفقيه إلَى المدرسة، ويجد الطلبة يقرؤون أجزاء القرآن بالمسجد بعد صلاة الصبح، وتلاوة الحزب الراتب، ويعقبون ذلك بتلاوة الهمزية والبردة من جديد، ثُم يلقي الفقيه الدرس الثالث والأخير، ثُم يَختم الحفلَ بالدعاء، وينصرف الزُّوار تعمهم حالة من الفرح والمسرات..[2]».

أما مدرسة بومروان؛ فقد وصف الأستاذ إبراهيم بوحيدة شيخَه سيدي الحاج إبراهيم بن محمد التملي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يُحيي ليلة المولد «بهمة عالية، ومحبة نامية، وكان يجلس فِي مكانه منذ ابتداء مراسيم الحفل إلَى نِهايتها التِي تستغرق ساعات، ولا يغير جلسته التِي جلسها تأدبًا مع رسول الله ﷺ وحُبًا له.. -إلَى أن قال-: وكان سادتنا طلبة المدرسة البومروانية يأخذون زينتهم الظاهرة والباطنة ويستقبلون مناسبة المولد استقبالاً كبيراً، فبعد صلاة المغرب؛ يتلون الحزب الراتب تلاوة مرتلة جماعية، وبعده أدعية مباركة مشهورة، ويقرؤون بنغمة حسنة عدداً من قصائد المديح النبوي، كقصيدة البردة والهمزية، وبانت سعاد، وبرح الخفا فِي مدح المصطفى لسيدي الطاهر الإفرانِي، وتُتْلى فِي المجالس أدعية مباركة، وتوسلات،

(1) منار السعود عن تفراوت الملود (ص/ 115-116).
(2) منار السعود (ص/ 117).

وابتهالات كريمة..[1]» وعلى مسلكه مشى نجله، ووارث سره سيدي الحاج محمد بن إبراهيم أيت هماد التملي .

وهذه عادة الفقهاء فِي سوس فِي كل عيد نبوي، يلتزمون بقيام الليلة المولدية، قال المختار السوسي فِي ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن سكوك المتوفَّى سنة [1331هـ] «وكان المترجم محور الحفلة المولدية المعلومة التِي تقام فِي مسجد "أَسْكَّاوْرْ" التِي لا تشبهها حفلة مولدية فِي تلك الجهات، وقد كان الجد الأعلى؛ الشيخ سيدي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بنَى مسجداً فِي " أَسْكَّاوْرْ " وآخر فِي أَكْرْسِيفْ؛ وتقام فِي كل واحد منهما حفلة فِي أوائل ربيع الأول.. إلا أن الأولين أحرص الفريقين على هذه العادة إلَى الآن، لكون العلم والصلاح يغلب عليهم، وقد كان المترجم هو قطب هذا كله فِي حياته إلَى أن مات..[2]».

وإذا كان الاحتفال بالمولد الشريف تحتفل به كل المدارس العتيقة فِي شتى ربوع المغرب؛ فإن أشهرها صيتاً، وأكثرها ذيوعاً بسوس؛ ذاك الذي يقام بمدرسة بونعمان[3] قال صاحب "الدر النضيد" مبيناً كيفية استعداد الفقيه سيدي الحاج سعيد للاحتفال، وشغفه بالقيام بمولده عليه السلام: «فهَيْمَنَتْ بذلك محبة رسول الله ﷺ على قلبه، ولذلك كلما هبت رياح ذكرى مولده ﷺ إلا وقد عبر عن تلك المحبة البالغة العظيمة التِي هي أكثر بكثير من المحبة للولد، والوالد، والناس أجمعين؛ بدراسة السيرة النبوية العطرة، وباحتفال بهيج يحضره جمع غفير من مختلف المناطق، يحدوهم الشوق للاحتفاء بهذه المناسبة النبوية الغالية الشريفة، التِي هي مظهر من مظاهر المحبة، والتبجيل لأشرف خلق الله تعالَى صلوات ربِي وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، وقد شيد الشيخ وهيأ لهذه المناسبة الشريفة مبانِي

---

(1) مدرسة بومروان وأنشطتها العملية والدينية (ص/ 54-55-56) للحاج إبراهيم بوحيدة.

(2) المعسول (17/ 153-154).

(3) تابعة لجماعة بونعمان عمالة تزنيت، وهي بين الطريق الرابطة بين تزنيت، وأيت بعمران في جنوب المغرب، وهي من المدارس التي دَرَسَ فيها مؤرخ سوس، العلامة المختار السوسي.

عظيمة خاصة؛ تتوفر على جميع المرافق الضرورية من قاعات واسعة..[1]».

قلتُ: ولو خصص المؤلف لفقيه مدرسة بونعمان سيدي الحاج سعيد فصلاً مستقلاً فِي انتهاضه للمولد النبوي، وحسن قيامه له؛ لَما وفَّى له حقه، فكيف الظن بهذه الإشارة الخفيفة، ذلك أن كل المدارس العلمية بسوس تحتفل بالمولد الشريف؛ لكن لا أحد منها يضاهي احتفال مدرسة بونعمان بربوع سوس كلها؛ حيث تتقاطر الوفود على المدرسة من مختلف المدن والقرى، طيلة يوم ليلة المولد، فضلاً عن عامة الناس فِي محفل بهيج تضيق به عادة رحاب المدرسة البونعمانية، ويُطَرِّز تلامذة الشيخ المجلس بقصائد مديحية رائقة[2] وتواتر الخبر أن عدد الزوار والضيوف والمباركين للمولد الشريف؛ زاد عددهم فِي السنة الماضية[3] على خمسة آلاف شخص، وهو عدد لا يحضر حتى عشر معشاره بل ولا نصيفه فِي مدارس سوس الأخرى منفردة، وفِي كلها مجتمعة.

أما الاحتفال بالمولد فِي مدرسة أيت اعزا باشتوكة أيت باها؛ فمنذ بزوغ هلال ربيع الأول، تحس بالفقيه الصالح المرحوم سيدي الحاج محمد البوشواري يهتز شوقاً ومحبة، فيسارع إلَى شرح عدد من قصائد الأمداح النبوية لطلبته، عاقداً لها مجالس قارة، مخصصاً لفصولها أنصبة معلومة، شارحاً جزءاً من قصيدة الهمزية[4] صباحاً، وآخَرَ من البردة بعد صلاة الظهر.

فيدرس البردة بشرح العلامة سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي الموسوم بـ: "تعليق على بردة المديح" المطبوع على الحجر قديماً بفاس، والهمزية: بشرح النظيفي كذلك، المترجم بـ: "الإبريزية على القصيدة الهمزية" ويستعين أحياناً

(1) الدر النضيد والخبر السديد فِي شخصية الشيخ سعيد للفقيه لحسْن توفيق التجاجتِي (ص/ 42-43) نشر مطبعة سوماكرام الدار البيضاء الطبعة الأولَى/ 2017.

(2) تنظر قصيدة تلميذه سيدي إبراهيم بن محمد الأمسراوي الإفرانِي بمناسبة المولد فِي: الدر النضيد (ص/ 146).

(3) أعنِي: مولد 1438هـ.

(4) المقسم إلَى سبعة أقسام حسب أيام الأسبوع كما هو معروف.

بشروح أخرى، مع تخصيصه لقصيدة بانت سعادة نصابين عادة، أو واحداً نادراً، حتى ينتهي من شرح تلك القصائد، فيكون المجموع 16 مجلساً، ينثر الفقيه فِي ثناياها أزهار هديه عليه السلام، وهكذا دأبه في كل غرة ربيع نبوي.

وأخبرنِي غير واحد من طلبته الذين حضروا تلك المجالس؛ أن غاية قصد الشيخ ومرماه؛ التركيز على بيان فقه سيرته عليه السلام، وتتبع الأحكام المستنبطة منها، واقتفاء آثار مقاصد تصرفات جنابه الكريم، مع غوصه في دقائق معجزاته، ومن ثَم يفيض فِي ألغاز السيرة النبوية، ونكتها الظريفة، ومستملحاتها الطريفة، حباً فِي المصطفى ﷺ وشغفاً بسيرته، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مولعاً بذلك، مشهوراً به، فتراه بعد طلعة الربيع النبوي؛ متحمساً وكله خفة، ونشاط، وحركة، فيغرف تلامذته من تلكم المجالس المديحية النبوية كل منهم على قدر إنائه.

ولَم يقف الأمر بالفقيه الصالح الورع سيدي الحاج محمد[1] عند ذلك الحد؛ بل دأب بزيارة قبر المصطفى ﷺ مهبط الوحي، مأوى الرسل، فِي كل ربيع نبوي، ولذا يسارع أحياناً إلَى جمع نصابين فِي قصيدتَي البردة، والهمزية ليسارع إلَى إتمامها، إذا زاحمه وقت السفر، ومن ثَم يقوم بحفل مولدي بهيج فور ختمه لتلك القصائد، يحضر فيه محبوه، وطلبته، وسائر الزوار من كل أصقاع سوس وخارجها أحياناً، ثُم يقوم بالاعتمار والتبرك بزيارة قبره الشريف، ويترك أولاده ليقوموا بالحفل الثانِي بمدرسة أيت إعزا فِي ليلة مولده عليه السلام، ويحضر الفقيه سيدي الحاج محمد فِي الحفل الأول فقط -وهو الذي يكون غاصاً بالزوار- أكثر من الثانِي الذي يصادف احتفالات أخرى.

ولئن كان الفقيه دأب فِي أواخر حياته على الذهاب للعمرة فِي استهلال كل ربيع

---

(1) كتبت عنه مقالة يوم وفاته 26 رمضان 1438 هجرية، قصدت منها الإعلام بوفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسميتها: "محاسن القدر فِي تسليم روح الصالح سيدي الحاج محمد نايت إعزا فِي ليلة القدر" نُشرت وقتها فِي عدة مواقع إلكترونية، وكتبت قبل ذلك عن ابنه عبد العزيز رسالة صغيرة مطبوعة سميتها: "الإبريز فِي نعي البوشواري عبد العزيز" طُبع منها 500 نسخة، وتوجد عندي 100 نسخة، وعند أسرته ما تبقى منها، وتوزع مجاناً لمحبيه.

نبوي؛ فإن شطراً من حياته الأولَى كان يُعَمّر مدرسته بالأمداح المتنوعة، والأذكار النبوية، ومُدارسة فصول السيرة العطرة طيلة النصف الأول من ربيع الأول، ويقوم بالاحتفال بليلتين فِي مدرسته، ويحضر فيهما معـًا، ومن محاسن الصدف؛ أننِي حضرت فِي آخر حفل حضره الفقيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك فِي مولد سنة 1438هـ[1] فهاك وصفه:

إنه مجلس ربانِي عجيب، وكيف لا يكون ذلك كذلك؛ وقد أقامه العارف بالله المصلح سيدي الحاج محمد نايت إعزا بمدرسته العامرة أيت إعزا فِي أوائل ربيع الأول من السنة المذكورة، فقصده سائر أعيان وفقهاء هشتوكة، وبدأ المحبون يتقاطرون من كل النواحي على المدرسة منذ قرب صلاة العصر، فترى المباركين للمولد النبوي زرافات وجماعات من كل حدب ينسلون، للحضور في ذكرى المولد الشريف، فغصت بهم جنبات المكان، وما زالت تلكم الجموع المباركة تتوافد إلى ما بعد صلاة المغرب، حتى ضاقت بهم رحاب المدرسة؛ فتزاحموا وتراحموا.

وبعد صلاة العشاء؛ يؤتى بالطعام أولاً، ويبالغ حفيد سيدي عابد البوشواري في إطعام الجميع بأنواع الطعام، فأكلنا فيه وقتها طجيناً كبيراً، وبسطيلة محشوة بفواكه البحر، بعدها فواكه الأرض من مختلف الأنواع، تشتهيها الأنفس، وتلذها الأعين، وقديمـًا قيل: الكرم والجود زينة الرجل، وإنما كتبت هذا للتاريخ؛ ليعرف من سيأتي بعدنا عوائد الأكل في مولديات مدارس هشتوكة؛ لا أنني قصدت شيئـًا آخر كما قد يوسوس في صدور الناس، فتنبه.

ثُم يجتمع الناس فِي صالون كبير، يتسع لأكثر من مائة فِي أعلى المدرسة، مقسم إلَى قسمين: الأول؛ عبارة عن فسيح كبير في الطابق العلوي على يمين الداخل، يجلس فيه العوام، والزوار، وسائر الضيوف، يتوسطه عمود كبير، والثانِي؛ على يساره: يكون غاصـًا بالفقهاء، والطلبة، والخواص.

فتنتظم تلك الوفود فِي المجلس، وما منهم إلا له مقام معلوم، فبينما هم كذلك؛ إذا

---

(1) يوم 04 ربيع الأول.

بالفقيه الربانِي سيدي الحاج محمد يدخل، وعليه هيبة، ووقار، وسكينة، ويجلس على أقصى يسار المجلس فِي زاوية مخصصة له، يحوط به بعض خاصة الخاصة، فيشير الفقيه لتلميذه النجيب سيدي عبد الرحمن حسنِي التسكدلتِي، فيبدأ البردة أولاً بنغم خفيف، مع صوت حسن، ولعله غيّر لحنها مرتين فيما أذكر، وبعد الانتهاء؛ أخذوا يشربون الشاي، والحلوى، والتمر، واللوز، والمكسرات، من مختلف الأنواع.

بعدها يشرعون فِي الهمزية، فتسمع أصوات المداحين تتعالَى فِي عنان السماء، والضيوف الجالسون فِي الصالون الآخر تتلذذ أسماعهم بنغماتها العذبة، مستَمِعين ومستَمْتِعين بتلك الليلة التِي فيها المديح والإصغاء، فترى القراء، والمنشدين، والطلبة، يتمايلون يميناً وشمالاً من شدة شوقهم لمدح المصطفى ﷺ ويسترقون النظر للشيخ، لهيبته، ووقاره، وحسن نيته فِي الخلائق أجمعين، وزاد لجمال تلكم الليلة المولدية بهاء وزينة؛ نظامها الدقيق فِي سَيْر مجاري الاحتفال، لا أعتقد أن نظير ذاك النظام يوجد فِي المدارس الأخرى، كل هذا وطلبة الفقيه، وخدام المدرسة بين الفينة والأخرى يمرون فِي وسط المجلس، وبأياديهم مباخر كبيرة، تعبق منها مجامير العود، وتفوح منها روائح المسك، ويبتلون المنشدين بالعطور الطيبة، ويرشون المداحين بالروائح الزكية.

ولطول القصائد المديحية التِي تتلى فِي مجلس الليلة المولدية؛ جرت العادة أن يقسم المنشدون أمداحهم إلَى مجموعتين: فيتناوبون فِي تردادها بيتاً بيتاً، الأولَى: يصطف المنضوون تحت سلكها بالتتابع بجانب الفقيه فِي نصف المجلس يساراً، ويستفتحون ببيت من قصيدة البردة، وبعدها الهمزية، والمجموعة الثانية: تجلس كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً يميناً، وترد عليها بالبيت الموالِي للسابق، وهكذا دواليك، وفِي ذلك من التخفيف على القراء ما لا يخفى فِي استرجاع نفَسِهم، واستجماع فكرهم، وسيدي عبد الرحمن التسكدلتِي يغير الأنغام[1] متى ناسب

---

(1) كان سيدي الحاج أحمد البوشواري المعروف بسي أحمد أُبها، هو الذي يتولَّى الإشراف على ترديد الأمداح، ويفتتح المجالس المولدية بمدرسة أيت إعزا، فجاء بعده سيدي أحمد أتنان السكتانِي، وفِي

الحال، واقتضى المقام، وعادة لا يتجاوز أربعة أنغام فِي المجلس كله.

فإذا انتهت قصيدتَي البردة والهمزية؛ شرع على التو فِي قصيدة "بانت سعاد" ولما انتهينا منها؛ سمعت الفقيه يقول له: برح الخفا، برح الخفا، هكذا مرتين خيفة ودون الجهر، لقربه منه، فأنشد سيدي عبد الرحمن مفتتحها بنغم جميل، وهي لسيدي الطاهر الإفرانِي؛ وما هو إلا كلمح البصر أو هو أقرب؛ حتى انقض المنشدون على وسط صدر البيت لتعودهم عليه، فضلاً عن جمالية لحنه، وقوة تأثيره، وبعدها اندفع المداحون نحو قصيدة "طيبة الغراء" للإمام النبهانِي، وهي: ألفية فِي السيرة النبوية، جرت العادة أن يجعلها المرحوم مسك ختام أمداح مجلسه، ويختار منها ربعها الأخير، ولعله قصد رحمه الله ألا يثقل على الزوار والضيوف، أعنِي؛ الفصل المتعلق بشمائله الشريفة ﷺ فقط، لطولها، بدءاً بقوله:

أجمل العالمين خلقاً وخلقاً ❁ ما له فِي جماله نظراء

وعددت عدد أبيات ذلك الفصل فوجدتها 216 بيتاً إلى خاتمته، وبالجملة فالمجلس الأول الذي يحضر فيه الفقيه لا ينضبط توقيته عادة، فمرة في اليوم الرابع، وأخرى فِي الخامس، أو السادس، حسب ختمه لأنصاب القصائد المديحية، ولا يستدعي رَحِمَهُ اللَّهُ أحداً لذاك الاحتفال؛ وإنما يترقبه المحبون له، والمهتمين به، حتى يعرفوا وقت انعقاده، ذلك موعدهم وهو يوم الزينة، خلافاً للثانِي؛ فقد استقر على ليلة الثانِي عشر كما جرت به العادة.

وقد دأب الفقيه الربانِي سيدي الحاج محمد البوشواري فِي ختام ذلكم المجلس النبوي؛ أن يقوم بإلقاء كلمة تكون مؤثرة جداً ومختصرة، أو كما قال تلميذه سيدي عبد الرحمن؛ وعظ رقيق يسري إلَى قلوب السامعين، ويدخل إلَى قلوبهم دون استئذان، وذلك شأن كل ما أسس على التقوى من الله ورضوان، ويحصل للحضور فِي تلكم المجالس الربانية خشوع خاص، تقشعر له جلود الذين يخشون ربهم، وتثير

هذه الأزمنة المتأخرة يشرف عليها صديقنا العزيز؛ ومفيدنا: الفقيه سيدي عبد الرحمن حسني التسكدلتِي الهلالِي، وكلهم من خيار طلبة الفقيه.

فيهم موعظة الفقيه نوازع محبة المصطفى ﷺ وتدعوهم إِلَى الاقتداء بهديه، والاستقامة على منهجه.

ثُم يرفع الجميع أكف الضراعة إِلَى الباري جل وعلا أن يرزقهم ثواب تلك الأمداح، وأسرار تلك الابتهالات، فترى الحضور خافضين رؤوسهم ويؤَمّنُون على دعائه بقلوب منكسرة، ونيات صادقة، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[1] ولهذا يقصد الزوار تلك المجالس لحصول البركة فيها، والانتفاع بها، وستزال كذلك إن شاء الله، حتى ياتِي أمر الله، وما كان ذاك الاستمرار ليكون؛ لو لا بقاء ذلك السر فِي محله، والحمد لله.

وحضرت فِي حفلة مولدية بتاكوشت فِي اليوم نفسه زوالاً، فلا تسأل عن مدى احتفال أهل تاكوشت بمولده عليه السلام وفرحهم به، سيما أعضاء الجمعية الذين يشرفون على تنظيم الحفل، وكنت فِي أمس ذاك اليوم بمولدية نبوية أخرى بمدرسة إمزي العتيقة[2] وهكذا تتسابق كل المجامع الكبرى، والمدارس العتيقة بالديار الهشتوكية فِي الاحتفال بالمولد النبوي، كالمدرسة السحابية، والصوابية، والتنالتية، والأخريبية، والأغبالوئية، والكونكية، والشيشاوية، ومدرسة درايد، وأيت عمرو، وسيدي سعيد الشريف، وإداومنو، وبنكمود، وعلال، وسيدي بيبِي، ويوف تركا.. وهلم جرا من المدارس العلمية، والقرآنية التِي انتشرت على طول جبال تنالت، ومداشر هلالة، وسفوح هشتوكة وضواحيها، وبسيط بيوكرى وأحوازها، وقُرى أيت باها ونواحيها، وسواحل ماسة إِلَى منتهاها.

فأنت ترى أن أهل الديار الهشتوكية حواضرها وبواديها كلها تحتفي بذكراه عليه السلام، ويبالغون فِي الاحتفال به، ويُشرف المجلس العلمي بتنسيق مع المندوبية بعد بزوغ الربيع النبوي على توزيع الشفا للقاضي عياض للفقهاء لقراءته ومدارسته مع الطلبة، ويداومون على أنصبته فِي كل ربيع نبوي، فيتفقهون فِي أسرار السيرة النبوية، فضلاً عن تنظيم المدارس العتيقة ندوات علمية كثيرة فِي بيان هديه عليه

---

(1) من الآية 18 من سورة الفتح .

(2) يوم 03 ربيع الأول 1438 هجرية.

السلام، وتعقد مدارسها العلمية والقرآنية لطلبتها مسابقات دينية عديدة فِي مُدارسة سيرته، والتبحر فِي حياض معجزاته، ويغدق المجلس العلمي على الفائزين جوائز قيمة، وهدايا متنوعة، أما تلاوة الأمداح فلا توصف؛ لأنها منغرسة فِي تقاليد المغاربة منذ حقب مديدة.

وصفوة القول أن السوسيين متى أبصرت أعينهم بروز هلال طلعة الربيع النبوي المبارك؛ تراهم فرحين مسرورين، وكلهم شوق، وشغف، ومحبة، وفِي هذا يصف فقيه مدرسة إكضي العلامة الأديب سيدي عبد الله رايس انطباع السوسيين بالذكرى المولدية فقال: «ما إن تحين ذكرى المولد النبوي الشريف، وما إن تهب نسائمه النبوية القدسية بإطلالة غرة ربيع الأول ربيع الأنوار وشهر الأسرار؛ حتى تعطر بأريحيها العبق أرجاء جزولة الغراء، فتنتشئ النفوس نفحاتها الذكية، وترقص طربًا لمقدمه البهيج، وحق لها أن تطرب وتهتز، فهو مولد النور..[1]».

وعلى الجملة فأغلب المدارس العتيقة بالصحراء وسوس وأحواز مراكش وشمال المغرب وغربه، تحتفل بالمولد النبوي الشريف، وما من عام إلا والذي بعده خير منه، وتكاد تلك المدارس بمجموعها أن تتفق على طريقة واحدة فِي الاحتفال، لانطباق أساليب وكيفيات إحياء الليلة الـمَولِدية فِي كل أنحاء المملكة الشريفة تقريبًا، اللهم بعض الاختلافات اليسيرة بحكم تبدل العادات، وتغير الأعراف، وتنوع الطبيعة الاجتماعية، والتأثر بالـمَنْزَع الخاص لكل قبيلة.

وعادة ما تكون مجالس الاحتفال بالمولد فِي المدارس العتيقة مزينة بزمرة من الصلحاء والمتقين، وكوكبة من أفاضل الفقهاء، والمداحين، وزادتها روعَةً وجمالاً تلكم المباخر المنصوبة كالقباب فِي جنبات المجلس، تعبق منها أجود أنواع المسك والبخور، وتفوح جنبات المجلس برائحة المسك، فَـتُلْقَى المحاضرات والندوات، وتسرد الأمداح والأشعار حول سيرته ﷺ ويَغْدِقُ فيها المحسنون على الفقراء، والمساكين بالإكرام، والصدقات، فتفيض صنوف النِّعم المختلفة، والمأكولات

(1) من تاريخ مدرسة إكضي إنتاجها العلمي وإشعاعها الثقافِي (ص/ 86) طبع دون بيان جهة النشر الطبعة الأولَى/ 2015.

النسيمة تشتهيها الأنفس، وتستلذها النواظر، فيحصل للقلب بسبب ذلك سرور وانشراح، فيُلقِي الحاضرون هموم الدنيا ورائهم؛ إلقاء موسى للألواح.

وحقيقة فإن أمثال هذه المجامع الحسنة والالتفاف حولها فِي المغرب الحديث؛ تُقَوِّي أواصرَ الأخوة بين المحتفلين، ومن ثَم تحصل الأُلْفة بين المسلمين، ذلك أن أمثال هذه المجالس هي السبب في ترسيخ أصول العلاقات المغربية، والتحام وحدتهم، ويظهر ذلك أكثر: «فيمن تأمل جذور أعراف المغاربة، وأصول عاداتهم.. سيجزم أنها لَم تكن منعزلة فِي يوم من الأيام عن حياتهم؛ بل امتزجت بسلوكهم، وأخلاقهم، وغرست فيهم كثيراً من الصفات الحسنة كالوسطية، والتآخي، والتسامح، والتعاون، والتآلف.. وكان لذلك أثرٌ واضح فِي مجامعهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، ومعاملاتهم التجارية، ومفاوضاتهم السياسية إلَى الآن..[1]».

فهذه الأنواع الستة من الاحتفالات هي الغالبة فِي المغرب ولا تشوبها أية شائبة، ويظهر ذلك لمن حضر فِي تلك المجالس فِي الزوايا، والمدارس العتيقة، والمساجد الكبرى فِي جنوب المملكة وشمالها، فقد حضرت فِي تلك الموالد فِي سوس، والصحراء، وأحواز مراكش غير مرة، ولَم أر فيها مخالفاتٍ فكيف بمحرمات؛ بل هي مجالس علم، وتقوى، وصلاح، عامرة بالخيرات والنعم، والإطعام، والصدقات، وتتخللها ابتهالات دعوية، وأذكار نبوية، وتوسلات مباركة.

النوع السابع: احتفالات الأضرحة

لا غرو أن هذا الصنف من الاحتفالات تُرتكَب فيه بعض المحرمات والمنكرات، كالغلو فِي تعظيم رسول الله، والاستغاثة به، واختلاط الرجال والنساء، والتقرب بالذبائح وغيرها من المخالفات، فمِن هذا النوع تنطلق جل حملات المنكرين فتراهم أثناء ردهم حتى على الأنواع الستة السالفة يتفنَّنُون فِي استعراض كل الأفعال الشنيعة التِي تقع فِي هذا النوع، معددين المنكرات التِي تحدث فيه -أعنِي: احتفالات

---

(1) الثوابت الدينية والوطنية وأثرها فِي التحام الأمة المغربية للحسين أكروم (ص/ 16-17) بتصرف يسير.

الأضرحة- لذا كانت أغلب الاعتراضات التِي يحاجِجُون بها -والحق يقال- صحيحة وقوية.

بيد أنهم يعممون الكلام حتى يُخيل للناظر أن المولد بجميع أنواعه الستة تروج فيه تلك المنكرات، ومن ثَم لا يجدون حرجاً فِي إطلاق الحرمة عليه بالكلية، وأعانهم على ذلك قوم آخرون، لذا لا بد أن ننبه هنا؛ إلَى أن هؤلاء لا يثيروا محامد وحسنات الأنواع الأخرى.

ونحن نوافق المنكرين جملة وتفصيلاً فِي أن هذا الصنف السابع أبشع هذه الأنواع وأسوئها وأَوْلاَها بالتحريم والإنكار، لذا أضم قولِي إلَى قولهم لأقول بملء فمي: بأنه بدعة محرمة، وسَبَبُ هذا الإنكار والتشنيع آتٍ مما يفعله كثير من المنتسبين زُوراً إلَى بعض الشيوخ الصالحين مثل ابن عيسى المكناسي صاحب الطريقة العيساوية[1] حيث يذبحون الذبائح ويعتقدون فِي ذلك ما يعتقدون، فيقع الاختلاط والرقص، فضلاً عن عادات أخرى كثيرة فاسدة ذكرها الفقيه الحسن بن الطيب بوعشرين المكناسي فِي تنبيه الـمُعْرِب عما عليه الآن حال المغرب[2] وكذا ابن زيدان فِي إتحافه[3] وابن المؤقت فِي رحلته[4] وابن سُودة فِي فهرسته[5] يَندى لها جبِين الغَيُور.

ولا أريد أن أُثْقِل هذه الرسالة بكثرة تلك النقول المشار إليها؛ وإنما أكتفي بنقل

(1) قال عنه صاحب سلوة الأنفاس: «هو الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى شيخ الطريقة العيساوية [ت: 1041] إلَى أن قال: ودفن بخربة بفندق اليهودي، وبنيت عليه هناك زاوية، وهي التِي يجتمع فيها الفقراء أصحاب سيدي محمد بن عيسى إلَى الآن ضريحه بها مشهور مزار متبرك به إلَى الآن، وهو بوسط البلاط الثانِي منها، يقابل المحراب عليه دربوز متميز به..» سلوة الأنفاس (1/ 158).

(2) انظر تنبيه الـمُعْرِب عما عليه الآن حال المغرب للحسن بن الطيب بوعشرين (ص/ 152-154) تحقيق محمد المنونِي نشر دار المعرفة الطبعة الأولَى/ 1994.

(3) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس(6/ 193-197) تحقيق عبد اللطيف الشادلِي وزارة الأوقاف المغربية/ 2009.

(4) الرحلة المراكشية أو مرءاة المساوئ الوقتية (2/ 91-92) لابن المؤقت نشر دار المعرفة/ طبعت دون تاريخ.

(5) المسماة: سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال (ص/ 196).

جامع للأستاذ إبراهيم حركات حول ما تفعله مختلف الطوائف فِي ذكرى المولد قائلاً: «ففي بعض المدن يخصص رابع عيد المولد النبوي للعيساويين الذين يفترسون اللحم نيئًا بدمائه، وتَتبعهم فِي ذلك طائفة اكناوة، وفِي سابع العيد؛ يقوم الحمدوشيون بشحد رؤوسهم بالحديد، فتسيل دماؤهم ويمرون كالعيساويين فِي موكب فِي أزقة المدينة على مشهد من السكان..[1]».

ومِمَّا يجب أن نُثِير الانتباه إليه هنا كذلك؛ أن عدداً من الزوار يجتمعون فِي مكناس فِي المولد النبوي بضريح الولِي الصالِح سيدي علي بن حمدوش، ويرتدون القُفْطَانات، ويتزينون فِي بعض الأحيان بالحناء، ويرقصون عن حسن نية، فما هي إلا سنوات حتى استغل الشواذ تلك الطقوس لأنها توافق هواهم، وتناسب طبيعتهم، وتنسجم مع ميولهم، فَرَاحُوا يقصدون ذلك المكان كل سنة فِي يوم مولده ﷺ لِمُمَارسة الفساد بينهم باسم الاحتفال بالمولد النبوي.

كما فعلوا سنة 2008 حين قدم عدد هائل منهم كما فِي جريدة الوطن الآن: «من مدن الشمال، والدار البيضاء، ومراكش، بِمناسبة ذكرى المولد النبوي، حتى وصلوا إِلَى أزيد من ألف شاذ وسحاقية، يكترون بيوتًا للدعارة، ويسمرون فِي لَيالي ماجنة، ويُحْيُون ما سمَّوه حفلات كناوة، وحمادشة، وعيساوة، فِي جو من الانحلال الخلقي، والسكر العلنِي، والشذوذ الجنسي، وذلك كله تحت ذريعة الاحتفال بذكرى المولد النبوي..[2]».

وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة التِي حملتها هذه الأرقام؛ فإن السلطات المحلية المشرفة على تدبير شؤون تلك المدن التِي تقع فيها تلك المنكرات- تراجعت عن منح تراخيص خاصة لهؤلاء، حين تبين لها أنهم يستعملونها على خلاف مقاصدها، وعلى نقيض ما هو معهود فِي مثل هذه المناسبات الشريفة، ولقي ذلك المنع صدى إيجابيًا عند مختلف فئات المجتمع، وخصوصًا لما حذرت المؤسسات الدينية الرسمية، ومعها كبار الفقهاء، والشيوخ، والمرشدين، والوعاظ فِي دروسهم

---

(1) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (3/ 474).

(2) جريدة الوطن الآن عدد [294] (ص/ 13) الصادرة يوم الخميس 29 ماي/ 2008 .

ومواعظهم الناسَ من حضور ذلك النوع المذكور، علماً بأن تلك الطقوس والأهازيج التِي أشرنا إليها فِي هذا النوع؛ تقع فِي مدينتين أو ثلاث فِي المغرب من أصل ثمانين مدينة أو تزيد، وهي الآن قاب قوسين أو أدنَى من الاندثار والاندراس.

وبالجملة فإن تنزيل حكم الاحتفال بالمولد على هذا النوع لا ينضبط، لاختلاف أحوال الاحتفال به، لذا وجب أن نُحَقِّق المناط الخاص فِي كل حالة بانفراد عملاً بقاعدة: الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، وإلا فإن المئات من الأضرحة فِي مختلف ربوع المملكة يُحتفل فيها بذكرى المولد الشريف دون أن تقع فيه كل هذه المنكرات، بل يكاد سير الاحتفال بها يشبه إلَى حد كبير نظام الاحتفال بالنوع الأول إلَى النوع السادس من هذه الأنواع الستة المذكورة.

وقد جرت العادة أن يقام موسم المولد الشريف قرب عدد من الأضرحة بسوس وغيرها، فيكون الاحتفال فيها مهيباً يحضره العلماء والصالحون، ولا تروج فيه البدع والمنكرات، قال المختار السوسي فِي ترجمة العلامة عبد الرزاق الصالح الدرعي: «الشهير المشهد فِي تينمسلا من درعة، وتقام عليه حفلة مقصودة فِي عيد المولد تدوم ثلاثة أيام، وهو شيخ مشهور من عهده إلَى الآن، وإن لَم نقف على وقت وفاته، ويظهر أنه يتوفَّى بعد صدر أول القرن العاشر..[1]».

النوع الثامن: احتفالات قطاعات الدولة ومؤسساتها الدينية:

يحتفل المجلس العلمي الأعلى، والمجالس العلمية التابعة له، ووزارة الأوقاف ومندوبيات الشؤون الإسلامية التابعة لها؛ بالذكرى الشريفة فِي كل أنحاء المملكة، وعلى مدى شهرين متتابعين، فهذه المؤسسات من أكثر مؤسسات الدولة احتفالاً بالمولد، إذ يختلف عن جميع الاحتفالات مع قطاعات الدولة الأخرى فِي طول الزمن، وإن كان هذا النوع يتفرع أصالة عن الاحتفال الرسمي.

وقد جرت العادة عند افتتاح كل سنة هجرية؛ أن تُخَصِّص القطاعات المذكورة

(1) المعسول (19/ 121).

نشاطاتها الدعوية لأسرار الهجرة النبوية، والعبر والدروس المستفادة منها بشكل عام، وسيرة المصطفى وإظهار شمائله بشكل أعم طيلة شهريْ محرم وصفر، وتشتد تلكم الأفراح أكثر فِي الشهر الموالِي، وفِي هذا يقول أستاذنا الدكتور محمد يسف شارحًا خلاصة أعمال المجالس العلمية بالمملكة: «ومنذ بزوغ هلال شهر ربيع الأول والمجالس العلمية فِي استنفار كامل وتعبئة شاملة، وفق خطة علمية غايتها؛ ربط صلة المؤمنين والمؤمنات بدينهم وقيمهم..[1]» وتبلغ تلك الاحتفالات مداها، والاحتفاءات أقصاها، فِي ليلة الثانِي عشر منه، يوم مولد المصطفى ﷺ والعبرة بالخواتِم كما يقال، وذلك شأن كل ما أسس على تقوى من الله ورضوان.

بيد أن هذه المؤسسات تتفاوت فِي طريقة الاحتفال بهذه الذكرى، فمنهم من يُنظم ندوة علمية، أو يدعو إلَى حلقة قرآنية تلقى فيها الكلمات والدروس، أو مسابقة فِي السيرة النبوية، فيستفيد الآلاف من الناس من مقاصد سيرته ﷺ ويتفقهون فِي العبر والدروس المستفادة منها.

ولو تركنا هذه العمومات وخصَّصْنا حالة إقليم شيشاوة بالذكر- والتِي ما هي إلا صورة مُصَغَّرة للاحتفالات بالمغرب- لوجدنا أن مجلسها العلمي رئيسًا، وأعضاء، ومرشدين، ومرشدات، يستعدون لتلك المناسبة منذ وقت مبكر، فتُعْقَد المجالس وتعطى التوجيهات للوعاظ بتخصيص دروسهم ومحاضراتهم حول سيرة النبِي ﷺ العطرة، وكذا تنظيم المسابقات حول سيرته عليه السلام للناشئة، والشباب، والشابات، وطلاَّب المدارس العتيقة فِي كل أنحاء الإقليم، فضلاً عن تخصيص جائزة مهمة لأحسن قصيدة فِي مدح خير البرية.

ففي ربيع الأول لسنة 1432هـ نظَّم المجلس المذكور مسابقة فِي السيرة النبوية وشارك فيها مئات التلاميذ، فأقبل عليها الشباب والشابات إقبالاً جعلهم يأتون من كل نواحي شيشاوة سهولها وجبالها، وهم عازمون فِي التبحر فِي رياض سيرته ﷺ والتمكن فِي أسرار خباياها، ودقائق تفصيلاتها، فخرج أبناؤها صغاراً وكباراً ذُكْرَانًا

(1) مقال سابق تحت عنوان: [المولد النبوي والمملكة المغربية أي علاقة](ص/ 44).

وإناثـًا، لِيَنْهَلُوا من منابعها، فَغَرفَ كُلٌّ منهم على قدر إِنَائه منها.

وكذلك المندوبية الإقليمية للشؤون الإسلامية ما فتئت تستعد لهذه المناسبة من ذي قبل، ويشرف السيد المندوب على برامج المولد التي يصوغها السادة المرشدون والمرشدات، وهي عبارة عن دروس ومحاضرات وندوات تلقى فِي حواضر وقرى الإقليم، فضلاً عن إبلاغها الخطباء بتخصيص خطبهم لسيرته ﷺ فَتَعُمُّ النفحات النبوية على منابر الجمعات على مدار شهرين كاملين، وفيما يقرب من 350 جامعـًا، فيستفيد منها المئات من المصلين، فتحصل بذلك توعية كبيرة للمسلمين، هذا فِي إقليم شيشاوة وحدها؛ فكيف إذا انضمت إليها أقاليم وَوِلايات وجهات المملكة عامة.

ويجب التنويه هنا بعادة حميدة استحدثتها المندوبية الجهوية للشؤون الإسلامية بجهة العيون فِي المولد النبوي الشريف قبل سنوات، بتعاون مع المجلس العلمي بها، مفادها: الإشراف على جولة من الأمداح النبوية بسائر مساجد المدينة، حيث يوزع برنامج الأمداح، ويعلق على أبواب المساجد للإعلام به، وبدأت هذه السَّنة 1439هـ من 25 صفر إِلَى 22 ربيع الأول، أي ما يقرب من شهر متصل من تلاوة الأمداح، منتظمة فِي 27 مسجداً على طول الربيع النبوي.

وقد سألت المشرفين هناك على هذه الجولات المديحية، فأفادنِي السيد المندوب الجهوي[1]؛ أنها استحدثت منذ سنة 2000 وَفق برنامج دقيق تتناوب عليه كل المساجد الحضرية بالعيون، ويقام فيها المدح بين العشاءين، ويتم إنشاد قصيدتَي البردة والهمزية بتمامهما، وختم القرآن الكريم، وإلقاء درس مجمل عن السيرة النبوية العطرة، ويحضرها سائر الفقهاء، والخطباء، والوعاظ، وأعيان المدينة، ثُم يُؤتى بالطعام، ويُختم المجلس بالدعاء الصالح لمولانا أمير المؤمنين محمد السادس دام الله عزه ونصره، ثُم ينفض المجلس، وهكذا دواليك إِلَى مسجد آخر، حتى ينتهي الربيع النبوي.

(1) الأستاذ الفاضل: محمد عماري، بتنسيق مع المرشد الديني؛ الأستاذ الباحث: الكنتاوي حبيب الله.

وهذه عادة حميدة دأبت عليها المندوبية، والمجلس العلمي بصحرائنا ما يقرب من عشرين سنة، ولو عممت هذه التجربة، واستُنسخت في كل المجالس العلمية بالمغرب؛ لحَصَّنا ثوابتنا الدينية من الدخيل، وتمييز الصحيح منها من العليل.

وبمثل تنزيل هذه الأعمال وتطبيقها؛ سنبني جداراً منيعاً ندافع عنه دفاعاً جماعياً بمنهج واحد، على نسق تلتقي فيه أصالة اختياراتنا الدينية بأنصع صورها، ومعاصرة تفعيل المجالس العلمية لها في واقعنا الحديث بأحلى مظاهرها، ومن ثم تعميمها في المجالس، والمنتديات، والمساجد، في شتى ربوع المملكة؛ لأن تفعيل هذه الآليات العملية؛ وتجنيد الجهود حولها؛ من شأنه القضاء على نزوعات التطرف والإنغلاق، ونبذ مظاهر الغلو والشقاق، لكي ننفي عن ديننا الإسلامي الحنيف؛ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وصفوة القول؛ أن أنواع الاحتفال بالمولد بالمغرب كثيرة ومتنوعة، قد تصل إِلَى عشرة أو تزيد؛ مما يدل على أن ما سيق هنا إنما هو على سبيل الشهرة والغلبة، لا بقصد التتبع والحصر، وإلا فهناك نوع آخر يشبه أن يكون فِي الرباطات الساحلية كما أشار إِلَى ذلك ابن قنفذ، المتوفى عام [810هـ] فِي كتابه الأنس قائلاً: «ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة، منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي، وبلد تيطنفير.. وكان الاجتماع فِي شهر ربيع الأول المبارك الأسعد الأنور سنة تسع وستين وسبعمائة، وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء، ولقيت هناك من أخيارهم، وعلمائهم، وصلحائهم؛ ما شردت به عينِي بسبب كثرتهم..[1]».

هل المواالد فِي المغرب تشتمل على مفاسد وأعمال شركية كالرقص والغناء والاستغاثة كما يقول المنكرون؟

إن أهم الشبه التِي يتمسك بها المنكرون فِي منعهم الاحتفال بالمولد النبوي

(1) أُنْسُ الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني (ص/ 71) تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة أكدال جامعة محمد الخامس الرباط الطبعة الأولَى/ 1965.

واعتباره بدعة منكرة؛ اشتماله على منكرات عدة: كالتوسل، والذبائح، والاستغاثة، ومفاسد جمة: كالرقص، والغناء، والاختلاط، وطقوس أخرى شاذة.

وصورة تَحرير النزاع بيننا؛ أن هناك عادة شريفة، جليلة القدر، عظيمة الشأن، يحتفل بها المسلمون فِي مشارق الأرض ومغاربها فِي اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول يوم وُلِدَ النبي محمد ﷺ فرحين مسرورين، فيجتمعون لمذاكرة سيرته، ويجتهدون فِي الاستفادة من أهدافها وعِبَرِها، ويَعْقِدون لذلك مَجامع علمية تُلْقى فيها المحاضرات والدروس، وتسرد فيها القصائد والأمداح النبوية، فِي وقت يحتفل فيه عدد من السفهاء والعوام بجانب أضرحة الأولياء متوسِّلين بذلك اليوم مستغيثين به عن طريق الذبائح تقرباً إليه، بل ويتجاوزون ذلك لِيَعُمَّ الاختلاط فِي بعض الأماكن فيرقصون، ويزيدون على ذلك طقوساً أخرى.

فبعد أن اتضحت لك أيها القارئ صورة المسألة وتشخيصها، آنَ الأوان لنتساءل: ما حكم الشرع فِي بعض العادات الحسنة التِي تُصَاحِبُها بعض المفاسد؟ هل نَمنعها بالجملة دفعاً لتلك المفسدة؟ أم نُجَوِّزها بإطلاق جلْباً لتلك المصلحة؟ أم أن المسألة تحتاج إلَى تفصيل؟

ولو أردنا أن نُنَزِّل حالة الاحتفال بالموالد منزلة هذا التفصيل لتبيين الأحكام المتعلقة به؛ لَلَزِمنا أن نبين للمنكرين حالة الموالد بالمغرب جملة، وبَسْط أنواع الاحتفال به بالكلية، حسب الأعراف السائدة، وجميع أشكاله على ضوء العوائد المتبعة -عملاً بالمثل السائر: "كفى قوماً بصاحبهم خبيراً"[1]- وقد حاولت إبرازها، وبيان حالها، فبقي الآن؛ بيان محل تنزلات الحكم الشرعي فِي كل نوع منها.

تحقيق المناط الخاص فِي كل الأنواع الثمانية السابقة:

تقدمت أنواع احتفالات المغاربة بالمولد فِي هذا المبحث، وقد عمدت إلَى سرد تلكم التفصيلات والتوضيحات بإسهاب، لأن المنكرين يطلقون القول على اشتمال

---

(1) مجمع الأمثال للميداني (ص/ 117) تحقيق الأستاذ محمد قاسم نشر مكتبة المعارف بيروت الطبعة الأولَى/ 1986.

الموالد على مخالفاتٍ ومنكراتٍ، فنَاسَبَ أن نُمَيِّز بين تلك المجالس وما فيها من محاسن ومساوئ قبل الحكم لها، أو عليها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوُّرِه.

وبناء عليه -وَوَفْقَ[1] ضوابط تنزيل القواعد الكلية على الجزئيات الخاصة- فإنا لا نُسَلِّمُ للمنكرين أن يحكموا على حالة خاصة فِي مصر من الأمصار، أو أي مدينة من الـمدن، ثُم يطلقون على تلك الحوادث الضالة، والبدع المنكرة، حُكْماً عامّاً يَمنعون بِمُوجِبِه الاحتفال فِي سائر البلاد.

ولئن كانت مكناسَة مثلاً أو أي مدينة أخرى يكون فيها الاحتفال بالمولد مثلما ذُكِر أو قريباً من ذلك، **فإن حُكم الاحتفال بالـمولد الشريف فِي سائر الـمملكة الـمغربية وفق قواعد الأصول يكون مندوباً إليه بِالْكُلْ فِي سائر الأنواع الستة الأولَى، حراماً بالجُزْءِ فِي النوع السابع الذي تعُمُّ فيه المنكرات والـمحرمات، علماً بأن التحريم آتٍ من بعض البدع الملتصقة به، والحوادث المنكرة المصاحبة له، لا من حيث أصل الاجتماع عليه، ومشروعية الاحتفال به.**

ولو فرضنا وقوع نظير هذه الأمور المبتدعة فِي موسم الحج، أو صلاة الجمعة، أو ليالِي رمضان؛ لَحَكَمْنا وفق قواعد تَحقيق المناط الخاص بحرمة ذلك الطارئ الحادث بعَيْنه جزءاً، لا بإبطال الشرائع كلاً، سواء كانت تلك العبادة أو الشعيرة واجبة؛ أو كانت تلك الطاعة والقُرْبَة مندوبة، فكذلك صورة الموالد فِي المغرب على اختلاف أنواعه؛ يُمنع تعميم إطلاق الحرمة والتبديع عليه جملة، خلافاً لما ذهب إليه المنكرون؛ لما استعرضوا فِي مصنفاتهم تلك الأصناف، وحكموا عليها جميعاً بأنواعها الثمانية بأنها: بدعة محرمة !!

فظهر بِما لا يدع مجالاً للشك؛ غلَطُ من يرسل الكلام على عواهنه، ويطلق حكماً واحداً على أنواع مُختلفة من الاحتفالات التِي تقع فِي جميع الدول الإسلامية، مُنَزِّلاً قواعد الخصوص فِي مواطن العموم، مستدلاً بالجزئيات فِي موقع الكليات، مع

---

(1) علَّق شيخنا سيدي صالح الإلغي رحمه الله على هذا الموطن بقوله: وَفق بفتح الواو، وإن اشتهر كسرها.

علمه باختلاف أحوال الاحتفال فِي كل دولة على حدة، وحتى فِي الدولة الواحدة، بل فِي مدينة وقبيلة واحدة.

وغير خافٍ أن كثيراً من الفقهاء يقع لهم هذا الخلط فِي التفريع، فيستدلون بالكليات فِي موقع الجزئيات والعكس؛ أو يتمسكون بعموم الحكم فِي موضع خصوص النازلة مبالغة فِي سد الذرائع، فيُنَزِّلون بذلك الأحكام على غير منازلها، وعلى خلاف ما شرعت له، متغافلين عن أن تكون على ضوء مناطاتها الخاصة، وَوَفق ملابساتها الواقعية.

ومِما لا ريب فيه؛ أن احتفال المغاربة بالليلة المولدية بأنواعها الثمانية قد بانت الآن لكل ذي عينين؛ حالتها، وهيئتها، وصفاتها، وكيفياتها، والعادات الجارية فيها، وتفصيلاتٌ دقيقة حولها، وما تَتَّصف به تلك الأنواع الستة الأولَى من قربات، وطاعات، وصدقات، وإنشاد، ومدح.. علاوة على كشف ما يروج فِي النوع السابع من بعض المنكرات، والمحرمات.

ولطالما أنتظر عرض هذه الأنواع الثمانية؛ لأتركك أيها القارئ الكريم لتَحْكُم عليها بنفسك بدل غيرك، وإياك أن تستورد الفتاوى من خارج بلدك، فتَطير لتُغَرِّدَ خارج سِرْبِك، ثُم تعود بعد حين إلَى عشك، بتقاليد مخالفة لأعرافك، ونبهتك على كل ذلك؛ لكيلا تَغْترَّ بإطلاقات بعض العلماء المشهورين وتستميلك، سيما وأن نادرة العصر وخاتمة الحفاظ العلامة أحمد بن الصديق الغماري المتوفَّى [1380هـ] لاحظ ذلك فِي كثير من علماء المغرب فكيف بمن دونهم، لَـمَّا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونَعَرَات العلماء المذهبية والنحلية لا يتفطن إليها كثير من الناس، ولا سيما الـمغاربة، فليس كل عالِم هو كشهرته..[1]».

فنحن والحمد لله نوافق المنكرين بأن المولد النبوي بدعة ضالة ومنكَرة، إذا رافقته تلك المنكرات، وصاحبته المحرمات التِي ذُكِرَت قريباً، لأن العبرة فِي تلك الليلة

(1) من رسالة أرسلها إلَى تلميذه الشيخ بوخبزة التطوانِي فِي 16 رمضان 1372 وجمعها تلميذ بوخبزة؛ بدر العمرانِي، انظر الجواب المفيد للسائل المستفيد (ص/ 47).

كما قال الحافظ ابن حجر؛ أن لا تشوبها البدع: «فمن تحرى فِي عملها المحاسن، وتجنب ضدها كانت بدعة حسنة، وإلا فلا..[1]» وعليه فلا أظن أن عالِماً تَبْلُغُه تلك المخالفات ويقول بعد ذلك: إنها بدعة حسنة، بل لا أشك فِي أنها بدعة قبيحة يجب على العلماء فِي المغرب إنكارها، وأولياء الأمور تعطيلها، وكذلك فعلوا والحمد لله.

وقد تصدى كثير من علماء المغرب لعدد من الأفعال والطقوس التِي ترتكبها بعض الطوائف كالعيساويين والحمدوشيين، دون أن ينكروا أصل الاحتفال بالمولد ومشروعيته، فهذا العلامة الفقيه السلفي سيدي محمد بن العربِي العلوي، يُشَدِّد النكير على هاتين الطائفتين بسبب ما ارتكبَتَا من طقوس شاذة، واستغاثات غريبة فِي المولد الشريف، وفِي هذا يقول عبد السلام بن سودة بعد عَدِّه أصنافاً من تلك الطقوس فِي فهرسته المسماة: "سل النصال للنضال" فِي ترجمة محمد بن العربِي العلوي: «فقد سعى بكل جهوده لقطع دابر ذلك من المغرب، ولَم يهمل السعي وراءه، حتى صدر الأمر بمنعه من جلالة الملك محمد الخامس عام أربعة وخمسين وثلاثمائة وألف، [1354هـ] وأراح الله من ذلك البلاد والعباد، ومناقبه -أي المترجَم- فِي هذا الباب لا تعد..[2]».

وهكذا إذن قَدَّم ملوك المغرب العلويين بِمعية العلماء الربانيين أروع الصور فِي محاربة البدع الملتصقة بِميلاده ﷺ لأن: «العلماء يدْعُون لذلك بالحجة والبرهان؛ والأمراء بالجاه والقوة والسلطان..[3]» فاجتمع بذلك التعاون على الخير، والتشاور فِي المعروف للتحذير من الحوادث الضالة، والقضاء على البدع المنكرة، وفِي أمثال هؤلاء يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَما كان قيام الإسلام بطائفتَيْ العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم لهم تبعاً؛ كان صلاح العالَم بصلاح هاتين الطائفتين،

---

(1) حسن المقصد فِي عمل المولد للسيوطي (ص/ 63).

(2) سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال (ص/ 196).

(3) من مقال الدكتور الحسين أيت سعيد تحت عنوان: [أثر المعاصي على الفرد والمجتمع] منشور بمجلة المجلس عدد مزدوج [8و9] (ص/ 54).

وفساده بفسادهما..[1]».

وقبل ظهور هذه الفرق كان من سلف من صدور علماء المغرب وكبار فقهائه يستحسنون ذكرى المولد النبوي بالجملة، كما نبه على ذلك أبو عبد الله بن مرزوق لما قال:« سمعت شيخنا الإمام أبا موسى بن الإمام رحمة الله عليه، وغيره من مشيخة المغرب يحدثون فيما أحدث فِي ليالِي المولد فِي المغرب، وما وضعه العزفِي فِي ذلك واختاره، وتبعه فِي ذلك فيه ولده الفقيه أبو القاسم، وهما من الأئمة فاستصوبوه، واستحسنوا مقاصده فيه، والقيام بها، وقد كان نقل عن بعض علماء المغرب إنكاره..[2]».

ونبه على هذه الإشارة اللطيفة العلامة أحمد بابا التنبكتي فِي ترجمة شيخ ابن مرزوق، عيسى بن محمد بن الإمام، لما قال: «قال الـخطيب ابن مرزوق: سمعتُ شيخنا الإمام أبا موسى بن الإمام وغيره من شيوخ الـمغرب يستحسنون ما أحدثه العزفي وولده أبو القاسم بالمغرب فِي ليالِي المولد وهما من الأئمة، ويستصوبون قصدهما فيه، والقيام به..[3]».

والـمغرب والـحمد لله بلد عريق وشريف، ذاعت شهرته العلمية منذ غابر الأزمنة تجذرت فيه تلك الأصول الفاضلة، وانغرست بين أبنائه تلكم المحامد النبيلة، فتراهم فِي اختياراتهم متمسكين بالسنن الحسنة، والذب عنها، متشبثين بالعوائد الحميدة، ونبذ ما يخالفها، حتى إن علماء المشرق يستشهدون بهم على ذلك، قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فِي رده الأول على ابن الصلاح حول بدعية صلاة الرغائب مُحْتَجّـًا عليه: «وهذه الصلاة لا يُصَلِّيهَا أهل الـمغرب الذين شهد لهم رسول الله أنهم لا يزالون

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/ 19) تحقيق عصام الدين الصبابطي نشر دار الحديث الطبعة الثالثة/ 1997.

(2) جنى الجنتين فِي شرف الليلتين: ليلة القدر وليلة المولد لابن مرزوق التلمسانِي (ص/ 211) تحقيق: إبراهيم بن الشيخ راشد المريخي نشر دار الضياء الكويت الطبعة الأولَى/ 2016.

(3) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص/ 296) تقديم الدكتور عبد الحميد الهراحة، نشر دار الكاتب طرابلس ط/ الثانية/ 2000.

على الحق حتى تقوم الساعة..[1]».

وبالجملة فكل ما سيق هنا مؤصل من قواعد الأعراف على أصول مذهب أهل المدينة؛ ومُخَرّج على تفريعات السادة المالكية، سيما كبار المقعدون منهم، كالإمام القرافي الذي يقول فِي مثل هذه الصورة: «لو خرجنا من ذلك البلد إلَى بلد آخَرَ، عوائدُهم على خلاف عادة أهل البلد الذي كنا فيه، أفتيناهم بعادة بلدهم، ولَم نعتبر عادة البلد الذي كنا فيه..[2]».

فتبين عند تحقيق المناط في تنزيل الحكم؛ ألا يُعَمَّم الحكم على شمال المغرب، وأحواز مراكش، وسوس، والصحراء مثلاً؛ فإذا كانت مجالسهم واحتفالاتهم لا تشوبها تلك المنكرات؛ التي تروج في مكناس «لَم نعتبر -كما قال- عادة البلد الذي كنا فيه..».

وهذا المعنَى نفسه رجَّحَه العلامةُ الأصولِي محمد بخيت المطيعي؛ قائلاً: «**ولا يلزم من وجود المنكرات فِي مكان؛ أن يكون الاجتماع على مباح فِي مكان آخر منكراً، إذا لَم يَجُر الاجتماع على المباح إلَى فعل ذلك المنكر ويكون مرتَّبًا عليه، وبدونه لا يفعل لما قدمناه فِي حكم الموالد من أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبالأولَى يقدم على فعل المباحات..[3]**».

ومن روائع القواعد الشرعية التِي دبجتها قريحة الإمام أبي إسحاق الشاطبِي، والتِي لها علاقة قوية بما سيق هنا؛ استعراضه لعدد من الفروع والجزئيات، وتتبعه لمآلاتها، فقال عقب تحقيق مناط تلك العلل والمسببات واستقرائه لفقه مقاصدها: «وجميعه يدل على أن العمل المشروع؛ إذا قصد به غير ما قصده الشارع؛ فلا يلزم أن يكون باطلاً..[4]».

---

(1) رسالة فِي ذم صلاة الرغائب للعز بن عبد السلام (ص/ 35) تحقيق إياد خالد الطباع نشر دار الفكر المعاصر بيروت/ 2001.

(2) منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى (ص/ 298) لإبراهيم اللقانِي تحقيق: الدكتور عبد الله الهلالِي نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2002.

(3) أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام (ص/ 72).

(4) الموافقات (3/ 32).

ومما لا امتراء فيه؛ أن الموالد فِي المغرب -والحمد لله- موالدُ سليمةٌ، ومجالسُ مباركة شريفة، ولا ينقصها سوى تَخْلِيتُها من بعض الشوائب المصاحبة لها، فِي بعض المدن القليلة التِي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وحتى عند تعذر ذلك؛ فإن قواعد الشريعة وأصولها لا ترى مانعـاً فِي سريان الاحتفال بالمولد؛ إذا كانت مصالحه المجلوبة أقوى من المفاسد الـمَدْرُوءَة، كما فِي تخريج الإمام الشاطِبِي لأحد القواعد المقاصدية فِي معرض تأصيله لنظرية المباح؛ عندما قال: «الأمور الضرورية أو غيرها من الحاجية، أو التكميلية إذا اكتنفها من خَارِج أمورٌ لا تُرْضَى شرعـاً؛ فإن الإقدام على جلب المصالح صحيح على شرط التحفظ..[1]».

وزاد العلامة شهاب الدين الحلوانِي لهذا الأصل قوة على قوة؛ لما قال: «واعلمْ أنه لا يترك الشخص نحو عمل المولد من القربات، لِما يقترن به من المنكرات؛ بل يفعله، وعليه إنكار ما يقع من المنكر، فيتبع الجنازة ويصلي عليها، وإن كان معها نحو نائحة وعليه الإنكار، ويزور القبور، وإن اختلطت الرجال بالنساء وعليه الإنكار، كما فِي فتاوى العلامة ابن حجر..[2]» . وقوى النقيب ابنُ زيدان الملحظ نفسه، فقال معللاً جواز الاحتفال بالمولد: «وذلك وإن لَم يكن فِي القرون الثلاثة، وإنما حدث بعد؛ فلا ريب أنه من أحسن ما ابتدع وأجمله، إذا كان مصوناً مما حذر الشارعُ منه..[3]».

وغير خافٍ على القائمين على الليالِي المولدية، أنه قد يتعذر فِي بعض الأحيان حصر المناكر التِي تروج فيها، ودفع المفاسد المصاحبة لها؛ وإذا استحال ذلك؛ وجب تعطيل ذلك النوع فِي ذلك المكان وحده، دون امتداد تعميم تعطيله فِي سائر الأماكن الأخرى، لأن "درء المفاسد أولَى من جلب المصالِح" كما وقع للشيخ إسماعيل الأنبابِي المتوفَّى سنة [790هـ] حين عطل المولد الذي يقيمه فِي زاويته لَما ظهر له أن مفاسده أكثر من منافعه، وعن ذلك يقول ابن تغري بردي فِي ترجمته بعد أن ذكر عاداته فِي الاحتفال به، لكنه استدرك على كل ما ذُكر قائلاً :

(1) الموافقات (4/ 210).

(2) مواكب ربيع فِي مولد الشفيع (ص/ 310).

(3) إتحاف أعلام الناس (2/ 209).

«فهرع الناس لحضور المجتمع حَتَّى غص الفضاء بكثرة العالم، وتنوعوا تلك الليلة فِي الفسوق، لكثرة اختلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة، فتواتر الخبر أنه وجد فِي صبيحة تلك الليلة من جِرار الخمر التِي شربت بالليل فوق الخمسين فارغة، ملقاة حول الزاوية فِي المزارع، وافتضت تلك الليلة عدة أبكار، وأوقدت شموع بمال كثير، فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح ليلة المولد المذكور قاصفاً من الريح كدرت عَلَى من كان هناك، وسفت فِي وجوههم التراب، واقتلعت الخيم، ولَم يقدر أحد عَلَى ركوب البحر، ولَم يعد يعمل مولداً بعدها..[1]».

وأكتفي بهذا فِي دحض هذه الشبهة، فالحكم فِي كل حالة بَيِّن، وفِي كل نوع ظاهر، عملاً بقول الإمام القرافي: «إن الأحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيف دارت، وتبطل معها إذا بطلتْ.. وعلى هذا القانون تُرَاعى الفتاوى على طول الأيام، فمَهْمَا تَجَدَّد فِي العرف اعْتَبِرْه، ومهما سقط أَسْقِطْه، ولا تجمد على المسطور فِي الكتب طول عُمُرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك؛ لا تُجْرِهِ على عرف أهل بلدك، واسأله عن عرف بلده وأَجْرِهِ عليه، وأفته به، دون عرف بلدك، والمقرر فِي كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبداً ضلالٌ فِي الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين..[2]» وبهذا النقل النفيس؛ تسقط دعوى المنكرين فِي توجيه الطعون لكل أنواع الموالد جملة.

تلكم إذن نبذة موجزة عن أشهر أنواع الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب، استعرضتها لكشف عوائدها، وبيان طرقها، وإظهار كيفية الاحتفال بها عبر التاريخ، لأن المنكرين يُطلقون القول على اشتمال عدد من الأنواع على مناكر ومفاسد، فناسب إيرادها كاملة مشفوعة بأساليب الاحتفاء بها؛ لئلا يظن ظان أنها كما يدعي المعارضون.



(1) المنهل الصافِي والمستوفى بعد الوافِي (2/ 431) تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) الفروق (1/ 176-177).

المبحث الرابع: مظاهر محافظة المغاربة على العوائد الاجتماعية الخاصة بالمولد النبوي:

مدخل عام:

من العسير أن يستقصي الإنسان كثرة العوائد الحسنة التِي استحدثها المغاربة فِي مولد النبِي عليه السلام، ويكاد المرء بعد تتبعها، والإطلاع عليها، تذهله أنواعها، فيستغرب من كثرتها، لكنها -ولله الحمد- تقاليد مرضية تزيد للاحتفال به بهجة وسروراً، ولذلك دأبوا على المحافظة عليها خلفاً عن سلف، ومن ثَم ترسخ إعمالها فِي الليالِي المولدية بحكم المواظبة عليها، وعدم التفريط فيها، فامتدت آثارها عبر حقب مديدة، لانغراسها فِي أعراف المحتفلين على مدى أعوام عديدة.

وقد ذُكِر فِي ثنايا هذا المبحث ما يزيد عن عشرين عادة، أغلبها مستمد من روايات شفوية لكبار المسنين؛ بل امتدت طرق الكشف عن أسرار هذه العادات ليصل إلَى نزع اعترافات من بعض العجائز الصوفيات، فأضفى عليها ذلك نوعاً من التكامل المعرفِي -بين ما يمكن أن يُسمَّى تجاوزاً بـ: "الموروث الشفهي" والنص التاريخي، وقد يحسب الناظر أن هذه العوائد العشرين محدودة لفظاً، ومحصورة تطبيقاً؛ بينما تتفرع عن كل عادة عادات أخرى كثيرة ترتبط بها، أثناء الممارسة العملية لها.

ولما رأيت بعض العوائد المنتشرة عند المغاربة فِي المولد لها خصائص فِي المبنَى تجمعها، وأصول مشتركة فِي المعنَى تربطها؛ آثرت أن أفرد كل واحدة منها بعنوان مستقل، بدء بعوائد الملوك العلويين فِي الاحتفال بالمولد، ومروراً بالتقاليد المتعلقة بالمظاهر الاجتماعية، وانتهاء بطرق احتفاء النساء السوسيات، وتحت كل عنوان تتولد عوائد كثيرة، أغلبها مستقاة من أفواه المحتفلين بالمولد النبوي فِي شتى المدن المغربية، والمشرفين عليه، والقائمين على تنظيمه، وقليل منها أشارت إليها بعض المصادر التاريخية بإيجاز مخل لا يعدو أن يكون بمجموعه عبارة عن أوصافٍ مقتضبة، وإشارات عامة، كما سيتبين عند عرضها واحدة، واحدة.

1 - عوائد الملوك العلويين داخل القصور السلطانية:

لعل من نافلة القول التذكير بأن عدداً من المؤرخين الذين أرَّخوا لفترة الدولة العلوية منذ تأسيسها إِلَى الآن؛ لمحوا إِلَى نُبَذٍ يسيرة عن احتفال سلاطين الأشراف العلويين بالمولد النبوي؛ غير أنهم لَم يُعَرِّجوا على تتبع العوائد الجارية داخل قصورهم، واستقصاء الأعراف المعهودة فيه، وقصارى كلامهم لا يتعدى أن يكون بمجموعه إشارات لمجالسهم فقط، وإيراد أسماء شعراء البلاط، ونقل مُقَطَّعات من قصائدهم، وما زالوا على ذلك المنهج منذ النصف الثانِي من القرن الحادي عشر حتى ظهر النقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية على عهد السلطان محمد الخامس؛ فأفاض فِي ذكر كثير من العوائد المرعية داخل القصور الملكية، وأسهب كثيراً فِي عرضها، وتَم تتَبُّعُها فِي مصنفاته، فاستُخرج منها سبع عوائد، وهاك بيانها:

1- تزيين البيوت الملكية بالقصب الأخضر وسعاف النخل:

من روائع الأعراف الجارية داخل القصور الملكية بمناسبة طلعة المولد النبوي المبارك؛ تزيين بيوتها بما يبعث فِي النفوس الانشراح، ويجلب لقلوب الناظرين إليها الارتياح، وقد جزم النقيب ابن زيدان ببقاء هذه العادة الحميدة إِلَى عهد الملك محمد الخامس فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد رجت القصور السلطانية ومضافاتها على عادة لا تزال جارية إِلَى الآن، حيث تستعد قبل حلول طلعة المولد النبوي الشريف إِلَى أخذ زينة من القصب الأخضر، وسعاف النخل، فتوضع فِي البيوت على شكل مخصوص، ويستمر ذلك طيلة أسبوع العيد، ثُم يُستغنَى عنها..[1]».

وأعتقد أن سبب اختيار القصب الأخضر، وسعاف النخل دون غيرهما مرده طلب الرحمة فِي هذا اليوم المبارك، واستنزال البركة فيه، ويؤيد ذلك أن أبا يوسف القاضي روى عن شيخه أبِي حنيفة أنه بلغه عن مسروق، وأبِي ميسرة «أنهما أوصيا أن

---

(1) العز والصولة فِي معالِم نُظم الدولة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان (1/ 175) مطبوعات القصر الملكي المطبعة الملكية، الطبعة الأولَى/ 1961.

يجعل على لحدهما القصب..[1]» . وكذا سعاف النخل قياساً على وضع النبي ﷺ عسيب النخل على القبرين كما فِي حديث ابن عباس المشهور المخرج فِي الصحيحين[2].

فكأن نية الفاعلين معقودة على القيام بما قد يكون تخفيفاً على الموتى كأجدادهم، مع ما فيه من تذكير الأحياء بأهوال الآخرة، وفيها كذلك؛ محاكاة ما فعله المصطفى ﷺ لهؤلاء الأموات عند ما علل فعله بقوله: "لعله يخفف عنهما ما لَم ييبسا" . والحاصل أن رحمة النبِي ﷺ دائمة مستمرة غير منقطعة حياً وميتاً، تتجدد بتجدد طلبها، وخُصّ مولده عليه السلام عند المغاربة بمزيد العناية به، تفاؤلاً ببركته، وطلب المغفرة فيه. قال أبو العباس الرهونِي فِي "العمدة": «ومن المعلوم أن عمل المولد من الأمور المستحسنة، وأن من فرح بالنبِي ﷺ فرح هو به كما فِي بعض البشارات، وأنه أمان للبلدة، أو إقليمها، كما لغير واحد..[3]».

ويمكن أن يُستدل لهذه العادة بما استنبطه الإمام القرطبِي عند تفسيره لقوله تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[4] لمّا قال مُؤولاً الآية: «ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالَى عنهما: أن النبِي ﷺ مر على قبرين فقال: "إنهما ليعذبان وما يعذبان فِي كبير؛ أما أحدهما: فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول" قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين، ثُم غرس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثُم قال: "لعله يخفف عنهما ما لَم ييبسا" فقوله عليه الصلاة والسلام "ما لم ييبسا" إشارة إلَى أنهما ما داما رطبين يسبحان؛ فإذا

(1) الآثار لأبِي يوسف (ص/ 80) تحقيق أبي الوفا نشر دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولَى.

(2) انظره فِي صحيح البخاري كتاب الجنائز باب الجريد على القبر، رقم الحديث [1361] وكذا صحيح مسلم فِي كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم الحديث [292].

(3) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين (2/ 227).

(4) من الآية 44 من سورة الإسراء.

يبسا صارا جماداً، والله أعلم..[1]».

فهذه أعراف راسخة رسوخَ الجبال الرواسي داخل القصور الملكية فِي كل مولد كما قال النقيب، بل حتى فِي مظاهر الحياة الاجتماعية المغربية -كما سيأتِي لاحقًا- بيد أن سبب استحداث تلك العادة، لَم يبينها ابن زيدان، ولا أشار إلَى دواعي فعلها، وإنما تكلفت فِي تأويل ذلك بما قد يُظن أنه المقصود منها، وإلا فإن أعراف المغاربة مرضية، وعوائدهم حسنة، قَلَّ أن يُستدرك عليهم فيها بشيء.

2- أعراف قدوم الأعيان والرؤساء على السلاطين فِي المولد:

ذكر النقيب فِي "الإتحاف" فِي ترجمة السلطان الحسن الأول كيفية احتفاله بالمولد النبوي، وأطال فِي ذلك كثيراً إلَى أن قال: «ومن العوائد المقررة فِي الأعياد؛ وفود الوفود على الأعتاب الشريفة قبل العيد بنحو العشرة أيام، فأريد لمنافسة العمال فِي المحصول على ملاقاة الجلالة السلطانية، كل يود سبقه غيره، إذ العادة جارية بتقديم أول قادم على غيره، فيتلاقى ساعة وصوله، أو يومه على الأقل، ويقدم أيضًا أول قادم على دار المخزن، ولو جاء عدد.. فِي اليوم ومن جاء ليلة العيد، فلا حظَّ له فِي ملاقاة القدوم..[2]».

وإذا كانت هذه الأعراف جارية داخل قصر السلطان متى تقاطرت عليه الوفود؛ فإن العادة تتغير خارج قصره، إذا صادف المولد الشريف سفراً، أو حركة له بسائر إيالته، فإذا كان السلطان مثلاً «بالحوز تفد على أعتابه من قواد أهل الحوز، من وادي أم الربيع إلَى أقصى سوس، وأما أهل الغرب فلا يوجهون غير الخلائف، وكذلك إذا كان فِي الغرب؛ يأتِي القواد من أم الربيع إلَى وجدة، ويأتِي من الحوز الخلائف، فإن رام أحد من عمال الحوز القدوم على السلطان للغرب بنفسه لابد له من الاستئذان، فإن أذن له أتى، وإلا فلا، وكذا بالنسبة لأهل الغرب، ومن كانت له دار نزل بها، وإلا

---

(1) الجامع لأحكام القرآن لأبِي عبد الله القرطبِي (10/ 267) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية القاهرة الطبعة: الثانية/ 1964.

(2) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لابن زيدان (2/ 600) تحقيق علي عمر نشر مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولَى/ 2008.

أنزله السلطان على يد الوزير الصدر، أو قائد المشور، أو باشا البلد، كل على قدر مكانته، وما قدمه من الهدايا، فيعين لكل محلاً مناسباً لمقامه..[1]».

3- إطـلاق المدافع صباح يوم المولد ابتهاجاً بمولده ﷺ:

جرت العادة فِي المجالس المولدية للأشراف العلويين أن يسمعوا للقصائد فِي المجلس الثانِي بعد تناول وجبة العَشاء: «وغالباً ما يكون انتهاؤها مع انشقاق الفجر؛ فإذا طلع الفجر ضربت الأنفاض، وتردد دوي المدافع فِي الفضاء، ولفظت بنادق الحرس الملكي من أفواهها طلقات تهتز الأرض لأصدائها استقبالاً لطلعة عيد الأعياد، وإشعاراً بالفرح والسرور بميلاد سيد السادة..[2]».

ومما يحسن التنبيه إليه هنا؛ أن جميع الملوك الذين تسلطنوا فِي سائر أقطار الغرب الإسلامي -سيما بعد انفصال بعضهم عن الموحدين والمرينيين- يقلدون أثناء احتفالاتهم بالمولد النبوي سلاطين وملوك المغرب. قال الشيخ الطاهر بن عاشور وهو يعدد عوائد المشير الأول أحمد باشا ابن مصطفى فِي الاحتفال بالمولد بتونس: «وأمر بإطلاق المدافع الحربية من القلاع بنية التسليم على أفضل الرسل على صفة أعظم تحية للملوك..[3]».

ويظهر أن تلك العوائد ما زالت جارية داخل القصور الملكية المغربية إلَى الآن، والقصد منها؛ ميولُ القلوب لتلك الطلقات النارية؛ لأنها تُحدث أثناء سماعها نزوعاً واهتزازاً -جرت التقاليد أن يكون مثل ذلك فِي الأفراح الجميلة، والمناسبات الجليلة- وعادة ما تسبقها أصوات تُخَرَّج من المدافع الكبيرة، مصحوبة بإطلاق النساء الزغاريد، فتتذكر النفوس ميلاد خير الرسل، فتنشرح بطلعتها، وتبتهج ببروزها، فيزيد ذلك لحلاوة إيمانهم، ومحبتهم لنبيهم قوة على قوة، وكل هذه الوسائل المتنوعة تُحقِّق بمجموعها المقصود العام من استحداث المولد، وتجلب

---

(1) إتحاف أعلام الناس (2/ 600).

(2) العز والصولة (1/ 174).

(3) قصة المولِد للشيخ الطاهر بن عاشور (ص/ 12) نشر الدار التونسية للنشر.

المصالح العامة التِي تؤول إلَى غاياته المحمودة: كتنوير القلوب، وترقية النفوس، والتعلق بالهدي النبوي، والاستمساك بسنته، واتباع طريقته.

4- منح الصــلات والهدايا للوفود:

من أشهر العوائد الضاربة فِي أعماق التاريخ الإسلامي فِي الليلة المولدية فِي المغرب؛ إغداق السلاطين والملوك العلويين وغيرهم الهدايا والمنح على الشعراء، والمنشدين، والفقهاء، والطلبة، والأعيان، والكبراء، وسائر من حضر فِي الليلة المولدية المباركة، قال النقيب ابن زيدان فِي ختام وصفه للوفود التِي تتقاطر على مجلس السلطان محمد الخامس: «فإذا خرجوا وجدوا بباب المسجد الحاجب السلطانِي؛ يوزع على كل من حضر صلة فِي غلاف مختوم باللك، ويذهب كل لحال سبيله يستعد للاستقبال..[1]».

ولا شك أن إدخال السرور على العلماء والشعراء فِي ليالِي المولد الشفيع عادة دأب عليها سلاطينُ الأشراف العلويين، وكذا سائر السلاطين المتعاقبين على المغرب منذ نهاية المائة السابعة إلَى الآن، ويمنحون لهم هدايا مختلفة، وهبات متنوعة، وصلات مختلفة، وإنما أُشير هنا إلَى هذه العادة الحميدة؛ تنبيهاً عليها، وتذكيراً بها، وعدم التفريط فيها.

5- توزيع العصيدة والأطعمة على مضافات القصور:

لا غرو أن مخالطة مؤرخ الدولة المغربية النقيب ابن زيدان لابن عمه الملك محمد الخامس؛ أفضى إلَى الاطلاع على عدد من العادات والأعراف التِي تمارَس فِي الأفراح والمناسبات الدينية داخل القصور الملكية، وفِي هذا يسرد عدداً من الآثار الحسنة المعهودة داخل البلاط العلوي بمناسبة المولد النبوي قائلاً: «كما كان من العوائد المحكمة توزيع كمية وافرة من السمن، والعسل، والسميذ، على سائر القصور السلطانية ومضافاتها، يطبخ ذلك السميد طبخاً بالغاً، ويُوضع عليه بعد

---

(1) العز والصولة (1/ 174).

نضجه السمن والعسل[1] فلا يوجد قصر من القصور السلطانية، ولا دار من مضافاتها، ولا بيت من بيوت العامة، ولا خيمة من خيام البوادي؛ إلا وهذه الأكلة الشهية من جملة أطعمتها، وما زال الأمر جارياً على هذا فِي الجملة إلَى اليوم، وكان الجناب العالِي يصدر أمره الشريف بالكتب لأمناء الصائر بتصيير ما يلزم لأطعمة هذه الليلة الغراء، وأطعمة أيام عيد المولد السعيد..[2]».

وغير خاف أن أهم المقاصد الكبرى للاحتفاء بالمولد النبوي هي إشاعة البشر والسرور، وإكثار الفرح والحبور، بمولد المصطفى ﷺ ومن تبعات تلكم الأسرار والحكم؛ استكمال مقاصدها التبعية بما يُقوِّيها، وقد أخطأ من عدَّ هذا بدعة، وخفي عليه أن إطعام الطعام على الجملة؛ مندوب إليه فِي الشرع بالكلية، وحسبنا فِي ذلك قول الحافظ العراقِي: «إطعام الطعام مستحب فِي كل وقت؛ فكيف إذا انضم لذلك السرور بظهور نور النبوة فِي هذا الشهر الشريف، ولا نعلم ذلك عن السلف، ولا يلزم كونه مكروهاً، فكم من بدعة مستحبة، بل واجبة..[3]».

يضاف لما سلف أن مقاصد الاحتفال لَم تقف فحسب عند حد ما ذُكر؛ بل تتلاقَى فيه كذلك وشائج التلاقي بين القلوب، وتزداد المحبة بين المحتفلين بمولد المصطفى المحبوب، وقد أعجبنِي سلطان العلماء العز بن عبد السلام لما بوَّب قاعدة فِي كتابه: "قواعد الأحكام" سماها: قاعدة فِي بيان متعلقات الأحكام: فقال عقبها: «للأحكام تعلق بالقلوب، والأبدان، والجوارح، والحواس، والأموال، والأماكن، والأزمان..[4]» فازدوجت هذه الأوصاف الحسية، والانطباعات المعنوية؛

---

(1) علق النقيب على هذا الموضع فقال: «هذه الأكلة تسمى بالعصيدة..» انظر: العز والصولة (1/ 176- هامش- 1).

(2) العز والصولة فِي معالِم نُظم الدولة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان (1/ 176- هامش- 1).

(3) تشنيف الأذان بأدلة استحباب السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام فِي الصلاة والإقامة والأذان للحافظ أحمد بن الصديق الغماري (ص/ 189-190) مراجعة علي جمعة محمد، نشر دار جوامع الكلم القاهرة طبع دون تاريخ.

(4) قواعد الأحكام فِي مصالح الأنام (1/ 198) راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة الطبعة الأولَى/ 1991.

لتصدق على مولد النبيﷺ.

ومما لا ريب فيه؛ أن توزيع الأطعمة على حواشي السلطان، وخدام القصور، والفقراء، والمساكين المجاورين له؛ يُدخل عليهم من السرور ما لا يخفى، لقوة تأثير منزلة الأطعمة الدسمة فِي النفوس، سيما وأن ذلك الإطعام كما وصفه النقيب: «يطبخ طبخاً بالغاً، ويُوضع عليه بعد نضجه السمن والعسل..» فيفرحون به كثيراً، فيزيد فرحهم أكثر بمولد خير البرية فِي ذلك اليوم، وبذلك تتحقق أهم الأسرار التِي انطوت تحت تلك العادات الحميدة؛ وهي: إشاعة الغبطة، وتجديد الأفراح، وإزالة الأتراح.

ط- عقد مجالس رسمية مصغرة للأعيان والرؤساء:

لا شك أن الاحتفال الرسمي يشرف عليه السلطان، ويحضر فيه بعض الأعيان فقط؛ خلافاً للاحتفال الرسمي الفرعي الثانِي؛ فيشرف عليه الأعيان، والباشوات، والقياد، كل فِي دائرته، حتى أصبح ذلك -سيما فِي عصر الأشراف العلويين- تقليداً مرعياً جرى عليه عمل هؤلاء لعقود طويلة، وتفرع عنه فِي هذا العصر احتفال العمال، والولاة بالمولد الشريف فِي المدن والحواضر التِي عُيّنوا فيها.

وفِي هذا الصنف يقول ابن زيدان: «ومن العوائد المقررة فِي صبيحة يوم عيد المولد النبوي؛ أن أمناء الصائر السلطانِي بمكناس يحتفلون بجعل الأطعمة الفاخرة بالضريح الإسماعيلي، ويطلع إليه عند بزوغ حاجب الشمس القاضي، والعلماء، والعدول، والباشا، والقواد، ووجهاء الجند، وأعيان البلد، وموظفيها، من أمناء، ونظار، ومحتسب، لتناول تلك الأطعمة هنالك، فيأخذ كل مركزه، ويجلسون بوقار، واحترام، واحتشام..[1]».

وعادة ما تكون مجالسهم مشابهة للمجالس الرسمية، وعن ذلك يقول النقيب: «ثُم تتلى الأمداح النبوية بالأصوات الحسنة، والألحان المطربة، وما دامت

---

(1) إتحاف أعلام الناس (6/ 195) طبعة الأوقاف المغربية.

الأمداح تتلى، والطيب يعبق بمجاميره، ويوزع على جميع من حضر بعد ابتلالهم بماء الزهر والورد، وبعد الفراغ من قراءة الأمداح؛ يتناول القوم الطعام، ويفرق باقيه على ضعاف الشرفاء وغيرهم، ثُم يركب الباشا فِي أتباعه، وهئيته الباشوية، وشارته المخزنية، ويذهب لباب منصور العلج فيقف أمامه ببطحاء الهديم هنيئة لعرض الجيوش المخزنية أمامه..[1]» .

7- إهداء الملابس الفاخرة :

عرج ابن زيدان على تتبع عدد من الأعراف الملكية داخل القصور الملكية بمناسبة المولد النبوي، وأطنب فِي بيانها، ووصف كيفيات عقد تلكم المجالس المولدية، وطُرُق الإنشاد فيها، مسترسلاً الكلام على استقصاء العوائد المتبعة داخلها، وقد أحسن صنعاً لما كشف عنها، وأسهب فِي ذكرها، وأطال فِي تعدادها، ولولاه ما عرفها أحد.

قال النقيب: «وكان من العوائد المقررة التِي لَم تتخلف إلا فِي هذه الأعوام الأخيرة؛ توزيع الملابس الفاخرة ليلة العيد النبوي وصبيحته على سائر أعيان العائلة المولوية، وبيانه: قفطان الملف، وبرنوس منه أيضاً، وكساء، وفرجية، وقميص، وسروال، وعمامة، وقلنسوة، ومنها ما تنقصها العمامة والكساء، كل.. بزيه القانونِي، ومقدار مقامه، وقرابته من السلطان، وكذا على الباشوات الموجودين بالبلد الذي أدى السلطان العيد به، وكذا سائر القواد، وعموم الجيش من غير تخصيص، غير أن بعض الفرق من الجيش كانت تعطى بدل البرانيس الجلابيب، كل على حسب ملابسه المرخص له فِي اتخاذها قانوناً، ومنذ أخذت شمس الدولة الحفيظية تميل إلَى الغروب؛ بدأ اختلال هذا النظام يسري شيئاً فشيئاً، إلَى أن أصبح تاريخاً فِي خبر كان..[2]».

ويتبين من ظاهر كلامه؛ أن تلك العادة كانت من العوائد المحكمة قديماً داخل البلاط العلوي؛ لكنها اندرست فِي عهد مولاي عبد الحفيظ فِي أوائل القرن الرابع

---

(1) إتحاف أعلام الناس (6/ 195).

(2) العز والصولة فِي معالِم نُظم الدولة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان (1/ 175-176).

عشر من هجرة المصطفى ﷺ وقد تكون تلك العوائد تجددت بعد ذلك بما يناسب الوقت، كإهداء هباتٍ مالية للشرفاء، أو منحهم عطايا عينية، أو إجراء لهم صلات مستمرة، وما يجري مجراها، لأن العطية بقدر المعطي، نعم قد تكون تلك الألبسة لها رمزية كبيرة، وقدر معلوم فِي ذلك الوقت؛ لكنها الآن أصبحت متجاوزة بحكم تبدل الأعراف، وتغير الأحوال، فحَلَّ محلها ما يناسب المقام، جمعاً بين شرف المهدي، ومراعاة أحوال المهدى له.

2- المحافظة على أعراف المولد النبوي من خلال المظاهر الاجتماعية:

إن منبع العوائد الاجتماعية للمولد النبوي في المغرب مستمد فِي أصله من جذور الظواهر الاجتماعية، ذلك أن المغاربة عُرف عنهم قديماً أنهم يبالغون فِي احترام هذه العوائد حتى حُكي عن المازري: «أن تقدير خوارق العادات ليس من دأب الفقهاء..[1]» ولذا نجد صفوفهم فِي إعمالها متراصة، وكلمتهم فِي تطبيقها موحدة، وما زالوا على ذلك حتى تمكنت تلكم التقاليد المرعية فِي الليالِي المولدية فِي نفوسهم، وترسخت فِي طبائعهم، وقد لا يخفى ما يترتب عن ذلك من اجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، فضلاً عما يفضي إليه ذلك من قوة المجتمع ولحمته، وهكذا تتوطد العلاقات لتتفاعل مع مختلف القيم الإسلامية، حتى أصبحت بحكم كثرة الممارسة أعرافاً قارة، وعادات متبعة.

وقد اقتصرْتُ على أشهر العوائد المتداولة على الألسنة فِي المولد النبوي، تاركاً عوائد أخرى فرعية؛ قد يكون بعضها خاصاً ببعض القبائل دون بعض، أو ربما تكون مندرسة، أو مهجورة، فناسب أن يُقتصر الكلام على التقاليد الجارية، مبيناً أصولها، وكيفيتها، محاولاً الكشف عن أسباب استحداثها، واعتقادات الناس حولها، فاستُمِدَّ ذلك كله من بطون بعض المظان التاريخية، والروايات الشفوية، مازجاً تلكم الوقائع بأحداثها؛ لتكون مرآة؛ نشاهد من خلالها عادات المولد النبوي فِي كل مدن المملكة الشريفة، على اختلاف عوائدها، وتنوع أعرافها، مع اتفاقها

(1) جامع الأمهات لابن الحاجب (ص/ 132).

جميعـاً فِي المقصـود الأصلي الـذي شُـرع المولـد النبـوي مـن أجلـه، وهـو إشـاعة السرور على العباد، وتعميم الفرح فِي سـائر الـبلاد، ومـن ثَـم إدخـال البِشـر والحبـور على الحاضر منهم والباد.

1- مواكب الشـــموع:

يرجع جل المؤرخين المعاصرين أصول موكب الشموع، وتـاريخ اسـتحداثه لأول مرة فِي المغرب إلَى السلطان السعدي أحمد المنصـور الـذهبِي، وهـي عـادة تـركـية دأب سلاطين الدولة العثمانية على إظهارها فِي مناسباتهم العظيمة[1] فصـادف زيـارة أحمد المنصور لعاصمتهم قبل تسلطنه، فأعجبه استعراض الشموع غايـة الإعجـاب، ومـن ثـم أسـر فِي نفسـه إن كتـب الله لـه أن يتـولَّى حكـم المغـرب لـيفعلن مثـل ذلـك الابتهاج فِي مناسبة المولد النبوي، أو يزيد.

ولما تولَّى مقاليد الحكم سنة 986هـ؛ بادر إلَى اسـتدعاء كبـار الصـناع فِي فـاس، ومراكـش، وسـلا، لصـناعة الشـموع، ومنـذ ذلـك الحـين؛ انتقـل ذلـك التقليـد إلَى المغرب، وبالغ السلطـان فِي الزيادة علـى تلـك الشـموع التركـية، وتغييـر أشـكالها، وتبديل أحجامها، ناسجـاً إياهـا بمـا يتوافـق مـع جماليـة الفـن الإسـلامي المعمـاري المغربِي، ممـا أضـفى عليهـا ملامـح الخصوصـية المغربيـة، وإن كانـت بعـض آثـار الشموع ظهرت فِي سبتة بمناسـبة المولـد النبـوي قبـل أن ينقلهـا السـلطان المـذكور بعدد من القرون كما هو مشـهور، وسيأتِي تصويب هـذا وترجيحـه فِي آخـر الكـلام عن هذه العادة.

وقبل وصـول المولد النبوي على عهد السلطـان أحمد المنصور الذهبِي -كما قـال المقري- وبالتحديد «فِي سابع الميلاد؛ يذهب بتلك الشموع إلَى ضـريح والـده أميـر المؤمنين المهدي بالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيأتِي أيضـاً ألئك المسـمعون إلَى هـذا الضـريح الـذي حل به أمير المؤمنين مولانا المهدي بالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيذكرون هنالك أيضـاً، ويحضـرهم

(1) انظر البدايـة والنهايـة لابـن كثيـر (12/ 163) تحقيـق علـي شـيري نشـر دار إحيـاء الـتراث العربِي ط. الأولَى/ 1988.

أولاد مولانا أمير المؤمنين نصره الله، ويحشر الناس إلَى ذلك، ثُم يدعو المسمعين نصره الله ليلاً إلَى قصره مع خواصه، فإذا فرغوا مما هم بصدده؛ نثرت عليهم الفضة فيتناهبونها بين يديه نصره الله، فمنهم من ينهب ما يكون فيه غناه، وبعد ذلك يذهبون إلَى الدُّور التِي أعدت لهم..[1]».

ولئن غفل أبو فارس الفشتالِي عن ذكر العوائد التِي تجري يوم السابع بالشموع، وسبب نقلها من الأتراك؛ فإنه أطنب فِي أوصاف دقيقة لفنون عرض الشموع أمام السلطان الذهبي، وتفاصيل زخرفته، وطرائق هندسته، ومن ثَم عرضه أمامه، ومن وقف على ذلك فِي مناهله؛ سيندهش من مبالغة الصناع فِي العناية به.

وفِي هذا يصف مؤرخ الدولة السعدية الاستعداد لصنع الشموع قبيل العيد النبوي قائلاً:« ويعكف على خدمة رياض الشموع التِي تجلو المحاسن هذه الجهابذة الذين يبارون النحل فِي نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً؛ حتى إذا كان ليلة الميلاد الكريم؛ وقد أخذت الأهبة، وتَم الاستعداد، وتناهى الاحتفال، وأقصى مبالغ الكمال، وتلاحقت الوفود من مشايخ الذكر والإنشاد، وحضر وقت زفاف العاري فِي رياض الشموع إلَى الأبواب العلية الشريفة، وحضرت الآلة الملوكية، والأفلاك المؤلفة من الأخشاب لحمل جذوعها، يحملها أساري الدولة، وأولو الطرق من الصحافيين المحترفين بحمل خدوش العرائس عند الزفاف، يتقدمهم عريف الاشتغال بالباب العلي، مصلحاً لشأن أفلاكها، ومعدلاً لسيرها مشايخ الوزعة، وخدام الشرطة، ومشايخ البلد، انتظم عالم من النظارة سماطين بحافِي الطريق من أبواب الخلافة العلية إلَى حيث مثوى الشموع من منزل أولى صنعها، وخدمتها قد جللوا جنبتَي الطريق، وركبوا الأسوار والسطاح..[2]».

ومن الطبيعي أن تستهوي فنون مواكب الشموع عقول النساء، وتثير تحركاتها

---

(1) روضة الآس العاطرة فِي ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأبِي العباس المقري (ص/ 15) نشر المطبعة الملكية الرباط الطبعة الثانية/ 1964.

(2) مناهل الصفا فِي مآثر موالينا الشرفاء لأبِي فارس الفشتالِي (ص/ 236) تحقيق عبد الكريم كريم نشر مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة طبع دون تاريخ.

إعجابهن، فيزدحمن على أعالِي الدور، ويدفعهن فضولهن لمشاهدتها، كما قال مؤرخ دولة الأشراف أبو فارس: «وبرزت ربات الحجال من أعلى المنارة والصروح، فضخمت الجملة، وعظم الزفاف، وبرزت جذوع الشموع كالعذارى يرفلن فِي حلل الحسن والضخامة، والجلال، واحتملت على أفلاكها تقفو بعضها بعضاً فِي عدد كثير كالنخل، فارتفعت أصوات الآلة، وقرعت الطبول، وضج الناس بالتهليل، والتكبير، والصلاة على النبِي الكريم، وتتصاعد على الوصف من الزي العظيم، والزفاف الجليل؛ حتى تستوي على منصات الشهرة بالإيوان الشريف، ثُم يقع البيات على التغليس لحضور المشهد الكريم..[1]».

غير أن أروع صور مشاهدة مواكب الشموع تشتد أكثر لَمّا يحضر السلطان لمشاهدتها، وترتاح قلوب النظار عند رؤيتها، وجرت العادة أن يكون استعراضها أمام جناب السلطان صباح العيد النبوي بعد صلاة الصبح، وفِي هذا يسهب الفشتالِي فِي بيانها فيقول: «فإذا حضرت صلاة الفجر؛ برز مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله فيصلي بالناس، ثُم يقتعد أريكة قُبَّته، وسرير ملكه، وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة، وقد ازدهى المحفل، وضخم الحال، وتناهى الجلال، واصطفت أمام القبة جذوع الشموع المبارية للمآذن والنخيل ضخامة أجرام، وطموح أعناق، واصطفاف العذارى المختلفة الألوان؛ فمن بيض كالدمى، وحمر جليت فِي ملابس أرجوان، وخضر سندسية الغلائل، وقد تقسمت طول جذوعها قباب مستديرة بها استدارة أركان المآذن، وتفننت فيها الصنائع نسجاً، وقادت بين الأرجل الضخمة، والأفلاك المضاعفة تنوء بها العصبة أولوا القوة، متعددة المواقد والمشاكى، كأنها هضاب نرجس نهر، ذوائبه أيدي النواسم..[2]».

ولَم يقتصر العارضون للشموع أمام السلطان عليها وحدها؛ بل استحضروا كذلك أنواعاً كثيرة: «من أنواع الحسك أمام الحضرة، كل توراء مصنوعة من النشب أخذت مدمج خصورها التفاتيح النافذة النقش قد ركزت فِي أنابينها المجوفة، وغير

(1) مناهل الصفا (ص/ 236).

(2) نفسه.

المجوفة، عمد ملبس الجسوم من الشموع طوال القدود طاعنة فِي الجو باسنتها المذهبة، مولوية بألسنتها الدلقة، تضرب بإشهارها الجناة من أولِي الدربة بقطف أنوارها، فتقطفها بالجلام المحرزة، والمقطعات المجوفة التِي تمسك ما أبانه الحلاق من شعورها، فلا يسقط منها شرر، ولا يدوم لها قتار..[1]».

ويلاحَظ أن عبارة العلامة الأديب البليغ أبِي فارس فصيحة جداً إلَى درجة جعلتها أقرب ما تكون إلَى اللغز، حتى لا يكاد القارئ يفهم المراد منها، لاستعماله فصيح الكلام، ونوادر غرائب الألفاظ، مع اختصار المبنَى، واستيفاء المعنَى، فناسب أن يُزاد وصف آخر لعادات تلك الشموع من "الروضة" للمقري؛ لأنه لا يتكلف عادة فِي البيان، وجاء أسلوبه سلساً واضحاً، خالياً من التعقيد، لاسيما مع إيراده لزوائد مهمة استدركها على الفشتالِي.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي معرض ذكره لاحتفال أحمد المنصور بالشموع فِي المولد: «ومن عادته نصره الله فِي الميلاد النبوي؛ أنه تصنع له شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها فِي البلد، ومعها الآلات، وجميع أهل الحضرة قد جاءوا لينظروا إليها، وذلك اليوم الذي يطاف بها عيد عظيم عندهم، وحق لهم ذلك، فإذا وصلوا بها إلَى قصر الخلافة؛ أدخلوها إلَى المشور العلى، وقد اتخذت لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة، فتجعل على تلك الآلات، فترى صعداً فِي السماء كالمنارة..[2]».

وليس القصد من هذه الشموع التوسل بسببها، أو الانتفاع بها -كما قد يُظن- وإنما قصارى نية المنصور أنها تزيد للاحتفال بالمولد بهاء، ولمنزلته فِي النفوس تعظيماً، وإلا فقد جاء فِي إحدى نوازل ابن رشد فِي "المعيار" أنه سأل بعضَ النصارى الذين رجعوا إلَى دين الإسلام عن مقصودهم من تلك الشموع؛ فقال ابن رشد: «وشهد شاهدان ممن يعرف أحوال النصارى، وأمور شرعهم؛ بأن الشموع المذكورة مما

---

(1) مناهل الصفا (ص/ 236-237).

(2) روضة الآس (ص/ 14).

يتقرب بها النصارى، ويهدونها إِلَى قسيسيهم ليوقدوها فِي متعبدهم..[1]».

ونقل الونشريسي جواباً آخر لعز الدين بن عبد السلام، لما سأله المستفتِي: «عن نصب الشموع والقناديل فِي المساجد المرتبة لا الموقدة، وتعليق السُّتُور فيها هل هو جائز أم لا؟ فأجاب: تزيين المساجد بالشمع والقناديل لا بأس به؛ لأنه نوع من الاحترام والإكرام -إِلَى أن قال- ويجوز إيقاد اليسير من المصابيح ليلاً مع خلو المساجد من الناس؛ لما فيه من احترام المساجد وتنزيهها عن وحشة الظلمة..[2]» ويلحق -بما ذُكر- استعمالها فِي المولد النبوي من باب أولَى بجامع التعظيم فِي كليهما.

وقد أُشيع عند كثير من المعاصرين أن المنصور الذهبي هو الذي أدخل مواكب الشموع يوم المولد إِلَى المغرب؛ قلت: وسبقه بذلك فيه نظر من وجوه؛ أقواها: أن ارتباط الشموع بالمولد النبوي قديم جداً فِي المغرب قبل ظهور السعديين، بل وحتى المرينيين، فدونك تزيين الولِي الصالح أبِي مروان عبد الملك الريفي مجالسه المولدية بها: «فقد كان يُقِيم بمنزله فِي سبتة المولد النبوي بحضور المريدين ومن إليهم، ويحتفل لذلك بالإطعام وإنارة المكان بقناديل الزجاج، والشموع..[3]».

وقد سئل ابن عباد «عما يقع فِي مولد النبِي ﷺ من وقود الشمع وغير ذلك لأجل الفرح والسرور بمولده عليه السلام؟ فأجاب: الذي يظهر أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسمٌ من مواسمهم، وكل ما يقتضيه الفرح والسرور بذلك المولد المبارك، من إيقاد الشمع وإمتاع البصر، وتنزه السمع والنظر، والتزيُّن بحسن الثياب، وركوب فاره الدوراب، أمر يباح لا ينكر، قياساً على غيره من أوقات الفرح..[4]»

---

(1) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي (2/ 349) خرجه مجموعة من العلماء بإشراف الدكتور محمد حجي نشر وزارة الأوقاف المغربية ط/ الأولَى/ 1981.

(2) المعيار (7/ 272-273).

(3) ورقات عن حضارة المرينيين للأستاذ محمد المنوني (ص/ 526).

(4) المعيار (11/ 278) بتصرف يسير.

والقصد من إيراد هذه النازلة؛ اشتهار الاحتفال بالشموع قبل عصر الأشراف السعديين بمديد المراحل، لأن ابن عباد النفزي الرندي توفِّي [792هـ].

ثانيها: أن اقتران الشموع بالمولد؛ صار مشهوراً فِي عصر الوطاسيين حتى أصبح عندهم عادة، مما يدل على رواج ذلك قبلهم فِي عصر المرينيين، وحسبك نص الحسن الوزان فِي احتفال أطفال المساجد بالمولد النبوي بفاس إذ يقول: «ويلزم آباءهم أن يرسلوا شمعة إلَى المدرسة، فيأتِي كل طفل بشمعته، ويحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلاً أو أكثر أو أقل، وهي شموع جميلة مزخرفة جداً مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من شمع توقد فِي مطلع الفجر، وتطفأ عند بزوغ الشمس..[1]».

ثالثها: أن عادة الشموع أشار إليها أبو العباس العزفِي فِي كتابه: "الدر المنظم" وسماها: "النصبة" كانت تروج بمناسبة عيد المسيح عليه السلام، دخلت إلَى أهل سبتة على حين غفلة منهم تقليداً للنصارى، وذلك فِي أواخر عصر الموحدين، وقد سبق ما نقله المرحوم: الدكتور عبد الهادي التازي عن العزفِي فِي دره، فقال معلقاً على كلمة النصبة: «يقصد بها؛ شجرة عيد الميلاد التِي كانت أحياناً تطرز بأنواع الحلوى كذلك، علاوة على الشموع..[2]» فدل على أنها كانت رائجة فِي احتفالات عيد المسيح؛ وبقيت مستمرة بعد استحداث العزفِي عيد المولد النبوي الشريف.

ويبدو أن مسألة الشموع لها صلات وثيقة باحتفالات أهل سبتة قبل استحداث العزفي الاحتفال بالمولد، ثم ظهرت في المجالس المرينية؛ ، فزاد لها الوطاسيون قوة على قوة، حتى أصبحت عادة جارية في الليالي المولدية، فدونك تبويب الونشريسي [ت914هـ] فِي "معياره" عنواناً سماه: "اعتاد أهل المغرب الأوسط والأقصى أن

---

(1) وصف إفريقيا (1/ 261-262).

(2) من مقال الدكتور عبد الهادي التازي الموسوم بـ: "لماذا عيد المولد النبوي فِي الغرب الإسلامي والأسباب التِي كانت وراء إنشائه؟" منشور بمجلة دعوة الحق (ص/ 48-50) عدد 277 الصادر فِي جمادى الأولَى 1410هـ الموافق لـ: 1989.

يعطوا المعلمين شمعـًا فِي المولد"[1] .

وهكذا بقيت هذه العادة مستمرة على طول عصر الوطاسيين، وامتد إعمالها إلى نهاية العصر السعدي، وعنها يقول الحسن الوزان المتوفى عام [957هـ] تقريبًا: «ومن عادة المعلم أن يدعو بعض المسمعين لينشدوا أمداحًا نبوية، وينتهي الحفل بمجرد طلوع الشمس، وهذا أحسن مورد لمعلمي المدارس؛ لأنهم قد يبيعون من الشمع ما قيمته مائة مثقال أو أكثر من ذلك بحسب عدد تلاميذهم، ولا يؤدي أحد منهم كراء عن هذه المدارس؛ لأنها أوقاف، وصدقات جارية على أرواح الواقفين؛ أما فواكه تلك الشموع وأزهارها؛ فتعطى هدايا للأطفال..[2]».

قال الونشريسي معلقًا على فتوى أبو الطيب لما سئل عما يأخذه المعلم فِي عاشوراء، والأعياد: «يظهر من هذا الكلام؛ القضاء بالشمع للمعلمين على آباء الصبيان فِي ميلاد النبي ﷺ لأنه فاشٍ معتاد ببلاد المغرب الأوسط، والأقصى، ولا انتزاع في انتصاب المعلمين لأجله، ولا سيما وهو موسم عظيم عند أهل ملة الإسلام يعتنون به في الحواضر تعظيمًا لنبينا وسيدنا محمدﷺ..[3]».

فثبت بعد هذه النقول التاريخية؛ أن المنصور الذهبي إنما أحيى تلك العادة المندرسة، فأضاف لها ما يُزيّن شكلها، ويُجَمِّل وصفها، بعد أن رآها عند ملوك الأتراك، فنقل فقط تلك الزخاريف الهيكلية، والأشكال الهندسية، والأعواد الخشبية التِي توضع عليها، فهذب تلك العادة وزاد لها ما يسعد الضيوف، ويبهج الزوار، ويسر عيون النظار، فدل هذا على أن قصد المثيرين سبق المنصور بها؛ إنما هو على سبيل المبالغة فِي الاعتناء بالشموع وزخرفة أشكالها فِي عيد المولد؛ لا أنه استحدثها لأول مرة فِي المغرب.

ولئن كانت هذه العادة اندرست بانتهاء عصر السعديين؛ فإنها فِي هذا العصر

---

(1) المعيار (8/ 254).

(2) وصف إفريقيا (1/ 262).

(3) المعيار (8/ 254-255).

تحولت إِلَى عوائد اجتماعية يشارك فيها عامة الناس -فناسب بعد أن فُصِّل الكلام عنها هنا باعتبارها عادة سلطانية خاصة- أن يُفرد لها كلام آخر مستقل بعد تحويلها إِلَى عادة شعبية عامة.

مواكب الشموع من العادة السلطانية إِلَى التقاليد الاجتماعية:

يختلف موسم الشموع عن سائر الاحتفالات بالمولد النبوي فِي المغرب، إذ ينفرد بخصائص عديدة، منها: أنه يستمر أياماً متعددة قد تمتد لأسبوع بمدينة سلا، ويكون برنامجه عامراً بكثرة المحاضرات، والندوات العلمية حول السيرة النبوية، وتتخلله وَصَلات شعرية، وأمداح نبوية، وابتهالات توسلية لكثير من الطرق الصوفية؛ كالحسونية، والعيساوية، وحماشة، وكناوة، فِي تمازج صوفِي بديع وزادتها "الحضرة النسائية" مداحات النبِي ﷺ جمالاً وبهجة، فضلاً عن توقيع عدة كتب حول السيرة المحمدية العطرة من طرف مؤلفيها، وبموازاة مع كل هذا تُنظَّم معارض للكتب الدينية لوزارة الأوقاف، وأخرى فنية لوزارة الثقافة، وأعلى من كل هذا تشريف أمير المؤمنين محمد السادس موسم موكب الشموع، بتنظيمه تحت رعايته الكريمة، ويحضر فيه السيد عامل صاحب الجلالة على سلا، وعدد من الوفود الرسمية المرافقة له داخل المغرب وخارجه.

وقد ارتبط الإشراف على هذا الموسم بسلا منذ قرون بالولِي الصالح سيدي عبد الله بن حسون المتوفَّى سنة [1013هـ][1] حيث كان يقدم وفد مواكب الشموع بمناسبة المولد النبوي، واشتُهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمقاومته للبرتغال بسلا وأحوازها، وإبعادهم عن سواحلها، وله علاقات وطيدة بالسلطان أحمد المنصور الذهبِي، حتى أهدى له بقعة بنَى بها زاويته وداراً لسكناه، باعتباره أحد أقطاب الطريقة الشاذلية، وكان يترأس احتفالات موكب الشموع، والأعياد الدينية، مقدماً عند الجميع فِي الأمور العظيمة.

---

(1) طبقات الحضيكي (2/ 492-493-494) وتوجد نتف من أخباره فِي الاستقصا (3/ 24) و(3/ 83).

ولما انتقل إلَى الرفيق الأعلى، فِي غرة القرن الحادي عشر من هجرة المصطفىﷺ؛ بقي أحفاده على عادة أجدادهم، غير أنه لما تعذر عليهم طراً النيابة عنه؛ راحوا يُنَصِّبون مُقَدَّماً عليهم لتمثيل أحفاد الشيخ الآخرين فِي المهام الموكولة لجدهم سيدي عبد الله سلفاً. ولهذه الغاية اتصلت بنقيب الشرفاء الحسونيين الأستاذ: عبد المجيد الحسونِي، فأفادنِي بأنه هو الذي يتقدم مواكب الشموع سيراً على تقاليد أسلافه، وأجرينا معه حفظه الله اتصالات مطولة كشف فيها عن جميع العوائد الدقيقة المتبعة فِي مواكب الشموع.

ويبتدئ الشروع فِي هذه العادة عشية ذكرى المولد، حيث تُعلَّق على جنبات ضريح جده مولاي عبد الله بن حسون الشموع، وتبقى فيه لمدة 11 شهراً، فتُنْقَل قبل حلول الذكرى إلَى دُور كبار الصناع الذين يزخرفونها بسلا، وتعاقب على عادة تطريز الشموع وزخرفتها؛ منذ قرون خلت، كثير من الأسر السلوية، كعائلة "أوبيا" التِي اشتهرت بهذه الصناعة منذ العصر السعدي، واستمروا عليها أكثر من أربعة قرون ونصف، وكذا عائلات "بلكبير" و"المير" و"المرنيسي" و"الحسينِي" بيد أن هذه الصناعة فِي الآونة الأخيرة تُسلَّم لبعض الأسر فقط، فتراجعت أخرى عن هذه المهنة بصفة نهائية كعائلة "بنشقرون".

غير أن المثير فِي موكب الشموع؛ هو كيفية صنعها، وزخرفتها، وقد يستخف البعض بهذه العادة لَمّا يستولِي على ظنه أن القصد بالشمعة؛ تلك التِي تُتَّخذ للإنارة، وفِي وسطها فتيل قُطنِي تذوب بعد اشتعالها فتضيء حولها، كلا ليس الأمر كذلك؛ بل إن الشموع التِي تُطَرَّز فِي موكب الشموع -كما أفادنا نقيب الشرفاء الحسونيين- تختلف كلياً عن المعهودة؛ لأن هيكلها يُصنع من خشب متوسط، مغطى بورق أبيض مقوى، يمتد على كامل جنباته، وتتخلله ألوان أخرى كالأحمر، والأصفر، والأخضر، تتمازج فيما بينها لتظهر فِي شكل هندسي بديع، تلوح عليه فِي الأفق آثار الفن الإسلامي المغربِي الأصيل.

وتُشْرف تلك الأسر السلوية التِي راكمت في زخرفة الشموع خبرات وتجارب عبر التاريخ، توارثوها جيلاً عن جيل، وتختلف أحجام تلك الشموع وأشكالها كما يظهر

فِي صورها، إذ يتراوح وزنها ما بين 15 و 50 كيلوغرام، وتُصنع بعناية بالغة، ودقة متناهية؛ من هياكل خشبية على شكل صور تحاكي فِي مظهرها الخارجي قباب الأضرحة، أو صوامع الجوامع، أو مآذنها، فاستلهموا تلك الأشكال من أصول العمارة الإسلامية، فتراها واقفة شامخة كُتب على واجهاتها العليا كلمات من قبيل: "الله" أو "بركة محمد" أو بعض أبيات البوصيري، تتراءى صورتها من بعيد، وهي ذات رونق جميل، ومنظر بديع؛ يحق للمغاربة أن يتباهوا بها، خصوصاً عند مقارنتها مع نظيراتها التركية.

وبعد تطريز تلك الشموع وصناعتها؛ تُحمل بعد صلاة العصر لليلة المولد الشريف من السوق الكبير قرب دار صانعها، وقد يختلف محل حملها إن تغير الصانع الذي يختاره النقيب الحسونِي، ويحملها رجال متمرسون على ذلك، يطلق عليهم فِي العرف السلوي: "الطَّبْجِيَّة"[1] واقتضت العوائد أن يلبسوا اللباس التقليدي المشهور محلياً بـ: "المحصور" مبالغة فِي العناية بالأعراف المحلية، وكناية عن المحافظة عليها، فيحتشد الناس، والمارة، والزوار، والضيوف، الذين عهدوا الاستمتاع بهذه المناسبة على طول الطريق ليشاهدوا موكب الشموع فِي حلته الجديدة.

وعادة ما ينطلق الموكب الرهيب؛ أو ما يُسمّيه السلويون بـ: "دور الشموع" من قلب ساحة الشهداء -باب بوحاجة- فِي اتجاه ضريح مولاي عبد الله الحسونِي، فترى هياكل الشموع حُملت بعناية فائقة من طرف "الطبجية" تتمايل بها يميناً ويساراً، وأجسامهم كما قال النقيب الحسونِي قوية، تستطيع حمل 50 كيلوغراماً، تنوء بها العصبة أولوا القوة، وتتلاعب بها لفترة طويلة، وتؤدي الفرقة النحاسية -بعد سكوت الجميع وبإيعاز من النقيب- تحية العلم الوطنِي، وتعقبها أهازيج وأمداح يتلوها مقدمو الطرق الصوفية كالحسونية، والعيساوية، والكناوية، والحمدوشية، ويشاركهم فيها جموع غفيرة من المباركين للمولد، والمحبين لمدحه عليه السلام، وتتخلل هذه الأمداح زغاريد النساء، وصياح الأطفال، فِي موكب دينِي بهيج تضيق به عادة رحاب الشوارع الكبرى السلوية.

---

(1) أفادنا الشريف الحسونِي أن كلمة البجية هي لفظة تركية.

وهكذا تندفع تلكم الحشود وتسير بشوق وشغف مع مواكب الشموع، وما كان ذاك السيرُ والصياح مقصودين أصالة وتبعًا عند السواد الأعظم من السلويين؛ وإنما قصارى نياتهم متجهة نحو الحفل التقليدي الموسوم بـ: "رقصة الشمعة" الممزوج بإيقاعات الموسيقى الأندلسية، والابتهالات الدينية، ويبلغ ذلك مداه لـمّا تُحَرَّك هياكل الشموع الكبيرة بواسطة حبال طويلة، بطرق غريبة تلفت الأنظار، لدقة مهارة الملازمين لها، واللاعبين بها، وإذا شرعوا فِي فنون التحريك؛ اشرأبت الأعناق إليهم، واتجهت الأنظار نحوهم.

ويستحيل أن لا يشد انتباهك وقت تحريك رقصة هياكل الشموع، أو أن يجول فِي خاطرك ما عداها، حتى لكأنها حركات جديدة تُعْرَض لأول مرة، مع أنها عوائد متَّبعة تتكرر كل سنة، ولعل سر الشغف بها، والاندفاع نحو مشاهدتها؛ آتيان من طبيعتها التِي توقظ نفوس السلويين، وحركاتها المثيرة لانتباههم، وصنوف أشكالها المحركة لشعورهم، فتزيد فنون اللعب بها من بهجتهم، فترى السواد الأعظم من الجمهور مستبشرين بما يشاهدونه، فتسمع لدوي الابتهالات والتوسلات، والأذكار، فِي فسيح كبير يُسمع صيتها من بعيد، وفِي ذلك ما لا يخفى من إدخال السرور، وإشاعته بين سائر المحتفلين بمولده عليه السلام، فتحققت بسبب الحركات -وإن شئتَ قلتَ بسبب- "رقصة الشموع" أهم المقاصد الكلية التِي شرع المولد من أجلها؛ وهو تعميم الفرح فِي ذلك اليوم، وإلَى هذا المغزى يشير بعض الشعراء بقوله:

هدى سلا عروس زهت بموكبها ۞ وشموعها فِي العيد أنوار وأضواء

فرحت بمولد الهادي الحبيب المصطفى ۞ وعم البشر أهلها والصفاء[1]

ويشرف على هذا الموكب الدينِي الشرفاء الحسونيون، يتقدمهم نقيبهم، ومعه كبار الأعيان والرؤساء، ولفيف من رجال الأمن لتنظيم سير الموكب، ومن ورائهم مقدمو

---

(1) ساقها مولاي عبد الرحمن بن زيدان ولَم ينسبها لأحد، وهي مهلهة غير موزونة، ولذا أدرجتها بقسم الموشحات والملحون فِي باب الفهارس الفنية العامة.

الطرق الصوفية كالعيساويين، وكناوة، وحمادشة، منطلقين من باب الشهداء حيث المنصة الرسمية ليسلكوا طريقاً مؤداه إِلَى دار الشرفاء، وبعد الانتهاء من رقصة الشموع؛ يشرعون على التو فِي عملية إيقاد الشموع على نغمات المسموع، وبعد ذلك يتم تعليقها بضريح الولِي الصالح سيدي عبد الله بن حسون عشية ذكرى المولد النبوي، والتِي تُنقل قبل حلول الذكرى إِلَى مقر صانعها من أجل زخرفتها من جديد.

وما كان لِي أن أُسهب فِي هذه العادة أكثر مما سيق هنا؛ لولا أنها من أهم العوائد القديمة المصاحبة للمولد النبوي، والمشهورة عند السلويين اشتهاراً جعلها فِي مصاف كل العوائد المرعية فِي الليلة المولدية فِي المغرب، فناسب أن يُطنَب فيها الكلام، ويتسع فيها الحديث، ويكفيك أن موكب الشموع هذا استُحدث لأول مرة عام 986هـ، وبقي إِلَى الآن ولَم يعطل إلا فِي ثلاث سنوات يوم نفي الملك محمد الخامس إِلَى مدغشقر، فتكون احتفالات هذه السنة 1439هـ، مصادفة للذكرى الأربعمائة والخمسين، وبشَّرْت بهذه البشرى النقيب الحسونِي فهش وبش، وفرح بها غاية الفرح، بعد أن استشكل ذلك، فتم تنبيهه على وقعة المنفى.

تعطيل موسم المولد النبوي بسلا بسبب نفي الملك محمد الخامس:

لما أقام أهل سلا "موكب الشموع" في ذكرى المولد تزامن مع نفي الملك محمد الخامس إِلَى مدغشقر، وكان موسم الشموع من أكبر مواسم المولد بالمغرب حفاوة وابتهاجاً، فتعمد المستعمر إظهار الفرح فِيه، والمبالغة فِي السرور به؛ ليس احتفاء بالنبِي ﷺ ولا محبة له، وإنما لإلهاء المجتمع بتلك التقاليد الدينية لِتُنسيهم بُعدهم عن ملكهم، وتُشغلهم عن التفكير فيه، وانفصالهم عنه، فاتضح أن المستعمر وأتباعه؛ يبطنون خلاف ما يظهرون، ويسرون حسواً فِي ارتغاء، وصدق الكميت لما قال فِي مثلهم:

فإنِّي قد رأيت لكم صدوداً ۞ وتحساء بعلة مرتغينا

وحال بعض الفدائيين بينهم وبين ما يشتهون؛ لما تسلل إِلَى داخل محل موكب الشموع، فأتلف الهياكل الخشبية المزركشة بالشموع، والتِي صنعت لتقدم الموكب،

وكَسَر القناديل التِي تحمل الشموع الغالية، وتلاعب بآلات ومعدات أخرى، فعكر لهم أجواء ذاك الاحتفال، وسرعان ما فطن الناس لذلك فاندفعوا طراً لإفساد ذلك الحفل، وتعذر على جنود الاستعمار محاصرتهم، وبدأت الأصوات ترتفع وتنادي برجوع الملك إلَى رعيته، والتنديد بمؤامرة إبعاده.

وقد ابتدأ الاحتفال بموكب الشموع بسلا منذ سنة 986هـ، على عهد المنصور أحمد الذهبِي، واستمر إلَى سنة 1953م حيث عطله الشعب المغربِي الغيور على وطنه وملكه لثلاث سنوات متصلة، إلَى سنة 1956 سداً للذريعة، ولما يؤول إليه تعميم الفرح والسرور من أضرار على الأمن القومي المغربِي، وبقي ذلك كذلك حتى زالت تلك العلة، ودار الحكم معها وجوداً وعدماً فرجع الملك محمد الخامس من منفاه، وتجدد الاحتفال بها وقتها، ومنذ ذلك الحين حافظ السلويون على تلك العادة الحميدة إلَى الآن.

غير أن المستعمر كان وقتها يوزع عيوناً وجواسيس يسترقون السمع، فإذا أحسوا أن اجتماع المئات من الناس فِي المولد النبوي سيفضي إلَى اضطرابات واعتصامات يطلبون فيها رجوع الملك لبلده؛ يمنعون ذلك الاحتفال، كما فعل وقتها باشا مراكش، حين أصدر قراراً ليلة المولد النبوي لسنة [1356هـ/ 1937م] منع فيه الاحتفال بهذه المناسبة، وبالغ فِي ذلك حسب الأستاذ محمد الطوكي[1] حتى عمدت شيعته إلَى الدخول لمساجد مدينة مراكش بنعالهم، وإخراج المصلين بالقوة منها، ومن ثَم إغلاقها أربعة أيام، متصلة، من يوم العيد إلَى اليوم الثالث منه، واستغربت من وقوع هذه الحادثة، وسألتُ مؤرِّخَا مراكش؛ الأستاذ: أحمد متفكر، والدكتور أحمد عمالك، عن مدى صحة هذا الخبر؛ فأنكرا وقوعه، واستبعدا حدوثه من طرف الكلاوي، غير أن الشاعر محمد بن اليمنِي الناصري[2] أنشد فِي هذه

---

(1) صرح بذلك لوكالة المغرب العربِي للأنباء، ونشر تصريحه ذاك فِي الأنترنت تحت عنوان: "عيد المولد النبوي الشريف بمراكش طقوس وتقاليد أصيلة" سنة 2012.

(2) تنظر ترجمته فِي كتاب: الأدب المغربِي فِي المغرب الأقصى لمحمد بن العباس القباج (1/ 94) نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2005.

الحادثة بيتان مشهوران وهما:

ما بال مراكش باتت على مضض ۞ فِي ليلة العيد والأحشاء تضطرب

أتى المساجد مختالاً بشرطته ۞ يزهى بإقفالها إذ فتحها يجب

2- اجتماع الفقهاء والطلبة لإنشاد الأمداح النبوية فِي القرى والمداشر:

وصف مؤرخ سوس هذه العادة وصفًا حسنًا، لَما بين جميع القصائد والأزجال التِي تنشد فِي الليلة المولدية بمساجد سوس، فقال واصفًا مجالسها المديحية فِي نص مطول مشفوعًا بمطالع تلك القصائد التِي تتلى فيها: «والعادة أنه بمجرد ما يدخل شهر ربيع الأول ويمضي فيه يومان؛ يجتمع الطلبة من المرابطين فِي المسجد، مع العامة الذين ساكنوهم فِي القرية، فبعد قراءة الحزب عشية؛ تفتتح الهمزية، فيقرأ منها الطلبة بيتين بيتين، وبعد كل بيتين يرد عليهم العامة بقولهم مرتين:

صل يا رب ثُم سلم على من ۞ هو للخلق رحمة وشفاء

وقد حفظ العامة هذا البيت بتكراره كل عام، هكذا ويبقون إلَى قرب صلاة العشاء، ثُم يختتمون بقصيدة أَحْمَد بن عبد الحي الحلبِي التِي مطلعها:

لمن نلتجي يا من إليه تصير ۞ أمور جميع الخلق وهو بصير

ثُم تتلى قصيدة نبوية من قصائد ثمانية معلومة عندهم، وهذه هي القصائد الثمانية:

1- لليوسي مطلعها:

جد فِي سيرها فلست تلام ۞ هذه طيبة وهذا المقام

2- معارضة لبانت سعاد مطلعها:

خير الأنام هو المقصود والسول

3- قصيدة مشهورة مطلعها:

صلاة ثم تسليم مجدد ۞ على المختار سيدنا محمد

4-أخرى من الملحون مطلعها:

البشـــــــير النـــــــذير ❁ الســـــــراج المنيــــــر

5- أخرى مثلها مطلعها:

يـــا حبيبنـــا يـــا محمـــد ❁ الصـــلاة علـــى محمـــد

6- أخرى مطلعها:

صـــلى عليـــك ذو العـــلا ❁ يـــا خيـــر مـــن قـــد أرســـلا

7- أخرى ملحونة مطلعها[1]:

8- أخرى لخالد بن يحيى، مطلعها:

الصـــــلاة والســـــلام ❁ علـــــى شـــــافع الأنـــــام

والقصد من استعراض هذه القصائد، والأزجال، وأناشيد الملحون، أن تُعرف عوائد أهل القرى والمداشر، وقد تكون هذه العادة جارية فِي كل أقطار سائر المملكة الشريفة؛ غير أن بعض المناطق تقتصر على بعض القصائد دون بعض.

ولَم يفت المختار السوسي أن يذكر عوائد الناس وطريقة احتفالهم بالمولد النبوي مع الفقهاء والطلبة فقال: «ثم تصلى العشاء، وهكذا فِي كل ليلة، فتتم الهمزية والقصائد مع ليلة العيد، وفِي هذا النهار قبل العيد؛ تأتِي القبائل المجاورة بذبائح يعتاد أن يأتوا بها دائماً من أزمان، فيفرق اللحم على دور المرابطين، وفِي صبيحة العيد يأتِي الناس المجاورون والمرابطون ومن يساكنونهم بما تيسر من الفطور، ثُم يجلس الجميع جلوساً عاماً بوقار وصمت، فتفتتح الهمزية إلَى أن تتم، والقصائد الثمانية إلَى أن تتم، وكل واحدة بغنتها الخاصة، وقلما يتم الجميع إلا مع الظهر، والناس رابضون لا يستطيع أي إنسان أن يكلم جاره، ولو بأدنَى كلمة، ولا أن يقوم إلا

---

(1) نسي المختار السوسي هنا إيراد مطلع القصيدة السابعة، كذا فِي الأصل، ينظر: المعسول (17/ 154).

لقضاء حاجة الإنسان، وحوالَي العصر إن تمت القصائد؛ يأتِي الطعام من المرابطين، فيأكل الجميع، ويدعون ويتفرقون، وهذه هي العادة المتبعة من قديم..[1]».

ولا شك أن هذا تقليد عام شمل كل المساجد الكبرى والمدارس العلمية بالمغرب لا تجد من يتخلف عنه، فإذا كان مؤرخ سوس ذكر لنا عادات سوس فِي ذلك؛ فإن النقيب ابن زيد وصف لنا عوائد شمال المغرب وشرقه فقال:« إذا استهل ربيع الأول يجتمع بعض الناس كل عشي ببعض المساجد والزوايا، لسرد الأمداح النبوية، كالبردة والهمزية للبوصيري، والوتريات للبغدادي، وبعض المقطعات والأزجال للحلبِي، وكذلك كل مكتب من مكاتب معلمي القرآن، وبالأخص ليلة الثانِي عشر جعلت الطعمة الفاخرة، والحلويات، والأتاي، كل على قدر سعته..[2]».

وبالجملة فهذه الذكرى الشريفة تحرك فِي الناس كما قال الفاضل ابن عاشور «دواعي التأمل والاعتبار والموعظة والأذكار، بالرجوع إلَى تاريخ أمتنا الإسلامية، وملاحظة ما تمثل فيه من العظمة والخلود على ما تعاقب فيه من المباهج والمآسي، وذلك شأن عام فِي تاريخ كل أمة، سُنَّة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً..[3]».

3- ختم الفنون العلمية فِي المدارس العتيقة بسوس:

جاء فِي مذكرات المانوزي في المعسول؛ بأن فقهاء سوس كالشريف الإكثيري وغيره: «يتحررون فِي الختام السنوي عيد المولد النبوي، فإذا جاء المولد مثلاً والأنصبة كثيرة لا يمكن ختامها فِي نصاب واحد فِي ذلك الزمان القصير؛ جمعوا بين نصابين، وثلاثة، ليتفق لهم الختم فِي حد محدود لازم عندهم، وكذلك انتشرت هذه الأنصبة فِي أقطار سوس وما حولها، لانتشار طلبة هذه المدرسة فيها، ولذلك غلب نجاح طلبة هذه المدرسة أكثر من غيرها..[4]».

---

(1) المعسول (17/ 153-154).

(2) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (6/ 191-192).

(3) ومضات فكر للعلامة محمد الفاضل ابن عاشور نشر الدار العربية للكتاب (1/ 209) الطبعة الأولَى/ 1981.

(4) المعسول (3/ 303).

وجرت عادة فقهاء سوس كذلك مراجعة متونـًا محددة فِي كل عيد، فيخصصون: «البردة، والهمزية فِي عطلة عيد المولد النبوي، والمقنع فِي عطلة عيد الأضحى، وأما فرائض الرسموكي؛ فقد اعتاد السوسيون قراءتها فِي عطلة رمضان..[1]» أما ما عدا هذه العوائد؛ فقد سبق بيانها بإسهاب فِي مبحث أنواع الاحتفال بالمولد.

4- إطـلاق البنادق إعلاماً بالمولد وابتـهاجاً به:

مما لا شك فيه أن إطلاق المدافع عادة مترسخة فِي المجتمع المغربِي تدل على وقوع فرح، أو حصول بشرى سارة، أو وصول مناسبة جليلة، ولذلك تُطلَق فِي بعض الأعياد، والمواسم الدينية، والمناسبات الوطنية، والتجمعات السعيدة، فيعقبها صياح الجمهور، وزغاريد النساء، مبالغة فِي السرور، وكناية عنه.

ولئن كان إطلاق المدافع الكبيرة تختص بها القصور الملكية -كما تقدم قبل قليل فِي الأعراف الملكية المصاحبة للمولد النبوي- فإنها تطلق كذلك فِي الثغور الكبيرة، والرُّبُط الساحلية، مع إيقاد الشموع داخلها، وإسراج القناديل فيها، سيما فِي مناسبات خاصة، ويَسمع لتلك الطلقات أهل الحضر، ومن هم بأحواز الأماكن المذكورة؛ أما أهل البوادي -سيما من يسكنون أقاصي الجبال- فيتعذر عليهم سماع صوتها، لبعدهم عنها.

لذا جرت العادة فِي قرى المغرب ومداشره النائية؛ أن يُطلق من كانت عنده بندقية عدة طلقات نارية إعلامـًا بدخول رمضان؛ وتطلق كذلك فِي ليلة المولد النبوي، تبشيراً بها، وإشعاراً بوصولها، وقد أشار الرهونِي فِي تاريخ تيطاوين إلَى هذه العادة فِي معرض ذكره لتقاليد أهل تطوان فِي المولد النبوي فقال:« ولما كان إخراج البارود مباحـًا؛ كان كل من لديه آلة منه أخرج منها عدة عمارات فتدوي المدينة دويـًا عظيمـًا من ذلك..[2]».

وغير خافٍ أن وقت المولد الشريف يكون معلومـًا عند العامة فضلاً عن الخاصة،

---

(1) المعسول (18/ 49) بتصرف يسير.

(2) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأبِي العباس الرهونِي (2/ 226).

ورغم ذلك يُجَدَّد النداء بجميع الوسائل، وبشتى الطرق، مبالغة فِي الفرح به، والتشهير بوصوله، وتختلف طرق الإبلاغ بوصول المولد حسب الأزمنة والأمكنة، وعنها يقول الفشتالِي فِي عصر أحمد المنصور الذهبِي: «فيصير الرقاع إلَى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين النعارين فِي السحر بالأذان، وأصوات رهبان، فيهوون للدعوة الذين يبارون للدعوة من الأماكن النائية..[1]».

5- إنارة المساجد والزوايا والأضرحة:

بعد استهلال الربيع النبوي وبزوغ طلعته المباركة؛ يستعد المحبون والمباركون للعيد الشريف لتزيين الشوارع الكبيرة، والأماكن الدينية كالزوايا، والأضرحة، ويعلَّق على المآذن الكبيرة ضوء ساطع ملون يطفئ ويضيء، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ﴾[2] ويحيط عادة شريط كهربائي متصل بأسوار الجوامع الكبيرة، والمدارس العلمية، تتخلله ألوان مختلفة مرصعة بمصابيح عديدة، تظهر للناظر من أقاصي البلد تتلألأ، ويزداد لمعان جمالها كلما بَعُدت عين الإنسان عنها، ويشتد ذلك الجمال أكثر؛ لَما تشاهد مجامر البخور من العنبر يعبق من ضوء الشموع، فيتراءى ليلاً من النوافذ.

وقد بيَّن الرهونِي فِي تاريخ تيطاوين هذه العادة الحميدة، فقال: «حتى إذا كانت ليلة اليوم الثانِي عشر على ما جرى به العمل فِي العالم الإسلامي كله؛ أنيرت المساجد، والزوايا، والضرائح، وخصوصاً زاوية سيدي علي بن ريسون، وسيدي عبد الله الحاج، وسيدي السعيدي، وسيدي علي بركة وغيرهم..[3]» وامتدت هذه العادة كذلك إلَى الرباط، وعنها يقول ابن زيدان عند ذكره للاحتفال بالمولد النبوي: «ويجمرون بالعود الهندي، ويزيدون فِي إسراج السروج..[4]».

ولا يبعد أن تكون هذه العادة عادة مشرقية انتقلت إلَى المغرب بحكم الصلات

---

(1) مناهل الصفا (ص/ 236).

(2) من الآية 43 من سورة النور.

(3) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين للرهونِي (2/ 226).

(4) إتحاف أعلام الناس (6/ 192).

العلميـة، والامتـدادات الحضـارية بـين العـدوتين. قـال عبـد الـرحمن الجبرتـي فِـي عجائب الأخبار فِي معرض استعداد أهل المشرق للمولد النبوي: «وفيه نودي بتزيين الأسواق مـن الغـد تعظيمـاً ليـوم المولـد النبـوي الشـريف، فلمـا أصـبح يـوم الأربعـاء كررت المناداة، والأمـر بـالكنس، والـرش، فحصـل الاعتنـاء، وبـذل النـاس جهـدهم، وزينـوا حـوانيتهم بالشـقق الحريـر، والزردخـان، والتفاصـيل الهنديـة..[1]». وقـال في موضع آخر: «وفِي يوم الجمعـة كـان المولـد النبـوي، ونـادوا بفـتح الـدكاكين، ووقـود القناديل، فأوقدت الأسواق تلك الليلة التِي قبلها..[2]» .

6- شروق الشمس وتلألؤها صباح يوم المولد:

ساد اعتقاد العُجُز والصبيان أن الشـمس تـتلألأ صـباح العيـد النبـوي فرحـاً بـبروز المصـطفى، وسـروراً بمولـده عليـه السـلام، وعـادة مـا تصـعد النسـاء إلَـى السـطوح مصحوبات بأولادهـن، ويراقبن بزوغ شروق الشمس، بعدها يُخيل إليهن أنها تتحـرك يمينـاً ويساراً، وتتمايل فِي داخلها، ابتهاجـاً بمولد النبِي ﷺ فينشدن أشعاراً وأزجـالاً كقولهـن:

سـعداتك يـا مينـة ولـدت نبينـا ❁ سعداتك حليمة ربيت شافع العباد

وجرت عادتهن فِي سائر البوادي بسوس صباح يوم مولد المصـطفى ﷺ بـالخروج إلَى أعتـاب دُورِهـن، وهـن متشـوقات للنظـر إلَـى الشـمس لا شـعاع لهـا، فيعتقـدن أن نـوره ﷺ حجـبه، وربمـا يتحـرك شـوق بعضـهن بمحبـة النبِـي ﷺ فيـردِّدْن مُقَـطّعات شعرية أمازيغية من قصيدة أبو شكر المشـهورة، التِـي تمجـد المصـطفى ﷺ وتمدحـه بعبارات عذبة، وألفاظ مؤثرة، وبعـد الانتهـاء منهـا تعقبهـا زغاريـد النسـاء، والفتيـات، ويعتقدن أن الشمس فرحت هي الأخرى بمولده ﷺ ويزداد تعلقهن بمحبته، ويقوى شغفهن بالاحتفال بذكراه، لكن هذه العادة بدأت تندرس بكثرة القيل والقال.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار (2/ 483) وانظر كذلك (3/ 122-484) نشر دار الجيل بيروت.

(2) تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار (2/ 592) لعبد الرحمن بن حسن الجبرتِي .

وقد ذكر المختار السوسي هذه العادة فِي صدر موسوعته المعسول فقال: « وإذا طلعت الشمس فِي عيد المولد؛ ترى بعض الناس يرقصون لها، ويقولون: ما يدل على أن الشمس إنما استمدت أنوارها من نوره ﷺ..[1]».

7- ختان الأطفال:

ترتبط عادة الختان عند المغاربة ببعض المناسبات الدينية غالبًا، وقد تكون خارجها، كأن يقوم بها زرافات من الناس نادراً، سيما من هم فِي قرى نائية، أو ممن سكنوا فِي أماكن قصية، ففي العصر السعدي كان السلطان أحمد المنصور يقوم بحفل كبير لختان الأطفال قبل المولد، وعنه يقول الفشتالِي: «ومنها المهرجان الذي يقيمه يوم عاشوراء كل سنة لختان ذرية ضعفاء، من مساكين الحضرة وأحوازها، وذوي الحاجة من أهلها..[2]».

وإذا كانت هذه العادة المشهورة عند المغاربة بـ: "الطهارة" -وكأنها مبالغة فِي الكناية عن دخول الصبِي للإسلام- فإنها تطلق فِي اللغة ويراد بها الإعذار، قال الزمخشري فِي الأساس: «وعذر الصبِي: طهر، وولد رسول الله معذوراً مسروراً، وكنا فِي إعذار فلان، وفِي عذيرته، وهو طعام الختان..»[3].

وقد ارتبط ختان الأطفال فِي العهود الأخيرة بمناسبة المولد النبوي، ويدل على ذلك أن ولِي العهد الحالي؛ الأمير مولاي الحسن بن محمد العلوي ختن فِي الأسبوع الأول من الربيع النبوي، وجاء فِي صدر البلاغ الذي أصدره القصر الملكي حول تلك المناسبة: «تمت اليوم الخميس 14 أبريل 2005 فِي الساعة الثانية و 20 دقيقة بعد الزوال؛ عملية ختان صاحب السمو الملكي ولِي العهد الأمير مولاي

---

(1) المعسول (1/ 32).

(2) مناهل الصفا (ص/ 252).

(3) أساس البلاغة للزمخشري (1/ 640) تحقيق محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولَى/ 1998.

الحسن بعيادة القصر الملكي بفاس..[1]» والتاريخ المذكور يوافق: 5 ربيع الأول 1426هـ، وعلل مدير التشريفات والأوسمة بوزارة القصور الملكية[2] اختيار مدينة فاس دون غيرها بقوله: «إن العادة جرت عند الأسرة الملكية أن يزور الأمير المختون ضريح المولَى إدريس الأزهر تبركـًا وتيمنـًا بأول مؤسس للدولة الإسلامية بالمغرب..[3]».

وتختلف عوائد الختان فِي المملكة الشريفة حسب طبيعة خصوصيات مدنها، والأعراف السائدة بين سكانها، ففِي مناسبة المولد النبوي الشريف بسلا؛ يجتمع أطفال اليتامى، وأبناء الفقراء، للإعذار، وهو تقليد دأب عليه السلويون لسنوات طوال، وبه يُختم موسم الشموع، فتكتظ دار الشرفاء، بأطفال الضعفاء، وصبيان المساكين، واليتامى، من كل النواحي.

وهذا العرف جار كذلك في مراكش؛ فقد دأب أهله على القيام بعمليات إعذار جماعية للأطفال والصبية، سيما أولاد الفقراء، والمساكين، والمعوزين، ويُقام حفل خاص لذلك طيلة أسبوع عيد المولد النبوي، وجرت العادة أن يُنظّم فِي بعض أضرحة الرجالات السبعة لمراكش كـ: "مول لقصور"، و"سيدي بلعباس".

أما فِي سوس وأحوازها؛ فقد ذكر المختار السوسي عادة الختان وكيفيتها فقال: «يجتمع أهل المختون والجيران، وأهل القرية فِي مكان حتى إذا حضر الطعام؛ تنحى الطلبة فقرؤوا ختمة من القرآن، ثُم يلتئم الحفل، فيؤتى بالصبِي فيختن وسط كل الحاضرين، وهم يصلون على النبِي ﷺ وعلى إبراهيم خليل الرحمن، فِي أنشودة خاصة لذلك..[4]».

وقد اعتاد الناس أن يتم الختان فِي زاوية، أو مدرسة عتيقة، أو جامع كبير، وأحيانـًا

(1) مقطع من البلاغ الملكي عمم وقتها على وسائل الإعلام.

(2) الأستاذ: عبد الحق المرينِي.

(3) مقطع من البلاغ الملكي المذكور.

(4) المعسول (1/ 34-35).

المصلَّى، فيحددون مكاناً مخصصاً لذلك، خلافاً للمدن الأخرى؛ فتختلف طقوس الاحتفال بالختان؛ حيث يحشد عدد من التلاميذ الصغار محاطون بفرس كبير يمتطيه الصبِي المختون، وعليه قماش مزركش بخطوط حمراء عريضة تحاكي أصالة الفن الأمازيغي الأصيل، فِي موكب بهيج يشبه إلَى حد كبير حفلة سلطان الطلبة المشهورة بـ: "الحذاقة" فِي شكلها وصورها، وإن كانت تختلف مقاصد استحداثهما، والمغزى الذي سيقت فيه وله كُلاً منهما.

أما فِي المدن؛ فتختلف أعرافها مع البوادي والقرى، ذلك أن الوفد المرافق للمختون ينطلق فِي دار أهله وسط جوق موسيقي، فتسمع لرنات المزامير، والطبول ترفع إلَى عنان السماء، دون علم الصبِي بمقصود الحفلة، فِي سرية تامة لا يدري المسكين ما يُفعل به، وحتى الصبيان المحاطون به عن اليمن وعن الشمال - ويحملون فِي أياديهم مناديل بيضاء- لطالما يسترقون السمع دون أن يصلهم الخبر اليقين، فترى تلكم الحشود مندفعة إلَى مكان الختان، والصبِي فوق حصان فاره، أو فرس كبير، لابساً جلابة بيضاء، ملفوفاً بسلهام صغير، وعليه طربوش.

خلافاً لهذا العصر الذي يُلبس فيه للمختون ما يسمى فِي العرف المغربِي بـ: "جَبَدُورْ" مميَّزاً عن كل الصبيان، متقدماً عليهم، والجميع يصلون على النبِي ﷺ بصوت واحد، ويبتهلون بأمداح نبوية، حتى يصلوا إلَى المحل الذي ينتظر فيه الحجام الطفل الصغير، والذي عادة ما يكون مكتظاً بالمدعوين، وغاصاً بالضيوف.

فلا تسأل بعد ذلك عن اللطف والليونة التِي يتم بها إنزال الطفل من الفرس، فتفسح له الوفود الممرات لدخوله، وتسمع لزغاريد النساء، مصحوبة بصياح الجمهور، فيندفع أبو الصبِي ليُقبِّل رأس الختَّان، ويمسك فِي يده أوراقاً نقدية ويدسها سراً فِي يد الحجام، وتُقَدّم الأم له هديتها كذلك كالسكر، وذلك كله قبل الختان، وكأنهما قصدا تليين قلب الحجام، لكي لا يقسو على فلذة كبدهما، مع أن الهبات والمنح لو بلغت ملء الأرض ذهباً؛ لما خففت من الألَم الحقيقي للصبِي

شيئًا، اللهم إن ساد اعتقادهم أنَّ تقربهم بتلك الهدايا للحجام تخفف من ألَم الصبِي، وتُسَكِّن خيالهم بإزالته، مع أن إحساس الأبوين فِي الحقيقة أقرب ما يكون إلَى التخفيف على أنفسهما، لنزعتهما العاطفية وحنانهما الزائد على فلذه كبدهما؛ منه إلَى التخفيف على ابنهما.

وآن الأوان لتقديم الطفل للحجام حيث يتم ذلك بأقصى أساليب الرفق، تتخلله ابتسامات مصطنعة، وتسليات مبطونة، ويزف الخبر للنساء على أن الصبِي بين يدي الخاتن، فتطلق الزغاريد، وتصيح بنات الحي بأهازيج تخفف الألَم عن أم المختون، بعدها تتقدمهن بعض النساء المسنات فتردد زجلاً شعريًا لطيفًا تشاركها فيها الحاضرات، ويتوسلن به للحجام، بصوت مؤثر، هاك لفظه:

الـــــحجام عــــار عليـــــك ۞ راه ولِيـــدي بِـــينْ ايـــديك

وقبل أن يصل بين يديه يضع الحجام إزاراً كبيراً يحجب الصبِي عن الناس، وجرت عادة أهل دكالة ونواحيها؛ أن يقوم أحدهم بوضعه فوق قصعة كبيرة ليقوم الحجام بالعملية تصحبها زغاريد تمجد أمه على صبرها، وغالبًا ما تجهش بالبكاء رأفة بفلذة كبدها، خلافًا لتقاليد الدار البيضاء وأحوازها؛ فقد جرى العرف عندهم أن تضع أم المختون رجليها فِي إناء كبير مملوء بالماء البارد تفاؤلاً أن يبرد ذلك على ابنها، وفِي شمال المغرب كطنجة ونواحيها؛ يطلق الحمام فِي مكان الختن فينشغل به الصبِي متعجبًا من دورانه فيسرع الحجام وقت انشغال الصبِي إلَى طحر القلفة[1] بمقص حاد جداً.

وانفرد أهل مراكش بين سائر المدن المغربية بوضع بعرة خروف داخل غشاء القضيب قبل الإعذار لعزل ما يسمى بالثمرة خوفًا من إصابتها بضربة المقص، بعده يختلط محتوى بيضة طاجزة مع الجرح لتضميده ولتبريده، وتحمل الفتيات العوانس

(1) قال مرتضى الزبيدي فِي شرحه للقاموس: «طحر الحجام: استأصل القلفة فِي الختان..» ينظر تاج العروس مادة [صحر] (12/ 416) حققه مجموعة من المحققين دار الهداية طبع دون تاريخ.

اللواتِي تأخرن فِي الزواج الصبِي المختون بعد ختنه فوق ظهورهن تفاؤلاً بزواجهن، وتيمناً بانفراج غمهن، ويقدم أهل مراكش وأحوازه حلويات كثيرة يسمونها "اللام الطام" وتجري العادة نفسها فِي فاس، ويسمونها هناك: "غريبة البهلة" خلافاً لعادات أخرى حيث يذبح الديك ويطهى بالبصل، والزبيب، فيخصص مرقه للمختون ليسترجع ما خار من قواه، وقد ذكر النقيب ابن زيدان عادات أخرى فِي الختان، لكنه لَم يربطها بالمولد[1].

وقد تراجعت نسبياً هذه العوائد فِي الآونة الأخيرة، فتنظَّم أحياناً خارج أوقاتها المعتادة كموسم الربيع، وإن كان ارتباطها بالمولد النبوي ما زال جارياً إلَى الآن عند جمعيات البر والإحسان التِي تتولّى الإشراف على الختان، وعلى منوالها صارت المراكز المدنية والهيئات الخيرية فِي تنظيم حفل الختان فِي ليالِي المولد.

غير أن عمل الحجام تراجع وحل محله الأطباء والمتخصصون، والذين عادة ما يتم الْخِتان بـ "الليزر" فِي مصحات خاصة، ووقعت بعض الحوادث المؤلمة بسببه، ورغم قلتها؛ فإن هذا الموطن ليس محل إيرادها، وتكفي هذه الإشارة فِي التذكير، وإن شئتم التحذير، وبالجملة فالحجام يغلب عليه فِي مهنته الوازع الدينِي[2] خلافاً للآخرين الذين يستميلهم الربح المادي.

8- الإفطار بالعصيدة صباح عيد المولد النبوي:

جرت عوائد بعض مناطق المغرب كفاس، وتطوان، وسلا وأحوازها؛ أن يفطروا بالعصيدة على الريق صباح المولد النبوي الشريف، ثُم بعد فترة يُؤتى بالفطور المعهود، وسَبْقُ العصيدة عليه عادة قديمة ضاربة فِي جذور التاريخ، ما زالت كثير من المدن المغربية تحافظ عليها صباح يوم مولد النبي الشفيع.

قال النقيب ابن زيدان: «وقليل من الأسر من لا يفطر بها صباح عيد المولد النبوي

---

(1) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (6/ 237-240) حققه عبد اللطيف الشادلِي، نشر وزارة الأوقاف المغربية الطبعة الأولَى/ 2009.

(2) يمنح للحجام عادة 100 نادراً و 200 درهم غالباً، وعمله لا يتجاوز دقائق معدودة، خلافاً للمصحات المتخصصة التِي تتم فيها العملية فِي ساعات، وبمبلغ يتروح ما بين 900 إلَى 2000 درهم !!

ويومين بعده، وقد كنت رأيت فِي أحد المخطوطات هذين البيتين:

أهل فاس هم سادة الناس طراً ❁ وعيون الورى وبيت القصيدهْ

ليت شعري يا سيدي لِمَ خصوا ❁ مولد المصطفى بأكل العصيدهْ؟

فبقيت أسأل نفسي سؤال الشاعر حتى رأيت [يضيف ابن زيدان] فِي كتاب: "المدخل" لابن الحاج الفاسي؛ أن من عادة النصارى بمصر أكل العصيدة صباح عيد الميلاد، فعلمت أنها عادة منقولة..[(1)]».

إنَّ عزو النقيب إِلَى ابن الحاج سبق النصارى بها فِي المدخل، وتعليله هناك دواعي اختيارها، جعل النفوس مشتاقة إِلَى كشف علاقة الإفطار بها، وبين المولد النبوي، ففكَّكَ بذلك ابن الحاج ألغاز ذاك الإشكال، وقد أحسن صنعًا لما عقد فصلاً مستقلاً سماه: "فصل من المواسم ما يفعلونه فِي مولد سيدنا عيسى عليه السلام" فقال عاطفًا على تأثر نساء المسلمين بما يُفعل فِي أعياد النصارى: «ومن ذلك ما يفعلنه فِي موافقة النصارى فِي مولد عيسى عليه الصلاة والسلام.. وهو أنهن يعملن صبيحة ذلك اليوم عصيدة لا بد من فعلها لكثير منهن، ويزعمن أن من لَم يفعلها، أو يأكل منها فِي ذلك اليوم يشتد عليه البرد فِي سنته تلك، ولا يحصل له فيها دفء، ولو كان عليه من الثياب ما عسى أن يكون، ومع كون فِعلها بدعة؛ فالشاهد يكذب ما افترينه من قولهن الباطل، والزور، فكأنهن يشرعن من تلقاء أنفسهن، نعوذ بالله من الضلال..[(2)]».

وغير خاف أن لأهل فاس نزوع نحو بعض العوائد الغريبة منذ مديد الأزمان، فانغرست فِي حياتهم الاجتماعية، بحكم كثرة المخالطة والممارسة، ومما يقوي ذلك؛ شهادة الحسن الوزان عليهم: «لا تزال بفاس بقايا من بعض الأعياد التِي خلفها المسيحيون ينطق فيها الناس بكلام لا يعرفون له معنى، ففي ميلاد المسيح يأكلون

---

(1) العز والصولة فِي معالِم نُظم الدولة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان (1/ 176 هامش-1).

(2) المدخل لابن الحاج (2/ 58-59) نشر دار الفكر للنشر والتوزيع/ طبعت دون تاريخ.

نوعـًا مـن ثريـد، مصنـوع مـن خضـر متنوعـة كالكرمـب، واللفـت، والجـزر، وغيرهـا، ويطبخون عدة أنواع من الخضر مجتمعة على حالها دون تقطيع كالفول، والحمص، وحبوب القمح، ويأكلون هذا الطعام فِي تلك الليلة كما لو كان حلوى لذيذة..[1]» وخفي على النقيب هذا النقل، وليس الخبر كالمعاينة[2].

غير أن من تأمل ما ساقه النقيب عن ابن الحاج، وقارنه بنظائر ما قيل فِي هذه العادة؛ سيتضح له أن مولاي عبد الرحمن بن زيدان زاد فوائد مهمة على ما هو معهود فِي المصادر التاريخية؛ منها: أن عوائد بعض القبائل لا يقتصر عندهم الإفطار بالعصيدة على العيد النبوي فحسب؛ بل يمتد الإفطار بها يومين بعده؛ وإلا فإن عبارات بعض المؤرخين ظاهرها الاقتصار على يوم المولد فقط.

وأما المسألة الثانية التِي أثارتْ انتباهي فِي نقل النقيب؛ تساؤلُه مع الشاعر الذي أورد بيتين له عن سبب الإفطار بالعصيدة صباح العيد النبوي، بيد أن تساؤله ذاك لا يخلو من مبالغة وطرافة فِي الوقت نفسه؛ لأن كثيراً من التقاليد المرعية فِي المولد النبوي عند المغاربة يصعب العثور على تفسير دقيق لمعناها، ولا تأويل مقبول لسبب اختيارها، بل ولا لوجود أدنَى رابطة بينها وبين الاحتفاء بالمولد النبوي، وكأنها تتنزل منزلة الأحكام التعبدية المحضة التِي لا تدرك عللها بالعقل، ولا تُعرف مقاصدها بالاجتهاد.

وإذا علمت هذا؛ فلا تغترنَّ بتأويلات مرجوحة يعللون بها سببَ الإفطار بالعصيدة صباح المولد النبوي، منها: أن النبِي ﷺ كان يحبها ويبالغ فِي أكلها. قلت: لو كان ذلك مشهوراً عنه عليه السلام؛ لنُقل إلينا بالتواتر، واستفاض ذكره فِي دواوين السنة، وشاع فِي بطون كتب السيرة. نعم يوجد شيء يسير؛ لكن لا تقوم به الحجة ذُكر عرضًا فِي الحديث المروي فِي صحيح مسلم عن عتبان بن مالك لَما ذهب عنده

(1) وصف إفريقيا (2/ 258).

(2) الأمثال لأبِي عُبيد القاسم بن سلاّم (ص/ 203) تحقيق عبد المجيد قطامش نشر دار المأمون للتراث الطبعة: الأولَى/ 1980.

النبي ﷺ فقال عتبان: «وحبسناه على خزير صنعناه له..[1]» ونقل النووي في شرحه للحديث عن ابن قتيبة أن «الخزيرة لحم يقطع صغاراً، ثُم يصب عليه ماء كثير، فإذا نضج در عليه دقيق، فإن لَم يكن فيها لحم؛ فهي عصيدة..[2]» .

وبوَّب البخاري باباً فِي صحيحه سماه: باب الخزيرة[3] ونقل ابن بطال فِي معرض شرحه للحديث عن الطبري أنها: «شيء يتخذ كهيئة العصيدة؛ غير أنه أرق منها..[4]» ولا شك أن ترجيح محبة أكل النبي ﷺ للعصيدة بهذا –على تقدير اطلاع هؤلاء عليه– مرجوح، وفيه بُعْد وتكلّف، لضعف أخذ دليل محبة النبي ﷺ لها من نص واحد، وإن كان هذا النص نفسه؛ سيق مساق المصادفة للعصيدة عرضاً، لا أن عتبان بن مالك قصدها عمداً، وإلا فقد استضاف كثير الصحابة المصطفى ﷺ فلم ينقل عنهم صنيع ما فعله عتبان فتأمل .

فاتضح بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن هذه العوائد تسربت إلى مجتمعاتنا الإسلامية من أعياد النصارى، وحسبك استعرض ابن الحاج عدداً من أعياد النصارى بمصر، فلاحظ تأثر المسلمين بها. قال فِي عيد النيروز: «فأول ما أحدثوه فِي ذلك؛ أنهم اتخذوا طعاماً يختص بذلك اليوم، فتشبهوا بهم فِي فعل النيروز، فمن لَم يفعله منهم؛ كان ذلك سبباً لوقوع التشويش بين الرجل وأهله، فلا بد له فِي ذلك اليوم من الزلابية والهريسة وغيرهما.. ثُم يأكلون فيه البطيخ الأخضر، والخوخ، والبلح إذا وجدوه، وغير ذلك مما يلزمه النساء لأزواجهن، حتى صار ذلك كأنه فرض عليهن؛ لأنهن اكتسبن ذلك من مجاورة القبط، ومخالطتهن بهم، فأنسن بعوائدهم الرديئة..[5]».

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم فِي صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب الرخصة فِي التخلف عن الجماعة بعذر تحت رقم [263].

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (5/ 159) نشر دار إحياء التراث العربِي بيروت الطبعة: الثانية/ 1392هـ.

(3) صحيح البخاري كتاب الأطعمة، باب الخزيرة رقم الحديث [5401].

(4) شرح صحيح البخاري لابن بطال (9/ 475) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم دار النشر: مكتبة الرشد السعودية، الرياض الطبعة: الثانية/ 2003.

(5) المدخل لابن الحاج (2/ 48).

وقال كذلك فِي عيد النصارى الموسوم بـ: مواسم خميس العدس: «ومن ذلك استعمالهم فيه العدس المصفى وإن كان جائزاً؛ فالبدعة تحريهم له فِي ذلك اليوم المعين موافقة لأهل الكتاب فِي مواسمهم، فمن لَم يفعله منهم تشوش هو وأهله..[1]» وكذا عيد سبت النور الذي يشربون فيه «الدواء فِي ذلك اليوم، ويزعمون أن شرب الدواء فيه ليس كغيره من الأيام، وفِي ذلك تعظيم له..[2]».

والسبب الذي جعلنِي أسوق هذه النصوص المطولة هنا -رغم أنِّي أتحاشى الإسهاب في النقول- هو مدى تأثر المسلمين بالشرائع الأخرى في أعيادهم، فنُقِلت كثيرٌ من المأكولات الخاصة في أعياد محددة، ولَهم فيها طقوس معينة، واعتقادات راسخة قد يصيب -فِي نظرهم- من تخلف عنها بعين حاسد، أو ضرر مستعجل، أو شرٍّ قادم، فتأثر المسلمون بهذه الاعتقادات التي لا تعدو أن تكون بمجملها من الرواسب القديمة التي ما زالت منغرسة فِي تقاليد مجتمعاتنا المعاصرة إلى الآن !!

ومن ثَم تداخلت مجموعة من طقوس الأعياد، والمواسم، فأنتجت بحكم كثرة ممارستها؛ ما يشبه أن يكون خرافات، وعقائد فاسدة، تؤمن بقوة تسخير قوى الطبيعة بشتى أنواعها، كالمأكولات الخاصة فِي أيام محددة، لتحقيق المصالح الآنية للإنسان، واعتقاد دفع الضرر بتلك المسببات المذكورة، وما زالت بقايا تلكم الرواسب متأصِّلَة فِي بعض جوانب الثقافة الشعبية المغربية إلى الآن.

وبناء على ما تقدم من النقول التاريخية؛ يتبين أن سبب الإفطار بالعصيدة -فِي العيد النبوي- قد يكون أصله مأخوذاً مما كان يفعله النصارى فِي عيد مولد سيدنا عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمصر، ومن ثَم نقله عنهم المسلمون، فشاع بعد ذلك فِي أقطار أخرى كتونس، والجزائر، وليبيا، وموريتانيا، والمغرب، فقد اطلعت على مقالات متعددة حول عوائد تلك الدول نشرت في مواقع عدة؛ فرأيتهم يذكرون

(1) المدخل لابن الحاج (2/ 55).
(2) نفسه (2/ 56).

العصيدة باعتبارها أحد الأعراف الملتصقة بالعيد النبوي، وإن كان يختلف كيفية طهيها، وطريقة طبخها، حسب العوائد الخاصة بكل بلد.

أما فِي شمال المغرب؛ فقد عقد المؤرخُ أحمد الرهونِي فِي كتابه: "عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين" باباً سماه: عادةَ الاحتفال بالمولد النبوي، سرد فيه بعض العوائد التطوانية، فقال عاطفاً عليها: «فإذا صُلّي الصبح؛ أفطر الناس على العصيدة، ثُم أصبحوا فِي عيدهم يتزاورون، ويهنئ بعضهم بعضاً..[1]» وتخصيص العصيدة بالذكر دون غيرها؛ فيه دليل على ترسخ هذه العادة فِي شمال المغرب صباح المولد النبوي كذلك.

ولَم يقتصر جري العادة على طهي العصيدة عند الخواص فِي دُورهم بمناسبة المولد فحسب؛ بل تعدى ذلك إلَى مجامع عامة كصنيع الولِي الصالح المشهور بأبِي المحاسن ليلة المولد النبوي بزاويته بفاس، حين يطعم جميع الحاضرين: «فِي ذلك اليوم العصيدة من سميد القمح تؤكل بالسمن، والعسل، وثريد الزِّرمك، بلحم الغنم، ومع كل قطعة منه صحن من عسل ليؤكل به.. ويحضر خلق من المساكين لا يحصون، فيأكلون ويحملون ما أمكن، يصنع ذلك فِي اليوم الثانِي عشر..[2]».

ولأهل سلا كذلك عناية فائقة بأكل العصيدة في المولد النبوي، وكيف لا وهم الذين شهَّروا موسم الشموع، وحافظوا عليه لقرون عديدة، وزادوا على ذلك أنهم يجعلون مسك ختام المولد النبوي بأكل العصيدة، ويضعونها فِي قصعة تقليدية كبيرة يأكل فيها الزوار، والمنشدون، والأعيان.

وقد بوب النقيب ابن زيدان عنواناً فِي إتحافه تحت عنوان: "عاداتهم فِي المولد النبوي" فقال: «فإذا أدوا فريضة الصبح، وقضوا أورادهم اللازمة؛ أفطروا على الحيس مخلوطاً بالعسل، ويسمى ذلك الحيس لديهم بالعصيدة، ويتخذ ذلك من

---

(1) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأحمد الرهونِي (2/ 226).

(2) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبِي المحاسن لأبِي حامد الفاسي الفهري (ص/ 281) تحقيق حمزة الكتانِي، نشر مركز التراث الثقافِي المغربِي ودار ابن حزم، الطبعة الأولَى/ 2008.

سميد البر، يتخذ ذلك عامة أهل البلد وخاصتهم..[1]» .

قلت: وهذا ليس على إطلاقه؛ لأن تلك العادة منتشرة فِي فاس إلَى مراكش وأحوازها، ولَم تُعرف فِي سوس، وإنما أشرت إلَى هذا التنبيه؛ لقول النقيب: "عاداتهم فِي المولد النبوي" وإن كان يقصد أهل مكناس فقط كما يظهر فِي عنوان كتابه؛ لكن القارئ قد يظن أنها عامة فِي سائر أنحاء المملكة، فاتضح أن سريان تلك العادة ليست جارية على إطلاقها، فيتعين عدم تعميمها، لذا وجب التنبيه على الخصوصية.

أما فِي بلدتنا سوس؛ فلا يفطرون بالعصيدة صباح يوم المولد، فكأن تلك العادة مشتهرة فِي مراكش وما والاها. نعم، اشتهر أكلها فِي سوس كثيراً[2] إلَى درجة جعلت المختار السوسي يقول عنها:« كما هي العادة الإلْغِيّة غالباً من أن العَشاء يكون بالعصيدة، ولكون الجدب والإقلال هو الغالب على من فِي إلْغ..[3]».

وذكرها فِي غير موطن فِي موسوعته المعسول، باعتبارها أكلة مفضلة عند السوسيين، دون الإشارة إلَى علاقتها بالمولد النبوي، ولو كانت عندهم عادة، لما سكت عن ذلك، ولأشار إليه، وقد سألت عنها كبار المسنين، والمؤرخين، فِي أغلب مناطق سوس؛ فلم يعرفوا تلك العادة فِي المولد النبوي، ومن نافلة القول التذكير بأن النساء السوسيات يُتْقِنَّ قديماً طبخ العصيدة، ويَخلطْنَها بالسميد المسقي بالسمن، وتدهن بالعسل المصفى، ليزيدها ذلك مذاقاً حلواً.

9- احتفال الأطفال الصغار:

يتأثر الأطفال بمختلف الطقوس والعادات التِي يفعلها آباؤهم فِي المولد النبوي، ويقلدونهم فِي العمل بها، وكأنهم يحاكونها حقيقة، رغم عدم فهمهم مقاصد هذه الذكرى الشريفة، وأبعاد الاحتفال بها؛ لكن آباءَهم أبوْا إلا أن يشاركوا فلذات

---

(1) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (6/ 192).

(2) المعسول (3/ 359).

(3) المعسول (1/ 27).

أكبادهم ذلك الفرح والسرور الذي يشيع ذلك اليوم.

ولذلك ترى الآباء قبل الليلة المولدية يبالغون في إسعاد أبنائهم، ويحلقون لهم رؤوسهم، ويصطحبونهم للحمامات الشعبية، مع شراء أقمصة، وسراويل، وأحذية جديدة لإدخال مزيد من السرور عليهم، فتكتظ الأسواق عادةً قُبيل ذكرى مولده عليه السلام بالمارة، والزوار، فيصطف التجار على حافة الشوارع الكبيرة لعرض سلعهم، فتراها بأنواعها المتعددة مفرّشة على طول الأرصفة.

أما أمهاتهم فيشترين لبناتهن الكساوات الجديدة، والطبول الصغيرة، وبعض الآلات الموسيقية، ويخضبن لهن أيديهن بالحناء، وامتد الخضب ليصل حتى إِلَى صغار الذكور، حيث تَرْسُم لهم أمهاتهم، أو أخواتهم فِي أكفهم بعناية بالغة؛ النجمة الخماسية التِي ترمز لـ: بسم الله الرحمن الرحيم بالحناء، أو تختط رسوماً تحاكي محبة النبِي ﷺ أما بعض الفقهاء فقد خالفوا النمط المعهود عند العامة، فراحوا يكتبون لأبنائهم فِي أيديهم بيتاً من قصيدة "البردة" تدل على ولادته ﷺ والفرح بها، وهو بيت مشهور جداً يحفظه حتى العامة لكثرة ترداده وهو:

أبان مولده عن طِيبِ عنصره ❁ يا طيب مبتدئٍ منه ومختتم

وبيت فِي اليد الأخرى من قصيدة "الهمزية" تتَّحِد مع الأولَى فِي القصد والمعنَى، وهي:

ليلة المولد الذي كان للدِّيـ ❁ ـن سرورٌ بيومه وازدهاء

فترى الصغار صباح يوم المولد ذكوراً، وإناثاً؛ لابسين كسوتهم الجديدة، فيشرحون دلالات تلك الخطوط بأساليبهم البريئة، ويشتد التنافس بينهم فِي إظهار الحناء، ويتباهون به بينهم، وربما يغضب الصبِي إذا غفلت والدته عن تلك العادة، سيما إذا برز الصبية أيديهم وهي مخضبة بالحناء، ومزركشة بالألوان، فيهرول نحو أمه باكياً، فتأخذ ذاك القِدر الطينِي الذي يُحتفظ فيه بالحناء، فتخضب له يده عن عجل، ثُم يسارع إِلَى أصحابه فيمد يده لهم واحداً واحداً ليشاهدوه، وهذه غريزة منغرسة فِي نفوس الصبيان كما هو معروف.

أما الفتيات الصغيرات فتراهن ممسكات بالدفوف، أو ما يسمى فِي العرف المغربِي بـ: "الدربوكة" و "التعارج" وينْقُرْنَهَا بأناملهن الصغيرة المزركشة بالحناء، وقد تمتد أعينك إلَى ما تحت أكفهن فتراها محاطتين بأنواع من الحلي كالخلاخيل، والخواتيم، وبالجملة فالأطفال الصغار يبالغون فِي الاحتفال بشتى الطرق دون أن يعرفوا مآلات ذاك الاحتفاء، لكن القصد الأصلي من المولد هو تعميم الفرح فِي سائر طبقات المجتمع، وكذلك كان والحمد لله.

أما فِي مساء الليلة المولدية؛ فتختلف العوائد فِي المدن والقرى، فترى الناس صباح يوم المولد فِي الأولَى وهم فِي أبهى مظاهر الفرح، يصلون الرحم، ويتزاورون بينهم، ويتبادلون تهاني العيد، وفي المساء يرَوِّحون على أنفسهم في المتنزهات، والحدائق، مصحوبين بأبنائهم إلَى مواطن الترفيه، وأماكن اللهو، وقاعات اللعب، فيركبون السيارات الصغيرة، ويقودون الدراجات فِي ساحات عمومية، أو يلتقطون صوراً مع الإبل بعد ركوبها. والحاصل أنهم يبادرون إلَى ما يسرهم، فيزداد فرحهم بقدر تنوعهم فِي صنوف التسلية، والمرح، أما إذا رجعوا؛ فيتجمعون فِي محيط دُورهم، ويرددون زجلاً شعرياً يدل على الفرح بمولده ﷺ:

مولود يا مولود النبِي ❁ لالا فاطمة بنت النبِي

أما في الثانية -أي القُرى- فعادة ما تجبر الأمهات أولادهن على الاستحمام فِي الليلة المولدية، وتلبس لهم جلابيب صغيرة، أو أقمصة بيضاء، ويحلق لهم آباؤهم رؤوسهم، ويصطحبونهم للمسجد، وبعد رجوعهم؛ تأخذ الأم بيضة صغيرة وتغلفها بعجين، وتضعها فِي الكانون الذي يطبخ فيه الخبز الذي يرسل للجماعة فِي المسجد مع إدام، فتُعْطَى للصبيان، فيشد انتباههم ما فِي داخل الخبزة الصغيرة، وعادة ما تخفي عليهم أمهاتهم ذلك حتى يكتشفه هو، وقد يسألها فتجيبه لا أدري، وما زال يقطع أجزاء من الخبز شيئاً فشيئاً حتى يصل إليها فيفرح بذلك، وللبيضة الملتفة بالعجين المطبوخة فِي الكانون طعم حلو خاص، ومذاق رفيع، يختلف عن نظيرتها الأخرى التِي طبخت منفردة فِي الماء.

أما فِي المساء؛ فيجمع الصبية والأطفال الصغار فِي مكان غير بعيد عن مجمع

النساء عادة، ويلعبون بالألعاب التقليدية كبناء صور بالأحجار الصغيرة، أو اللعب بالكرة، أو تقليدهم للمعلم، أو محاكاتهم لواقع ما؛ كأن يكون أحدهم سارقًا، والآخر شرطيًا، ويتفقون على تفاصيل القصة، ثُم يطبقونها، ويتظاهرون بأن ذلك وقع حقيقة، وفِي الأخير يتم الانتصار للحق، ومعاقبة الجانِي، وإدخال السارق للسجن، وما يجري مجرى ما ذُكر.

وقد شاهدت يوم زرت أسا الزاك فِي المولد النبوي لعام 1437هـ؛ مجموعة من الصبية يشرف على تعليمهم بعض المسنين، يقربون من العشرة أحاطوا دائرة متوسطة فاندفع اثنان منهم داخلها، وبدءَا يتصارعان حتى يسقط أحدهم الآخر فينتهي الصراع، ويفوز الذي لَم يمس جسمه الأرض أولاً، خلافًا للمنهزم، ويدخل اثنين آخرين، لابسين لثامًا أسودَ، وقميصًا صحراويًا أزرق اللون، واسع الأطراف، مفتوح الجانبين، وتحت صدره جيب مثلث كبير مقوس إلَى الأسفل، وهذه عادة صحراوية قديمة جداً، وهكذا تختلف عوائد الصبيان، وأساليب فرحهم بمولد النبيﷺ فِي كل جهات مملكتنا الشريفة.

3 - عوائد النساء السوسيات بالمولد النبوي:

إن لأهل سوس -كغيرهم من مناطق مملكتنا الشريفة- محبة خاصة بالنبِي ﷺ ويشتد شغفهم به أكثر فِي الاحتفال بمولده عليه السلام، غير أن النساء يتجاوَزْن بمديد المراحل أزواجهن فِي كيفية العناية به، والشوق بالاحتفاء بمولده، فما من عادة عريقة فِي سوس ترتبط بالمولد النبوي؛ إلا وللنساء فيها نصيب يفوق بكثير نصاب الرجال؛ فيرثن فيها للذكرين مثل حظ الأنثى، وقد ظهر ذلك من خلال تتبع عوائدهن فِي الليلة المولدية، كما سيتبين بإسهاب فِي أعرافهن الستة الآتية:

1- عقد مجالس الذكر:

بمناسبة طلعة الربيع النبوي؛ تكثر مجالس الذكر عند النساء، وتتعدد أماكنها، وغالبا ما تشرف عليها الفقيرات الدرقاويات، أو الناصريات بمختلف ربوع سوس، فقد سألت الكثير منهن عن عادتهن فِي تلك المجالس، وحاصل ذلك؛ أن المجلس ترأسه إحداهن تسمى "مقدَّمة" تساعدها ثلاث فقيرات، صالحاتٍ، عابدات، أو

اثنتان، يبتدئن بالتحية والسلام على رسول الله ﷺ فيشرعن ما شاء الله فِي أذكار متنوعة، ثُم يُلْقِين بالتوالِي عدداً من الدروس بالأمازيغية حول أحكام الطهارة، والحيض، والنفاس عادة، وفرائض وسنن الصلاة غالباً، ويعْقُب كل ما ذُكر؛ أسئلة واستفسارات، ويُسمِّين ذلك: "المذاكرة".

ثُم يمضين -بعد تناول بعض المكسرات والطعام- فِي الأمداح النبوية، تعقبه ابتهالات جماعية؛ مدارها إِظهار شمائله ﷺ بصِيَغ مُخشعة[1] وتوسلاتٍ متنوعة بألفاظ فصيحة مُسَجَّعة، وتكاد تلك الألْحان تُشْبه عندي إلَى حد كبير فِي فحوى مضمونها، ودِقَّة نظمها؛ قصيدتَيْ البردة، والهمزية.

ويعتبر مجلس النساء بزاوية تمكلجت من أشهر تلك المجالس المديحية بسوس على الإطلاق، ويحضرن فيه ثلاثة أيام قبل الختم -الذي هو يوم السابع من ربيع الأول- وتلك عادتهن قديماً درجن عليها، فيجتمعن ويتذاكرن ويُصلِّين على النبِي ﷺ ويحيين تلكم الليالِي بالذكر وترديد الابتهالات.

وعملاً بالمثل العربِي القائل: كفى قوماً بصاحبهم خبيراً[2] سألت الشريفة الحاجة فاطمة الهاشمي[3] عن أحوال احتفال النساء بالمولد بالزاوية فقالت: بأنهن يجتمعن فِي الزاوية، ويشرعن فِي ترداد أذكار وابتهالات مختلفة، لكن هذا العام 1436هـ اجتمعت نساء تمكلجت فقط، ولَم تحضر نساء أقا، وفم الحصن، وأيت بعمران، وأكادير، واشتوكة، لكثرة السيول والفيضانات التِي جرفت الطرق، أما قبل ذلك؛ فيحضرن كل سنة، فتكون الزاوية غاصة بهن فِي محفل ربانِي بهيج، وعادة ما يقصدن الزاوية ابتداء من يوم الخامس، وطيلة السادس، والسابع من شهر ربيع الأول، بل بعضهن يأتِي فِي غرة ربيع الأول ويتبركن بالمكان، ويتفقدن المزارات، ويغدقن الدعاء على شيوخ الزاوية، إلَى حين وصول يوم السابع الذي هو مسك الختام.

---

(1) على تقدير صحة العبارة.

(2) انظر كتاب مختارات من كتاب مجمع الأمثال للميدانِي (ص/ 117) تحقيق الأستاذ محمد على قاسم نشر مكتبة المعارف لبنان/ 1986.

(3) هي المشرفة العامة على الزاوية ورئيسة جمعية تمكلجت للعلم والمعرفة.

وجرت عادة النساء فِي كل ربوع سوس بعَقد اجتماعات دينية خاصة بتمجيد المصطفى ﷺ والتغني بأسرار مولده الشريف، وتواترت بينهن أهازيج أمازيغية فِي الفرح به، وابتهالات توسلية فِي مدحه، يحفظها الكثير منهن عن ظهر قلب لكثرة شيوعها بين الناس، فصارت مجالس النساء مشهورة عند الكثيرين، كمجلس "أَكْـرَاوْ" بتزنيت، وأكلو، وتارودانت، ومجلس الركراكيات بالشياظمة، ودكالة، وامتدت هذه المجالس كذلك إِلَى شمال المغرب، وعنها يقول الرهونِي فِي تاريخه فِي معرض ذكره لاحتفال التطوانيات بالمولد النبوي: «وهكذا تقيم هذه الليلة المباركة عدة من الشريفات، الريسونيات، والوزانيات، بالأفراح والأمداح، والتبشير بتاج الملاح ﷺ..[1]».

2- تزويج الفتـيات بمناسبة المولد:

من أقدم عوائد نساء المغرب فِي المولد النبوي؛ تزويج الولية الصالحة للآعزيزة السكسوية الفتيات والعوانس، فِي الليلة المولدية، وهي من صالحات القرن الثامن الهجري، التقى بها أبو العباس ابن قنفذ القسنطيني سنة [789هـ] لما كان يبحث عن أصحاب أبِي مدين الغوث، فقال معدداً منهم للآعزيزة: «ورأيت منهم بالمغرب الأقصى فِي طرف سكساوة من جبال "دْرْنْ" بموضع يقال له: "القِهْرة"[2] الحرة الصالحة عزيزة السكسيوية، وتبركت بها، وجلست معها، وهي متوجهة فِي صلح بين فئتين عظيمتين، ولها أتباع من الرجال والنساء، وكل طائفة اشتغلت بالمجاهدة، والعبادة..[3]».

بيد أن كيفية احتفالها بالمولد وإن خفيتْ أخباره وكيفية الفرح به؛ فإن العادات

(1) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأبِي العباس أحمد الرهونِي (2/ 227).

(2) بكسر القاف، ما زالت آثار المكان المذكور بادية للعيان على يمين الذاهب إِلَى ضريح للآعزيزة، وقد أراني إياه؛ المؤرخ سيدي الحبيب أرسموك، ويوجد بين طريق إيمنتانوت ومراكش عبر امزوضة، ومجاط.

(3) أُنْسُ الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطينِي (ص/ 86-87) تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور نشر المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة أكدال جامعة محمد الخامس الرباط الطبعة الأولَى/ 1965.

الحسنة التِي استحدثتها الولية الصالحة للآّعزيزة فِي ليالِي مولده عليه السلام استمرت حتى الآن، كترديد مختلف الأذكار بزاويتها، واجتماع الراغبين فِي الزواج من مختلف الأعمار[1] والذبائح، وغيرها من الخصال الحميدة التِي درج عليها أهل سكساوة جيلاً عن جيل، واستطاعوا أن يحافظوا عليها بالرغم من مرور ما يزيد على أكثر من ثمانية قرون عليها.

ومن روائع العادات التِي انفردت بها الشريفة للآعزيزة فِي ليلة مولده ﷺ أنها تُعقد فيه الأنكحة، ويشيع السرور، ويعم الابتهاج فِي أبهى صور التكافل والتعاون، جمعـًا بين الفرح بمولده، والحث على تزويج الفتيات لتوطيد أواصر العوائل، وجمع الشمل، وتكثير سواد الأمة، وإلَى ذلك يشير مؤرخ تلك الناحية؛ الأستاذ الأديب سيدي لحبيب أرسموك، مبينـًا عوائد المولد عند الصالحة للآعزيزة: «كانت تخصص لهن مما يدخل يدها من القربات والعطاءات خصوصـًا الأرامل والفتيات، كما كانت تقوم بتزويج أعداد كبيرة من النساء والرجال من مختلف الأعمار، وذلك فِي مناسبة عيد المولد النبوي الشريف الذي اتخذته منذ قرون عيداً ومناسبة رسمية فِي مقامها إلَى الآن..[2]».

وقد زرت موسمها المذكور يوم 11 ربيع الأول 1436 بجوار ضريحها فوجدته غاصـًا بالتجار والحرفيين تقصده كل قبائل سكساوة، فاستقيت هناك روايات شفوية عدة مفادها؛ أن العادات المذكورة ما زالت آثارها باقية، بل تجرأْتُ ودخلت إلَى ضريحها وهو مكتظ بالنساء المسنات يرددن أذكاراً مختلفة وجلست مع بعض المسنات ومن دونهن؛ فلا تسأل عن مكانة الشريفة للآّعزيزة لديهن، وتبين لِي عدم وجود مقدمة بينهن، أو مشرفة عليهن.

---

(1) أخبرنِي الأستاذ الحبيب أرسموك أن سيدة تزوجت من للآعزيزة فِي المولد النبوي إلَى بوعنفير بشيشاوة، وسنها وقت الزواج خمسون سنة، وهي الآن تشرف على الثمانين، وفِي كلامه فائدتان: الأولَى: أن تلك العادة انقطعت فِي القرون الأخيرة، الثانية: أن الأمر لَم يقتصر فحسب على الشابات.

(2) من مقال المؤرخ الحبيب أرسموك تحت عنوان: **"للآعزيزة السكسيوية ودورها الاجتماعي والديني والسياسي فِي منطقة الأطلس الكبير "** (ص/ 10) وهو فِي الأصل مقدم إلَى الندوة التِي أقيمت بجوار ضريحها فِي أحد ليالِي المولد.

وأرانِي المقيم على قبرها نافدة كبيرة داخل ضريحها توجد فِي جنوبه الشرقي يَنظر فيها الرجال، فإذا صادفوا فتاة، أو شابة، بل امرأة مطلقة تريد الزواج؛ يخرجان قبالة الضريح، ويتفقان على الشروط، بعدها يقفان بجانب ضريح للاّعزيزة، فيمد كل منهما يده للآخر حتى يلتقيان فوق الصندوق، وتُشَدُّ الأيادي بخشوع وحرارة، وتزيده قدسية المكان وذلك الميثاق المعقود عليه قوة على قوة فِي خيالهم، ثُم يتعهدان على تنفيذ تلك الشروط، ولأهل سكساوة اعتقاد كبير فيها حتى حُكي «أنها هي التِي دعت بالحقد والحسد [للطْلْبة][1]..[2]» بعد أن نظر إليها أحدهم من ثقبة فِي الجدار لما كشفت عن وجهها.

وقد انقطعت عادة الزواج فِي موسم للاّعزيزة فِي السنوات القليلة الماضية، لأن النساء يَجْدُبْنَ أمام الرجال وشعرهن مكشوف، وانجر ذلك إلَى مناكير فِي القول والفعل، واندرست كذلك ولله الحمد بعض المعتقدات الفاسدة حول الذبائح، وتَم هجر الأحجار المخصوصة التِي يقال بأنها تُمحَى فيها الذنوب الكبائر والصغائر وتسمى محلياً بـ: "إِفْرِي نْ تَسْكِي" ولَم يبق الآن إلا ترديد صنوف من الابتهالات فِي ضريحها، ومقطعات من الأذكار المختلفة، وكل واحدة تكتفي بالدعاء لنفسها بنفسها فِي مجمع كبير يضم كثيراً من النساء السكساويات، والكدمويات، والسباعيات، بل صادفْتُ هناك عدداً من النساء من الرباط، والدار البيضاء، ومناطق عدة من الجنوب المغربِي مصحوبات بهبات، وصدقات، وذبائح.

3- عادات عجائز إلْغ في الفرح بمولد الشفيع:

من المواطن النادرة التِي أشار فيها المختار السوسي إلَى احتفال النساء بالمولد قوله فِي مقدمة معسوله: «ومن العادات المولدية أن بعض العجائز من المتحجبات اللاتِي لا يحضرن فِي ملعب أحواش؛ تنتحي وحدها إلَى زاوية من زوايا حجرتها

(1) كذا فِي الأصل، ولعل الصواب على الطلبة.

(2) تحفة الأحقاب فيما لاستقرار السباعيين فِي شيشاوة من أسباب وما لهم وللشيشاويين الركراكيين فِي العلم والجهاد من أقطاب للمؤرخ الأديب عمر العلاوي (ص/ 241) طبع سنة 2012 دون بيان جهة الطبع.

حيث تُعلِّق ثيابَها على عودٍ معروض -ويسمى عندهم أحمال- فتقف إزاءه فترقص رقصاً متواصلاً، وهي تغنِّي بأمداح الرسول فرحاً بليلة مولده، تفعل ذلك احتساباً وتيمناً بالرسول ﷺ..»[1].

وظاهر نقل مؤرخ سوس يوحي بأن هناك ملعب أحواش تحضر فيه النساء للابتهاج بالمولد النبوي، فِي فسيح معد لذلك، لكن العجائز والمسنات لا يحضرن فيه، ولعل السبب فِي انفرادهن بمكان مخصوص؛ التعبير عن مشاعرهن كيفما اتّفق، دون أدنَى تكلف، لئلا يحصل فِي نظرهن أدنَى قصور فِي محبته عليه السلام ومن ثَم يَصِلْن بعد ذلك فِي درجات السرور أقصاه، والتعبير عن الفرح بِمولده منتهاه، ولعل هذا أحد أسرار انعزالهن عن مواطن الاحتفالات العامة.

وليكن على بال أنهن لو أظهرن تلك الأهازيج المصحوبة بالرقص من شدة الفرح -مع بلوغهن من الكبر عُتياً- أمام من دونهن فِي السن؛ لوقَعْن فِي التكَلُّف والحرج، هذا إن لَم يُوصَفْن بأوصافٍ أقل ما يقال عنها أنها لا تليق بهن، ولذا فضلن الطريقة الثانية على الأولَى، لأسباب ظهرت لهن أنها أقوى وأولَى، ولا غرابة بعد ذلك إن كانت الآخرة عندهن خيراً من الأولَى.

4- أهازيج النساء البعقليات فِي المولد النبوي:

سألت بعض المسنات اللواتِي يشرفن على مجالس المولد بـ: "إِدَا اكَّكْمَارْ" بقبيلة "بعقيلة" فقالت: كنا نلتقي فِي جميع أعياد الفطر، والأضحى، والمولد، وعاشوراء، لكن المولد يتميز عن جميع الأعياد الأخرى لكونه يوم مولد رسول الله، ولأن الأمداح التِي ننشدها فيه تتعلق بجنابه الشريف، وأخباره، وسيرته، بله الأذكار المتنوعة، فتكون جلسة ربانية، خلافاً للأعياد الأخرى؛ فإن النساء يرفعن أصواتهن جماعة بأغانِي شعبية مختلفة، وربما انجر الأمر إلَى الهرج، والمرج، وأمور أخرى، كذا قالت، أما المولد؛ فينفرد بخصائص دينية، وعادات حسنة، وبعد هذا الاستطراد قالت: فننشد بصوت واحد فِي مجلس المولد:

---

(1) المعسول (1/ 32).

مْرْحْــبَ أتَمْغْــرا نْرْسُــولْ أَلْمُــولُدِي ۞ إلُولْ كِيسْ إسْكْرْ كِسْ تَمْغْرا إمْتْ كِس[1]

أَمَارْ يُوفَانْ أَيْكْ لْجَامْ أَيْسُّودُوا تَجْدَعِنْ ۞ أَيْمُــــونْ دْ رَاسُـــــولْ أُلَّـــــهِ

تعريب:

مرحبــا بعـــرس مولـــد النبِـــي ۞ ولـــد وتـــزوج ومـــات فيـــه

يا من يستطيع قبض لجام الخيول ويركبها ۞ ليصـــطحب مـــع رســـول الله

ومما لا امتراء فيه؛ أن طرائق التعبير عن الفرح لدى النساء فِي المغرب يختلف أسلوبه وطريقته حسب المناطق، وغالباً ما تكون له صلات بالعوائد الخاصة لتلك القبائل. وعن عادات نساء تطوان يقول الرهونِي فِي تاريخه: «إذا استهل شهر المولد النبوي؛ صرخ النساء كلهن بالزغاريد فِي الدور، والسطوح وغيرها، ثُم هاجت، وماجت البلد بالنقر فِي الدفوف، والغناء بالترحيب، بشهر الحبيب..[2]» .

5- تنوع الأطعمة الفاخرة ابتهاجاً بمولده:

جرت عادة النساء فِي المغرب بالتفنن فِي تقديم أطباق الحلوى، وصنوف المأكولات الفاخرة مبالغة فِي الفرح بمولده عليه السلام، وإذا كانت عوائدهن تختلف فِي أنواع تلك المأكولات؛ فإنهن متفقات على القيام فِي الصباح الباكر، وكلهن خفة ونشاط فِي الاستعداد فِي تهيئ الفطور، ويبالغن فِي العناية به كثيراً حتى يكون له طعم خاص، يختلف ذوقه عادة عن سائر نظائره فِي السنة.

وقد امتدت هذه العوائد عند المغربيات حيناً من الدهر، لا يكدن يحدن عنها، ولا يملن عن تقاليدهن تلك ولو بمقدار؛ ومن ثَم بات من الصعب على النساء السوسيات -الحريصات على عوائدهن- أن ينفككْنَ صباح يوم المولد النبوي عن طبخ الخبز فِي الفرن التقليدي، المشهور بـ: "أفلُّونْ" أو "الكَانُونْ" وكذا الحريرة المخَلّطة بمختلف القطانِي، دع عنك أنواع الإدام كزيت أركان، ومطحون اللوز،

(1) تنطق كاف كس بالجيم المصرية.

(2) عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأبِي العباس أحمد الرهونِي (2/ 226).

"أَمْلُو" والسمن، والعسل، فتكون طاولة ذاك الصباح ممتلئة بما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين، والقصد من كل ذلك؛ حصول الفرح، وإظهار السرور بمناسبة مولد النبِي ﷺ فيعم البِشر والحبور أكثر بذلك الفطور، فيحصل ارتياح فِي النفوس، وسَعة فِي الصدور، ويزداد الشغف بمحبة ولادة المصطفى ﷺ أكثر، كما هو معروف ومشهور.

أما عوائد أهل سطات، والشاوية، وورديغة، ونواحيها؛ فالنساء يحضرن فِي الصباح الباكر البغرير، والشيار الممتزج بالعسل، ثُم فِي الظهيرة يعملون قَصعة كبيرة للطعام، وفِي مدينة وجدة أقصى شرق المملكة؛ جرى عرفهن بتحضير أكلة "بْرْكُوكْسْ" أما فِي الدار البيضاء؛ فتقوم النساء باكراً لإعداد فطور دسم كـ: الْمْسْمْنْ" و "الْبْغْرِيرْ" و الْحْرْشَة" و "الْكِيكْ" وحلويات مختلفة، وغيرها من الأعراف الجارية هناك.

خلافاً لمدينة تاونات؛ فتختار النساء ديكاً سميناً يكون وجبة غَدَاء دسمة يوم العيد النبوي، وقبله يعملن فِي الصباح شاياً، أو قهوة، يشربان مع "الْمْلْوِي" وما يسمى عندهم بـ: "خرنكو" وهكذا نجد فِي كل إقليم من أقاليم المملكة الشريفة صنوفاً من المكسرات والحلويات، وأنواعاً من المأكولات اللذيذة، وتتكرر هذه الأفراح فِي كل ربيع نبوي، فترى الناس رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، مسرورين بشروق طلعته، مستبشرين بِيُمن غرته.

أما فِي مدن صحرائنا المغربية كالعيون، وأسا، والداخلة، فتختلف التقاليد بحكم طبيعة أعراف تلك المدن، غير أن أشهر مواسم المولد على الإطلاق؛ هو موسم أسا -كما مر فِي المبحث الثالث- حيث ينحرون فيه جملاً كبيراً يختاره بعناية أعيان قبائل "أيتوسى" ويسمونه "النحيرة" فهو لا يذبح على قبر، ولا يقدم لولِي، ولا علاقة له بالتبرك، أو التوسل كما يشاع.

قال بعض المعاصرين واصفاً موسم الاحتفال بالمولد بأسا قديماً: «وكان هذا الموسم يدوم حوالَي أربعين يوماً، وفِي كل يوم تنحر ناقة من تلك النوق المهداة من القبائل لفائدة الزوار، وتقام إلَى جانب ذلك أنشطة اجتماعية دينية، وثقافية،

واقتصادية مختلفة، حيث تفض النزاعات الفردية، أو القبلية شرعًا بالتِي هي أحسن مهما كانت معقدة..[1]».

وقد شاهدت ذلك الموسم عام 1437هـ، وغاية ما فِي الأمر أنه تقليد عريق، دأب عليه أهل "أسا" فجعلوا منه مناسبة للتزاور، والتعارف، وتذويب خلافاتهم، والدعوة إلَى الإصلاح بين القبائل، ورص الصفوف، وتوحيد الكلمة، وينحرون فيه عدداً من الجِمال، يُترك لحمها لطلبة الزاوية الوهداوية، والزوار، والضيوف، بل يفرق حتى على سائر تجار الموسم المتجولين.

ولئن كانت المأكولات المذكورة تشترك فيه العائلات والأسر؛ فإن هناك نوعًا آخر تشترك فيه الجماعة كالفطور الذي يقدم صباح يوم المولد النبوي فِي كل المساجد، والمدارس العتيقة بسوس، ويجدد فِي الظهيرة كذلك، وهذا تقليد أصيل يرسخ لأصول الوحدة والتضامن بين الناس، والتكافل الاجتماعي بينهم، ويتبادلون التهانِي، والتحايا.

وجرت العادة صباح يوم المولد الشريف؛ اجتماع العوائل والأسر فِي كل المدن المغربية فِي أماكن خاصة على الذكر، والطعام؛ لكن غالب المداشر والقرى، والحواضر، والمدن؛ جرت عادتهم أن يقوموا بالإفطار الجماعي، كصنيع مدينة سيدي قاسم وأحوازها؛ ويسمونه فِي عرفهم "الرزة" وكذا مدينة تاونات يجتمع أهل القرية صغاراً وكباراً على وجبة العصيدة، أو "تشيشة" وغيرها من العوائد الجماعية الكثيرة المنتشرة فِي كل المدن المغربية، والتِي يتعذر استعراضها هنا.

ويبدو أن اجتماع الرجال فِي المولد النبوي؛ وَلَّدَ فِي النساء نوعًا من الغبطة، فأَبَيْنَ إلا أن يشارِكنه فِي ذلك؛ فقد جرت عادة النساء السوسيات أن يجتمعن مساء المولد النبوي ويتواعدن فِي مكان مشهور -بعد رجوع الرجال من المسجد زوالاً-

---

(1) دراسة أنثربولوجية فِي تاريخ الحركة الجزولية البكرية عبر السوس والصحراء المغربية للأستاذ محمد الجوهري (1/ 49) نشر مؤسسة سود كونتاكت الطبعة الأولَى/ 2010.

ويَعْمَلْنَ فيه وجبة[1] فخمة تُجْمَع فيه جميع أنواع القطانِي كالأرز، والعدس، والحمص، والشعير، والذرة، ويوضع ذلك فِي قِدر كبير من طين تُخلَّط فيه القطانِي المذكورة، ويوضع بعناية فوق كانون لساعات طوال، حتى تَذوب تلك القطانِي مع اللحم، ومن ثَم تُوزع هذه الوجبة -التِي تُسمَّى محلياً بـ: "أُرْكِمْنْ" جرياً على العادة على كل دار، وترسل إلَى طلبة المدارس وحفاظ القرآن بمقدار.

6- التخضيب بالحناء:

تعتبر مناسبة المولد النبوي فرصة سانحة للنساء المغربيات للتعبير عن فرحهن بمولد الشفيع، فيخضبن أيديهن وأرجلهن بالحناء باعتباره مظهراً من مظاهر الزينة، وجرت العادة أن يقتصر ذلك على الزيجات فقط؛ لكن بعض التقاليد سمحت استثناء للعذراء أن تخضب يديها فِي العيد النبوي تيمناً بقرب فرحها بالزواج، حتى صار ذلك اعتقاداً راسخاً لديهن، ومن الألفاظ المتواترة عند بعض المسنات لما يخاطبن العذارى: "حن يحن عليك مولانا".

ولا شك أن التخضيب بالحناء فِي المغرب له أنواع؛ فمنه الصحراوي الذي يتميز بخطوط دائرية عريضة، والمراكشي الذي يختلف عن الأول في طبيعة خطوطه المقوسة الدقيقة، خلافاً للفاسي المنفرد بأشكال مزركشة جميلة، مستوحاة من الخصوصيات المحلية، أما السوسي -وإن كان له طابع خاص ونمط مستقل- فإنه يتأثر بكليهما حسب ميول النساء لكل صنف، وتُرسم تلك الخطوط بعناية فائقة، بريشة رقيقة فوق أصابع اليدين، وباطن الكف، وحتى الأرجل.

وجرت العادة أن يبيع التجار أكياساً مجهزة من الحناء، فتكون أرصفة الشوارع قبل المولد النبوي بأيام عامرة بأنواع الحناء، فترى النساء يبحثن عن الأنوع الفاخرة، ويُجدن اختيار الجيد فيه، ويتم خلطه عادة بالماء البارد، وقليل من القرنفل، ويُجمع

---

(1) قال شيخنا العلامة سيدي صالح بن عبد الله الإلغي رحمهما الله تعالى: «لا يعجبني أن أقول: وجبتان وإن تمالأ عليه المثقفون اليوم.. والوجبة الأكلة في اليوم والليلة مرة واحدة..» المدرسة الأولى (ص/ 24) أفادني بهذه الفائدة نجله، ووارث سره، سيدي إبراهيم بن صالح.

فِي كيس بلاستيكي محشو ببعض قطع الثوم، ويُغلق عليه فِي مكان بارد ليتم تذويبه بعد تخليطه، وما زال الحناء عند النساء المغربيات يحتل الصدارة بين سائر وسائل التجميل الأخرى لخصوصيته ورمزيته، بالرغم من وجود معلبات، وملصقات ملونة، وصباغات حديثة تزاحمه فِي الزينة؛ لكنها مختلطة بمواد كيماوية، خلافاً للحناء فإنه عشب طبيعي، لا اصطناعي.

ولو نظرنا إلَى المناسبات التِي تخضب فيها النساء بالحناء؛ لوجدناها مختلفة المقاصد كالولائم، والأعياد الدينية، والأعراس، لكن الرابط بين هذه المناسبات؛ هو إظهار الزينة لإشاعة السرور، وتعميم الفرح، وعادة ما يخضبن أيديهن بالحناء قبل النوم مبالغة فِي جماله وصفائه، بل يضعنه كذلك على شعرهن كما هو مشهور.

وبعد سوق هذه العوائد بتمامها؛ سألت الباحث الأستاذ عبد الله كيكر[1] عما إذا كانت هناك عوائد أخرى فِي المولد النبوي بسوس غير المذكورة؛ فأفادنِي -بعد تذكيره ببعض العوائد السابقة- أن بعض النساء يذهبن صباح يوم المولد النبوي إلَى بعض الآبار فيدلين بدلوهن، ويعتقدن أن ذلك الماء يَتَنَزَّل منزلة ماء زمزم، ببركة ولادة النبِي ﷺ فيخصصنه للشفاء والتبرك، ولكن هذه العادة اندرست فِي العصور الأخيرة، كذا قال.

تلكم إذن كانت نبذة موجزة ومختصرة عن أهم العوائد التِي دأب عليها المغاربة فِي احتفالاتهم بالمولد النبوي، منذ استحداثها فِي الربع الأول من القرن السابع الهجري إلَى الآن، بيد أن بعضها بحكم طبيعتها؛ تتنازعها خصوصيات مختلفة، لتنوع مقاصدها، وتباين أغراضها، كعادة الشموع مثلاً، فهي عادة سلطانية تُدرج ضمن العوائد الملكية، وكذا إطلاق البنادق هي عادة اجتماعية وملكية فِي آن واحد، لكنْ لما تغير حالها؛ آلت إلَى عادة اجتماعية، فاستوجب المقام أن تُدرج ضمن العوائد الاجتماعية لا الملَكية، فضلاً عن أن تخصيص العوائد الملكية خُصِّصَ

---

(1) أستاذ متقاعد، أصدر فِي ظرف وجيز عدداً من الكتب التاريخية الخاصة بمنطقة سوس تزيد على العشرة.

بالأشراف العلويين لبقائها واستمرارها، لا لسلاطين السعديين لزوالها واندراسها.

وأهم ما يثير الانتباه فِي هذه العوائد؛ أن أغلبها غير مسطور فِي الكتب، كعادة مواكب الشموع، وختن الأطفال، وإنارة المساجد، وشروق الشمس وتلألئها صباح يوم المولد، وعقد مجالس الذكر، وتزويج الفتيات، وتنوع الأطعمة، وأكل العصيدة، وطُرُق لَعِب الصغار، وغيرها من العوائد المستَلْهمة من الحوادث الواقعية، ومنتزعة من الروايات الشفوية لدى كبار المسنين، ومشاهير الباحثين، مع مزجها بعوائد جزئية، تتخللها زوائد تاريخية نفيسة، مبسوطة بإسهاب فِي ثنايا العوائد العشرين المذكورة، فأضافت لهذا المبحث رونقاً جديداً، لاسيما وأنها مفصلة على طول خمسين صفحة، فأصبحت هذه الرسالة بموجب ذلك مرجعاً عاماً، ومصدراً أصيلاً للاطلاع على تقاليد عرفية مثيرة، وأعراف شعبية عريقة؛ تواطأ عليها المغاربة في ذكرى المولد عبر قرون خلت، وعقود مضت.

وبهذه الإشارات المجملة ينتهي الفصل الأول الذي طغى عليه الجانب التاريخي للمولد النبوي، سارداً مختلف المراحل التِي مر منها. واستمر سريان ذلكم الاحتفال فِي المشرق والمغرب لقرون عديدة وأزمان كثيرة، حتى ظهرت نابتة فِي هذا العصر تطعن فِي كل أنواع الموالد، غير أنهم فِي الآونة الأخيرة وضعوا أسلحتهم واستسلموا بشكل شبه كلي لضعف أدلتهم فِي الجانب التأصيلي، فحولوا نزاعاتهم إلَى أساليب أخرى، وسلكوا طرائق قدداً، كالتعليق على الكتب المجيزة للمولد وإفسادها بتعليقاتهم، وتوزيع مطويات سرية لتبديعه، وإعادة إثارة الخلافات المرجوحة من قبيل أن النبي ﷺ لَم يلد فِي اليوم الثانِي عشر، وأنه يلزم الصيام فِي يوم مولده وإن خالف يوم الاثنين وغيرها من الشبهات الجديدة التِي سيتم عرضها بشكل مفصل فِي هذا الفصل الذي نود الدخول إليه.



الفـصل الثاني:

أضواء على شبهات جديدة حـول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

المبحث الأول: إفساد كتب التراث التِي تـجـوِّز ذكرى المولـد النبوي

المبحث الثانِي: توزيع مطويات سرية في المغرب تبدع الاحتفال بالمولد

المبحث الثالث: إثارة الخلافات المرجوحة حول مولده ﷺ

المبحث الرابع: إفراد ذكرى المولد بالصيام بنية المخالفة لا بقصد العبادة

الفصل الثاني: أضواء على شبهات جديدة حول ذكرى المولد النبوي الشريف

بعد أن استنفد المخالفون ما يعتبرونه حُجَجًا وبراهين على عدم جواز الاحتفال بالمولد النبوي؛ بدؤوا يلتجئون إِلَى مناهج أخرى، ويسلكون مسالك شتى، لعلها تُعضِّد شُبَه الأدلة التِي يستدلون بها، وتُقَوِّي عمومات النصوص التِي لَوَّوا أعناقها، فاتبعوا فِي الردود أشنعها، ولَم يأتوا البيوت من أبوابها، ومن ثَم سالت تلك الأودية بقدرها، فاحتملت ما سنفصله فِي المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: إفساد كتب التراث التِي تُجوِّز ذكرى المولد الشريف:

غالبًا ما يلجأ المنكرون إِلَى أهم الكتب المؤلفة فِي استحسان الاحتفال بالمولد فيعلِّقُون عليها بما يتناقض مع موقف المؤلف؛ بل يعمدون فِي أحايين كثيرة إِلَى الرد عليه بأساليب لا تناسب آدابَ التعامل مع كبار علماء الأمة، وتبديع رأيهم، وتخطئتهم فِي جل مواضع كتبهم بكل جرأة ووقاحة، وفرض رأيهم بعد ذلك وتقديمه على أنه هو السنة، لاعتقادهم الانفراد بمعرفة الحق، وأنهم هم الطائفة الناجية.

وقد وقفت من دون تتبع واستقراء على أنواع من هذه المصنفات، مُذَيَّلة بنماذج من تلكم التعليقات، وسأكتفي بعرض أربعة منها؛ تحاشيًا للطول، وتَجَنُّبًا للإسهاب:

1 - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية [728هـ]:

بَيَّن ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ رأيه من ذكرى المولد النبوي الشريف بكل وضوح فِي كتابه: "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" قائلاً: «**فتعظيم المولدِ واتخاذُه موسمًا؛ قد يفعله بعض الناس، ويكون له فيه أجر عظيم لِحُسن قصده وتعظيمه لرسول الله**..[1]» وَوَصف أجرَ القائمين عليه، والمُهْتمِّين به بقوله: «والله قد يُثِيبهم

(1) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية (ص/ 297).

على هذه المحبة والاجتهاد..[1]» لكن محقق الكتاب الشيخ محمد حامد الفقي[2] لَم يعجبه كلام ابن تيمية، فعَلَّقَ عليه مُستنكِراً: «كيف يكون لهم ثواب على هذا وهم مخالفون لهدي رسول الله..!![3]» وكأنه ينتظر من شيخ الإسلام أن يَحكم ببدعيته، ولما وجده على خلاف ما يعتقد؛ ابتكر أساليب للتحايل، فأول نصوص الكتاب حيناً، والتمس مخارج لكلامه حيناً آخر.

بيد أن بعض المواطن يَجد ألفاظه قطعية الثبوت لا تحتمل التأويل، كما وقع لما استحسن المصنف ذكرى المولد بالجملة فاضطر المحقق لأن يقول: «كلام شيخ الإسلام نفسه يدل على خلاف ما يقول..[4]» وكأنِّي به يريد أن يُلْزِمَه بإنكاره، ويجبره على تبديعه، وربما الأمر لا يحتاج إلَى مزيد كلام، وفِي هذه الإشارة ما يُغْنِي عن الإطالة.

نعم؛ إن ابن تيمية أنكر المولد فِي "الاقتضاء" جملة، كابن الحاج فِي المدخل، ورشيد رضا فِي قصته للمولد؛ لكنك إذا تأملت وجوه إنكاره رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ تجد أن شيخ الإسلام يُشَنِّع فِي مواطن عديدة على كثير من البدع الملتصقة به، والعوائد الفاسدة المصاحبة له، وإلا فإن المولد النبوي إذا خلا مما ذُكِر؛ فإنه على ضوء كلام ابن تيمية السابق لا يرى مانعاً فِي الاحتفال به، وعليه تحمل نقوله السابقة، فليس هذا تعارضاً، فضلاً أن يكون -كما توهم المحقق- تناقضاً.

2- جامع الآثار فِي السير ومولد المختار لابن ناصر الدمشقي [ت842هـ]:

يعتبر شمس الدين بن ناصر من الذين حصلت لهم لذة خاصة فِي محبة الجانب النبوي، فأكثر من التآليف فِي مولده وسيرته. قال فِي صدر كتابه الجامع: «فإن قلوب

---

(1) الاقتضاء (ص/ 294) نشر المكتب الثقافِي السعودي المغرب/ 1417.
(2) هو: رئيس جماعة أنصار السنة بمصر، فِي أوائل القرن الرابع عشر الهجري.
(3) اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ 294 هامش- 1).
(4) نفسه (ص/ 295 هامش- 1).

المؤمنين، وأفئدة المتقين، وأرواح المحبين تحيا عند نشر الأحاديث النبوية، وتنير بسماع السيرة المحمدية، وتتشوف ببث آدابه الجليلة اللطيفة، وترتاح فِي كل عام إِلَى سماع حديث مولده عليه أفضل الصلاة والسلام..[(1)]» ثُم علق المحقق على هذا الموطن بقوله: «مذهب المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي جواز الاحتفال بالمولد، أو صنع وليمة المولد، وأن ذلك بدعة حسنة؛ قول ضعيف مرجوح، وليس عليه أثارة من علم، إلا ادعاء أن ذلك من حب النبي ﷺ..[(2)]».

والمحقق -أرشدنا الله وإياه إِلَى الصواب- قسا على ابن ناصر، واصفًا حبه وشغفه بالمصطفى ﷺ بالادعاء، ولا يليق وصفه بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكيف يوصف بهذا؛ والرجل أفنَى عمره فِي تأليف موسوعات كبيرة حول السيرة النبوية، ولو لَم يكن له إلا كتابه الجامع الذي يعتبر من أوسع كتب السيرة النبوية على الإطلاق لكفاه فخراً، فكيف وللرجل تصانيف أخرى فِي دقائق السيرة النبوية.

وبالجملة فقد تتبع المحقق العلامة الدمشقي فِي جميع المواطن التِي استحسن فيها المولد النبوي، ويشَنِّع عليه فِي كل مناسبة، ويرد عليه ردوداً قاسية، ويعارضه على طول كتابه، و:"ادعى السُّهى؛ أنه أضوأ من شمس الضحى" فقال معقبًا على استحسان ابن ناصر للمولد النبوي: «ومذهبنا ومذهب عامة أهل العلم؛ أن الاحتفال بالمولد النبوي من البدع المنكرة السيئة، وليس من الحسن فِي شيء، ويكفي فِي بطلانه والتدليل على نكارته؛ أن أول من قام به العبيديون المسمون بالفاطميين، وهم من الزندقة، والتشيع..[(3)]».

وبعد إيراد ابن ناصر فِي تقدمته أهمية احتفال السواد الأعظم من المسلمين بالمولد النبوي؛ قال: «وقد صار ذلك لهم بدعة حسنة يهيمون بها فِي كل سَنَة، ويُظهرون لذلك الفرح والسرور فِي شهر ربيع الأول دون بقية الشهور، وذلك بمكة،

(1) جامع الآثار فِي السير ومولد المختار لابن ناصر الدمشقي (1/ 62) تحقيق أَبِي يعقوب نشأت كمال، نشر وزارة الأوقاف قطر، الطبعة الأولَى/ 2010.

(2) جامع الآثار(1/ 62 هامش-3).

(3) نفسه.

والمدينة، ومصر، والشام، وغيرها فِي بلاد الإسلام..[1]» وتجاهل المحقق تلك المدائن التِي يحتفل بها العلماء والفقهاء إلَى وقت قريب؛ فبدأ يعزف على وتر البدعة، فقال معترضاً ومحتجاً عليه: «تقسيم البدع إلَى بدعة حسنة وبدعة غير حسنة قول لا دليل عليه؛ بل هو مصادم للنص القاطع ثبوتاً، ودلالة..[2]».

وذكر ابن ناصر أول من استحدث المولد النبوي، ودعا إلَى الاجتماع عليه فقال: «وأول من أطلع لهم هذا الفعل الأسعد، وفاز منه -إن شاء الله- بالأجر السرمد؛ الملك المظفر أبو سعيد ابن الملك كُوكْبوري، ابن الملك علي بن بُكتِكِين بن محمد، فإنه أول ملك فِي العرب والعجم عمل وليمة لمولد رسول الله ﷺ واحتفاله بذلك فِي كل مجمع..[3]» وعاكس المحقق مقصود المؤلف، وعَكَّر عليه فرح إيراده لذلك السبق، فقال رجماً بالغيب: «ولعل الله عز وجل يكتب له الأجر على إطعامه الطعام، فهو من عظيم القربات؛ وأما إحداث هذه الوليمة من أجل المولد النبوي، وجعلها سُنة فِي كل عام فِي هذا الوقت؛ فيتنزل عليه قول النبِي ﷺ من سن سنة سيئة كان عليه وِزرها ووزر من عمل بها إلَى يوم القيامة، وهذا الذي أقرره هنا؛ خلاف ما يذهب إليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أنه من أهل الحديث..[4]».

وقد تبين -بعد البحث والتقصي- أن كل الحجج القوية التِي تعارض موقف المحقق لا يثيرها، ولا يعلق عليها، مثل تقسيم البدع إلَى حسنة ومذمومة، ومع إنكاره هذا التقسيم، فقد اصطدم بقول الشافعي المؤيد لها، فقال: «وكلام الشافعي فِي تقسيم البدع لقبيح وحسن؛ لا يدل على ما يريد صانعو المولد؛ وإنما يتنزل على توسع أهل العلم فِي عقد مجالس العلم..[5]» وعلق كذلك على الخيرات، والولائم، وأنواع الطعام التِي ذكرها المصنف فقال معلقاً عليها: «لا يخفى أن كل ما ذكر من قبيل

---

(1) جامع الآثار فِي السير ومولد المختار لابن ناصر الدمشقي (1/ 63).

(2) جامع الآثار لابن ناصر الدمشقي (1/ 63 هامش-2).

(3) نفسه (1/ 63).

(4) نفسه (1/ 64 هامش-6).

(5) جامع الآثار (1/ 62 هامش-3).

المبالغة والله أعلم..[1]» كما عرج ابن ناصر على احتمال وجود بعض المخالفات فِي بعض الموالد، ففتح بتلك الإشارة شهية المحقق، فاندفع قائلاً: «بل هو جزماً يؤدي إلَى الوقوع فِي المحذور[2]» فعجيب أن يخفى ذلك على من يشاهده بأم عينه، ويظهر لمن بعده على سبيل القطع والجزم بعد مرور أكثر من ستة قرون عليه.

وبالجملة فمصنَّف الجامع يعد من عيون مؤلفات السيرة النبوية؛ لكنه للأسف حُقِّق على نقيض مقصود المصنف، وعكس مراده، ذلك أن الكتاب يعد من العلائق النفيسة التِي أودع فيها ابن ناصر محبته للنبِي ﷺ تحقيقاً لا ادعاء، وزيَّنه بجمال أخبار بعض الأولياء والصالحين، وآثار طائفة من السادة المتقين، لأن الرجل من مشاهير الصوفية، ومن كبار المحدثين، شافعي المذهب، أشعري العقيدة، مازجاً بين ظاهر العلوم الشرعية؛ بحقيقة العلوم الروحية، وكل هذه الخصال خالفه فيها المحقق، فكثرت بذلك اعتراضاته عليه.

وكل المترجمين لابن ناصر يذكرون فيه خصلة محبته للمصطفى ﷺ ويكفيك عن مكانة الرجل ما قال فيه بلديه ناصر الدين النعيمي فِي كتابه "الدارس": «وصنف تصانيف كثيرة منها: المولد النبوي فِي مجلدات ثلاثة، ومنها المولد المختصر فِي كراسة.. ومنها القصيدة المسماة: بواعث الفكرة فِي حوادث الهجرة..[3]» فأنت ترى أن الرجل أهدى حياته لخدمة السيرة النبوية، وبيان أسرارها نظماً ونثراً؛ لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتُلِي ببعض من أخرج أو بالأحرى -طبع- كتبه على خلاف قصده وإلَى الله المشتكى، وأعتقد أنه سيعاد تحقيقه إن شاء الله وفق مراد المصنف عاجلاً أم آجلاً.

---

(1) جامع الآثار (1/ 64 هامش-6) لا شك أن الذين لم يتعودوا على بذل الإحسان، وفعل الخير، وإطعام الطعام، والمداومة على الإكرام، يصعب عليهم الاعتراف بذاك، والغريب أنه حتى لو قام به غيرهم أنكروه، فكيف بهم أن يفعلوه، فتأمل.

(2) جامع الآثار (1/ 65 هامش-3).

(3) الدارس فِي تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي(ص/ 32) تحقيق: إبراهيم شمس الدين نشر دار الكتب العلمية الطبعة: الأولَى/ 1990.

ويكفيك من طعنات المعلق؛ التشهير بالعلماء الذين أوردهم ابن ناصر فِي جامعه، والتنقيص من قيمتهم[1] بل تعرض للمؤلف وجهـًا لوجه فِي بعض المواضع لَمّا استمد المصنف من قوله تعالَى يوقد من شجرة مباركة نور النبوة، فقال معقبـًا عليه: «ما كان ينبغي للمصنف -وهو من أهل الحديث- أن يذكر مثل هذا الكذب فِي فضائل رسول اللهﷺ..[2]» وزاد المحقق المذكور فأثبت الجهة لله؛ وهو على نقيض اعتقاد المصنف، ودعم ذلك بنقول استقاها من كتاب: العلو للذهبي، وأخرى من تصانيف ابن القيم، وبالجملة فالكتاب يحتاج لإعادة التحقيق، لأن إحالاته تنقض مضامينه بالجملة، وهوامشه تعاكس مقصوده بالكلية، مع أن المحقق بذل فيه جهداً كبيراً، لكنه ينقصه ما ذكرناه.

3 -كتاب: إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم لابن حجر الهيتمي [974هـ]:

ألف ابن حجر كثيراً من المؤلفات الحسنة تشهد بغزارة علمه وتضلعه كـ: "الزواجر عن اقتراف الكبائر" و "الصواعق المحرقة فِي الرد على أهل البدع والزندقة" و "كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع" وشرح همزية البوصيري الموسوم بـ: "الـمنح المكية فِي شرح الهمزية" وكذا الفتاوى الحديثية، والقول المختصر في علامات المهدي المنتظر، وغيرها، وهو غير الحافظ ابن حجر صاحب الفتح كما هو ظاهر.

ومن مؤلفاته كذلك: "إتمام النعمة الكبرى" الذي أفرده للاحتفال بالمولد الشريف، وحكم عليه فِي مقدمة كتابه هذا بأنه: «بدعة حسنة» مُعَلِّلاً ذلك لِما اشتمل: «عليه من الإحسان الكثير للفقراء ومن قراءة القرآن، وإكثار الذكر، والصلاة على النبِي ﷺ وإظهار السرور بمولده ﷺ والفرح به، وإغاظة أهل الزيغ والعناد من

---

(1) جامع الآثار (1/ 79 هامش-8). وكذا (1/ 93 هامش-3). وكذا (1/ 234 هامش-1).

(2) جامع الآثار (1/ 99 هامش-3).

الزنادقة، والملحدين، والكفرة، والمشركين..[1]» لكن محقق الكتاب[2] بالرغم من وضوح موقف ابن حجر من ذكرى المولد؛ عقد مقدمة للكتاب فأبطل فيها الاحتفال به، مُسْتَعْرِضاً عدداً من النصوص التِي يظنها حُجَجاً مشفوعة بآراء لبعض المشارقة المعاصرين، فأفسد الكتاب بتلك المقدمة، مع أن المعهود فِي تحقيق كتب أهل العلم أن يُمَهَّدَ لموضوع الكتاب بما يناسبه ويوضحه، وليس ما يفنده ويبطله[3].

ثُم شرع بعد ذلك فِي التعليقات؛ فبدأ بنقد قول المصنف بأن ذكرى المولد «بدعة حسنة» فرد عليه بأساليب قاسية، وأثقل حواشي الكتاب بما لا داعي لذكره، إلَى أن قال: «وفِي كلام ابن حجر اضطراب..[4]» ثُم أطال فِي الردِّ حتى سَوَّد فِي تعليقه على قول المصنف «بدعة حسنة» وحده أربع صفحات متصلة، والناظر لأول وهلة فِي صفحات الكتاب؛ سَيُخَيَّل إليه أن ابن حجر هو الذي حقق تعليقات الغزوانِي وليس العكس، سيما إذا قورن حجم التعاليق مع النص الأصلي.

ومن تتبع بالجملة حواشي المحقق يجدها تنصَبُّ حول إبطال ذكرى المولد فِي جُلِّ ثنايا الكتاب، إن لَم تكن بالتصريح فبالإشارة والتلميح؛ بل بلغ به الأمر أن رد خبر التخفيف عن أبِي لهب فِي يوم الاثنين، حين رؤي فِي المنام لما أَعْتَق ثُوَيْبَةَ سُرُوراً بميلاد المصطفى ﷺ [5] فقال معترضاً: «هذه القصة من المنامات التِي لا ينبغي التعويل عليها، ولا يمكن الجزم بصحتها، أو ثبات وُرُودِهَا..[6]» بالرغم من

(1) إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم لابن حجر (ص/ 21) دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2001.

(2) السيد الفاضل: عبد العزيز سيد هاشم الغزوانِي.

(3) تنظر ضوابط التعليق على المخطوطات فِي كتاب تحقيق النصوص ونشرها للمحقق الكبير عبد السلام هارون (ص/ 81) نشر دار النهضة العربية الطبعة الأولَى/ 2001.

(4) إتمام النعمة الكبرى (ص/ 21 هامش- 1).

(5) ينظر وُجُوباً كتاب: مفاهيم يجب أن تصحح للعلامة سيدي محمد بن علوي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أفاد وأجاد فِي الرد على هذا الافتراء (ص/ 312 -314) مطبعة النجاح البيضاء الطبعة الأولَى/ 1993.

(6) إتمام النعمة الكبرى لابن حجر (ص/ 25 هامش- 1).

ثبوتها فِي صحيح البخاري[1] فتأمَّلْ !! وقديما قيل: استطالت العقرب على الأفعى.

وقد طعن فِي حديث أبِي لهب غير واحد من المشارقة المعاصرين المنكرين للمولد، فدونك قول بعضهم: «لَم يثبت من طريق صحيح أن أبا لهب فَرِح بولادة النبِي ﷺ ولا أن ثويبة بشرته بولادته، ولا أنه أعتق ثويبة من أجل البشارة بولادة النبِي ﷺ فكل هذا لَم يثبت..[2]».

وعلى تقدير أن المعارضين وقفوا على هذا الحديث فِي صحيح البخاري فوجداه فيه معلقًا عن عروة، واحتجوا بأن المعلق من أنواع الضعيف؛ لكن فاتهما الوقوف على شاهد قوي آخر فِي مصنف عبد الرزاق عَن معمرٍ عَنِ الزهريِّ عن عروة عن زينب بنت أَبِي سلمة أَن أَبا لهبٍ: أَعتق جاريةً له يقال لها: ثويبة، وكانت قد أَرْضعت النَّبِي، فرأَى أَبَا لهبٍ بعضُ أَهله فِي النوم فسأله ما وجد؟ فقال: «مَا وجدت بعدكم راحة، غير أَنِّي سُقِيتُ فِي هذه مني، وأَشار إِلَى النُّقْرَةِ التِي تحت إِبْهامه فِي عتقي ثُوَيْبَةَ[3]».

فتبين أن الحديث موصول من طريق زينب بِنت أَبِي سلمة، لأن ابن عبد الرزاق سمى الساقط فِي رواية البخاري، وقد ساق ابن بطال هذا الحديث، واعتمد عليه، فقوى به المعنى المستفاد من الحديث فِي شرحه[4]، بله إذا أضيف إلَى حديث التخفيف هذا شاهدَان آخران؛ الأول عند ابن الرزاق نفسه من طريق أمنا حبيبة[5]

---

(1) صحيح البخاري كتاب النكاح باب وأمهاتكم اللاتِي أرضعنكم رقم الحديث [4711].

(2) الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم فِي المولد النبوي للشيخ حمود بن عبد الله التويجري (ص/ 121-122) وهي الرسالة الرابعة فِي المجموع الموسوم برسائل فِي حكم الاحتفال المولد النبوي.

(3) مصنف الإمام عبد الرزاق [16350] تحقيق عبد الرحمن الأعظمي نشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية/ 1403.

(4) شرح البخاري لابن بطال (3/ 438) وقال فِي موضع آخر بعد إيراده لطرق أقوى من التِي فِي البخاري لخبر التخفيف: «ولا أعلم ممن جاء الوهم فيه..» (7/ 195).

(5) مصنف الإمام عبد الرزاق رقم الحديث [13955].

والثانِي: رواه البغوي فِي شرح السنة من وجه آخر[1] فتزيده هذه الطرق قوة على قوة، ومن ثَم يرتقي الحديث إلَى درجة الصحيح لذاته، أو على الأقل لغيره.

أما الخبر اليقين عن مدى صحة هذا الحديث من عدمه، غير ما ذكر؛ فيوجد عند جهينة: الحافظ ابن حجر فِي كتابه: "تغليق التعليق" الذي أوصل كل معلقات الصحيح بما فيها خبر التخفيف عن أبِي لهب؛ فقال فيه: «وقال شعيب عن الزهري قال عروة: ثويبة أعتقها أبو لهب؛ حديث شعيب أسنده المؤلف بتمامه فِي النكاح[2] عن أبِي اليمان عنه به..[3]».

وانضم العلامة رشيد رضا إلَى السواد الأعظم من المحدثين الذين صححوا الحديث[4] ومعهم الشيخ الألبانِي، الذي مال إلَى عدم ضعف خبر التخفيف عن أبِي لهب فِي كتابه: "صحيح السيرة النبوية"[5] حيث أورده هناك وسكت عنه، وهو من كبار المتشددين فِي الجرح والتعديل، إذ لو أحس فيه شيئًا؛ لأشار إلَى ضعفه، ولما سكت عنه.

وإن تعجب فِي كل ما سلف؛ فعجب لهذا المحقق الذي بذل جهداً كبيراً فِي تتبع ابن حجر الهيتمي فِي كثير من تأصيلاته للمولد الشريف، فِي الوقت الذي كان من الأَوْلَى أن يصرف ذلك الجهد إلَى بيان صحة نسبة الكتاب إلَى مؤلفه أولاً، فقد عثرت على نقولٍ تفيد أن ابن حجر نُسب إليه ذلك الكتاب، ومنها: ما تنبه إليه بعض المعاصرين لما ذكر كتاباً للشيخ أحمد سعيد الدهلوي قائلاً: وله «رسالة مستقلة فِي مسألة القيام منشورة ضمن منشورات وقف الإخلاص فِي تركيا فِي المجموع الذي

---

(1) شرح السنة للبغوي (9/ 76-77) تحت رقم [2282] تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش المكتب الإسلامي الطبعة الثانية/ 1983.

(2) صحيح البخاري كتاب النكاح باب "وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم" رقم الحديث [5101].

(3) تغليق التعليق على صحيح البخاري (4/ 484) تحقيق سعيد عبد الرحمن موسى القزقي نشر المكتب الإسلامي دار عمار بيروت عمان الأردن الطبعة: الأولَى/ 1405.

(4) أشار الشيخ رشيد رضا بصحة خبر التخفيف فِي تفسيره، انظر تفسير المنار (8/ 109).

(5) صحيح السيرة النبوية للشيخ ناصر الدين الألبانِي (ص/ 15) نشر المكتبة الإسلامية عمان الأردن الطبعة الأولَى.

أوله: النعمة الكبرى على العالَم، وهو المولد المنسوب لابن حجر الهيتمي فِي 10 صفحات..[1]!!».

4- الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبِي شامة المقدسي: [ت665هـ]

يعتبر أبو شامة -شيخ الإمام النووي- من أشهر العلماء الذين نَصُّوا صراحة على جواز الاحتفال بذكرى المولد بعبارات واضحة، وألفاظ ظاهرة، لا تدع مجالاً لمتقوِّل، ولا فرصة لِمُتَأَوِّل، حين عقد باباً سماه: **"من البدع الحسنة"** قائلاً: «ومن أحسن ما ابتُدِعَ فِي زماننا من هذا القبيل؛ ما كان يُفعَل بمدينة إِرْبل كل عام فِي اليوم الموافق لمولد النبِي ﷺ من الصدقات، والمعروف، وإظهار الزينة، والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان إلَى الفقراء؛ مُشعِر بِمحبة النبِي ﷺ وتعظيمه وجلالته فِي قلب فاعله..[2]».

فعلَّق محقق الكتاب -الشيخ مشهور آل سلمان- على هذا الكلام بما يتناقض مع موقف المؤلف، واضعاً علامتين للتعجب عند قوله: ومن أحسن هكذا [!!][3] معقباً المصنف على تقسيم البدع[4] وزاد على ذلك؛ فحشد عدداً من عمومات النصوص المرجوحة فِي إبطاله، فأثقل بذلك حواشي الكتاب بما هو مشهور ومتداول فِي مثل هذا النوع من التحقيقات.

ويلاحظ كذلك على هذا المنهج الجديد فِي التحقيق أنه يوثق نقولاً كثيرة فِي مختلف الكتب التِي عندها نفس المشرب، فيظن من لا خبرة له بها أثناء اطلاعه على مختلف النقول التِي غالبها لعلماء القرن الرابع عشر المشارقة؛ أن السواد الأعظم من

---

(1) التآليف المولدية فِي التعريف بما أفرد بالتصنيف فِي المولد الشريف للمحدث عبد الحي الكتانِي (ص/ 47 هامش -2) تقديم الشيخ عبد الله التليدي تحقيق خالد محمد المختار السباعي نشر دار الحديث الكتانية الطبعة الأولَى/ 2011.

(2) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبِي شامة (ص/ 95) تحقيق مشهور سلمان نشر دار الراية الطبعة الأولَى/ 1990.

(3) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبِي شامة (ص/ 95).

(4) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص/ 93 هامش- 1).

المسلمين متفقون على إنكار ذلك، فعلى سبيل المثال، لو كان الشيخ مشهور منصفًا، ونقل من كتاب مواكب ربيع للحلواني؛ لوجده قال عن كتاب: "الباعث على إنكار البدع والحوادث" ما نصه: «فثناء أبِي شامة على المولد النبوي مع أنه وَضع كتابه لإنكار البدع؛ أدل دليل على أنه ليس من البدع التِي تنكر، بل من التِي تستحسن وتشكر، إذ ليس كل ما أُبدع مذمومًا..[1]».

وبِما أن الشيء بالشيء يذكر؛ فقد سلك هذا المحقق المسلكَ نفسه فِي تحقيقه لكتابَيْ الاعتصام، والموافقات للإمام الشاطِبِي، فأَوَّل مواطن كثيرة من كلام أبِي إسحاق فِي تعليقاته على الكتابين بما يوافق مذهبه، وينسجم مع هواه، وخاصة فِي الموافقات[2] حتى أصبحت مالكية فِي أصولها، ذات صبغة مقاصدية فِي مضمونها، حنبلية فِي تعليقاتها[3] ذات نزعة ظاهرية فِي حواشيها، ولذلك لَم يعتمد على طبعته أستاذنا المرحوم الدكتور فريد الأنصاري[4] وأستاذنا الدكتور أحمد

---

(1) مواكب ربيع فِي مولد الشفيع بتصرف يسير (ص/ 305) تحقيق الشيخ أحمد فريد المزيدي، نشر دار الكتب العلمية/ 2007.

(2) انظر على سبيل المثال تعليقاته فِي الموافقات (2/ 195- 257) وكذا (3/ 319- 323) تحقيق مشهور حسن سلمان، نشر دار ابن عفان الطبعة الأولَى/ 1997.

(3) ينظر على سبيل المثال؛ الموافقات (5/ 144- 202- 203).

(4) فبعد أن ذكر أستاذنا المرحوم فريد الأنصاري تحقيق الشيخ دراز، ومشهور آل سَلمان للموافقات قال: «إلا أن المعتمد فِي توثيق النصوص مطلقًا هو الطبعة السابقة والمشهورة..» انظر المصطلح الأصولِي عند الشاطِبِي (ص/ 43) إشارة إلَى تحقيق الشيخ دراز، بالرغم من أن هذه الأخيرة حققت على نسخة خطية وأخرى مطبوعة، وطبعة مشهور آل سلمان حققت على نسختين خطيتين وأربع نسخ مطبوعة فتأمل. ولست هنا خصمًا للشيخ مشهور بل إني أعتمد على طبعته في كثير من النقول المبثوتة فِي هذه الرسالة.

وقد أفادنا أستاذنا المذكور أثناء محاضراته فِي دار الحديث الحسنية بالرباط، من أن الموافقات ما تزال تحتاج إلَى تحقيق علمي، لأن مشهور آل سلمان فاته الوقوف على أقدم نسخة للكتاب وهي موجودة فِي بعض الخزائن بالمغرب، وقد نفذ الدكتور الحسين أيت سعيد هذه الوصية.

قلت: وفاتته -أي مشهور- كذلك فِي تحقيقه للاعتصام نسختان خطيتان نفيستان مغربيتان، إحداهما حبسها السلطان الشريف مولاي عبد الحفيظ العلوي، وتوجد فِي خزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم [121] والأخرى بالخزانة الحسنية تحت رقم [2098].

الريسونِي[1] فِي بحوثهما حول الشاطِبِي، وفِي نقولهما من الكتاب كما يظهر لِمن تتبع كتبهما.

وانْضمَّ إِلَى أساتذتنا عدد كبير من الباحثين فِي أصول الفقه عامة، وفِي مقاصد الشريعة خاصة، مُتعمِّدين العزو فِي نقولهم من الموافقات على تحقيق العلامة عبدالله دراز، اللهم إذا أرادوا أن يتحققوا فِي درجة الحديث صحة وضعفًا، والحكم عليه قبولاً أو ردّاً؛ آنذاك يلتجئون إِلَى تحقيق الشيخ مشهور، لأنه فِي الحديث مقدم على الشيخ دراز، بفضل مخالطته مع الشيخ ناصر الدين الألبانِي، وإن كانت غالب أحكامه على الأحاديث يستمدها من كتب شيخه كالسلسلتين، والإرواء، والحق أحق أن يقال، والشمس لا تستر بالغربال.

غير أن الدكتور الحسين أيت سعيد[2] قد أعاد تحقيقها وطبعت في سبع مجلدات ضخمة[3] ولطالما ينتظر الباحثون بشوق وشغف تعليقاته وتحقيقاته؛ لأنها ستكون لا محالة أفضل بكثير من تعليقات مشهور لاختصاصه في الفقه وأصوله، والحديث وعلومه، خلافًا للأول الذي هو مشارك في الحديث فقط، وأخبرنِي بعض تلاميذ أيت سعيد وبعض المتعاونين معه فِي تحقيقها؛ أنه استدرك كثيراً من النقول من أصول خطية نادرة سقطت فِي جميع النسخ المطبوعة، ومنها طبعة دراز؛ فضلاً عن غيرها.

وقد صرح الشيخ دراز فِي خطبة تحقيقه للموافقات؛ أنه كلف الأستاذ محمد أمين عبد الرزاق بتخريج أحاديثها[4] التِي بلغت زهاء ألف حديث؛ أما تعليقاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد

(1) انظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطِبِي لأحمد الريسوني (ص/ 93) طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي واشنطن الطبعة الأولَى/ 1990.

(2) وهو أستاذ التعليم العالِي بجامعة القاضي عياض بمراكش، وعضو فِي المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية.

(3) نشرت عدد من مواقع التواصل الاجتماعي غلافها الخارجي –أي الموافقات– فمرة باسم دار البشير بنعطية فاس المغرب، وأخرى وزارة الأوقاف القطرية، ولم تصدر لحد الآن.

(4) الموافقات تحقيق الشيخ عبد الله دراز (1/ 11) نشر دار الكتب العلمية الطبعة الثالثة/ 2003.

انفردت بعدة مزايا منها؛ كشفه ببراعة عن كثيرٍ من غوامض أصول الفقه ودقائق إشكالاته، وأسرار خباياه، وفك كثير من الألغاز حول قواعد مقاصد الشريعة، وسيكون أحسن تعليق علمي إِلَى حد الآن، ولولا مكانة الكتابين فِي المذهب المالكي؛ ما استطردت هذا الكلام فيهما.

وأغلب الظن أن هذا المنهج فِي التحقيق ظهر -والله أعلم- بعد تلكم التعليقات التِي كُتِبت على "فتح الباري" إثر استشكال طائفة من طلبة العلم فِي المشرق فروعـًا عقدية من تأصيلات الحافظ ابن حجر على أصول النظار الكبير أَبِي الحسن الأشعري، فانتدب آنئذ بعض أكابرهم نفسه للتعليق عليها، لحاجة فِي نفس يعقوب قضاها، فأُوِّلت تلك التأصيلات على خلافها، فزلَّت قدم بعد ثُبُوتِها.

ومنذ ذلك الحين بدأ هذا المنهج ينمو ويتناسل وكأنه لون جديد من ألوان التحقيق العلمي، وإن كان لا يمت إليه بأدنَى صلة، لأن فيه اعتراضـًا على مقاصد المصنفين، وإِفْسَاداً لأعمال أهل العلم الأولين، وجنايةً على حقوق المؤلفين، واعتداءً على جهود السابقين.

قلت: ولا أدري كيف سيكون رد المنكرين إذا علق بعض الأشاعرة المعاصرين على الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشرحه "فتح المجيد".. مُخَطِّئـًا كل فروعه العقدية المخالفة لأصول المذهب الأشعري، حاشداً نقولاً مليحة لكبار الفقهاء، ونصوصـًا منتقاة لِمشاهير الأعلام عبر التاريخ تؤيد المذهب الأشعري، وتُنقص -أو بالأحرى تبطل- كل اجتهادات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثقلاً هوامش تلك الرسالة بكل ما ذُكر، ناصحـًا أتباعه بالعدول عنها، داعيـًا المخالفين إِلَى الدخول فِي عقيدة السواد الأعظم من المسلمين، تُرى كيف سيكون رد المنكرين؟

والحاصل أن آثار هذه التعليقات السلبية تُسَبِّب فِي وُقوع شرخ كبير بدون موجب فِي عقائد المسلمين، وتُوسِّع الخلاف بلا مُسَوِّغ فِي فروع أصول الدين، وتفتح الأبواب على مصراعيها أمام عدد من الأبحاث والدراسات العقدية للنيل من عقيدة

علماء الأمة، وخاصة الشافعية، والمالكية، والحنفية، وفضلاء الحنابلة، أُسْوَةً بتعليقات "فتح الباري" فصُنِّفَت مئات من الأبحاث وعشرات من الأطروحات الجامعية فِي عقائد العلماء، خاصة منهم المتأخرين والمعاصرين.

ومن رَحِمِ هذه المنهج وُلِد لون آخر من البحوث كَكِتاب: "المفسرون بين التأويل والإثبات فِي آيات الصفات" الذي طعن صاحبُه فِي إمام المفسرين: الإمام القرطبِي، وبالغ فِي التشنيع عليه، وفات المُشرِف على الرسالة[1]؛ فضلاً عن المشرَفِ عليه[2] والمناقشين له؛ أن التأويل لَم ينفك عنه أحدٌ من علماء الإسلام حتى الذين يحاربون بسلاحهم كالإمام أحمد بن حنبل[3] فضلاً عمن دونه. والحاصل أن ألئك الباحثين تأثروا بِهذا المنهج ففسقوا بعض العلماء ونسبوهم إلَى البدعة والضلال؛ بل أطلقوا على بعضهم والعياذ بالله الكفر على ما تَمسكوا به من أصول أبِي الحسن الأشعري، لذا وصف هاشم الرفاعي الشيخ العلامة ابن باز وكبار معاونيه بأنه: «فتح باب الشر بتلك التعليقات..!! [4]».

ويُذَكِّرُنِي هذا النوع من التحقيق لفتح الباري بما وقع لشرح صحيح مسلم للإمام النووي؛ لما تجرأ بعض الفقهاء فِي عصر ابن السبكي، فعلق عليه بِما يتَّفِق مع عقيدته، وأزال منه ما لا ينسجم مع هواه !! وفِي هذا يقول التاج: «وقد وصل حال بعض المجسِّمَة فِي زماننا هذا؛ أن كتب شرح صحيح مسلم للشيخ محيى الدين النووي، وحَذَف من كلام النووي ما تكلم به على أحاديث الصفات، فإن النووي

---

(1) فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان.

(2) فضيلة الأستاذ الدكتور: محمد بن عبد الرحمن المغراوي.

(3) ينظر تأويل الإمام أحمد لضحك الرب أثناء تأويله لبعض الأحاديث الضعيفة فِي كتاب: الباز الأشهب لابن الجوزي (ص/ 90) .

(4) ينظر كتاب: نصيحة لعلماء نجد لنسيب الرفاعي، والرد عليه المسمى الرد على الرفاعي والبوطي فِي كذبهما على أهل السنة والجماعة ودعوتهما إلَى البدع والضلال لمحسن العباد (ص/ 115) نشر دار ابن الأثير الطبعة الأولَى/ 2000.

أشعري العقيدة، فلم تحمل قُوى هذا الكاتب أن يكتب الكِتاب على الوضع الذي صنفه مصنفه، وهذا عندي -يضيف التاج- من كبائر الذنوب، فإنه تحريف للشريعة، وفتح باب لا يؤمن معه بكتب الناس وما فِي أيديهم من المصنفات [!!][1] الله فاعله.. وقد كان فِي غنية عن كتابة هذا الشرح، وكان الشرح فِي غُنْيَة عنه..[2]».



(1) حذفت هنا كلمة للتاج لبشاعتها، وإنما كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ حبـاً فِي السادة الأشاعرة وذبـاً عنهم، ولهذا سماه الحافظ أحمد بن الصديق الغماري بـ:« مجنون الأشاعرة..» مبالغة منه فِي الدفاع عنهم. انظر كتابه: الجواب المفيد للسائل المستفيد (ص/ 11) تحقيق بدر العمرانِي نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 2002.

(2) قاعدة فِي الجرح والتعديل وقاعدة فِي المؤرخين للتاج السبكي (ص/ 55-56) بتحقيق الشيخ المحدث عبد الفتاح أبي غُدَّة، نشر دار الوعي بحلب القاهرة الطبعة الثانية/ 1978.

المبحث الثانِي: توزيع مطويات سرية فِي المغرب تُبَدِّع المولد النبوي:

كلما قَرُب موعد ذكرى المولد النبوي الشريف؛ إلا وتجد بعض الناس يعملون بكل ما أوتوا من قوة لتبديع الاحتفال بهذه الذكرى والتحذير منها، بل يمتد الأمر ليصل بهم إلَى توزيع مطويات سرية لبعض فئات المجتمع، بدعوى وقاية الناس من الغلو والضَّلال، والتحذير من البدع، وأعانهم على تلك الفرية قوم آخرون.

وشاءت الأقدار أن وقعت تلك المطويةُ مصادفة فِي يدي وهي لبعض المشارقة[1] بعد أن سمعت عن تداولِها فِي السنوات الماضية مِرَاراً، وأنها -حسب المؤيدين لها- لَمْ تدع مقالاً لقائل، ولا توضيحاً لِمُسْتَزِيد حول بدعية ذكرى المولد، وعنها يقول الأستاذ البشير المحمودي: «ومن هذا الباب: حملات التشهير والإنكار على المحتفلين بالمولد النبوي، ولعل توزيع مناشر سرية مكثفة حول هذا الموضوع فِي السنة الماضية[2] خير مثال على ذلك..[3]».

هذا وقد كنت أتصور تلك المطوية بتصورات شتى، وهَالَنِي كثرة ذيوعها، وسعة انتشارها فِي أغلب المدن المغربية؛ فإذا هي ورقة واحدة مكتوبة من جهتين عرضاً على خلاف العادة، مقسمة إلَى ثلاثة مقاطع، وكأنها ثلاث صفحات مُصَغَّرة فِي كل جهة، مَفْصُولَة بينها ببياض، مُعَنونة بـ:"حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي".

فبعد أن حصر كاتب تلك المطوية أشكال الاحتفال بذكرى المولد فِي ستة أنواع؛ حكم عليها جميعاً بقوله: «وهو بجميع أنواعه بدعة محرمة..» ولا شك أن هذا تضييق لواسع، وخلل فِي المنهج، وانحراف فِي الاتجاه، حين حكم على مجموعة من الأحكام رغم اختلاف صُوَرِها، وعللها، ومقاصدها، وكيفياتها، بحكم واحد، فضلاً عن مخالفته تقسيم جمهور العلماء للبدع إلَى خمسة أقسام، وقد سبق تفنيد

---

(1) للشيخ صالِح بن فوزان آل الفوزان، موسومة بـ: [حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي] وهي منشورة بتمامها فِي الموقع الإلكترونِي [صيد الفوائد] تحت رابط:
http://www.saaid.net/mktarat/Maoled/6.htm

(2) يقصد سنة 1999.

(3) الاحتفال بالمولد النبوي بين فتاوى التشريع وفتاوى التبديع (ص/ 19) مطبعة الكرامة، وهذه الرسالة فِي الأصل محاضرة ألقاها فِي مقر المجلس العلمي بمراكش بتاريخ 06/ 07/ 2000.

هذا بإسهاب فِي الفصل الأول.

وقد تواتر عن كثير من كبار الفقهاء جواز عرض البدع على الأحكام التكليفية الخمسة كالإمام الشافعي[1]، وابن حزم الظاهري[2]، وابن عبد البر[3]، والغزالِي[4]، وابن العربِي[5] والأُبِّي[6]، وابن الأثير[7]، وابن الصلاح[8] والعز بن عبد السلام[9]، وأبِي شامة المقدسي[10]، والنووي[11]،

---

(1) انظر سير أعلام النبلاء للذهبِي (10/ 70) قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما ما يخالف كتاباً أو سنة أو آثاراً أو إجماعاً، فهذه بدعة ضلالة، والثانِي: ما أُحدث من الخير بلا خلاف فيه، فهذه محدثة غير مذمومة..» يعنِي أن الشافعي يقول بتقسيم البدع فِي الأصل، ثُم يبقى التقعيد والتفريع على حسب الحوادث فِي تنزيلها على الوقائع المستجدة فتعتريها بذلك الأحكام الخمسة، ومن هذا الأصل فَرَّعَ عدد من أساطين المذهب الشافعي التقسيم الخماسي للبدع، كالنووي، والعز بن عبد السلام، وابن الصلاح، والعراقي، وابن حجر، والسخاوي، والسيوطي، وغيرهم من نُظَّار الفقهاء وكبار المقعدين ممن وصلوا إلَى درجة الاجتهاد المذهبي.

(2) الإحكام فِي أصول الأحكام (1/ 47).

(3) شرح الموطأ للزرقانِي (1/ 340) قال حافظ المغرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [ت 463هـ]: «البدعة الممنوعة هي التِي تخالف السنة..» فيكون مفهوم كلامه؛ أن البدعة الحسنة الموافقة لمقاصد السنة جائزة وحسنة. هذا ويجب أن يُعْلَمَ أن المقَسِّمِين للبدع إلَى مذمومة ومحمودة، إنما ذلك منهم باعتبار الأصل؛ أما التفريع فيلزم أن يكون وجُوباً على حسب الأحكام التكليفية الخمسة فتنبَّه.

(4) إحياء علوم الدين (1/ 167).

(5) عارضة الأحوذي (10/ 147).

(6) إكمال إكمال شرح مسلم للأبي (5/ 21).

(7) النهاية فِي غريب الحديث والأثر لابن الأثير (1/ 106-107).

(8) مساجلة علمية بين الإمامين الجليلين: العز بن عبد السلام وابن الصلاح حول صلاة الرغائب (ص/ 18) تحقيق الشيخ الألبانِي وزهير الشاويش نشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية/ 1405هـ.

(9) رسالة فِي ذم صلاة الرغائب (ص/ 25) وما بعدها طبعة دار الفكر المعاصر بيروت بتحقيق إياد خالد الطباع/ 2001 .

(10) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص/ 39).

(11) شرح النووي على صحيح مسلم (6/ 154-155) نشر المطبعة المصرية.

والقرافِي[1]، والقرطبِي[2]، وابن تيمية فِي أحد أقواله[3]، وابن الشاط[4]، والبقوري[5]، وابن الحاج[6]، وابن رجب الحنبلي[7]، والشريف الجرجانِي[8]، والحافظ ابن حجر[9]، والسيوطي[10].

أما العلماء المتأخرون فِي القرن العاشر وما بعده؛ فسلكوا طراً مسلك المتقدمين، لما قسموا البدع حسب الأحكام التكليفية الخمسة كالنوازلِي الكبير أبي العباس الونشريسي[11] وابن حجر الهيتمي[12] والمباركفوري[13] والعلامة قاسم

---

(1) الفروق لشهاب الدين القرافِي (4/ 202) الفرق [252] نشر دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولَى/ 1344.

(2) الجامع لأحكام القرآن (2/ 87) طبعة دار الكتب/ 1945.

(3) القاعدة الجليلة (ص/ 19-20) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الموطن المذكور ما نصه: «وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وضلالة باتفاق المسلمين..» انتهى بحروفه. وقد حاول الشيخ ناصر الدين الألبانِي أن ينفي عنه إطلاقه تقسيم البدع واستحسانها، فتكلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيما تكلُّف لإظهار خلاف ذلك، انظر (ص/ 122- 123 هامش- 1) من كتابه: التوسل أنواعه وأحكامه جمع وتنسيق تلميذه محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض/ 2001.

(4) حاشية ابن الشاط مطبوعة مع الفروق (4/ 202) ورغم كثرة تعقبات ابن الشاط على القرافِي، إلا أنه قال فِي الفرق [252] مُعَلِّقاً على تقسيم القرافِي للبدع إلَى خمسة أقسام: «ما قاله القرافِي فِي هذا الفرق صحيح..».

(5) ترتيب الفروق واختصارها (2/ 362-365) تحقيق الأستاذ عمر بن عباد نشر وزارة الأوقاف الطبعة الأولَى/ 1996.

(6) المدخل (2/ 257) نشر دار الفكر للنشر والتوزيع طبعت دون تاريخ.

(7) جامع العلوم والحكم (ص/ 283) تحقيق وليد بن سلامة ط/ الأولَى مكتبة الصفا/ 2002.

(8) التعريفات للشريف الجرجانِي (ص/ 62) نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1983.

(9) فتح الباري (4/ 204) نشر دار إحياء التراث العربِي بيروت الطبعة الثانية/ 1406.

(10) حسن المقصد فِي عمل المولد (ص/ 52).

(11) المعيار المعرب (1/ 357) قال:«وأصحابنا وإن اتفقوا على إنكار البدع فِي الجملة؛ فالتحقيق الحق عندهم أنها خمسة أقسام» .

(12) إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم (ص/ 21).

(13) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (7/ 442) .

القونوري[1] والشيخ الطاهر بن عاشور[2] والعلامة محمد بخيت المطيعي[3] مفتِي الديار المصرية، وجميع أعلام الأسر الحديثية فِي المغرب، كالكتانيين بفاس، والغماريين[4] بطنجة، وغيرهم من العلماء الأعلام.

ويكفينا أن نرد على صاحب المطوية بقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام فِي معرفة مسالك البدع لما قال: «والطريق فِي معرفة ذلك؛ أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة، فإن دخلت فِي قواعد الإيجاب فهي واجبة؛ وإن دخلت فِي قواعد التحريم فهي محرمة؛ وإن دخلت فِي قواعد المندوب فهي مندوبة؛ وإن دخلت فِي قواعد المكروه فهي مكروهة؛ وإن دخلت فِي قواعد المباح فهي مباحة..[5]».

لكن الشيخ الشقيري[6] صاحب كتاب: "السنن والمبتدعات" وإن وافق المردود عليه فِي أحد أقسام البدع؛ لكنه سرعان ما تجاوزه ليستحدث تنظيراً غَرِيباً لَم يُسْبَق إليه، حين قَسَّم البدع إِلَى أربعة أقسام: البدعة المكفرة، والمحرمة، والمكروهة تحريمًا، والمكروهة تنزيهًا، وإن تعجب فعجب وَضعه أمثلة لكل نوع، فأدرج الاحتفال بالمولد فِي قسم البدع المكروهة تحريمًا، وخَطَّأ جمهور العلماء فِي تقسيمهم للبدع، وبالغ كثيراً فِي إنكاره، وغالَى فِي ردِّه، حتى قال: «بل هذا منهم مشاقة ومحادة للرسول القائل: كل بدعة ضلالة، فلهم -إشارة إِلَى جمهور الفقهاء المقسمين البدع- نَصيبٌ من الوعيد المذكور فِي آية؛ ﴿وَمَنْ يُّشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ

(1) أنيس الفقهاء فِي تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء (ص/ 105) نشر دار ابن الجوزي تحقيق أحمد الكبسي ط/ 2007.

(2) التحرير والتنوير (27/ 424) عند قوله تعالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً إِبْتَدَعُوهَا﴾ طبعة الدار التونسية للنشر/ 1984.

(3) أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام (ص/ 10) مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولَى/ 1988.

(4) ما عدا الزمزمي، وقد وقع خلاف حاد بينه وبين أخيه الحافظ أحمد، ثُم عبد الله لكن بمقدار، والغريب أنه ناظر الشيخ الألبانِي فِي مسائل الصفات بطنجة رغم اتفاقهما فِي المشرب العقدي.

(5) قواعد الأحكام فِي مصالح الأنام (2/ 337) نشر دار القلم الطبعة الأولَى/ 2001.

(6) مؤسِّس الجمعية السلفية بالحوامدية جيزة بمصر، ومن المعاصرين للشيخ رشيد رضا ومحمد عبده والأمير شكيب أرسلان.

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُومِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾[1] انتهى كلام الشقيري بحروفه، وقَدَّمَ لكتابه المذكور؛ صاحبه محمد حامد الفِقِي الذي مر ذكره قريباً، ولا يخفى ما يحمل هذا الكلام الجافي فِي طياته من شناعة، وغلو، ولعل شذوذه في تقسيم البدع؛ هو الذي جعل بعض الباحثين المغاربة ينتقد كتابه: "السنن والمبتدعات" فِي مقالة خاصة[2].

وقد حَـرَّرَ الحافظ ابن حجر هذه المسألة أيما تحرير لما قال عن تقعيد البدع وتأصيلها فِي كتابه الماتع: فتح الباري[3]: «والتحقيق أنها إن كانت مِمَّا تَنْدَرِج تحت

---

(1) السنن والمبتدعات للشقيري (ص/ 13) نشر دار ابن الهيثم الطبعة الأولَى/ 2005.

(2) شارك بها فِي ندوة: "البدعة مفهومها وضوابطها" التِي نظمها المجلس العلمي بتارودانت يومي 9-10 يوليوز 2001 وعنوان المقالة: السنن والمبتدعات -دراسة نقدية- للأستاذ: محمد بوبلي (ص/ 253-260) نشر دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولَى/ 2012.

(3) ومن أشنع ما رأيته من الألفاظ خُبْثاً فِي حق الحافظ ابن حجر وكتابه فتح الباري؛ قول محمود الحداد أحد تلامذة الشيخ الألبانِي أثناء حديثه على شروح البخاري: «يَسَّر الله لأهل السنة من يشرحه..» !! انظر تعليقاته على عقيدتَيْ أبِي حاتِم وأبِي زُرعة الرَّازيَيْن (ص/ 131) يعنِي أنه يدعو الله أن يُيَسِّر لصحيح البخاري من يشرحه من أهل السنة، فيكون ابن حجر خارجاً عنهم لأنه فِي نظره أشعري العقيدة ليس من أهل السنة، وإنما هو من أهل البدع والضلال !! لكني أهمس فِي أذن الحداد، بأن لصحيح البخاري شروحاً كثيرة ذكر منها صاحب كشف الظنون اثنين وثمانين شرحاً، أفضلها وأحسنها؛ فتح الباري لابن حجر بإجماع أهل الفن، فقد يسر الله من شَرَحَهُ بما كفى وزاد.

وأعتقد أن الشيخ الحداد أكثر تلامذة الشيخ الألبانِي سوءاً للأدب مع العلماء- فدونك قوله في مقدمة كتاب تخريج أحاديث الإحياء للإمام الغزالِي فِي التاج السبكي، والحافظ مرتضى الزبيدي: إنهما صوفيان والصوفية هي: الزندقة، كما لَم يعتبر أبا حنيفة والطحاوي وغيرهما من أهل الرأي من أهل السنة وقال: فِي تعليقاته المذكورة (ص/ 131) «إنهم ليسوا بأئمة لا في اعتقاد، ولا فِي فقه، ولا فِي شيء آخر..» وزاد على هذا الطيش؛ أن وصف الإمام بدر الدين الزركشي بما أستحيي من ذكره ونقله هُنا.

كما ألف زميله عبد الله بن سعد الغامدي كتاباً سماه: "الأخطاء الأساسية فِي توحيد الألوهية الواقعة فِي فتح الباري" -وكأن ابن حجر تصدى للتأليف وهو حديث عهد بالإسلام، حتى تشكل عليه المباحث الأساسية فِي توحيد الألوهية، وبالجملة فالغامدي شنع كثيراً فِي كتابه على الحافظ ابن حجر لتجويزه التوسل واستحباب الزيارة.. وغيرهما من الفروع الفقهية واعتقدها الغامدي عَقَدِيَّة وعهدي بالشاعر العربِي فِي مثل هؤلاء قال قديماً :

←

مستحسنٍ فِي الشرع فهي حسنة؛ وإن كانت مما تندرج تحت مستقبَح فِي الشرع فهي مُسْتَقْبَحَة، وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إِلَى الأحكام الخمسة..[1]».

وبعد أن ذكر صاحب المطوية أصناف المولد؛ استدل بأقوال لثلاثة من المؤرخين يظهر فِي سياق كلامهم أنهم ممن ينكرون ذكرى المولد، بدء بأَبِي شامة، ومروراً بابن خَلِّكَان، وانتهاء بابن كثير، وأبدع لما نَقَل عنهم تلكم النقول بالطريقة الانتقائية، وبكثير من الدهاء فِي التأويل، لإيهام القارئ أن هؤلاء المؤرخين يقولون ببدعيته، مع العلم أنهم اتفقوا على جوازه، واستحسانه.

فإذا كان موقف أَبِي شامة المقدسي لا يحتاج إِلَى التذكير لسبقه ووضوحه[2]؛ فإن ابنَ خَلِّكَان نفسه يُجَوِّز الاحتفال ويستحسنه فِي ترجمة عديد من السلاطين[3] والعلماء[4] والصالحين فِي وفياته، أما ابن كثير؛ فلا أعتقد أن سماحة الشيخ آل فوزان سيخفَى عليه إفراد ابن كثير رسالة فِي الموضوع سماها: "المولد" يَسْتَحسن فيها الاحتفال به وهي مطبوعة، ونظَمها العلامة محمد بن سالِم بن حفيظ مفتِي تريم، وشَرَح نظمه ذاك، ثُم عَلَّق على نظمه وشرْحِه معـاً بلديُّه العلامة المرحوم السيد محمد بن علوي الحسنِي المالكي، والحاصل أن مولده مشهور متداول، والكل مطبوع مَرَّات وكَرَّات.

ومن لطائف ما ذكره الشريف سيدي عبد الحي الكتانِي فِي رسالته: "التآليف المولدية" لما عَرَّفَ بمولد ابن كثير ما نصه: «وهذا من العجائب كون أصحاب ابن

ما يَضُرُّ البحرَ أمسى زاخراً ۞ أن رَمَى فيه غُلامٌ بِحَجرِ

(1) فتح الباري (4/ 204) طبعة دار إحياء التراث العربِي بيروت.

(2) ولا بأس أن نكرره هنا، قال أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أحسن ما ابتُدِعَ فِي زماننا من هذا القبيل؛ ما كان يُفعَل بمدينة إِرْبل كل عام فِي اليوم الموافق لمولد النبيﷺ من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور.. فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان إِلَى الفقراء؛ مُشعِر بمحبة النبيﷺ وتعظيمه وجلالته فِي قلب فاعله..» انظر كتابه: "الباعث على إنكار البدع والحوادث" (ص/ 88).

(3) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (4/ 119) طبعة مصر/ 1310.

(4) وفيات الأعيان (1/ 436) وكذا (3/ 449).

تيمية يدلون بدلوهم مع أصحاب الموالد ولا عجب..[1]» مما يدل على شدة شهرة ابن كثير بمولده ذاك، ولا تغتر بعد معرفة هذا أيها المنصف؛ إذا أورد المنكرون مقاطع مستلة من تقييدات كلام ابن كثير؛ يتبين من ظاهرها أنه من المانعين.

ويحسن التنبيه هنا؛ أن كثيراً من هؤلاء يحرفون الكلم عن مواضعه؛ فهذا العلامة السيد محمد بن علوي المالكي يشكو من تحريف أحدهم لكلام ابن كثير لما انتقى بعض كلامه فَمَزَجَه وكأنه يبدع المولد، كما حدث مع صاحب المطوية الآن، ونظراً لفداحة هذا المنهج؛ عقد الشيخ العلوي المالكي لذلك باباً سماه: **الافتراء على ابن كثير وتحريف كلامه**: واستعرض الموطن الذي حُرِّفَ ومكانه الأصلي، سيتعجب من وقف على الموطنين، لذا خاطب المحرِّف –وإن لَم يسمِّه– بقوله: «أين أنتم من ادعائكم أنكم ستناقشون هذه القضية بعدلٍ، وإنصاف، وتَجرد عن كل هوى؟ [2]».

وبعد استعراض صاحب المطوية لأقوال هؤلاء المؤرخين؛ شرع فِي تعداد المانعين قائلاً: «وممن أنكر الاحتفال بهذه المناسبة؛ شيخ الإسلام ابن تيمية فِي اقتضاء الصراط المستقيم، والشاطبي فِي الاعتصام، وابن الحاج فِي المدخل، والشيخ تاج الدين على بن عمر اللخمي ألف فِي إنكاره كتاباً مستقلاً !! والسيد محمد رشيد رضا ألف فيه رسالة مستقلة !! والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ألف فيه رسالة مستقلة، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وغيرهم ممن لا يزالون يكتبون فِي إنكار هذه البدعة..».

قلت: أما موقف ابن تيمية فِي اقتضاء الصراط المستقيم فلا يخفى على المنصفين، ولا بأس أن نُذَكِّر به هنا؛ قال ابن تيمية فِي ذلك الكتاب الذي قال صاحب المطوية أنه أنكر فيه المولد: «فتعظيم المولد واتخاذُه موسماً؛ قد يفعله بعض الناس، ويكون

---

(1) التآليف المولدية (ص/ 53).

(2) حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف للعلامة السيد محمد بن علوي المالكي (ص/ 55-65) دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009، وهذه الرسالة غير الأخرى فِي المولد الموسومة بـ: "البيان والتعريف..".

له فيه أجر عظيم لحسن قصده، وتعظيمه لرسول الله..[1]» ووصف أجرَ القائمين عليه، والمحتفلين به بقوله: «والله قد يُثِيبهم على هذه المحبة والاجتهاد[2]» كما نقل بعض المعاصرين عن بعض المتأخرين ما يفيد استحسان ابن تيمية للمولد النبوي فِي غير الاقتضاء قائلاً: «ولشيخ الإسلام سيدي أَبِي العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى كلام مثل هذا فِي جواز الاحتفال بالمولد لَم يحضرنِي نصه الآن، فانظره فِي كتاب: التحذير من الاغترار بما جاء فِي كتاب الحوار..[3]».

وأما الشاطبِي وإن عَدَّه من المنكرين فِي اعتصامه؛ فإنه اعترف بأن من البدع ما يمكن أن تكون مندوبة[4] -بالرغم من أنه حامل لواء المنكرين للمولد[5]- ويدخل ذلك عنده فِي المصلحة المرسلة، أي: أن البدعة الحسنة وما يجري مجراها لا يُسمِّيها بدعة حسنة؛ وإنما يسميها مصلحة مرسلة، ولا مشاحاة آنئذ فِي الاصطلاح[6].

وأَكْثَرُ من هذا أن الشاطبي قَرَّرَ فِي "الموافقات" فِي مواطن كثيرة مبثوتة فِي كتاب الأدلة الشرعية، ومبحث السنة أصولاً كلية، وقواعد شرعية، واستقراءات عامة، لو تتبعها الـمُنْصِفُ وقارن بينها وبين ما فِي "الاعتصام"؛ سيجزم أن الشاطبِي مجتهد مطلق صوفِي متساهل فِي الموافقات؛ مقلِّد أثري ظاهري متشدِّد فِي "الاعتصام" بل هو فِي هذا الأخير رغم ذلك لا يؤَوِّلُ كصاحب المطوية والمنكرين عامة حديث: "من سَنَّ سُنَّة حسنة" بما يتوافق مع تقسيمه ذاك -أي بمعنى أحيا سنة- وإنما يؤولها

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (ص/ 297).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ 294).

(3) مدرسة بومروان وأنشطتها العلمية والدينية للفقيه إبراهيم بوحيدة (ص/ 52-53) نشر مطبعة الامنية الرباط/ 2004.

(4) الاعتصام للشاطبِي (1/ 37- 195) طبعة دار المعرفة/ بيروت.

(5) فتاوى الإمام الشاطبِي جمع المرحوم أبو الأجفان (ص/ 262) الطبعة الرابعة نشر مكتبة العبيكان الرياض/ 2001.

(6) ينظر إتقان الصنعة فِي تحقيق معنى البدعة للحافظ عبد الله بن الصديق الغماري (ص/ 16) طبعة عالَم الكتب/ 2006.

تـأويلاً لغويـاً حقيقيـاً كمـا درج عليـه جمهـور الفقهـاء المقسـمين للبـدع إلَـى خمسـة أقسام، وكأنه يفسر معناها؛ بمن اخترع بدعة حسنة، وابتدع سنة حميدة[1] فهو إذن يقول بالبدع الحسنة وإِن بِمقدار فتنبه !!

وقد سئل أبو إسحاق الشاطبِي عن حكم الاحتفال بالمولد فأجاب: «فمعلوم أن إقامة المولد على الوصف المعهود بين الناس بدعة محدثة..[2]» وكأنه تبع ابن الحاج، وابن تيمية فِي موقفهما؛ لأنهما يمنعانه إذا اصطحبته المفاسد، فيكون ظاهر مفهوم كلامه؛ جوازه إذا خلا منها، فتأمل.

وإلا فمضمون كلامه الذي سأسوقه الآن فِي الموافقات يُشْعِر أنه يقول بالتقسيم الخماسي وإن رفضه فِي الاعتصام، بل هو عند التحقيق أوسع من المؤيدين، ويظهر ذلك لِمن تتبع تفريعاته المقاصدية على أصل السنة، واستقراءاته الكلية المنتزعة من قواعد الشرع، وخصوصاً على أَصْلَيْ المصالح والعرف، حيث يظهر له من مجموع ذلك؛ أن الشاطبِي يُجَوِّزُ بِدَعاً ومُحْدَثاتٍ إذا وافقت أصول الشرع ومقاصده، فَتَدَبَّر معنى كلامه عندما قال: «فإن من استحسن لَم يرجع إلَى مجرد ذَوْقِه وتشهِّيه؛ وإنما رجع إلَى ما عُلِمَ من قصد الشارع فِي الجملة فِي أمثال تلك الأشياء المفروضة..[3]» .

ولئن كان أبو إسحاق الشاطبي يظهر فِي تنزيلاته للأحكام العملية عند تحقيق المناط الخاص أنه ينكر البدع جملة؛ فإنه عند التأمل والنظر؛ لا فرق عنده فِي تأصيل مسائل الاستحسان بين البدعة الحسنة في التفريع الفقهي، ومفهوم الاستحسان في التخريج الأصولِي، بجامع الاستحداث فِي كل منهما، ورجوع كل منهما إلى أصول مقاصد الشرع، دون أن يرجعا معًا إلى نص قطعي ظاهر، ولا إلى دليل جلي واضح دلالة وثبوتًا.

ومن أهم تلك الأشياء المفروضة المبتدعة التِي انتزعها الشاطبِي من مقاصد النصوص؛ ما ذكره العلامة أحمد بابا التنبكتِي فِي ترجمة أَبِي إسحاق المذكور من

---

(1) الاعتصام (1/ 178).

(2) المعيار (9/ 253).

(3) الموافقات (4/ 206) بتحقيق العلامة عبد الله دراز نشر دار المعرفة طبعت دون تاريخ.

أنه أفتَى بجواز ضرب الخراج على المسلمين عند ضعف بيت المال[1] ومن تأمل فتواه تلك؛ عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنها بدعة حسنة خَرَّجَهَا على أصل المصالح المرسلة، ولَم يكن لها فِي عصر السلف نظير، لكن تؤيدها الأصول العامة للشريعة الإسلامية، وإنما ذكَّرْتُ بهذا لأُبين تباين كلامه فِي الاعتصام[2] لما ضيق فيه واسعًا فِي كيفيات التفريع، والتخريج على البدع.

لذا فالمعوَّل هنا على ما فِي الموافقات، سيما وأنه قال فِي مقدمتها: «فلقد كنا قبلَ شروق هذا النور؛ نخبط خبط العشواء..[3]» إشارة منه إلَى اكتشاف أسرار التشريع والغوص فِي بحارها، والتفطن إلَى علل النصوص ومقاصدها، والاهتداء إلَى أغراضها، بدل الجمود على نقولها وظواهرها، ولو تأخر تأليف الموافقات عن الاعتصام لَـقُلْتُ: نَسَخَ قوله الأول الثانِي، لكن الاعتصام ألفه بعد الموافقات[4] فتعذر تحديد موقفه النهائي من البدع.

وأما ابن الحاج فلا نُسَلِّم لصاحب المطوية أنه من المنكرين؛ وأهل مكة أدرى بشعابها، وربما اغْترَّ بكثرة الاعتراضات التِي أظهرها ابن الحاج على بعض البدع المنكرة المصاحبة للمولد وغيرها من مُسْتَشْنَعات الأمور المتعلقة به، حتى عَدَّ منها ما يزيد على خمسين؛ فيما يقارب أربعين صفحة، فَوَهِم صاحب المطوية فظنه بذلك من المنكرين، ويكفي أن نرد عليه بقول ابن الحاج نفسه عندما عقد بَابًا بعنوان: "فصل المولد" معدداً فيه مزايا وفضائل ربيع الأول شهر مولد النبِي ﷺ قائلاً: «فكان يجب أن يُزَاد فيه من العبادات والخير شُكْراً للمولَى سبحانه وتعالَى على ما أولانا من هذه النعم العظيمة..[5]» . ثُم تساءل مع نفسه -وكأنه أراد الاعتراض بتعبير المناطقة- لِماذا النبِي ﷺ لَم يحتفل بمولده؟ فأجاب: «وما ذاك إلا لرحمته ﷺ

---

(1) نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتِي (1/ 50-51).

(2) الاعتصام (1/ 150) نشر المكتبة التجارية الكبرى مصر.

(3) الموافقات (1/ 13).

(4) كما أفادنا بذلك أستاذنا الدكتور أحمد الريسونِي فِي بعض محاضراته بدار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا بالرباط.

(5) المدخل لابن الحاج (2/ 2) نشر دار الفكر للنشر والتوزيع، طُبع دون تاريخ.

بأمته ورِفْقِه بهم، لأنه عليه الصلاة والسلام؛ كان يترك العمل خَشية أن يُفرض على أمته[1]».

وعندما نتأمل قول ابن الحاج: «فكان يجب أن يُزَاد فيه من العبادات والخير شُكْراً للمولَى سبحانه وتعالَى..» نَجده عند التحقيق من أكبر الـمُرَغِّبين فيه، بل ومن كبار المؤيدين للمولد؛ لأنه اقترح أن تُزاد أشكال الخيرات، وصنوف النعم، وأنواع القربات، على ما هو معهود أصلاً فِي أيام الاحتفال بالمولد؛ فتأمَّل.

فهناك نقول ونصوص أخرى لابن الحاج استحسن فيها الاحتفال بالمولد وهي كثيرة يصعب تتبعها، ويَعْسُرُ حصرها، لذا فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بأن ابن الحاج من المانعين، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثرَ فعلاً فِي إنكار كثير من البدع المتعلقة بالمولد، وربما جَرَّهُ ذلك إلَى ردِّ بعض البدع الحسنة فِي غير المولد، لذا تعقبه الحافظ ابن حجر بعد أن قال عن كتابه المدخل: «هو كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس، وأكثرها مما يُنْكَر، وبعضها مما يُحْتَمَل..[2]».

---

(1) المدخل (2/ 2).

(2) قلت: ورغم إشادة ابن حجر بهذا الكتاب؛ إلا أن بعض المعاصرين تكلموا فيه، وبالغوا فِي ذلك كثيراً حتى عدَّه تلميذ الشيخ الألبانِي مشهور حسن آل سلمان من الكتب التِي حذر منها العلماء، ومن الغريب أن ينقل مشهور كلام ابن حجر أعلاه مستدلاً به وكأنه يحذر منه، بينما الحافظ يُشَيِّدُ به كما لا يخفى، انظر كتاب مشهور الموسوم بـ: كُتُبٌ حَذَّرَ منها العلماء (1/ 310 –311– 312) وكان مشهور فِي كتابه ذاك مُولَعـًا بنقل مواقف شيخه الألبانِي فِي عدد من المصنفات التِي حذر منها، وفاته نقل فِي أحد هوامش كتب شيخه وهو حجة النبيﷺ لما قال عن ابن الحاج: «وهذا الرجل مع فضله وكون كتابه المذكور مرجعـًا حسنـًا لمعرفة البدع، فإنه فِي نفسه مخرف لا يعتمد عليه فِي التوحيد والعقيدة..» حجة النبيﷺ كما رواها عنه جابر (ص/ 138 هامش– 178) المكتب الإسلامي ط. السابعة/ 1985.

ولَم يستحيى مشهور حين ذكر فِي مصنفه ذاك إحياء علوم الدين للغزالِي، والشفا للقاضي عياض (2/ 218–219) بدعوى أن فيهما أحاديث موضوعة !! فلما يا ترى لَم يُدْرِج فيه مسند الامام أحمد عِلْمـًا بأن الحافظ العراقي ألف جُزْءاً خاصـًا بموضوعات المسند لاشتراكهما فِي نفس العلة!! ولعله تفطن إلَى هذا فذكر المسند فِي آخر الجزء الثانِي (2/ 390–396) مدافعـًا عنه مفنِّداً كل الدعاوي المثارة حوله، وغالَى زميل مشهور عبد الكريم الحميد لما ألف رسالة سماها: "السراج لكشف ظلمات الشرك فِي مدخل ابن الحاج".

ومما يؤكد كذلك أن ابن الحاج ليس من المنكرين -وإن كان لا يحتاج إِلَى تأكيد- موقفه من تقسيم البدع، فهو بين أهل العلم مشهُور، وميْلُه إِلَى أن إطلاق العموم فِي قوله ﷺ "كل بدعة ضلالة" قول مهجُور، وبتحرير دقيق فِي كتابه "المدخل" مذكُور[1] وبِأَنَامِلِهِ وقلمه مسطُور، فزاد ترجيحه ذاك قوة ومتانة لِمذهب الجمهور، فكيف يقال بعد كل هذا: إنه من المنكرين !!

ثم قال صاحب المطوية المذكورة: «والشيخ تاج الدين [علي بن عمر اللخمي !!] ألف فِي إنكاره كتاباً مستقلاً..» قلت: هذا الاسم الذي ذكره صاحب المطوية علي بن عمر اللخمي مجهول..!! بل لا أبالغ إن قلت: لا يوجد عالم بهذا الاسم فِي عِدَادِ فقهاء المذاهب الأربعة أَلَّف ذلك الكتاب حسب تتبع كتب الرجال، وتصفح أخبارهم فِي مصنفات التراجم والطبقات.

لكن بعد البحث والتنقيب؛ ظهر أن الشيخ صالحاً قَلَبَ اسم الابْنِ أباً والعكس، فجعل اللاحق سابقاً، والسابقَ لاحقاً، فهو عمر بن علي بن سالِم بن صدقة اللخمي الاسكندري الشهير بتاج الدين الفاكهانِي[2] كما حققه غير واحد[3] وليس علي بن عمر كما قال، ولو ذَكر النِّسبة التِي عُرف بها- الفاكهانِي- لاتَّضح الاسم، ولَبَان المراد.

أما قوله: «وألف فِي إنكاره كتاباً مستقلاً» !! مَثله فِي ذلك كمثل مؤلفه الأول لا يوجدان، وما ذلك إلا التعاظم على القراء، وترويعهم بكُتُبٍ مدسوسة مصحوبة بأخطاء علمية، ولو استقبلت من الأمر ما استدبرت؛ لجاز القولُ بأن هذه المطوية-

---

(1) انظر وُجُوباً المدخل لابن الحاج (2/ 257) وعده من المؤيدين عدد من المعاصرين كالشنقيطي والمحمودي فِي رسائلهما.

(2) توفِّي على الأرجح سنة [734هـ]، ووَهِم ابن العماد الحنبلي فِي شذرات الذهب (6/ 96) فذكر أنه توفِّي [731هـ] وهو خطأ لانفراده به، والحاصل من هذا كله؛ أن يُقدِّم آل فوزان الفاكهانِي عليهما مَعاً مَتبُوعاً بابن الحاج، لأن هذا الأخير [ت737هـ]، والشاطبِي [ت790هـ].

(3) انظر البداية والنهاية لابن كثير(14/ 177) وبغية الوعاة للسيوطي (ص/ 362) وكذا الخوانساري فِي روضات الجنات (ص/ 501).

لكثرة ما فيها من التدليسات -تَصْلُحُ أن تكون ذَيْلاً لرسالة الحافظ عبد الله بن الصديق الغماري الموسومة بـ: "إرشاد الطالب النجيب إلَى ما فِي المولد من الأكاذيب[1]" إذا جُرِّدَت منها حُجَجُ المؤيدين التِي رد عليها.

وغاية ما فِي الأمر؛ أن الفاكهانِي سُئل عن حكم الاحتفال بالمولد فأجاب فِي ورقة ونصف أو أقل، وقد عددت سطورها فوجدتها بِضعة وثلاثين سطراً كعادة الأجوبة، بما فيها خمسة أبيات لشيخه ابن دقيق العيد، قال فِي مفتتح جوابه ذاك: «أما بعد: فإنه تكرر سؤال جماعة من المباركين عن الاجتماع الذي يعمله بعض الناس فِي شهر ربيع الأول ويسمونه المولد، هل له أصل فِي الشرع؟ أو هو بدعة وحدث فِي الدِّين..[2]» ثُم أجاب الفاكهانِي:

ومُلَخَّص جوابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يشدد النكير على المحتفلين، ويُورِد الاعتراضات على المؤيدين، ويطعن فِي أدلة المجوِّزين، لذا أَتَّفِقُ مع الشيخ صالِح آل فوزان هذه المرة، بِعَدِّه صاحب الجواب من المنكرين، لكنه فِي نفس الوقت أخطأ لما نسب الكتاب إليه، وربما فعل ذلك تهويلاً لا تحقيقاً، وحَيَّرنِي ذلك كثيراً، سيما بعد ما اسْتَعَنْت فِي ذلك بكبار المترجمين للفاكهانِي كالإمام ابن كثير[3] وابن فرحون[4] والحافظين ابن حجر[5] والجلال السيوطي[6] وحاجي خليفة[7]

---

(1) وهي رسالة متقنة كعادة كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيها رد على مجموعة من الأكاذيب والخرافات ومسائل أخرى تروج بمناسبة هذه الذكرى، فضلاً عن تخصيصه مبحثاً مفرداً لعدد من الأحاديث الموضوعة عامة، والضعيفة خاصة، والرسالة نشرتها دار الفرقان بالدار البيضاء، وطبعت دون تاريخ.

(2) حسن المقصد فِي عمل المولد لجلال الدين السيوطي (ص/ 46).

(3) البداية والنهاية (14/ 177) طبعة دار الكتب العلمية بيروت/ 1989.

(4) الديباج المذهب (ص/ 286) تحقيق مأمون الجنان نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1996.

(5) الدُّرَر الكامنة فِي أعيان المائة الثامنة (3/ 178) رقم الترجمة [418] نشر دار الكتب العلمية طبعت دون تاريخ.

(6) حسن المحاضرة فِي أخبار مصر والقاهرة (1/ 261) طبعة مصر/ 1332هـ.

(7) كشف الظنون عن أَسَامِي الكتب والفنون (ص/ 98-841-1170-1883) نشر دار إحياء التراث العربِي بيروت.

ومخلوف[1] والزِّرِكْلِي[2] وغيرهم.. فلم أر أي واحد منهم نص على أن للفاكهانِي كتاباً مستقلاً فِي المولد، **بل أكثر من هذا لا يوجد إلَى الآن كتاب مستقل أُفْرِدَ عند المتقدمين فِي إبطال المولد النبوي الشريف بالمعنَى العرفِي لِمُصطلح الكتاب، والعكس صحيح.**

ومضيت أقتفي أثر كل ما كتبه الإمام الفاكهانِي حول المولد؛ فلم أعثر على أي شيء ذي بال، سوى ذلك الجواب الذي نقله السيوطي كاملاً فِي رسالة حسن المقصد فِي عمل المولد، ورد عليه بأسلوب علمي رصين، ومنهج أصولِي متين[3] كما وقفت عليه بتمامه كذلك فِي السيرة الشامية للفقيه أبِي عبد الله الصالحي[4] وهما الموطنان اللذان حَفِظَا لنا هذا الجواب فيما أعتقد.

ثُم وقفت بعد كل هذا على نقل فِي كتاب: "المختصر فِي أخبار البشر" فِي معرض ذكر صاحبه لحوادث 731هـ قال: «وفيها فِي رمضان قدم دمشق العلامة تاج الدين عمر بن علي اللخمي بن الفاكهانِي المالكي من الإسكندرية لزيارة القدس، والحج، فحدَّث ببعض تصانيفه، وسمع الشفاء، وجامع الترمذي من ابن طرخان، وصنف جزءاً فِي أن عمل المولد فِي ربيع الأول بدعة..[5]».

والحق أن ذلك الجواب لا يُسَمَّى فِي عرف أهل العلم رسالة، فكيف بتأليف،

(1) شجرة النَّوْر الزكية فِي طبقات المالكية (1/ 204) رقم الترجمة [707] نشر دار الفكر طبع دون تاريخ.

(2) الأعلام لخير الدين الزِّرِكْلِي (5/ 56) دار العلم للملايين بيروت/ 1990.

(3) **فائدة:** ظن كثير من الباحثين، أن السيوطي ألف تلك الرسالة الموسومة بـ:- حسن المقصد فِي عمل المولد- تِبْيَاناً لِمزايا المولد، والحث على الاحتفال به واستحسانه، بيد أنَّه قَصَدَ فِي تأليفها بداءة الرد على تاج الدين الفاكهانِي، وبرع كثيراً فِي تفنيد كل الأدلة المرجوحة التِي استدل بها، وأتقن الكلام جِدّاً فِي رد الحجج التِي أدلَى بها، وتوجيهها كما سيتبين لمن وقف عليها، فهي وإن كانت صغيرة الحجم؛ إلا أنها غزيرة الفائدة.

(4) السيرة الشامية للشيخ محمد بن يوسف الصالحي (1/ 446-448) طبعة مصر.

(5) المختصر فِي أخبار البشر لأبِي الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن شاهنشاه (4/ 104) نشر المطبعة الحسينية المصرية الطبعة الأولَى طبع دون تاريخ.

ناهيك أن يكون كتاباً مُسْتقلاً، وأكثر أحواله أن يكون جواباً عن فتوى، وقد حقق الشيخ علي حسن الحلبِي هذا الجواب، وأثقل هوامشه بما يزيد عن مقدار الأصل بأضعاف، لتكثير الأوراق حتى تَنْتَفِخَ طباعته، ليتناسَب مضمونه الظاهري وحَجْمه الشكلي مع عنوان الـمجموعة الموسومة بـ: **رسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي** التِي طبعت فِي جزءين بالرياض فِي العَقْد الثامن من القرن الماضي، وهو- أي جواب الفاكهانِي- أول رسالة فِي ذلك المجموع[1].

ورغم تفنن الشيخ الحلبِي فِي توسيع الهوامش، والإكثار من التعليقات، والإسهاب فِي الإحالات، كعادة تعليقات أغلب المعاصرين؛ لم يتجاوز جواب الفاكهانِي أربع ورقات، وزاد على ما ذُكر تكبير الخط أكثر من المعتاد، وتقليل حجم الصفحات، ومن ثَم تحولت الورقة الواحدة لِتَظْهَرَ فِي مُفْتَتَحِ تلك المجموعة فِي صورة رسالة، ثُم بعد ذلك اطلع عليها صاحب المطوية، فزاد وصفه لها بـ: **"كتاب مستقل"** ضِغْثاً على إبالة كما يقال**!!**

وصدق صاحب الحلبِي الشيخ المرحوم بكر أبو زيد لما قال فِي كتابه التعالم:- وكأنه عَنَى صاحبه-: «ومن التعالم نفخ الكتب بالترف العلمي، والتطويل الذي ليس فيه من طائل، بل هو كالضرب فِي حديد بارد، وذلك فِي أعقاب ثورة الإنتاج الطباعي تحت شعار التحقيق، بحيث يكون الأصل لو وُضِع فِي ظرف لوَسِعه..[2]».

ثُم مضى الكاتب مُسْتَرْسِلاً فِي المنكرين -أو بالأحرى مستعرضاً المؤيدين دون قصد- فقال عاطفاً على علي بن عمر الفاكهانِي: «والسيد رشيد رضا أَلَّف فيه رسالة مستقلة..».

لَم أقف على تلك الرسالة التِي ذكرها الشيخ آل فوزان للسيد رشيد رضا رغم

---

(1) انظر رسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي (1/ 5- 14) نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض/ 1981.

(2) التعالم للشيخ بكر أبو زيد (ص/ 58).

تعطشي إليها، وبحثي الكثير عنها فِي المكتبات العامة والخاصة، حتى يئست من وجودها، وتعذر الحصول عليها، فاتجهْت إلَى البحث عن موقفه من الاحتفال فِي كتبه الأخرى ليس تكذيباً لصاحبِي؛ ولكن ليطمئن قلبِي، سيما بعد أن عثرت على نقولٍ علمية تفيد بأن للسيد رشيد رضا رسالة أخرى مستقلة يستحسن فيها الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، ولا أدري بَعْدَ ذلك ما إذا كان لرشيد رضا رسالتان متناقضتان إحداهما يؤيد فيها المولد، والأخرى ينكره فيها؛ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تَدْلِيساً جديداً من نوع آخر هذه المرة.

ولئن كانت تلك النقول المتظافرة جميعُهَا توحي قطعاً بأن للسيد رشيد رضا رسالة واحدة فِي المولد؛ فإن التساؤل يثور حول فحوى هذه الرسالة ومضمونها، هل يؤيد فيها المولد ويستحسنه؟ أم يُبدِّعُه ويستهجنه؟

وبقيت حيرانَ أياماً عدة فلم أهْتَدِ إلَى جواب فِي هذه المسألة، ولا ظهر لِي فك لغز فحوى هذه الرسالة !! فرجعت إلَى مصنفات السيد رشيد رضا وفِي مقدمتها تفسير المنار لأكشف عن موقفه فيه، ويتضح لِي رأيه فِي حكم الاحتفال بالذكرى الشريفة.

وما هي إلا أيام حتى عثرت له على موطن لعل الشيخ آل فوزان وقف عليه فظنه من المنكرين وذلك عند تفسير قوله تعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى ٱلذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[1] قال بعد نحو أربع صفحات من هذه الآية ما نصه: «فالموالد أسواق الفسوق فيها خيام للعواهر، وحانات للخمور، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات الكاسيات العاريات، ومواضع أخرى لضروب من الفحش فِي القول والفعل..[2]».

فهذا المقطع عينه نقله عدد من المشارقة الذين رَدُّوا على المجيزين فِي عدد من رسائلهم فِي معرض حديثهم على المنكرات التِي تقع فِي الموالد، ولعل الشيخ آل

(1) من الآية 164 من سورة البقرة.

(2) تفسير المنار (2/ 66) تحقيق فؤاد عبد الغفار، طبعة المكتبة التوفيقية دون تاريخ.

فوزان وقف على استشهاداتهم تلك؛ فظن أن رسالة رشيد رضا الموسومة بـ: ذكرى المولد النبوي يُنكِر فيها الاحتفال بالمولد، تبعـًا لموقفه فِي النقل المذكور.

بيد أن ذلك المقطع الذي شَهَّرَتْه رسائل المانعين، واحتفت به كراسات المنكرين؛ لا يتعلق بذكرى المولد النبوي إطلاقـًا جزمـًا، ويظهر ذلك لمن تتبع سياق كلامه هناك؛ بل هو متعلق بموالد الشيوخ والأولياء، وأصحاب الأضرحة، والزوايا، كما هو معروف منذ غابر الأزمان فِي مصر[1] وعنها يقول مفتِي الديار المصرية في وقته، العلامة محمد بخيت المطيعي الحنفي: «وقد استمر عمل الموالد إلَى الآن، غير أن الناس تركوا بعض الموالد الخمسة، وزادوا موالد أخرى حتى كادت الموالِد الآن لا تُحصى..[2]».

لكنَّ المانعين تجاهلوا هذا المعنَى، وجردوا الكلام من سياقه، فنقلوا حكم العلامة السيد رشيد رضا فِي موالد ألئك الشيوخ والأولياء؛ فَنَزَّلُوه منزلة حكم المولد النبوي الشريف لاشتراكهما فِي علة الفساد عندهم، فأشبه قياسهم ذاك شأن من جَوَّزَ الخمر قياسـًا على الماء بجامع السَّيَلاَن فِي كل منهما.

ومما يؤكد ما ذكرته؛ أننِي سأسوق سطراً واحداً قبل ذلك الموطن الذي يستشهدون به حتى يتحد سياق المبنَى، ويتضح لُبُّ المعنَى، قال السيد رشيد رضا مُحَذِّراً من موالد الأولياء والشيوخ: «كأن كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبيح المحظورات، وتُحِلُّ للناس التعاون على المنكرات، فالموالد أسواق الفسوق فيها خيام للعواهر، وخانات للخمور..[3] إلخ» ثُم حذر بعد كل هذا فِي مواطنَ قريبة من موالد ألئك الشيوخ بأفصح كلمة، وأصرح عبارة فلْيُرجَع إليه، وقد ينازع البعض فِي هذا فيقول: إن قصد الشيخ رضا هو المولد الشريف فيقول له قائل: هل السيد رشيد رضا يمكن أن يطلق على مولد المصطفى ﷺ مولد الشيخ !!

---

(1) انظر تفصيل ذلك فِي كتاب: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين القريزي (1/ 490) طبعة مصر.

(2) أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام (ص/ 60).

(3) تفسير المنار (2/ 66).

ومجمل القول وخلاصتُه، وبعد مراجعة عددٍ من النقول؛ لَم يظهر لِي كشف مضمون رسالة السيد رضا، وأرسلت رسائل علمية إلَى بعض أصدقائنا الباحثين بل وحتى إلَى بعض أساتذتنا، فلم أر من يُعيرنِي عليها جوابًا، وهناك من توقف وأشكل عليه موقفه فِي المولد، وهناك من زملائنا من عَدَّه من المنكرين رجمًا بالغيب، ولعل هذا الاضطراب ناتج عن عدم العثور على رسالة السيد رشيد رضا حول المولد؛ فاتجهَتِ الأنظار إلَى كتبه الأخرى للحسم فِي موقفه.

وسرعان ما ظهر لِي -بعد تصفح أجزاءٍ فِي تفسير شيخه محمد عبده- أن الإمام رشيد رضا نقل عن جمهور العلماء استحسانهم للمولد النبوي بألفاظ تُشعِر بمجموعها أنه يُجوِّزُه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد استحسن جماهير المسلمين الاحتفال بالمولد فِي مشارق الأرض ومغاربها، ويجتمعون لقراءة قصته فِي المساجد، ولكن أنكر هذا الاحتفال بعض العلماء..[1]» ولا شك أن هذا النص على وجازته نفيس جداً؛ فتمسك به، وعض عليه بالنواجد، لأنه لا يروج عند المنكرين، ويتغافل عنه المؤيدون.

ومضيت على هذا النحو المذكور بحثًا وتنقيبًا حتى جمعتنا الأقدار بِبَلَدِيِّنَا الفقيه المُحدِّث أبِي عبد الله محمد بن إبراهيم الساحلي[2] وهو فِي وقته إمام بمسجد دار

---

(1) تفسير المنار (20/ 23).

(2) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن الطاهر السَّمْلَالِي الساحلي العباسي، ولد سنة 1399هـ الموافق لـ: 1979م، قرأ القرآن على جده محمد بن الطاهر، ودرَس على والده بعض المتون العلمية فِي النحو، والبلاغة، والفقه، وغيرها.. واستفاد فوائدَ فِي الأدب وغيره من الشيخ الأديب سيدي المحفوظ بن أحمد البعقيلي، والعلامة الشيخ صالح بن عبد الله الإلغي، وروى عن جماعة غير هؤلاء، وكان أكثرُ اعتنائِه العلمي بالحديث رواية ودراية، وتواريخ الرجال وأخبارهم.

وصنف تصانيف منها: الخواتم فِي الجرح والتعديل، وكتاب الحِفْظ والحُفَّاظ، وكتاب النسيان، وشرح أرجوزتِه فِي فقه الفرائض، وشرْح لامية الأفعال لابن مالك، والمتدارك من أخبار الشيخ سيدي الحسن بن مبارك، والتعريف بمناهج التصنيف، وفِهْرِسْتُ مروياته، وتذكرتُه التِي يسميها المغاربة بالكناشة بلغت إلَى الآن أربعة أجزاء، ومجموعة أرَاجِيزِه العِلْمية زادت على إحدى عشرة أرجوزة، وإتحاف أفاضل الأتباع بتحرير دفتر السماع، وأشياء أُخَر، ومازال المترجَم إلَى وقته شَغُوفًا بالعلم، مُتفانيًا فِي تحصيل المعارف، بارك الله فِي عمره وأعماله.

النمس بأسيف المال بشيشاوة- وكان صديقي فِي الدراسة فِي أوائل التسعينات[1]- وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث حول المولد النبوي، حتى جَرَّنا الكلام إلَى المصنفات فيه، فذكرت له أننِي عددت فِي رسالتِي هذه ما يزيد على أربعين مُصنَّفًا لأشهر العلماء وفحول الفقهاء -سيأتِي ذكرهم قريبًا- واستشكلت له موقف السيد رشيد رضا، ثُم أخبرنِي أن أمير البيان شكيب أرسلان ذكر رسالة رشيد رضا تلك، وبَيَّن ما يفيد بأنه من المؤيدين فِي مقدمة كتاب له سمَّاه: "السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة".

هذا وبعد الإطلاع عليه وجدت الأمر كما قال، وذلك حين ذكر الأمير فِي مقدمة كتابه ذاك ما يزيد على عشرين كتابًا للسيد رشيد رضا -وإن ترك رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر من مقدار النصف من كتبه ومحقَّقَاته- لكن الذي يَهُمُّنِي هو قوله: «ومنها ذكرى المولد النبوي، وله مختصر- أي لذكرى المولد النبوي المذكورة- وكان هذا المختصر يُقْرَأ فِي حفلات الذكرى التِي يحضرها مَلِكُ مصر أو نائبه..[2]».

وبعد كل هذا تبين بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن رسالة السيد رشيد رضا حول المولد ليست كسائر الرسالات كمولد السخاوي، وابن كثير، وحسن المقصد للسيوطي، أو رسائل أخرى يستحسن فيها مؤلفوها المولد، ويستعرضون أقوال العلماء فِي استحسانه، ويصفون أشكال الخيرات التي تقع في لياليه؛ بل هي لون آخر من ألوان التآليف فِي المولد، تلكم هي التِي تُقرأ فِي المجالس الرسمية فِي ليلة مولده عليه السلام وتُعرف عادة عند الناس بقصة المولد، ويحفظها الكثيرون عن ظهر قلب، لأنها تُسرَد كل سنة في ذكرى مولده الشريف، وغالبًا ما تحوي خلاصة السيرة النبوية، والحث على الاحتفال بالمولد، والترغيب فيه من باب أولى، لذا فهذا

---

(1) وذلك عند والده شيخنا الفقيه الصالح سيدي إبراهيم بن محمد بن الطاهر بمدرسة تيغانمين بجماعة أربعاء الساحل إقليم تزنيت.

(2) السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة للأمير شكيب أرسلان (ص/ 13) نشر دار الفضيلة تعليق مدحت يوسف طبع د.ت.

اللون من الرسائل أقوى تأثيراً في نفوس الجماهير من الرسائل الأولى، وللآخرة عندهم خير من الأولى.

وقد جرت العادة فِي كل قطر من الأقطار الإسلامية أن يسردوا فِي هذه الذكرى الشريفة قصة المولد كرسالة البرزنجي الموسومة بـ: "عقد الجوهر فِي مولد النبي الأزهر" التِي يقول عنها العلوي المالكي فِي آخر رسالته حول الاحتفال بالذكرى الشريفة: «إنها من أشهر الموالد، وأكثرها انتشاراً فِي البلاد العربية والإسلامية شرقًا وغربًا، بل ويكاد يحفظها الكثير من العجم والعرب يقرؤونها فِي المناسبات الدينية..[1]».

وبالجملة فهذه الموالد تسمى فِي عرف الناس بـ: - قصة المولد- وغرضنا فِي كل هذا؛ أن نبين أن رسالة السيد رشيد رضا تدخل فِي هذا الباب، وتقرأ فِي مجالس المولد بمصر فِي عصر السيد رشيد رضا وبعده، ونحن وإن لَم نطلع على مضمونها إلا أن إدراجها فِي صف قصص الموالد يُغْنِي عن البيان، ويُعْفِينا من البحث، لأن شهادة شكيب أرسلان من جهة أخرى تتنزل منزلة العيان، وكما يقال: ليس بعد العيان بيان.

ولعلنا نلتمس العذر لسماحة الشيخ آل فوزان حين حشر السيد رشيد رضا فِي صف المنكرين؛ لأنه نظر إليه نظرة سلفية، سيما بعد أن اجتمعت له من الأسباب ما يجعله يجزم بأنه من المانعين، كتحقيقه لكتاب الفروع لابن مفلح، والاعتصام للشاطبِي، والهدية السنية، والتحفة الوهابية لابن سمحان، وغَـرَّتْه كذلك كثرة مراسلاته مع ملوك الحجاز -أسرة آل سعود آنذاك- وإرساله لهم رسائل علمية فِي قضايا السياسة، والدعوة، والإصلاح، وترجيحه فِي عدد من المواطن فِي تفسيره ما يخالف ما أجمع عليه السادة الأشاعرة، بل وبالغ حتى رد على أستاذه محمد عبده فِي بعض تأصيلاته العقدية، لما أَوَّلَ رحمةَ الله وغضبه على أصول أَبِي الحسن

---

(1) حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف (ص/ 92) وانظر: نهر الذهب فِي تاريخ حلب للغزي (1/ 210-211).

الأشعري، وقسَّم التوحيد فِي أواخر تفسيره إلَى توحيد الألوهية والربوبية[1] كما ذهب إلَى ذلك مجدد الديار الحجازية الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2] وهذا التحول الغريب فِي آخر حياته من الصوفِي المذهبِي الأشعري، إلَى السلفي الظاهري؛ ظنه صاحب المطوية تغييراً فِي موقفه فِي المولد، وليس الأمر كذلك.

وأزيد الأمر وضوحـًا -إن حصل شك فيما سبق- بأن السيد رشيد رضا سُئِل بعد تحوله المذكور عن حكم الاحتفال بالمولد، فلم يمنعه، ولكنه أقره واستحسنه ودافع عنه، ودَعَّم موقفه بآراء كبار أهل العلم، وحفَّاظ الحديث، كابن حجر والسخاوي وغيرهما، كما هو مُثْبَت فِي آخر الجزء الرابع من فتاواه[3] التِي جُمِعت بإشرافه فِي آخر حياته.

وتأمل مفهوم كلام الرجل جيداً لما قيد فتوى الحافظ ابن حجر فِي استحسان المولد بقوله: «إنما يصح قول الحافظ ابن حجر فِي كون حفلة المولد بدعه حسنة بشرط خلوها من المساوئ والمعاصي المعتادة فيها؛ إذا كان القائمون بها لا يعدونها من القرب الثابتة فِي الشرع، بحيث يكفر تاركها، أو يأثم، أو يعد مرتكبـًا للكراهة الشرعية..[4]».

وبهذا النقل عند الأمير شكيب أرسلان يكون الشيخ آل فوزان قد أخطأ قطعـًا مرة أخرى فِي عَدِّ رشيد رضا من المنكرين، لأن ملازمة أمير البيان للسيد رشيد رضا طيلة أربعة عقود -أو إخاء أربعين سنة بتعبيره- مُقَدَّم عند الترجيح والنزاع حتى على ما فِي المصنفات المطولات، فكيف بما فِي المطويات.

---

(1) تفسير المنار (12/ 164-165).

(2) ألف السيد حسن السقاف كتابـًا سماه التَّنْديد بمن عَدَّدَ التوحيد، اعترض على التقسيم المذكور، وكشف فيه عن استحداثه بعد القرون المفضلة بكثير، كما اعترض عليه كذلك، السيد محمد بن علوي المالكي فِي رسالة سماها: "هو الله" وهي مفيدة انظر منها (ص/ 82-93) نشر دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

(3) فتاوى السيد رشيد رضا (4/ 1243) وانظر (5/ 2112-2115) طبعة بيروت، بعناية صلاح الدين المنجد دون تاريخ.

(4) فتاوى السيد رشيد رضا (5/ 2112-2115).

وأعتذر للقارئ إن أسهبنا فِي إيضاح هذه المسألة، لذا أرجو أن لا يملّ من هذا التطويل، فقد قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كتابه المجموع: «ينبغي للناظر أن لا يسْأَمَ من طول بعض المسائل فإنها لا تطول إن شاء الله تعالَى إلا بفوائد، وتمهيد قواعد.. وبذلك تتضح المشكلات.. ويتدرب الناظر فيها بالسؤال والجواب، وينفتح ذهنه..[1]».

وبعد سرد كل هذه الرسائل والكتب التِي قال سماحة الشيخ آل فوزان إن أصحابها ألفوها فِي بدعية المولد؛ سَدَّ لائحة المنكرين برسالتَيْ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والعلامة عبد العزيز بن باز، والحقيقة إنما فتح اللائحة بِهما.

وهاتان الرسالتان اللتان ذكرهما كِلْتَاهُمَا مشهورتان فِي المغرب بِطَبَعَاتٍ مختلفة، بيد أن ما يحسن التنبيه إليه هنا؛ أن رئاسة البحوث العلمية والإفتاء فِي بداية العَقْد الثامن من القرن الماضي، جمعت قدر الإمكان رسائل المنكرين للمولد وطُبِعت[2] فِي جزءين ضخمين فِي نحو ألف صفحة، تحت عنوان: -**رسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي**- ولو عَدَّ آل فوزان رسائل هؤلاء السبعة المشارقة فِي لائحة المنكرين، لكان له فِي ذلك وجه صحيح؛ لكن أراد أن يُوَسِّع الغارة، ويُنَوِّع بأسماء علماء مغاربة، فتكلف فِي ذلك كثيراً حتى أدخل فيهم من ليس منهم فكانت الغرابة.

وقد حاول أشهر الشيوخ فِي هيئة كبار العلماء جمع رسائل المنكرين للمولد ما أمكن، ولَم يجدوا سوى جوابٍ للفاكهانِي المالكي، وزادوا له ست رسائل أخرى الثانية: -بعد جواب الفاكهانِي- فِي "إنكار الاحتفال بالمولد للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ" والثالثة: للعلامة الكبير الزاهد عبد العزيز بن باز سماها: "حكم الاحتفال بالمولد" والرابعة: للشيخ حمد التويجري سماها: "الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم فِي المولد النبوي" والخامسة: "الإنصاف فيما قيل فِي المولد من الغلو والإجحاف" للشيخ أبِي بكر الجزائري، والسادسة: للشيخ إسماعيل الأنصاري وهي أطولها، سماها: "القول الفصل فِي

---

(1) المجموع شرح المهذب للإمام النووي (1/ 148) نشر دار الفكر طبع دون تاريخ.

(2) سنة 1421هـ فِي الرياض.

حكم التوسل بخير الرسل" والسابعة: للشيخ محمد بن سعد بن شقير سماها: "الاحتفال بالمولد بين الإتباع والابتداع".

أقول: بعد استعراض هذه الرسائل السبع استرواحاً؛ لو نَظَّم المغرب، أو مصر، أو باكستان.. ندوة دولية كبيرة هم أيضاً حول جواز الاحتفال بالمولد الشريف، وحاولوا أن يسيروا على عكس المسلك المذكور –أعني: أن يجمعوا رسائل المؤيدين للمولد– لَطبعت رسائلهم وكتبهم طرا فِي مقدار أضعاف أضعاف "تاريخ الإسلام" للذهبِي، أو فِي حجم "تاريخ دمشق" الكبير لابن عساكر –أي: فِي أربعة وسبعين مجلداً[1]– أو تزيد، وستكون رسائل المشارقة السبع المذكورة عند المقارنة والموازنة معها؛ كفهارس لها، بل إن الدر المنظم للعلامة العزفِي وحده طبع فِي مجلدين، وأما بعضها؛ كجامع الآثار فِي مولد النبي المختار لابن ناصر الدمشقي؛ فقد طُبع فِي ثمان مجلدات كبيرة، فكيف إذا أضفنا إلَى ما ذُكِر مولد ابن دحية، وابن مرزوق، وموالد كبار حفاظ الإسلام كالعراقي، وابن كثير، والسخاوي والسيوطي وغيرهم من كبار العلماء المعتبرين، وأشهر الفقهاء المتأخرين، وكذا ثُلَّة من الفُضلاء المعاصرين.

وأعود لأقول: إذا قارنتَ بين مطوية الشيخ آل فوزان، ورسالة الشيخ ابن باز؛ تجد أن الأول نقل عن الثانِي، واعتمد عليه فِي أغلب الحجج، بل لا تكاد تجد فرقاً فِي العمق، اللهم إلا تزيين المطوية بعبارات إنشائية، والتجديد فِي الأسلوب على مقاصد نفس الأدلة تقريباً، الأمر الذي يجعلنا نقول: بأن هذه المطوية صُورة منتزعة من تلك الرسالة فِي النقل، وإن شئت قلتَ: نسخة مُعَدَّلَة طبق الأصل.

ولعل قصد صاحب المطوية من ذكر تلك الكتب والرسائل؛ ترويع القراء بتلك العناوين، وحَشْد جمع غفير من العلماء المعتبرين ما أمكن فِي لائحة المنكرين، وإن كانوا من المجيزين والمؤيدين !!

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر طبع فِي 74 مجلداً و 6 مجلدات للفهارس حققه الأستاذ عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولَى/ 1995.

ولو أردنا أن نعامل سماحته بنفس القصد ونَذْكُرَ من العلماء من ألَّف مصنفاتٍ مُستقِلة وكُتبـًا مفردة -لا كراسات ورسائل وأجوبة ومطويات فقط- فِي جواز الاحتفال بمولدهﷺ؛ لوجدناها أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تذكر، وحسبِي أن أشير إلَى بعض التصانيف الخاصة لكوكبة من أفاضل العلماء، وجمهرة من كبار الحفاظ، وطائفة من فُحُول الفقهاء، كالإمام ابن الجوزي الحنبلي الذي صنف مؤلَّفـًا حسنـًا سماه "مولد العروس"[1] وهو مطبوع أكثر من سبع مرات، وقد شرحه الإمام النووي وسماه: "فتح الصمد العالم على مولد أبِي القاسم"[2] والحافظ ابن كثير ألَّف رسالة صغيرة سماها: "المولد"، والعلامة ابن مرزوق الكبير، ألف مصنفـًا نفيسـًا جداً سماه: "جنى الجنتين فِي شرف الليلتين" وكذا شيخ القراء الإمام الحافظ ابن الجَزَرِي له مولد شريف سماه: "عَرف التعريف بالمولد الشريف".

وكذا الحافظ العراقي ألف كتابـًا شريفـًا سماه: "المورد الهني فِي المولد السَّنِي"[3] وكذا الحافظ ابن حجر العسقلانِي: له "مختصر فِي المولد النبوي"[4] وكذا تلميذه الحافظ السخاوي له جزء مفيد سماه: "الفخر العلوي فِي المولد النبوي"[5] والإمام السيوطي ألف رسالة جليلة سماها: "حسن المقصد فِي عمل المولد" وكذا ابن حجر الهيتمي مفتِي الشافعية فِي مكة، له مولد ثان غير الذي تقدم

---

(1) وقد أدرجه الإستانبولِي دون أدنَى خجل- فِي رسالته كتب ليست من الإسلام (ص/ 47-60) وصاحبه سابقـًا مشهور حسن فِي جامعه كتب حذر منها العلماء (2/ 303- 304) بل إن مشهور أنكر نسبته إليه، وربما لَم يقف على قول الحافظ السخاوي حين عدد كتب المولد قائلاً: «وأفرد مولده غير واحد، كأبِي القاسم السبتِي..ثم العراقي، وابن الجوزي..» الإعلان بالتوبيخ (ص/ 90) طبعة دار الجيل.

(2) ويسمى كذلك: " البلوغ الفوزي فِي بيان ألفاظ مولد ابن الجوزي" طبعة بولاق سنة/ 1292هـ.

(3) وقد حققه زميلنا الدكتور عميري وطبع بمصر، وهو: أستاذ التعليم العالِي بكلية الشريعة بتارودانت.

(4) ذكره له تلميذه السخاوي فِي الجواهر والدرر فِي ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (2/ 692) دار ابن حزم ط. الأولَى/ 1999.

(5) انظره -لَما ترجم لنفسه- فِي كتابه الضوء اللامع للسخاوي (8/ 18) نشر دار الجيل الطبعة الأولَى/ 1992.

ذِكره، وقد علق عليه البرهان الباجوري وسماه: "تحفة البشر على مولد ابن حجر" وكذا العلامة الـمُناوي له مؤلف مشهور بـ: "مولد المناوي" والشيخ مُلاًّ علي القارئ له كتاب سماه: "المولد الروي فِي المولد النبوي"، وكذا العلامة شهاب الدين الحلوانِي له كتاب ماتع سماه: "مواكب ربيع فِي مولد الشفيع" ووصفه الشريف الكتانِي بأنه:« أكبر موالد المتأخرين جِرماً، وأوسعها علماً، وأجودها بحثاً..[1]».

أما مُفْتِي الشافعية بالمدينة المنورة فِي وقته العلامة البَرْزَنْجِي؛ فله كتاب سماه: "عقد الجوهر فِي مولد النبي الأزهر" وشرحه العلامة أبو عبد الله المالكي المعروف بعليش وعنونه بـ: "القول المنجي على مولد البرزنجي"، وكذا الشيخ يوسف النبهانِي له مصنف سماه: "جواهر النظم البديع فِي مولد الشفيع" وكذا الشريف الميرغنِي -من أجلاء علماء الحرمين فِي وقته- له مصنف جليل ترجمه بـ: "الأسرار الربانية"، وكذا شيخ المالكية فِي عصره الأصولِي الكبير العلامة محمد الطاهر بن عاشور التونسي له رسالة اشتهرت بـ: "قصة المولد النبوي الشريف" وقام بتلخيصها نجله محمد الفاضل ابن عاشور.

بل هناك من العلماء من بلغ به حب الجناب النبوي وشِدة شَغَفِ الاحتفال بمولده؛ أن أَلَّف فيه ثلاثة موالد، كالحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، سمى الأول: "جامع الآثار فِي مولد النبي المختار" طُبع فِي ثمان مجلدات ضخمة، وهو أوسع ما أُلِّف فِي بابه على الإطلاق[2] وقد تقدم قريباً الكلام عليه[3] والثانِي: "اللفظ الرائق فِي مولد خير الخلائق"، والثالث: "مورد الصادي فِي مولد الهادي" وإلَى تآليف ابن ناصر يشير العلامة عبد القادر الدمشقي: «وصنف تصانيف كثيرة منها المولد النبوي

---

(1) التآليف المولدية للعلامة عبد الحي الكتانِي (ص/ 66).

(2) وصف الشيخ عبد الحي الكتانِي فِي التراتيب الإدارية كتاب الدر المنظم فِي المولد المعظم لأبِي العباس العزفِي بأنه: «أكبر مولد رآه..» (1/ 17) نشر المطبعة الجديدة فاس. قلت: وهذا محمول على ظاهر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلا فإن جامع الآثار لابن ناصر يكاد أن يتجاوز الدُّر بمقدار الربع، نعم قد يكون الدر المنظم ثانِي أكبر تصنيف فِي المولد.

(3) راجع (ص/ 166-170) من هذا البحث.

فِي مجلدات ثلاثة، ومنه المولد المختصر..[1]».

وكذا الشريف سيدي محمد بن جعفر الكتانِي له بالمولد النبوي شغف كبير، واهتمام بالغ منقطع النظير، حتى إنه ألف فيه مَوْلِدَيْن: سمى الأول: "إسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الأنبياء وسيد الخلائق"، والثانِي: "اليُمْنُ والإِسعاد فِي ولادة خير العباد" وكلاهما قصص المولد، وكتابه الأول: "إسعاف الراغب" يُقْرَأ فِي فاس حتى «حفظته الأجيال[2]» والثانِي: مشهور جداً فِي الشام، والحجاز يقرأ فيهما كذلك فِي ليالِي المولد، وحفظه عن ظهر قلب غير واحد.

وكذا العلامة محمد بن علوي المالكي الحسنِي ألف رسالتين الأولَى: "البيان والتعريف فِي ذكرى المولد النبوي الشريف" والثانية: "جواز الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف" وذكر فِي آخر هذه الرسالة أن له: «دراسة وافية عن المؤلفات فِي المولد نسأل الله تعالَى تمامها وظهورها..[3]» كما حقق كتاب المورد الروي فِي المولد النبوي للعلامة ملا علي القاري وطبع بمصر سنة 1400هـ.

وكذا رسالة حول المولد للحافظ ابن كثير التِي نظَمَها العلامة محمد بن سالِم بن حفيظ، وشرح ذلك النظم نفسه، وعَلَّق عليهما معـًا -النظم والشرح- العلامة محمد بن علوي المالكي، وطُبِع غير مرة، كما ألف كتابـًا مثيراً للجدل فِي بلده سماه: "الذخائر المحمدية" فضلاً عن تحقيقه مولد ابن الديبع فِي طبعتين: سمى الأول "مولد الحافظ ابن الديبع" والآخر: "مختصر فِي السيرة النبوية".

أما بعض من أفرد المولد بالتأليف من المغاربة -غير ما ذُكِر- فقد خصص لهم أستاذنا العلامة الدكتور محمد يسف فصلاً مستقلاً[4] فِي كتابه الماتع: "المصنفات

(1) الدارس فِي تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (1/ 32) تحقيق إبراهيم شمس الدين نشر دار الكتب العلمية ط/ 1990.

(2) انظر مقدمة السفر الصوفِي (ص/ 10) للدكتور أسامة بن محمد الناصر الكتانِي دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2005.

(3) جواز الاحتفال بذكرى المولد النبوي للعلامة محمد بن علوي المالكي (ص/ 95) دار الرشاد الحديثة ط. الأولَى/ 2009.

(4) المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومصنفوها (1/ 163- 183).

المغربية فِي السيرة النبوية ومُصَنِّفُوها" وذكر منهم: أبا زكرياء الطرطوشي فِي كتاب سماه: "المولد"، وابن الأقليشي الأندلسي فِي مصنف عنونه بـ: "الدر المنظم فِي مولد النبِي المعظم " والحافظ أبا الخطاب ابن دحية السبتِي له مولد سماه بـ: "التنوير فِي مولد البشير النذير" وأبا العباس السبتِي ألف مصنفًا حافلاً سمَّاه: "الدر المنظم فِي مولد النبِي المعظم" والحافظ ابن القطان الفاسي له عدد من الكتب فِي السيرة النبوية، والمديح النبوي كما تقدم.

ومما يَجدر التذكير به هنا؛ أن كتاب: "التنوير فِي مولد البشير النذير" لأَبِي الخطاب ابن دحية السبتِي ذكره الأستاذ الكبير محمد المنونِي على أنه مفقود، وأن مكانه على حد قوله: «لا يزال غير معرُوف[1]» فهو موجود بمكتبة مدرسة الأحمدية بمدينة حلب[2] على ما هو مُدَوَّن فِي فهارس هذه المكتبة تحت رقمين عام 293 وخاص 282.

هذا ويجب أن يُعلم أننِي وقفت على أضعاف أضعاف ما استطردته من كتب الموالد؛ لكنها تنصب على معجزات مولده، وهديه، وأسراره، وتفصيلاتٍ دقيقة عنه، دون أن يثير ألئك المصنفون لها ما إذا كان الاحتفال بليلة مولده عليه السلام بدعة حميدة وحسنة؛ أو ضالة ومنكرة، فعدلت عنها لأنها ليست على شرطي؟

أما جميع تلكم الكتب التِي تَقَدَّم استعراضها قريبًا؛ فأصحابها جميعًا يجوِّزون المولد ويستحسنونه، عدا اثنين من المغاربة ذكرهما أستاذنا وهما: الإمامان الطرطوشي، وابن الأقليشي، أو الاقليجي، لسبقهم عن استحداثه وتقدمهم، ولو تأخرا عنه؛ لجوَّزوه، ولاستحسنوه.

هذا إذن غيض من فيض وقل من كثر من الذين أفردوا التصنيف فِي المولد النبوي وجواز الاحتفال به، بيد أن قصدي فِي ذِكْرِها ليس بغرض الاستقراء والاستقصاء؛

---

(1) ورقات عن حضارة المرينيين للأستاذ محمد المنونِي (ص/ 518 هامش رقم- 4).

(2) نقلت هذا من مقال صديقنا الدكتور أنس وكاك أستاذ بكلية اللغة بمراكش، وعضو الرابطة المحمدية بشيشاوة، منشور بمجلة دار الحديث بعنوان : "قبس من التنوير فِي مولد السراج المنير" (ص/ 69- 106) العدد الرابع الصادر سنة/ 2008.

وإلا فإن هناك ما يربو على ثلاثمائة مصنف فِي المولد أو تزيد، كلها فِي استحسان الاحتفال به، وأن بعض الباحثين قد أفردوا بحوثاً مستقلة فِي عَدِّها[1] وجمعوا فهارس مليحة فِي تتبعها، وأشار إلَى نحو هذا الحافظ السخاوي فِي الإعلان بالتوبيخ بقوله: «وأفرد مولده غير واحد..[2]».

وذكر كذلك فِي آخر كتابه الذي ترجم فيه لشيخه الحافظ ابن حجر الموسوم بـ: "الجواهر والدرر" ما يفيد بأن: «المولد النبوي أفرده بالتأليف جماعة من المتأخرين[3]» ثُم عدَّدَ فِي كتابه الجواهر ذاك ثلاثة عشر مصنفاً فِي المولد، ذَكَرْتُ أسماء ثلاث تصانيف منهم فِي هذه العجالة، وعَدَلت عن غالبها مخافة الإطالة.

أما مُسنِد الدنيا الشيخ عبد الحي الكتانِي فلم يكن عجباً فحسب فِي معرفة الرجال والأسانيد؛ بل كان عجباً كذلك فِي استقراء كتب الموالد، وكان فِي أول أمره ينشرها -على شكل مقالات- فِي مجلة الزيتونة بتونس، مرتبة على حروف المعجم فِي غير عدد، ثُم جمعها فِي تصنيف مستقل سماه: "التآليف المولدية" حققه بعض المعاصرين[4] فبلغت بمجموعها ما يزيد على مائة وعشرين مولداً.

وبعد هذا بأعوام؛ جمع الدكتور حسين أحمد علي الدراويش[5] فهرسة نفيسة جداً لمخطوطات نادرة فِي المولد النبوي الشريف، وبَيَّن أماكن حفظها، ومواطن وُجودها، وأحسن صنعاً لما مَيَّز بين المطبوع منها والمفقود، وطال نفَسُه فِي فهرسته تلك؛ حتى عدَّ فيها مائتين واثنين وسبعين [272] عنوانَ كتابٍ، غالبها مؤلفات لأئمة أعلام.

---

(1) انظر المورد الهنِي فِي المولد السني للحافظ العراقِي (ص/ 68-89) مقدمة المحقق الدكتور عميري عمر نشر دار السلام الطبعة الأولَى/ 2010. فقد عد من كتب المولد 139 كتاب، ومن محاسن هذا العد أنه ذكر كثير من مصنفات المعاصرين المجيزين للمولد.

(2) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (ص/ 90) دار الجيل بيروت الطبعة الأولَى/ 1992.

(3) الجواهر والدرر فِي ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للحافظ شمس الدين السخاوي (3/ 1253).

(4) الأستاذ خالد محمد المختار السباعي قدم له محدث العصر سيدي عبد الله التليدي، والكتاب موسوم بـ: التآليف المولدية.

(5) المدرس بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة القدس، بالقدس الشريف.

وهكذا يتبين لكل منصف؛ أن فطاحل الفقهاء، ومشاهير كبار العلماء عبر التاريخ قد استحسنوا الاحتفال بذكرى المولد، وصنفوا فيه تصانيف رائقة، ولا تغتر أيها القارئ المنصف بمن أنكرها من المعاصرين المحدثين، فاقتد بوصية الزرنوجي عندما قال: «وإياك أن تشتغل بهذا الجدال الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنه يبعد عن الفقه، ويضيع العمر، ويورث الوحشة، والعداوة، وهو من أشراط الساعة، وارتفاع العلم، والفقه، كذا ورد في الحديث..[1]» فثبت بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن النزاع حول هذه الذكرى الشريفة ظهر بعد انقراض الأكابر، وغلبة القول والجدل على الفعل والعمل، ومن ثم اتَّسع بون الاختلاف فِي مشروعيتها فِي هذا العصر خاصة.

ولو تيسر لنا أن نَعُدَّ غير تلكم المصنفات التِي أُلِّفت على مدى تسعة قرون خلت، ثُم نشرع بعد ذلك فِي مقارنتها مع تلك الرسائل الثلاث الـمُبَدِّعة لذكرى المولد التِي مضى الكلام عنها -على فرض صحة نِسْبَةِ بعضها، وعلى تقدير أن للفاكهانِي كتاباً مستقلاً، ولرشيد رضا رسالة مستقلة- لاَسْتَحْيَى المرجِّحُ "ولَحَار أكثر من خداش"[2] أن يوازن بينها، فكيف بأن يُقْدِم عليها، فضلاً عن أن يُقَدِّمها عليها.

وإذا تبين للناظر من خلال ما سلف بطلانُ ما احتج به صاحب المطوية على بدعية المولد فلا يبقى منها إلا عددٌ من الحجج التِي استدل بها المجيزون حيث قام الشيخ صالِح بإيرادها، والاعتراض عليها، وَوَصفها بأنها: «شُبَه أوهى من بيت العنكبوت..» ثُم شرع فِي الرد عليها واحدة تلو أخرى.

بَيْد أن الـمُتأمل فِي ردوده على تلك الحجج؛ سيلاحظ أن مدار احتجاجاته -التِي ظنها فضيلته قوية- تدور على ثلاث شُبَه، وسَنُفَنِّدُها جميعاً إن شاء الله فِي مباحث قسم التأصيلات.



(1) تعليم المتعلم فِي طريق التعلم للزرنوجي (ص/ 126) تحقيق صلاح محمد الخيمي ونزيه حمدان دار ابن كثير الطبعة الثانية/ 1987.

(2) مثال عربِي يضرب به المثل فِي شدة الحَيْرة، كقولهم: فلان أحير من خداش، انظر رحلة العبدري (ص/ 126) بتحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية/ 1968.

المبحث الثالث: إثارة الخلافات الـمرجوحة حول مولده ﷺ:

لا يَحُلُّ اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول؛ إلا وتجد السواد الأعظم من الأمة الإسلامية يحتفلون بذكرى المولد النبوي الشريف فرحين مسرورين فِي شتى بقاع العالَم الإسلامي البالغ مساحته حسب بعض الخبراء الجغرافيين: «29.389.415. كيلومتراً مربعـاً، أي: ما يعادل مساحتَيْ كل من قارتَيْ أمريكا الشمالية، وأوربا مجتمعتين، موزعة على 54 دولة تقع 26 منها فِي القارة الإفريقية، و 26 منها فِي القارة الأسيوية، ودولتان فِي أروبا..[1]».

وقد ذكر العلامة مُلاَ علي القارئ عادات الناس فِي كيفيات الاحتفال بيوم مولدهﷺ فوصف احتفال أهل مصر، والشام، وكذا ملوك الأندلس، وبلاد الهند، وخصص ورقاتٍ لاحتفال الأعاجم، ثُم عرج على احتفال أهل مكة، وذكر عاداتهم وأعرافهم فِي ذلك، فضلاً عن أهل المدينة المنورة الذين يعملون طعاماً كثيراً فِي ليلة تلك الذكرى الشريفة[2].

وذكر كذلك ابن بطوطة بعض عادات أهل مكة فِي ترجمة قاضي مكة العالِم الصالح العابد نجم الدين الطبري لما قال عنه عاطفاً على جملة من محاسنه: «وهو فاضل كثير الصدقات، والمشاهدة للكعبة الشريفة، يطعم الطعام الكثير فِي المواسم المعظمة، وخصوصاً فِي مولد رسول الله ﷺ فإنه يُطعم فيه شرفاء مكة وكبراءَها، وفقراءها، وخدَّام الحرم الشريف، وجميع الـمُجَاورين..[3]».

غير أن أشمل وصفٍ لاحتفالات أهل مكة بيوم المولد؛ ما ذكره ابن حجر فِي مولده قائلاً: «ولأهل مكة فِي هذه الليلة شعار مشهود لا يوجد مثله فِي بلدة غيرها،

---

(1) الحرب الاثنوغرافية ضد العالَم الإسلامي (ص/ 5) للدكتور صبري فارس الـهيتي، طبعة منظمة المؤتمر الإسلامي الشعبِي ببغداد، وقد قام الدكتور صبري بذلك الإحصاء فِي أواسط القرن الماضي، وعد فيه ألبانيا والبوسنة، وهما كذلك حتى الآن والحمد لله.

(2) انظر المولد الروي فِي مولد النبي لملا علي القاري (ص/ 13-17) تحقيق مبروك إسماعيل، طبعة مكتبة القرآن/ نشر د.ت.

(3) رحلة ابن بطوطة (1/ 92).

بحيث إنهم يحتفلون به، ويَعَدُّونه من أعظم أعيادهم، ويلبسون فيه الغنى والفقير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والصغير والكبير.. أغلى ما يجدونه، ويخرجون بأولادهم إلَى المسجد الحرام، ثُم يخرجون عقب صلاة المغرب فِي جمع لا يُحصى كثرة من مشايخ الزوايا وتلامذتهم، ثُم رؤسائها وقضاتها، حتى نقل أن أمير مكة وسلطانها؛ يكون معهم فِي باب المسجد.. ثم يتوجهون فِي ضجة عظيمة من التهليل، والذكر، إلَى أن يدخلوا المولد الشريف..[1]».

وكانت هذه الاحتفالات تستهوي كثيراً من العلماء، والفقهاء، وينشطون للحضور فيها، لذا كانت عادة أغلبهم بعد القضاء من مناسك الحج لا يرجعون إلَى بلدانهم حتى يحضروا المولد مع أهل مكة ليشاركوهم فِي احتفالاتهم، وفِي هذا يقول الحافظ السخاوي فِي الضوء اللامع فِي ترجمة ابن أبِي السمعانِي مبيناً تأخره فِي مكة بعد انقضاء موسم الحج: «فاستمر بها إلَى ربيع الأول سنة [سبعين][2] فشهد المولد..[3]».

فِي هذه الأقطار الشاسعة من العالَم جميعِها -باستثناء بعضها لا تتجاوز نصف أصابع اليد الواحدة[4]- يحتفل المسلمون قاطبةً بهذه الذكرى فِي اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول، ويُظهرون فيها المسرات، ويَتفنَّنُون فِي الصدقات، ويزيدون فِي المبرات، ويُكثرون من الطاعات.. وبينما هم فِي غمرة تلك الاحتفالات؛ يُفاجَؤون ببعض الفئات، تسرد سَيْلاً من الخلافات، حول مولد خاتم الرسالات.

وكان قصدهم فِي الجملة تعكير أجواء تلك الأفراح، وتعطيل جملة من الأمداح، بِطَعْنِهِم فِي ذلك اليوم بأنه لَم يولد فيه النبِي ﷺ فاستعرضوا ضعيف الأقوال،

---

(1) إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم لابن حجر (ص/ 22-23).

(2) ويقصد سنة [870هـ] كما يتبين من عنوان الكتاب: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

(3) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (1/ 233) نشر دار الجيل الطبعة الأولَى/ 1992.

(4) بإزالة الكسر، والحر اللبيب كما يقال تكفيه الإشارة، وأعني الاحتفالات الرسمية بالمولد، أما احتفالات الخواص وبعض الطرق الصوفية فهي منتشرة وبحذر فِي تلك البلدان التِي تمنع الاحتفال بالمولد إلَى الآن، وقبل أيام أعلن عن تخصيص يوم المولد يوم عطلة رسمية بالسعودية.

وسقيم الآراء، فرجَّح بعضهم عمداً إطلاق مولده ﷺ فِي ربيع الأول من غير تعيين، لإثارة النزاع، وفتح الأبواب على مِصراعَيْهَا لِلْقِيل والْقَال، والبعض الآخر جمع بين الغَثِّ والسمين والصحيح والسقيم، فَغَدَا يتفنن فِي استعراض أقوال العلماء فِي مولده ﷺ ويسوِّد الصفحات من غير ترجيح، لتعميق الخلاف، وخلق البلبلة، والتشويش على العامة.

بل تجاوزوا فِي استعراض خلافاتهم تلك حد اليوم الثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي والثانِي عشر من ربيع الأول؛ إلَى قول بعضهم: وُلد فِي رجب، وقيل فِي رمضان، وقيل فِي عاشوراء[1] لتقوية آراء شاذة، وأقوال واهية لا تليق البتة بمقامه ﷺ.

وقد استهوت هذه الآراء المرجوحة بعض المعاصرين -وخاصة المخالِفين- فراحوا يسردونها كلما حل اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول، وكأنها من قبيل الأمداح، كقول صاحب كتاب الضياء اللامع من الخطب الجوامع: «إن بدعة عيد المولد التِي تقام فِي شهر ربيع الأول فِي الليلة الثانية عشرة؛ ليس لها أساس من التاريخ..»[2]!! بل التبس الأمر حتى على بعض المجوِّزين، كفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي[3] رغم ميله إلَى موقف الإمام الشاطبي فِي تقسيم البدع[4] حين جزم «أن تحديد اليوم الثانِي عشر باعتباره مولد النبِي ﷺ لا يقوم عليه دليل صحيح، وإن اشتهر بين المسلمين..[5]».

فالقرضاوي بهذا تَنَاقَض؛ لأنه اعتمد فِي تقسيمه للبدعة وتقعيده لها على أصول المانعين؛ لكن سرعان ما جَوَّزَ واستحسن فروعاً لا تدخل تحت الحصر من بينها

---

(1) انظر: الحكم الحق فِي الاحتفال بمولد سيد الخلق لعلي حسن الحلبي (ص/ 14).

(2) الضياء اللامع من خطب الجوامع لابن عثيمين (ص/ 45) نشر دار ابن الهيثم ط/ الأولَى/ 2005.

(3) انظر موقع: www. yanabeea.net/vb/

(4) السنة والبدعة للقرضاوي (ص/ 24) مكتبة وهبة الطبعة الثالثة/ 2003.

(5) فقه الصيام (ص/ 158) الطبعة الأولَى/ د.ت.

المولد قال بها المؤيدون، فكيف نُوَفِّق إذن بين إطلاق جوازه للاحتفال فِي التفريع الفقهي، وميْلِه إلَى نظرية الشاطبِي فِي تقسيم البدع[1] فِي التخريج الأصولِي؟

هذا مع العلم أن مُثِيرِي هذه الخلافات جميعـًا قد سُبقوا بإجماع أهل السير ممن يُعْتَد بآرائهم على اليوم الثانِي عشر كابن إسحاق[2] وابن سعد[3] وابن هشام[4] وأبِي نُعيم[5] والسُّهَيْلِي[6] وغيرهم.. وبإجماعهم ذاك جزم المحققون، واعتمد عليه الراسخون، واختاره أكثر أهل الحديث، فضلاً عن طائفة من السلف، وجمهرة من النَّقَلَة.

فهذا الحافظ ابن رجب الحنبلي يقول بعد استعراضه خمسة عشر قولاً فِي ولادتهﷺ «والمشهور الذي عليه الجمهور؛ أنه وُلِد يوم الاثنين ثانِي عشر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق وغيره[7]» لذا أخذ السواد الأعظم من المسلمين بهذا القول خَلَفـًا عن سلف، واتصل به إجماعهم جيلاً عن جِيل، فلا يبقى أي خلاف «يُعْتَد به بعد هذا..[8]» كما قال العلامة الإمام محمد زاهِد الكوثري.

والحق أن إثارتِي لهذه النقول الممزوجة ببعض الاعتراضات؛ ليس الغرض منها تفنيدها ولا دحْضَهَا، بقدر ما أقصد الوصول إلَى مُسَوِّغات فقهية، وتنظيرات تقعيدية تروم بَلْوَرَةَ تقريب حسم الخلاف وعدم توسيعه سعْيـًا لِلَمِّ الشَّعَث، وجمع الكلمة،

(1) وَصَف الحافظ عبد الله بن الصديق الغماري تقسيم الشاطبي للبدع بأنه شاذ، ينظر لِمزيد من الإيضاح رسالته الموسومة إتقان الصنعة فِي تحقيق معنَى البدعة (ص/ 16) نشر عالَم الكتب/ 2006.

(2) المبتدأ والمبعث والمغازي لابن إسحاق (ص/ 29) والمعروف بسيرة ابن إسحاق، تحقيق محمد حميد الله معهد الدراسات المغرب.

(3) الطبقات الكبرى (1/ 100-101) دار الكتب العلمية، د.ت.

(4) سيرة ابن هشام (1/ 171) تحقيق طه عبد الرءوف سعد ط. دار الجيل/ 1975.

(5) دلائل النبوة لأبِي نعيم (ص/ 90) نشر دار الكتب العلمية طبع د.ت.

(6) الروض الأنف (2/ 282) دار الكتب العلمية ط/ الأولَى بيروت.

(7) لطائف المعارف فيما لِمواسم العام من الوظائف لابن رجب (ص/ 95) دار الجيل طُ. د. تاريخ.

(8) مقالات الكوثري (ص/ 311) نشر دار السلام الطبعة الأولَى/ 1998.

وإزالة الفرقة، وإلا فإن ولادة النبي ﷺ فِي اليوم الثانِي عشر من ربيع الأول؛ قد ثبت الاتفاق عليه، وَوُجِد عليه إجماع عملي وسكوتي؛ قبل أن يُولَد المتخاصمون فيه بقرون عديدة.

وقد حكى القُضَاعِي فِي عيون المعارف، والحافظ ابن رجب فِي لطائف المعارف[1] والقاضي الحضرمي فِي سيرة النبِي المختار[2] إجماع أهل السير عليه، كما نقل الشيخ الطاهر بن عاشور[3] كذلك إجماع أهلِ السِّيَر المتأخرين على اليوم الثاني عشر[4].

وقد يُعَكِّر على هذا الإجماع؛ ترجيح بعض أساطين أهل السير لليوم التاسع كالحافظ ابن عبد البر فِي الاستيعاب، والحافظ أبِي الخطاب ابن دحية فِي التنوير فِي مولد السراج المنير، وهو قول مشهور يلي الثانِي عشر فِي القوة والذيوع[5]؛ لكن يُجَاب على هذا؛ بأن الأمة الإسلامية فِي مشارق الأرض ومغاربها؛ اعتادت أن تحتفل بمولده ﷺ فِي اليوم الثانِي عشر، ولا أعتقد بهذا فِي نظري المتواضع بعد تتبع الآثار وتصفح الأخبار؛ أنه يوجد إجماع عملي نشأ بعد القرون الثلاثة اجتمع عليه المسلمون فِي العالَم الاسلامي؛ كمثل اجتماعهم على الاحتفال بمولده ﷺ فِي

---

(1) لطائف المعارف فيما لِمواسم العام من الوظائف (ص/ 95).

(2) سيرة النبي المختار للقاضي الحضرمي (ص/ 50) اعتنى به نصوح عزقول نشر دار المنهاج الطبعة الثانية/ 2004.

(3) وهو جد ابن عاشور الأصولِي المعروف صاحب التحرير والتنوير، انظر ترجمته -أي الجد- فِي إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، لابن أبِي الضياف (ص/ 165) وما بعدها نشر الدار العربية للكتاب، تونس/ 1999 ، وكذلك عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالِم أديب (2/ 900) نشر دار الغرب الإسلامي/ 1996.

(4) شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح (ص/ 171) مطبعة فينزي تونس/ 2008، وهو بالمناسبة من أفضل شروح البردة كما فِي تعليقات حفيده عليه وخاصة فِي النكت اللغوية والفوائد البلاغية.

(5) هذا ما رجَّحَه الفلكي الكبير محمود باشا المصري فِي رسالته باللغة الفرنسية فِي تقويم العرب قبل الإسلام، وترجمها إِلَى العربية باسم: «نتائج الأفهام فِي تقويم العرب قبل الإسلام وفِي تحقيق مولد النبِيﷺ وعمره عليه الصلاة والسلام » طبعت بمصر سنة 1305هـ.

اليوم الثانِي عشر «وما رآه المسلمون حسناً؛ فهو عند الله حسن[1]».

قلت: وعلى هذا -أي اليوم الثانِي عشر- درج عُرْف المغاربة منذ غابر الأزمنة، ورجَّحَه كبار المؤقتين فِي كتبهم، وسار عليه الناظمون فِي أراجيزهم، أشهرهم صاحب: نظم المقنع سيدي امَحمد -فتحاً- بن سعيد المِرْغْتِي السوسي [ت1089هـ] حيث قال فِي نظمه "المُقنع" الذي علَّق على شرحه الصغير شيخنا الجليل المرحوم سيدي صالِح الإلغي[2]:

أفضل ما فِي العام مولد النبِي ❁ صلى عليه الله ليلة [يَبِ][3]

وقال الشيخ أبو محمد البطيوي المعروف: بأبِي مَقْرَع كذلك فِي أرجوزته:

مولد سيد الورى المفضل ❁ ليلة "يَبٍّ" من ربيع الأول

وقال أبو القاسم الدادسي فِي أرجوزته:

مَوْلِدُ سيد الوَرَى المزملِ ❁ ليلة يَبٍّ من ربيع الأول

ليلة الاثنين على المختار ❁ به جرى الْعَمَلُ فِي الأمصار[4]

ولَم يقف الأمر عند فقهاء المغاربة فِي بيان يوم مولده ﷺ فِي أراجيزهم وأنظامهم؛ بل اعتادوا كذلك استعراضه فِي شروحهم لقصيدتَيْ البردة والهمزية، مُرَجِّحين اليوم الثانِي عشر، وخصوصاً عند قول البوصيري فِي قصيدته الأولَى:

أبان مولده عن طيب عنصره ❁ يا طيبة مبتدئ منه ومختتم

---

(1) أثر موقوف على ابن مسعود رواه الإمام أحمد فِي مسنده.

(2) انظر ترجمته فِي المعسول (2/ 218-222) وأشتغل فِي جمع أخباره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(3) فالياء المثناة تحت، ترمز إلَى عشرة، والباء الموحدة إلَى اثنين من ربيع الأول، أي: الثانِي عشر منه بحساب الجُمَّل.

(4) انظر المُطْلِع على مسائل المقنع للمرغتِي وحاشية شيخنا سيدي صالِح الإلغي عليه المسماة: المقنع بتحقيق المطلع (ص/ 212) طبع بمكتبة النجاح البيضاء الطبعة الأولَى/ 1999.

وفِي الثانية عند قوله:

ليلـة المولـد الـذي كـان للدِّيـ ❁ ـن سـرورٌ بـيومه وازدهـاء

ومن طالع شروح الـهمزية لعدد من علماء المغرب؛ ستتضح لـه ترجيحاتهم لليوم الثانِي عشر فِي الموطن المذكور من أمثال العلامة أحمد بن عبد الوهاب الفاسي، والفقيهين مَحمد الحضيكي[1] السوسي صاحب الطبقات المشهورة، والعباسي صاحب الأجوبة المعروفة، والعلامة أحمد بنيس وغيرهم، فانضموا طُرّاً إلَى قول الجمهور، لذلك اعتبروا كل قول غيره قولاً مهجوراً.

وشرح قصيدة الهمزية غير المغاربة كالجوجري [ت 889هـ] وشهاب الدين السنباطي [ت990هـ] ومحمد الحموي وسماه:- أي الشرح – "نـهاية الأمنية فِي شرح الهمزية" والشيخ أحمد بن الأقطيع [1001هـ] ترجمه بـ: "النخبة السنية" والتمرتاشي، وابن حجر الهيتمي [974هـ] عنونه بـ: "الـمنح المكية فِي شرح الهمزية" وهو من أنفس ما كتبته الأقلام على الإطلاق فِي بابه، حتى إن بعض تلامذته يمدح شرح شيخه، مبيناً منزلته، لافتاً الانتباه إلَى مكانته؛ «قل أن ترى طالباً ليست عنده منه نسخة..[2]».

بيد أنه ليس من الحكمة أن يجتمع الناس على ذلك اليوم ويتفقون عليه –حتى أصبح عُرْفاً تَرَسَّخ منذ أزيد من عشرة قرون خلت بتأييد أهل الـحَلِّ والعَقْد- ثُم يخالَفُون بدعاوى شتى، فهذا الشيخ الشريف سيدي محمد بن جعفر الكتانِي الذي له ولع خاص بالمولد؛ يقول بعد استعراضه الخلاف فِي مولدهﷺ مرجِّحاً: «وقيل اليوم الثانِي عشر، وعليه العمل عند أهل مكة وغيرهم من الناس، ورجَّحه جماعة من

(1) شَرَح هَمْزية البوصيري وسماها: منهل الظمية فِي شرح الهمزية (ص/ 64) تقديم وتحقيق إبراهيم إد إبراهيم التامري، نشر مطبعة النجاح الدار البيضاء الطبعة الأولَى/ 2007.

(2) الـمنح المكية في شرح الهمزية لابن حجر (ص/ 21) حققه ثلاثة باحثين نشر دار المنهاج السعودية الطبعة الثانية/ 2005.

العلماء الأكياس..[1]».

وقد أفتَى غير واحد من علمائنا المالكية «بنقيض ما حُكِمَ فيه بخلاف ما جرى به العمل[2]» بل إن الشيخ أبا عبد الله المسناوي ذهب إلَى حد أنه «إذا جرى عمل الناس على شيء، وكان لهم مستند صحيح -ولو ضَعيفًا- فلا ينبغي أن يُشَوَّش عليهم بِذِكْرِ غيره، وإن كان مشهوراً..[3]» فكيف إذا حُكي فيه الإجماع، ومعلوم شرعًا أن: «الأمة لا تجتمع على ضلالة..[4]».

ومن طرائف ما وقع فِي أمثال هؤلاء الذين يروجون مثل هذه الخلافات؛ ما ذكره الحافظ ابن حجر فِي الإنباء فِي ترجمة زين الدين عبد الرحمن بن يوسف الكردي الدمشقي الشافعي، قال بعد أن بين قصوره فِي العلم: «ولا يسأل مع ذلك عن شيء إلا بادر بالجواب، وحفظ ترجيح كون المولد النبوي كان فِي رمضان لقول ابن إسحاق: إنه نبئ على رأس الأربعين، فخالف الجمهور فِي ترجيح ذلك، وله أشياء كثير من التنطعات، ولَم يزل بينه وبين الفقهاء منافرة، ويقال: إنه يرى يحل المتعة على طريقة ابن القيم وذويه؛ ومات مطعونـًا فِي شهر ربيع الآخر وهو فِي عشر السبعين..[5]».

ويظهر أن الملك المعظم كوكبوري مبتكر هذا الاحتفال لَـمَّا أراد أن يحتفل بالمولد لأَول مرة؛ اختلف كبار العلماء، والفقهاء فِي يوم الاحتفال، هذا وإن كنا نجهل فصول ذلكم الاختلاف، وتحرير محل النزاع فيه؛ لكن الظاهر أنهم اختلفوا

(1) اليُمْن والإسعاد بولادة خير العباد (ص/ 105) نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2005 ويتضمن ذلك المجموع- المطبوع باسم السفر الصوفِي- خمسة رسائل منها رسالتان فِي المولد، كلتاهما للشريف محمد بن جعفر الكتانِي.

(2) شرح الزقاقية لأَبِي حفص الفاسي (ص/ 144).

(3) تحفة الأكياس للعلامة المهدي الوزاني (2/ 288).

(4) جزء من حديث أخرجه الترمذي فِي كتاب الفتن باب ما جاء فِي لزوم الجماعة رقم الحديث [2167].

(5) إنباء الغمر بأبناء العمر (3/ 109) لابن حجر تحقيق د حسن حبشي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي مصر، الطبعة الأولَى/ 1969.

بين اليوم التاسع، والثانِي عشر، لأن الملك كما قال ابن خلِّكَان[1] يحتفل سنة فِي الليلة الثامنة، وفِي السنة الأخرى فِي اليوم الثانِي عشر، عملاً بالروايتين، وجمعًا بين القولين.

ولعل أحد هذين الـمُسوِّغين هو الذي جعل صفي الرحمن المباركفوري يرجِّحُ اليوم التاسع[2] فِي حين رجَّح معاصره العلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي اليوم الثانِي عشر[3] أما الأقوال الأخرى التِي يُرَوِّجُها البعض من قبيل: أن ميلاده ﵇ فِي شعبان، أو فِي رمضان، وهلم جرا فهي فِي نظري المتواضع؛ أشبه ما تكون بالخلاف غير المعتبر، منها إلَى سبق قلم.

ولئن كان هذا الخلاف آتيًا من اعتقاد البعض موافقة مولده ﵇ لبعض الأيام الشريفة كرمضان، ومحرم، ورجب.. تعظيمًا لولادته، وتشريفًا لها؛ فإن ابن حجر الهيتمي علل مناقضة ذلك بتعليل لطيف، فدونك لفظه: «ولَم يكن مولده فِي المحرم، ولا فِي رجب، ولا فِي رمضان.. لئلاَّ يتشرف بِالزمان؛ وإنما الزمان يتشرف به كالمكان..[4]».

وزاد ابن مرزوق لهذا المعنَى قوة على قوة، لما قال فِي معرض تفضيله الليلة المولدية على ليلة القدر أثناء بيانه للفرق الرابع عشر بينهما: «إن ليلة المولد أفضل، ويدل عليه أن تقول: زمن شرُف بولادته ﷺ وإضافته إليه، واختص بذلك، فليكن أفضل الأزمنة قياسًا على أفضلية البقعة التِي اختصت بمحمد ﷺ ولُحِد بين أطباقها على سائر الأمكنة، وقد فضلت إجماعًا، فليكن الزمن الذي اختص بولادته ﷺ أفضل الأزمنة بهذا الاعتبار..[5]».



(1) وفيات الأعيان وأَنْبَاءُ أَبْنَاءِ الزمان (1/ 436).

(2) الرحيق المختوم (ص/ 49) الطبعة التاسعة دار المعرفة/ 2008.

(3) فِقه السيرة النبوية (ص/ 44) الطبعة السادسة دار السلام/ 1999.

(4) المنح المكية فِي شرح الهمزية (ص/ 114-115) وكذا المورد الروي فِي مولد النبي (ص/ 53).

(5) المعيار (11/ 282).

المبحث الرابع: إفراد ذكرى المولد بالصيام بنية الـمخالفة لا بقصد العبادة:

مـن أسـاليب التشـويش الغريبـة التِـي ينتهجهـا المخـالفون تخصـيص ذلـك اليـوم بالصـيام مــخالفة لجمهـور المسـلمين، رغـم أنـه يـوم ابتهـاج وفـرح وسـرور، وكـان قصدهم فِي الجملة؛ لَفْتَ الناس إليهم، وخلقَ البلبلة فِي صفوفهم، ومن ثَم شق عصا الجماعة بعد اجتماعهم، وهم فِي غمرة الاحتفالات بالذكرى الشريفة لِمولد نبيهم.

صحيح أن صيام ذلك اليوم مشروع غير ممنوع لدلالة الأدلة على ذلك؛ فقد روى الإمام مسلم فِي صحيحه عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل النبي ﷺ عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه وُلِدت وفيه أنزل علي[1]» فإذا وافق مولده يوم الاثنين، وصام الإنسان ذلك اليوم بنية التقرب إلَى الله، وقصَد متابعة هديه ﷺ وكفَّ عن هتك الأَعْـرَاض، وعَـدَل عن الإِعراض؛ أجزأه ذلك إن شـاء الله، لدخول ذلك فِي الأيـام التطوعيـة التِـي رَغَّـب فيها الشارع.

والعجَبُ أن الدكتور يوسف القرضاوي عقد بابـاً فِي كتابـه: "فقـه الصيام" سـمَّاه: ***الصيام المبتدع فِي الديـن*** وأدرج فيه صيام يوم المولد النبوي رغم وجـود حـديث قتادة المروي فِي صحيح مسلم يحث على ذلك، وبالغ الـدكتور المـذكور فِي إنكـاره حتى قال: «وصيام مولـده لَـم يشـرعه لنـا، ولَـم يجـيء فِـي ذلـك حـديث صـحيح، ولا ضعيف، ولَم يقل به أحد من سلف الأمة، ولَم يفعله الرسول ﷺ[2]».

ولعل القرضاوي يقصد يوم مولده ﷺ إذا لَـم يوافق يوم الاثنين -وإن لَـم يظهر من كلامه- أما إذا لَم يقصد ذلك؛ فهو مـحجُوج بالأدلة، لأن مولـده عليه السلام إذا لـم يوافق يوم الاثنين؛ فلا يجوز صيامه، كسنة 1431هـ التي وافـق فيهـا في المغـرب يوم السبت، والسنة التي بعدها وافق فيها يوم الأربعاء، وسنة 1433هـ التي وافق فيها يوم السبت، وسنة 1439هـ التِي وافق فيها يوم الجمعة، فـلا يـدخل ذلـك في الأيام التطوعية العشرة التِي فصلتها نصوص السنة، وهـي: إفـراد يـوم الاثنين،

---

(1) أخرجه مسلم فِي كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر رقم الحديث [198].

(2) فقه الصيام (ص/ 157- 158).

والخميس، وأيام البيض، ويوم عرفة، وكذا صيام ذي الحجة، وشعبان، ومحرم، وخاصة عاشوراء وتاسوعاء منه، ولم أقف بعد هذا الاستقراء على ما يدل على صيام يوم المولد؛ إلا إذا صادف يوم الاثنين بشكل خاص، ولعله يقصد هذا تحسيناً لِلظَّن به.

لكن إفراد ذلك اليوم وحده فِي السَّنَة بالصيام -دون سائر الأيام الأخرى التطوعية- بقصد تبييت النية، وعقد العزم على العِنَاد، وإظهار التشنيع على المخالفين بغرض التشويش على المحتفلين، فمرتكب هذا أَفسد من حيث أراد أن يُصْلِح، ولا يبعد أن ينقلب ما سيحصل عليه من الأجر الكبير إلَى الشر المستطير، لأن مدار الأجر والثواب؛ يدور على حسن النية وسلامة القصد، أكثر من الفعل والعمل.

ألا ترى أن الصائم يبطُل صومه إذا نوى الإفطار وإن لَم يُفْطِر؟ فيُفسد عمله حينئذ بسوء نيته، كما يُقبل صيامه إن أكل ناسياً[1]- خلافاً لبعض المالكية- فيصح صومه لحسن نيته وإن أفطر، فتبين من هذا؛ أن مدار قَبول الأعمال مبني على صريح النيات السليمة، ومعانِي المقاصد الحسنة؛ لا على النيات السيئة وإن وافقت ظواهر الأدلة، وانطبقت مع عين السنة، وصدق ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: «وكَمْ مِنْ مُريدٍ للخير لَم يُدْرِكْه[2]».

ويجب أن يُعلم أن كثيراً من هؤلاء؛ قد فاتهم أن صيام يوم المولد وإن ورد فيه نص خاص؛ فإنه من نوادر الأحكام التِي علَّلَها الشارع بأكثر من علة، فبالإضافة إلَى مولده ﷺ فيه؛ سُئل كذلك عن سر الحرص على صيام يوم الاثنين مع يوم الخميس، فقال: «ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأُحِبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم..[3]» فنَبَّه النبِي ﷺ على علة أخرى؛ وهي عرض الأعمال، دع عنك نصوصاً أُخَر، تضافرت لتُبيِّن عدداً من أسرار ذلك اليوم أكثر، كالحديث الذي

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبِي (2/ 322) نشر دار الكتب الطبعة الأولَى/ 1945.
(2) أخرجه الدارمي (1/ 79) نشر دار الكتاب العربِي، د.ت.
(3) أخرجه أحمد فِي المسند (2/ 268) طبعة اليمنية مصر والترمذي تحت رقم [747].

رواه مسلم عن أبِي هريرة أن النبِي ﷺ قال: «تُفْتَح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا..[1]».

ومن جمع بين معانِي هذه الأحاديث، وتأمل فقهها، ونظر إلَى أسرارها؛ سيتبين له أن صيام يوم الاثنين فِي حديث أبِي قتادة السابق وسيلة، ورجاء قبول الأعمال وغفران الذنوب فِي الحديثين الثانِي والثالث غاية بتعليل النبِي ﷺ نفسه، فإذا تبين هذا؛ فلماذا يا تُرى نتمسك بالوسائل ونترك الغايات؟ ونَتَشَبَّث بالجزئيات ونهمل الكليات؟ ونقف على ظواهر الفروع، وندع مقاصد الأصول؟ ونحتج بالألفاظ والمبانِي فِي محل المقاصد والمعانِي؟

وهناك إشكال آخر يثيره كثير من المانعين وهو أنهم ينزلون الصيام المندوب فِي المولد منزلة الصيام الواجب مبالغة فِي التشنيع، للتضييق على المحتفلين، فتراهم يشددون النكير على المؤيدين، ويبالغون فِي الاعتراضات المبنية على أصول مرجوحة، فدونك رد بعض الشيوخ المشارقة على الشيخ محمد بن علوي المالكي فِي صيام يوم المولد مُحتجًّا عليه ومتسائلاً:

«هل يجوز لنا أن نقول: إن مشروعية صيام رمضان تعنِي مشروعية الصيام فِي الجملة، وأنه يجوز لنا أن نُحْدِث صيام شهر آخر غير رمضان على سبيل الوجوب؟ هل يجوز لنا أن نقول: إن مشروعية الحج فِي زمان مخصوص؛ تعنِي مشروعيته فِي الجملة، وأنه يجوز لنا أن نقول: بتوسعة وقت الحج طول العام كالعمرة تخفيفًا على الأمة وتوسعة عليها؟..[2]» فاختلطت على الشيخ كما هو ظاهر قواعد الوجوب وفرائض الأحكام وحرمة الزيادة عليها، وضوابط المندوبات، والمستحبات، والنوافل، وجواز التوسع فيها، فإذا تبين هذا؛ آن الأوان لِأُسائل الشيخ الجليل ابن منيع مرة أخرى؟ عملاً بقول المتنبِّي: وبضدها تتميز الأشياء.

---

(1) وروى نحوه الترمذي (ص/ 747) تحقيق عزت عبيد الدعاس طبعة دار الدعوة/ 1385.

(2) حوار مع المالكي فِي رد منكراته وضلالاته للشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع (ص/ 50).

ألا يجوز أن نصوم أياماً أخرى غير الواردة فِي السنة النبوية تقرباً إلَى الله؟ وما المانع مثلاً أن يصوم الإنسان عشرة أيام كل شهر، بدل ثلاثة أيام امتثالاً لعموم قوله تعالَى: ﴿وَافْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكيف يجاب وفق اعتراض الشيخ المذكور على من يصلي وراء صلاة الظهر، أو المغرب ثمان ركعات أو أكثر؟ مخالفاً لسنة الرواتب، والنوافل المعهودة فِي السنة النبوية؟ هل نتهمه أنه أحدث فِي الدين ما لَم يأذن به الله؟ أو خالف السنة النبوية؟ وبالمثال يتضح المقال كما يقال.

من هنا يتبين أن هناك فرقاً كبيراً بين مقاصد التفريع على أحكام الفرائض والواجبات، وبين التخريج على فضائل الأعمال ومحاسن الطاعات، كصيام يوم مولده عليه السلام والصدقات والنوافل جملة، حيث إن الأُولَى -أي الفرائض- تَحْرُم الزيادة عليها كالحدود، وعدد ركعات الصلوات الواجبة، ومناسك الحج، وأنَّ أي زيادة عليها؛ تعتبر استدراكاً على الشرع، وهو بدعة قبيحة، أما الفضائل والمستحبات؛ فالأصل فيها التوسعة، ولا ينكر على من زاد أو نقص منها شيئاً، ورَدُّ الشيخ ابن منيع على الشيخ العلوي آتٍ من النوع الأخير الذي يقبل الزيادة، فبطل بذلك احتجاجه بكل الأمثلة المذكورة.

وبهذا يتضح أن قصد المنكرين فِي اختصاص يوم المولد بالصيام وحده دون غيره؛ هو فِي الأصل منع الاحتفاء بالمولد، وتعطيل الاحتفال به، لا أنهم قصدوا المطالبة بصيامه كما هو ظاهر، ويستندون على حديث يتعللون به فِي ذلك، وخفي عليهم أن جمهور العلماء استحسنوا فتح باب النوافل فيه بالجملة، والاقبال على شتى صنوف الطاعات بالكلية، بل نصوا على كثير من الأعمال التِي يستحسن فعلها فِي ليلة المولد. جاء فِي أحد نوازل المعيار: «إلا أن المستعمل فِي هذه الليلة الصلاة على النبيِ ﷺ والقيام بإحياء سنته، ومعونة آله، ومساهمتهم وتعظيم حرمتهم، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وإغاثة الملهوف، وفك العانِي، ونصر المظلوم؛ هو أفضل مما سوى ذلك مما أحدث، إذ لا يخلو من مزاحم فِي النية، أو مفسد للعمل، أو دخول الشهوة، وطريق الحق معروف، ولا أفضل فِي هذه الليلة مما ذكرناه من أعمال

البر، والتكثير من الصلاة على النبِيﷺ ليحظى المستكثر منها ببعض ما ورد فِي فضلها..[(1)]».

وبهذا يُخْطِئُ من يظن أن الاحتفال بالمولد مخصوص بالصيام فقط دون غيره من الأعمال، وتغافل عن أصل مقصود المندوبات المطْلقة التِي يدخلُها الاجتهاد توسعة على الأمة ورِفْقاً بها، ألا ترى أن صيام ذلك اليوم غير واجب يصومه كما يفطر فيه من قدر عليه؟ فإن قيل: ولماذا شرعه الرسول ﷺ؟ قلنا لِيُنَبِّهَ أمته على بعض تلك القربات، ويُشعِرَهم بتعظيم يوم مولده ﵇ ويحثهم على الاجتهاد فيه بشتى وجوه الخيْر.

وبناء على ما سلف يتبين بطلان قول الشيخ الفاضل العلامة أبِي بكر الجزائري لما حصر الاحتفال فِي المولد بالصوم دون غيره، قاصراً الأعمال التطوعية فيه على الصيام وحده، فقال معللاً ذلك: «إذا كان المراد من إقامة المولد هو شكر الله تعالَى على نعمة ولادة الرسول ﷺ فيه؛ فإن المعقول والمنقول؛ يحتم أن يكون الشكر من نوع ما شكر الرسول ربه، وهو الصوم فلنصم كما صام..[(2)]».

قلت: نعم صام النبِيﷺ يوم الاثنين، وسأله قتادة عن السبب فأجابه: «فيه ولدت وفيه أنزل علي » لكن من حقنا أن نسائل الشيخ الجزائري: هل مناط العلة فِي الصيام هو يوم مولده؟ أو يوم الاثنين؟ أو يوم مولده وإن لَم يوافقه؟ أو لا بد أن يجتمعا معاً؟ وإذا لَم يجتمعا هل نصوم يوم مولده أو لا؟

الجواب: ثبت أن المصطفى ﷺ يداوم على صيام يوم الاثنين فِي كثير من الأحاديث والآثار، ولَم ينقل عنه، ولا الخلفاء الراشدون من بعده أنهم صاموا يوم مولده إذا لَم يوافق يوم الاثنين، سيما وأن يوم مولده قَلَّ أن يصادف يوم الاثنين، علماً بأن الغاية تبرر الوسيلة، ولا ضير إذا انتفت الغاية؛ أن تبطل الوسيلة.

---

(1) المعيار (11/ 280).

(2) الإنصاف فيما قيل فِي المولد من الغلو والإجحاف للشيخ أبِي بكر الجزائري، وهي الرسالة الخامسة فِي المجموع الموسوم برسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي (1/ 372).

وقد أعجبني الدكتور يوسف القرضاوي حين تنبه إِلَى أمثال هذا الخلط فِي التمييز بين الوسائل والغايات فِي السنة النبوية فقال: «ومن أسباب الخلط والزلل فِي فهم السنة؛ أن بعض الناس خلَطُوا بين المقاصد والأهداف الثابتة التِي تسعى السنة إِلَى تحقيقها.. فتراهم يُرَكِّزُون كل التركيز على هذه الوسائل كأنها مقصودة لذاتها، مع أن الذي يتعمق فِي فهم السنة وأسرارها؛ يتبين له أن المهم هو الهدف وهو الثابت والدائم، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة، أو العصر، أو العرف، أو غير ذلك من المؤثرات..»[1].

ويجب أن يُعلم أنه لا مانع شرعـًا من توسيع مناطات علل تلك الفضائل والقياس على مقاصد تلكم الأمارات كالصيام، والصدقات، بجامع تنوع الخيرات، وتكثير القربات.. وما يتنزل منزلتهما من الطاعات الحسنة بما ينسجم مع أغراض الأدلة الكلية وإن لَم تصرح بها النصوص الجزئية، ومن هذا الباب استحسن جمعٌ غفير من أفاضل العلماء وأكابرهم فِي شتى المذاهب الفقهية الاحتفال بذكرى المولد النبوي؛ كابن رجب من الحنابلة، والإمام أبِي شامة، والنووي، والعراقي، والحافظ ابن حجر، والسخاوي، والسيوطي، والقسطلانِي من الشافعية، وابن دحية، وابن القطان، والعزفِي، والرصاع، وابن عباد، والزرقانِي، وعِليش والعدوي.. من المالكية، وابن عابدين، ومحمد زاهد الكوثري، وبخيت المطيعي، وعبد الفتاح أبو غدة، والقرضاوي، والبوطي.. من الحنفية.

فهؤلاء بمنزلة قطرة من ساحل من الذين يُجَوِّزون الاحتفال بمولد الرسولﷺ والتعريف بسيرته، والتصدق على الفقراء، والإحسان إِلَى المساكين، وصلة الرحم، وإعانة المحتاجين، وترسيخ بعض العادات الحسنة.. وتبادل الزيارات العائلية، فضلاً عن قراءة الأمداح النبوية، وكل ما من شأنه أن يُقَوِّيَ أواصر علاقاتنا برسولنا الأمين، ويُوَحِّد رابطة المسلمين، ويرسخ أصول الدين، فهذا يدخل فِي تلك الأعمال التِي تُعرَض على الله سبحانه وتعالَى، خلافـًا لفضيلة الدكتور وهبة الزحيلي- ومع

---

(1) كيف نتعامل مع السنة النبوية للقرضاوي (ص/ 159) نشر دار الشروق الطبعة الخامسة/ 2008.

كونه من الـمُجَوِّزِين[1]- فإنه يرى: «أن ذلك لا يَصِل ثوابه..[2]» وربما فاتَهُ أن ذلك من الأمور التعبدية التِي يختص بها الله سبحانه وحده، وليس هنا موضع تفصيل ذلك.

وصفوة القول أن ذكرى المولد وسيلة جليلة لغاية مشروعة تتجدد كل سنة لتقوية تلك الأعمال النافعة بما يتوافق مع المقصد العام الذي شُرِعَ المولد من أجله، وليس فِي الشرع ما يمنع أن لا تُقبل تلك الأعمال؛ سيما إذا وافقت مختلف تلك الاحتفالات قواعده المعتبرة، وانطبقت مع أصوله المرعية.

ومن روائع النماذج التِي يستدل بها العلماء فِي هذا الباب «أن أبا لهب يُخَفَّفُ عنه عذاب النار فِي يوم الاثنين بإعتاقه ثُوَيْبَةَ سُرُوراً بميلاد النبِي ﷺ..[3]» وهكذا يتقرب الناس فِي سائر الأقطار بشتى القربات جمعًا بين النصوص الجزئية، ومقاصد الأدلة الكلية، ويعملون كما قال الحافظ السخاوي: «الولائم البديعة، والمطاعم المشتملة على الأمور البهية والبديعة، ويتصدقون فِي لياليه بأنواع الصدقات..[4]» بل بالغ أبو سعيد كُوكُبُوري في أنواع الإطعام والمأكولات فِي ليالِي المولد؛ حتى إن ابن كثير حكى عنه أنه: «كان يَمُدُّ للحاضرين بخمسة آلاف رأس مشوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى..[5]».

ومع شيوع الخيرات والنعم فِي سائر الأمصار، وعلى مختلف الاعصار؛ استحسن كبار الفقهاء العدول عن الصيام فِي ذلك اليوم، كما أفتَى بذلك أبو عبد الله بن عباد المالكي شارح الحِكَم، بل نقل عن جماعة من العلماء اختيارهم «الفطر فِي يوم المولد لأنه يوم سرور، والتوسيع على العيال بما أمكن من الميسور..[6]».

---

(1) البدع المنكرة (ص/ 51) نشر دار المكتبِي دمشق الطبعة الأولَى/ 2009.

(2) البدع المنكرة لوهبة الزحيلي (ص/ 49).

(3) البيان والتعريف فِي ذكرى المولد النبوي الشريف (ص/ 12) بتصرف يسير دار الرشاد الحديثة/ 2009 وهو حديث صحيح علقه البخاري فِي صحيحه، وقد سبق تخريجه.

(4) المولد الروي فِي مولد النبي لملا علي القاري (ص/ 12-13) تحقيق مبروك إسماعيل، ط. مكتبة القرآن،.د.ت.

(5) البداية والنهاية (13/ 137) بتصرف يسير، طبعة دار الفكر بيروت/ 1978.

(6) المعيار المعرب للونشريسي (11/ 279) ط. وزارة الأوقاف المغربية/ 1981.

وقد رجح العلامة امَحمد المرغيتي في شرحه الكبير على المقنع عند قوله:

وغالباً أغناهم خير وشر ❁ عن قولهم أخير منه وأشر

الفطرَ في يوم مولدهﷺ فقال: «وينبغي لكل مسلم أن يكثر فيه الفرح والسرور ما يليق بمنصبه موافقاً للسنة، ويفطر فيه، نص عليه غير واحد من المتأخرين..»[1].

قصة وقعت لابن عباد فِي صيام يوم المولد:

نقل الإمام الونشريسي عن ابن عباد فتوى يجيز فيها الاحتفال بذكرى المولد الشريف، وذكر فِي ثنايا هذه الفتوى الطويلة قصة رائعة وقعت لابن عباد مع الولِي الصالح الحاج ابن عاشر[2] وهذا نصها: «ذكر ابن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونفع به؛ أنه خرج فِي يوم ميلاده ﷺ إلَى خارج البلاد، فوجد الولِي الصالِح الحاج ابن عاشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع جماعة من أصحابه فاستدعوه لأكل الطعام قال: فاعتذرت بأنِّي صائم، فنظر إلَيَّ الشيخ نظرة مُنكرة وقال لِي: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور، فلا يستقيم فيه الصيام لأنه يوم عيد، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتأملت كلامه فوجدته حَقّاً، وكأنِّي كنت نائماً فأيقظنِي..[3]».

وصفوة القول؛ أن غير واحد من المتأخرين، وصف يوم مولد المصطفى ﷺ بأنه يوم عيد، يقول المؤرخ الأديب الحسن بن حبيب[4] المتوفَّى [**سنة 779هـ**]: «فما أكرم أيام مولده الشريف عند من عرف قدرها، وما أعظم بركتها عند من عرف سرها

---

(1) الممتع في شرح المقنع لأبي عبد الله المرغيتي (ص/ 12) طبعة قديمة نشرت دون تاريخ.

(2) كثيراً ما يقع الخلط بين ثلاثة أعلام أجلة، أولهم: الشيخ الحاج أحمد بن عاشر الأندلسي [ت764هـ] وهو المقصود هنا، وثانيهم العلامة عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري دفين فاس [ت1040هـ] صاحب الرجز المشهور: "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين". وثالثهم أحمد بنعاشر بن عبد الرحمان الحافِي والمتوفَّى بسلا سنة [1163هـ] وقد ألف هذا الأخير كتاباً فِي الأول: سماه تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر، وهو من منشورات الخزانة الصبحية بسلا طبع سنة/ 1988.

(3) المعيار المعرب (11/ 279).

(4) انظر ترجمته فِي أنباء الغمر لابن حجر (1/ 63) والوافِي بالوفيات للصفدي (12/ 195) وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (1/ 88) والمنهل الصافِي لابن تغري بردي (5/ 115).

ونشرها، وحقيق بيوم كان فيه وجود النبِي ﷺ أن يُتَّخَذَ عِيداً[1]» وقال الحافظ السخاوي: «فرحم الله امرءاً اتخذ ليالِي هذا الشهر المبارك -يريد ربيع الأول- وأيامه أعياداً؛ لتكون أشد علة على من فِي قلبه أدنَى مرض..[2]» كما عَبَّر أبو العباس القسطلانِي عن يوم مولده بما يشبه أن يكون نقلاً عن شيخه السخاوي بما نصه: «فرحم الله امرءاً اتخذ ليالِي شهر مولده المبارك أعياداً..[3]».

وقد غلط المولعون بالاعتراضات فظنوا أن المحتفلين يعتقدون أن يوم ميلاده عليه السلام هو يوم عيد، كما يعتقدون عيديْ الأضحى والفطر، فتكون بذلك الأعياد عندهم ثلاثة، وهو مخالف لما جاء فِي السنة النبوية.

إن اعتبار يوم ميلاده عليه السلام عيداً شرعيًا مثل عيديْ الأضحى، والفطر؛ لا يعتقده العوام، ولا الجهلاء، فضلاً عن الفقهاء والعلماء، نعم يطلقون عليه العيد ولا يقصدون به العيد الشرعي المعروف عند الإطلاق؛ وإنما جَرْيًا على عادة الناس فِي تعبيرهم عن الفرح، والسرور، والابتهاج.

وفِي مثل هذا قال الأديب ابن الدهان البغدادي لرجل عوفِي من مرضه:

نذر الناس يوم بُرْئِكَ صومًا ❁ غير أنِّي نذرتُ وحدِي فطراً

عالمًا أن يوم بُرئكَ عيدٌ ❁ لا أرى صومه ولو كان نذراً

وقد عبر كبار مشاهير العلماء بفرحهم وسرورهم بميلاده عليه السلام مُعتبرين إياه عيداً كما فعل الشيخ الطاهر بن عاشور فِي خطبة قصته للمولد، لما بين السبب الباعث على تأليفها قائلاً: «دعانِي إليها الائتساء بأفاضل الأمة الذين ألهمهم الله صرف الهمة إلَى العناية بتعظيم اليوم الذي يوافق من كل عام يوم ميلاد محمد رسوله عليه الصلاة والسلام، إذ كانوا قد عدوه عيداً، ورموا برشيق نبل عقولهم بذلك مرمى بعيداً،

---

(1) المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ للأديب المؤرخ الحسن بن عمر بن حبيب (ص/ 32) تحقيق مصطفى الذهبِي، طبعة دار الحديث القاهرة/ 1996.

(2) حسن المقصد فِي عمل المولد لجلال الدين السيوطي مقدمة المحقق (ص/ 16).

(3) المواهب اللدنية (1/ 148).

علمناه من قوله تعالَى: فِي التنويه بشهر رمضان ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1] فأي يوم أسعد من يوم أظهر الله فيه للعالَم مولوداً كان المنقذ من الضلالة أخرج به الناس من ظلمات الشرك، ومناقص الجهالة، وإذا كانت الأعياد الثابتة فِي الدين قد جاءت على مناسبة الفراغ من عبادات مشروعة؛ فذكرى الواسطة العظمى فِي تبليغ ذلك يحق أن تكون مشيدة مرفوعة..[2]».

وقد كان الناس فِي القرون الماضية يبالغون فِي الاحتفال بالمولد الشريف، ويعقدون النيات على إحيائه، بل ذُكر فِي بعض كتب التاريخ مدى شغف الناس به، والاستعداد له حتى قبل وصوله، وعن ذلك يقول عبد الرحمن الجبرتِي فِي عجائب الأخبار: «وفيه نودي بتزيين الأسواق من الغد تعظيماً ليوم المولد النبوي الشريف، فلما أصبح يوم الأربعاء؛ كررت المناداة، والأمر بالكنس والرش، فحصل الاعتناء، وبذل الناس جهدهم، وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير، والزردخان، والتفاصيل الهندية..[3]».

وكثيراً ما نصادف فِي أعراف الناس وعاداتهم؛ أنه متى رجع غائب، أو قَدِم مفقود إلَى بلده، ويلتقي مع أهله يفرحون به كثيراً ويقولون: هذا يوم عيد، أو إذا بُشِّر أحدهم بِخَبَر سارٍّ يقول: هذا يوم عيد، ونظائر هذا فِي كلام العرب وأشعارهم أكثر من أن يُحْصَى وأشهر من أن يُذْكَر، ولو صح أن المحتفلين يعتقدونه عيداً كما يَظُنُّ المنكرون؛ لاتَّخذوا إماماً يصلي بهم، ويخطب عليهم خطبة العيد صباح يوم مولده ﷺ فلما لَمْ يكن شيء من ذلك؛ عُلِمَ صحة تعليلنا، وسلامة قصدنا، وفساد اعتقاد إخواننا فينا.

---

(1) من الآية 184 من سورة البقرة.

(2) قصة المولد للشيخ الطاهر بن عاشور (ص/ 9) بتصرف يسير، نشر الدار التونسية للنشر، ومعها رسائل أخرى فِي السيرة النبوية للشيخ الطاهر بن عاشور.

(3) تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار (2/ 483) وانظر كذلك (3/ 122-484) نشر دار الجيل بيروت.

الفصل الثالث:

عرض أدلة وحجج المنكرين على بدعية المولد والرد عليها

المبحث الأول: تأصيل ذكرى المولد النبوي وتخريجها من أصول السنة النبوية

المبحث الثاني: تفريع مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي على قواعد الأعراف والعادات لا على أصول الديانات والاعتقادات

المبحث الثالث: دفع شبهة: أن المولد لَم يفعله النبِي ﷺ

المبحث الرابع: حمل المنكرين قوله ﷺ كل بدعة ضلالة على إطلاقه

الفصل الثالث: عرض أدلة وحجج المنكرين على بدعية المولد والرد عليها

يروم هذا الفصل بيان الحجج التِي تؤصل لاستحسان الاحتفال بالمولد الشريف، وتأصيله من السنة النبوية، واستخراج أصول جوازه من أحداث السيرة النبوية، وحوى كسابقَيْه أربعة مباحث، تَم فيها استعراض جميع الأدلة التِي يستدل بها المانعون، ويحتج بها المنكرون، للتعقيب عليها، وتوجيه ردودها.

المبحث الأول: تأصيل ذكرى المولد النبوي وتخريجها من أصول السنة النبوية:

إن المتتبع لمناهج كبار المقَعِّدِين بالبحث والاستقراء فِي تأصيل ما يحدث من قضايا ومستجدات ونوازل ومُحْدَثَات؛ يجدهم مُجمِعين -أو كادوا- على أن معرفة حكم ذلك يكون بالرجوع إِلَى قواعد الشرع العامة، ومقاصده الكلية، فيتم تنزيل تلكم القواعد على الجزئيات الخاصة، والحوادث غير المتناهية بحسب الأحكام التكليفية التِي عليها مدار الاستنباط الفقهي، لأن أحكام الشريعة منتهية، والحوادث والمستجدات لا تَتَنَاهى، فكيف إذن يكون الشيء الـمُتَناهِي تشريعاً لما لا يَتَنَاهى !! إذا لَم يُرْجَع إِلَى القواعد الكلية فِي التخريج، والمقاصد العامة فِي التفريع؟

ويعتبر قسم المباح ودائرة المندوب من أوسع تلك الأحكام التِي اندرج تحتها كثير من تلك النوازل والحوادث، ودخل فيها عدد كبير من البدع والمستجدات، ولكن لصعوبة تمييز حسْنِها من سيِّئِها؛ انتدب الفقهاء الراسخون، والعلماء الـمُقعِّدُون أنفسهم لذلك، فأصَّلُوا لِلْبِدع الحسنة واستخرجوا من قواعد الشرع ما يوافق جِنْسَهَا، وينسجم مع مقْصِدِها فأجازوها، كما تفطنوا فِي المقابل للبدع السيئة والمنكرة حين ظهر لهم أن الشرع يمنع نظائرها، ويُحَرِّم مَثِيلاَتِهَا فأنكروها، وعرضوا كل ذلك على قاعدة: "جلب المصالح، ودرء المفاسد".

ولما كانت ذكرى المولد النبوي الشريف تدخل فِي المباحات والمندوبات؛ تَكَلَّمَ عليها الفقهاء المحققون فاستحسنوا الاحتفال بها، عندما بان لهم أن تلك الذكرى توافق مقاصد السنة وأصولها، وتنسجم مع أغراضها، وتتلاءم مع قواعدها.

وسأذكر إن شاء الله تخريجات بعض ألئك العلماء الـمُقَعِّدِين والفقهاء المُؤَصِّلِين مشفوعة بالأدلة من السنة النبوية، لنرى مناهج تفريعاتهم وتقعيداتهم للحوادث، وطرق استخراجاتهم، وضوابط استحساناتهم لذكرى المولد النبوي من أصول السنة.

تخريج الحافظ شمس الدين ابن الجزري لذكرى المولد النبوي من السنة النبوية:

للحافظ شمس الدين ابن الْـجَزَرِي المتوفى سنة [833هـ] كتاب مُفْرَد فِي المولد سماه: "عَرف التعريف بالمولد الشريف" أكثر المتأخرون النقل عنه فِي تَصَانيفهم، وتواتر عنهم نقل تجويزه لذكرى المولد النبوي الشريف التِي خَرَّجَهَا على أصل ثابت فِي صحيح البخاري فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد رُؤِيَ أبو لهب بعد موته فِي النوم، فقيل له: ما حالك؟ فقال: فِي النار، إلا أنه يُخَفَّفُ عني كل إثنين[1] وأَمُصُّ[2] من بين أصبعَيَّ هاتين ماء بقدر هذا -وأشار برأس أصبعه- وإن ذلك بإعتاقي لِثُوَيْبة عندما بشرتنِي بولادة النبِي ﷺ وبإرضاعها له، فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جُوزِيَ فِي النار بفرحة ليلة مولد النبي ﷺ به؛ فما حال المسلم الموحد من أمة النبِي ﷺ يسرُّ بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته فِي محبته ﷺ؟ ولعمري إنما يكون جزاؤه من المولَى الكريم، أن يدخله بفضله جنات النعيم..[3]» انتهى تخريج الإمام ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِنَصِّه.

ومن روائع تأصيلات الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين الدمشقي للمولد النبوي؛ إنشاده أبياتًا لطيفة، جادت بها قريحته، استمدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خبر التخفيف عن أبِي لهب فِي صحيح البخاري فأنشد قائلاً، ومتسائلاً[4]:

إذا كان هذا كافراً جاء ذمه ❁ وتبت يداه فِي الجحيم مخلَّداً

(1) تقدم تخريجه قريبًا.

(2) علق شيخنا سيدي صالح الإلغي رحمه الله تعالَى على هذا فقال: يصح فيه الفتح والضم مع التضعيف.

(3) عرف التعريف بالمولد الشريف لابن الجزري (ص/ 32 -33) عناية محمد أبو الخير الملقي نشر دار الحديث الكتانية الطبعة الثانية/ 2011.

(4) البيان والتعريف فِي ذكرى المولد النبوي الشريف للعلامة محمد بن علوي الحسنِي المالكي (ص/ 13) دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

أتـى أنـه فِـي يـوم الاثنـين دائـمـًا ❁ يـخفف عنـه بالسـرور بأحمـدَا[1]

فما الظن بالعبد الذي طولَ عمْره ❁ بأحمـدا مسـرُوراً ومـات مُوحِّـداً

تـخريج الحافظ ابن حجر لذكرى المولد النبوي من السنة النبويـة:

سُئِلَ شيخ الإسلام الحافظ أبو الفضل ابن حجر عن عمل المولد فأجاب بجواب مطول هذا نصه: «أصل عمل المولد بدعة، لَم يُنْقَل عن أحد من السلف الصالـح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك؛ فقد اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرى فِي عملها المحاسن، وتجنب ضدها؛ كانت بدعة حسنة، وإلا فلا، وقد ظهر لِي تخريجها -يريد بدعة المولد- على أصل ثابت وهو ما ثبت فِي الصحيحين من أن النبيﷺ قَدِمَ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون، ونَجَّى موسى، فنحن نصومه شُكْراً لله تعالَى..

فيُسْتَفَاد منه فعل الشكر لله تعالَى على ما مَنَّ به فِي يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة، **<u>ويُعَادُ ذلك فِي نظير ذلك اليوم من كل سنة</u>**، والشكرُ لله تعالَى يحصل بأنواع العبادات: كالسجود، والصيام، والصدقة، والتلاوة، وأي نعمة -يضيف الحافظ- أعظم من النعمة بِبُرُوزِ هذا النبِي الذي هو نبِي الرحمة فِي ذلك اليوم؟ وعلى هذا فينبغي أن يُتَحَرَّى اليومُ بعينه حتى يُطَابِق قصة موسى عليه السلام فِي يوم عاشوراء، ومن لَم يلاحظ ذلك لا يبالِي بعمل المولد فِي أي يوم فِي الشهر، بل توسع قوم فنقلوه إلَى يوم من السَّنَة، وفيه ما فيه، فهذا ما يتعلق بأصل عمله.

وأما ما يُعْمَلُ فيه؛ فينبغي أن يُقْتَصَرَ فيه على ما يفهم الشكر لله تعالَى من نحو ما تقدم ذكره من التلاوة، والإطعام، والصدقة، وإنشاء شيء من المدائح النبوية، والزهدية المحركة للقلوب إلَى فعل الخير، والعمل للآخرة، وأما ما يَتْبع ذلك من السماع واللهو وغير ذلك؛ فينبغي أن يُقَال: ما كان من ذلك مباحـًا بحيث يقتضي

---

(1) يريد ابن ناصر الدين الدمشقي باسمه أحمد، النبيﷺ إشارة إلَى قوله تعالَى: ﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ عند الآية 6 من سورة الصف، وللإشارة فأسماء النبِي ﷺ كما قال السخاوي كثيرة، قيل بلغت ألفـًا، وجمع السيوطي رسالة فِي ذلك فأوصلها إلَى خمسمائة.

السرور بذلك اليوم؛ لا بأس بإلحاقه به، وما كان حراماً، أو مكروهاً فيمنع، وكذا ما كان خلاف الأولَى..[1]» انتهى كلام الحافظ بلفظه.

تخريج الحافظ جلال الدين السيوطي:

أما جلال الدين السيوطي؛ فبعد أن ذكر تخريج الحافظ ابن حجر قال: «وظهر لِي تخريجه على أصل آخر وهو: ما أخرجه البيهقي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبِي ﷺ: "عَقَّ عن نفسه بعد النبوة..[2]" مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقَّ عنه فِي سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحتمل ذلك على أن الذي فعله النبِي ﷺ إظهاراً لِلشُّكر على إيجاد الله تعالَى إياه رحمة للعالمين، وتشريفاً لأمته، كما كان يصلي على نفسه لذلك، فيستحب لنا أيضاً إظهار الشكر بمولده باجتماع الإخوان، وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات، وإظهار المسرات..[3]» انتهى تخريج السيوطي بحروفه.

تلكم إذن كانت بعض استخراجات الفقهاء لذكرى المولد النبوي من أصول السنة النبوية ومقاصدها، انتَخَبْتُهَا من استنباطاتٍ أُخرى، وتأصيلاتٍ شتى، وإلا فقد تَرَكت أكثر من ضِعف هذه التأويلات- مما وقفت عليه فِي هذه العجالة، وهذا أبين أن يطال فيه أكثر من هذا.

تخريج العلامة الطاهر ابن عاشور:

استنبط العلامة الطاهر بن عاشور من قوله تعالَى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[4] جواز الاحتفال بالمولد فقال: «فقد جعل الله للمواقيت المحدودة

---

(1) انظر الحاوي للفتاوى لجلال الدين السيوطي (ص/ 189) وكذا مولد الروي لملا علي القاري (ص/ 12) ورسالة البشرى بمولد خير الورى للأستاذ المختار بن أحمد فال الشنقيطي (ص/ 35 – 36) دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

(2) السنن الكبرى للبيهقي كتاب الضحايا باب "العقيقة سنة" رقم الحديث [19273] تحقيق محمد عبد القادر عطا نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة/ 2003.

(3) حُسن المقصد فِي عمل المولد للسيوطي (ص/ 65 – 66).

(4) سورة البقرة من الآية 184.

اعتباراً يشبه اعتبار الشيء الواحد المتجدد، وإنما هذا اعتبارٌ للتذكير بالأيام العظيمة المقدار كما قال تعالَى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[1] فخلع الله على المواقيت التِي قارنها شيء عظيم فِي الفضل؛ أنْ جعل لتلك المواقيت فضلاً مستمراً، تنويهاً بكونها تذكرة لأمر عظيم، ولعل هذا هو الذي جعل الله لأجله سنة الهدي فِي الحج، لأن فِي مثل ذلك الوقت؛ ابتلى الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، وأظهر عزم إبراهيم وطاعته ربه، ومنه أخذ العلماء تعظيم اليوم الموافق ليوم ولادة النبِيءﷺ ويجيء من هذا؛ إكرام ذرية رسول الله، وأبناء الصالحين، وتعظيم ولاة الأمور الشرعية القائمين مقام النبِيء ﷺ فِي أعمالهم من الأمراء، والقضاة، والأئمة..[2]».

وقد تنوعت تأصيلات العلماء لجواز المولد الشريف؛ فتجاوزت دلائل الأصلين؛ ليستدلوا بالإجماع السكوتِي فِي تجويز الاحتفال بمولده عليه السلام، ووجه الاستدلال به؛ تواتره بين السواد الأعظم من المسلمين، ودأبهم عليه لقرون عديدة، ولَم يُعرف من أساطين أهل العلم الذين يعتد بآرائهم، ويُعتمد على أقوالهم نكير له، ولا معترض عليه، على طول قرون متعددة، فكان إجماعهم ذاك؛ بمثابة الإجماع السكوتِي على مشروعيته.

تخريجي استحسان المولد من أصول السنة التقريرية:

مما لا ريب فيه أن سيرتهﷺ كانت -ولا تزال- تحمل فِي ثناياها عدداً من الأسرار الخفية، والإشارات العجيبة، والانطباقات الغريبة، ومن ذلك مولدهﷺ فِي مكة، ومدفنه فِي المدينة، لتنال البُقْعتان الكريمتان معاً شرف المولِد والمولُود بِما ينطبق مع المقصود، وصدق ابن حزم لما قال: ولو لَم يكن من معجزاته إلا سيرته لكفته.

ومن الإشارات الخاطفة التِي بانت لِي وأنا أتأمل أسرار يوم مولده ﷺ يوم هاجر المصطفى من مكة إلَى المدينة[3] وقَدِم إليها كما قال الإمام السهيلي: «يوم الاثنين

(1) سورة ابراهيم من الآية 6.
(2) التحرير والتنوير (2/ 172).
(3) انظر الروض الأنف للإمام السهيلي (2/ 330).

لاثنتَي عشرة من ربيع الأول..[1]» وكان الأنصار يومها كما قال ابن القيم: «يخرجون كل يوم إلَى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلَى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثانِي عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة؛ خرجوا على عادتهم..[2]» فرأى رجل من اليهود رسول الله وأصحابه.. ففرحوا بذلك فرحًا كثيراً.

ومن غرائب التاريخ وعجائبه وأسراره؛ أن وقع يوم الهجرة مُصادفًا لمولده ﷺ فِي يوم واحد، وشهر مُتَّحِد، فحصل من مجموع ذلك أن تلاقت عظمة أشرف الأزمان واتحدت مع بعضها، وهذا الاتفاق العجيب- يوم الاثنين، والثانِي عشر، وربيع الأول، ويوم مولده، ويوم الهجرة وبالتحديد وقت الوصول إلَى المدينة- لا يمكن أن تكون كل هذه المحاسن والأمارات من قبيل المصادفة، أو من غرائب الاتفاقات؛ وإنما هو من تدبير الحكيم العليم.

فيجب علينا أن نعظم الذكريات الإسلامية سيما يوم الثانِي عشر من ربيع الثانِي، وإدخال السرور فيه، وإظهار الفرح بسببه، لأن المقصود أصالة من ذلك اليوم؛ أن يكون منبع البِشر والسرور، وأصلاً للفرح والحبور، ولا حرج كما قال الحافظ ابن حجر: «**أن يُعَادَ ذلك فِي نظير ذلك اليوم من كل سنة..[3]**».

وهذا الانطباق العجيب المشفوع بالأفراح؛ اجتمع فيه ما تفرق فِي غيره من عظائم الأيام الخالدة، والمواسم المجيدة، التِي إن دلت على شيء جملة؛ فإنما تدل تفصيلاً على خفايا وأسرارٍ جليلة كشف الصحابة رضي الله عنهم بعض اللِّثَام عنها عندما قال البراء بن عازب فِي يوم الهجرة: «فما رأيت الناس فرحوا كفرحهم برسول الله ﷺ حتى رأيت النساء، والصبيان، والإماء يقلن: هذا رسول الله قد جاء..[4]».

---

(1) الروض الأنف (2/ 320).

(2) زاد المعاد فِي هدي خير العباد (3/ 52) بتحقيق شعيب الأرنؤوط نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة/ 2003.

(3) الحاوي للفتاوى لجلال الدين السيوطي (ص/ 189).

(4) زاد المعاد لابن القيم (3/ 54-55).

وهذه القرائن والإشارات احْتَفَّت جميعها لنستشف منها؛ استحباب إظهار الفرح فِي هذه المناسبات العظيمة، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم السباقين إِلَى التفطن لهذا السِّر حين تعددت ألوان ابتهاجاتهم، وتنوعت أحوال أفراحهم، واختلفت أشكال سرورهم.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت: لما قَدِمَ النبي ﷺ إِلَى المدينة جلس النساء، والصبيان، والولائد يقلن جهْراً[1] :

طلـــع البـــدر علـــينا ❁ مـــن ثنـــيَّات الـــوداع

وجـــب الشـــكر علينـــا ❁ مـــا دعـــا لِلَّـــه داع

أيهـــا المبعـــوث فـــينا ❁ جئـــت بـــالأمر المـــطاع

جئـــت شـــرَّفت المديـــنة ❁ مرحبـــًا يـــا خـــير داع

وتعددت صنوف احتفالاتهم فكل واحد منهم يحتفل بما بدا له، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضـًا؛ أن نساء بنِي النجار لما نزل النبي ﷺ فِي حيِّهِنَّ فرِحْن بجواره فأنشدن:

نحـن جَـوارٍ مـن بنِـي النـجَّار ❁ يـا حبَّـذَا محمـد مـن جـار

فلم ينهَهُن النبي ﷺ عن ذلك؛ بل قال لهن: أتحبينني، فقلن نعم؛ فقال: «الله أعلم أن قلبِي يحبكن[2]».

وقد أطنب أهل السِّير كثيراً فِي ذكر فرح أهل المدينة برسول الله ﷺ بل عقدوا لذلك أبوابـًا ومباحث فِي كتبهم، فهذا الإمام ابن القيم يصف أحوال تلكم الابتهاجات قائلاً: «فبادر الأنصار إِلَى السلاح لِيَتَلَقَّوْا رسول الله ﷺ وسمُعَتِ الرَّجَّةُ والتكبير فِي بنِي عمرو بن عوف، وكَبَّرَ المسلمون فرحـًا بقدومه، وخرجوا

---

(1) محمد رسول الله لمحمد رضا (ص/ 123) دار الفكر الطبعة الثانية/ 2007.

(2) مروج الذهب للمسعودي (2/ 279) طبعة بيروت دون تاريخ.

للقائه، فتلقَّوْهُ وَحَيَّوْهُ بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ[1]﴾..[2]».

وإذا كان أهل الحبشة يلعبون بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ وصعدت ذوات الخدور على الأسطح يُطْلِقْن هُتَافات سُروراً بقدومه كذلك؛ فإن أبا بكر الصديق له فرحٌ خاص لما قال له الرسول ﷺ: «إن الله قد أذن لِي بالخروج والهجرة، فقال له: الصحبة يا رسول الله، فقال له: الصحبة، فبكى سيدنا أبو بكر من شدة الفرح، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فو الله ما شعرت قط أن أحداً يبكي من الفرح؛ حتى رأيت أبا بكر يومئذ..[3]» وعلَّلَ السُّهَيْلِي شعورها ذلك بقوله: «ولعل ذلك لصغر سنها، وأنها لَم تكن علِمت بذلك قبل..[4]».

وقال بعضهم مُنْشِداً حالة أبِي بكر:

وَرَدَ الكتابُ من الحبيب بأنه ❁ سيزورنِي فاسْتَعْبَرَتْ أجفانِي

غلب السرور علَيَّ حتى إنه ❁ من فَرْطِ ما قد سَرَّنِي أبْكَانِي

يا عين صار الدمع عندك عادةً ❁ تبكين فِي فَرَحٍ وفِي أحْزَانِ[5]

تلكم إذن نبذة موجزة عن مظاهر الاحتفال والفرح بقدوم النبِي ﷺ وأشكال الابتهاج والسرور بمجيئه –وإن كانت مقاصد هذا الاحتفال ما زالت تنطوي على أكثر من مغزى– تَفَنَّنَ الصحابة والصحابيات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين فِي ظهورها أمام جَنَابِه الشريف، فلم يُنْكِر عليهم ذلك؛ بل شاركهم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شتى ألوان تلك الاحتفالات،

(1) من الآية 4 من سورة التحريم.

(2) زاد المعاد فِي هدي خير العباد لابن القيم (3/ 52).

(3) سيرة ابن هشام (2/ 313–314) تحقيق مجدي بن منصور بن سيد الشورى دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى، ط د.ت.

(4) الروض الأنف للإمام أبِي القاسم السهيلي (2/ 314) مطبوع بهامش سيرة ابن هشام.

(5) الروض الأنف للإمام أبِي القاسم السهيلي (2/ 314).

وعن أمثال هذه الأحداث يقول الإمام الباجي، مُعَدِّداً أقسام السنة عاطِفًا عليها: «وأما الإقرار فأن يُفْعَل بحضرته فعل ولا ينكره، فإن ذلك يدل على جوازه لأنه ﷺ لا يُقِرُّ على المنكر..[1]» **فتجري بذلك الأفراح التِي شارك فيها المصطفىﷺ مجرى السنة الفعلية، ويتنزَّل بعضها الآخر التِي شاهدها ولَم يمنعها- بل أيدها واستحسنها- منزلة السنة التقريرية.**

وليس ببعيد أن يحتفل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بيوم هجرته عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى المدينة أصالةً، وبيوم مولده تبعًا، وإن لَم يصرحوا بذلك ولا شعروا به، لانطباق يوم مولده مع هجرته فِي اليوم والشهر بجامع الفرح والسرور فِي كل منهما.

ومن هنا نستنبط أن أصول الشريعة لا ترى مانعًا فِي الاحتفال بالأيام التِي أعز الله بها الإسلام، وإظهار الفرح فيها، والشكر لله بسببها لما مَنَّ به علينا من نِعَمِهِ؛ فإذا وقعت تلكم الفنون من الابتهاجات بِحضرتهﷺ فِي يوم الهجرة وأَقَرَّهَا؛ فمن باب أولَى إقرارها فِي يوم مولدهﷺ الذي هو أعز وأفضل من يوم الهجرة بالإجماع[2] لأنه لو كان الاحتفال بالأيام العظيمة فِي الإسلام بدعة ضلالة فِي الأصل؛ لَبَادَرَ النبِيﷺ إلَى إنكاره على أهل المدينة لما استحدثوا الفرح فِي يوم هجرته؛ ولخالف اليهود لما صاموا عاشوراء، سيما وأنه فِي كِلاَ الموطنين فِي موقع التشريع، فكما هو معلوم: لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وقد يَظن بعض الفُطناء أننا أجرينا القياس، وشبَّهْنا يوم الخروج إلَى الهجرة بمولدهﷺ وأثبتنا حكم السنة التقريرية التِي هي بِمنزلة المنطوق به، فأجرينا عليها نفس العلة لإلحاقها بالمسكوت عنه فِي يوم المولد، لأنه أولَى منه بجامع الفرح فِي كل منهما؛ ولكن ذلك يصح عند التخريج؛ لولا أن النبي ﷺ لَم يفرح بمولده، ولَم يوجد فِي الشرع نص ولا قرينة يدلان على ذلك بالاستقراء، آنئذ يجوز إجراء هذا

---

(1) الإشارات فِي أصول الفقه المالكي (ص/ 74) بتحقيق نور الدين الخادمي نشر دار ابن حزم الطبعة الأولَى/ 2001.

(2) وقد عقد علماء تونس مجلسًا علميًا فِي القرن التاسع واختلفوا فيه هل ليلة المولد أفضل أم ليلة القدر؟ ذكر الونشريسي تفاصيله فِي المعيار (8/ 255). فبالأحرى يوم الهجرة فتأمل.

النوع من القياس- المعروف عند الأصوليين بقياس الأوْلَى- أما إذا وُجِدَت قرائن ربانية، وتأويلات شرعية، وأمارات خارقة للعادة تدل بمجموعها على وقوع الفرح فِي مولده؛ فيُمْتَنَعُ إذْ ذَاك إجراء القياس؛ لأن تلكم الأحوال تستقل بذاتها، وتنفرد تلكم الأمارات بِمجموعها، لتصبح مناط حكم الأصل هي بنفسها؛ بدل أن تكون علة الفرع لغيرها.

ونقصد بعلة الأصل هنا؛ ذلك الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن قتادةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سُئِلَ النبِيﷺ عن صيام يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل عليَّ [1]» فيكون هذا التعليل أصرح نص على الإطلاق فِي مشروعية الاحتفال بمولد المصطفىﷺ بل يُفْهَمُ منه أن النبي عليه الصلاة والسلام أول من احتفل بمولده تنبيهـاً لأُمته إِلَى التفنن فِي أنواع الخيرات، والتقرب فِي ذلك اليوم بشتى أنواع القربات، وليس الفرح محصوراً بالصيام فقط كما توهمه البعض.

فإن قيل: وما الدليل على إطلاق جريَان الطاعات الأخرى رغم أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ خص يوم مولده بالصيام فقط؟ قلنا: هذا يُعْلَمُ بالاستقراء لِمن تتبع مقاصد تصرفات النبيﷺ وتَأَمَّل مرامي أفعاله، وأغراض تقريراته؛ فسيحصل له من مجموع ذلك؛ أن هذا النوع من المندوبات والطاعات تأتِي أدلتها مفتوحة للأمة يجتهدون فيها بحسب طاقتهم، أما من رأى أن كل ما يتفرع عما ذُكر يجري مجرى البدع المنكرة فيُرد عليه بالقاعدة الأصولية: « مطلق الأمر لا يتناول الكراهة..[2]» فإذا كانت عمومات النصوص المذكورة قد أُطلقت فيها الأوامر فخَرجت منها أحكام الكراهة التِي هي من أقسام الجواز؛ وفقـًا لقواعد الاستنباط عند مالك والشافعي وأحمد -خلافـًا لأبِي حنيفة- فمن باب أولَى أن تُخرج فيها البدع الضالة فتأمل.

فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ كان الرسولﷺ يقرأ القرآن ويُقْرَأُ عليه، وتختلف أحواله فِي كل نوع، فإذا نظرنا إِلَى عصرنا هذا؛ نجد كل المقرئين يخالفون تلك

(1) أخرجه مسلم فِي كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر تحت رقم [198].
(2) البحر المحيط فِي أصول الفقه لبدر الدين الزركشي (3/ 301) نشر دار الكتبِي الطبعة الأولَى/ 1994.

الكيفيات التِي كان النبِيﷺ يقرأ بها، بدءاً من جمعه فِي مصحف واحد، وطباعته فِي أجود المطابع بأفخر الطبعات، ومروراً بإدخاله إلَى أنواع الأشرطة، وانتهاء بتخزينه بطرق تقنية عالية فِي مختلف الآلات الالكترونية.

وكلما تفَنَّنُوا فِي صنوف تلكم الاستِحْدَاثَات؛ إلا وتختلف طرائق قراءتهم له، بل زادوا على كل هذه البدع الحسنة تحفيظَه للناشئة فِي المدارس النظامية والمعاهد الشرعية، ويقيمون مسابقاتٍ بشأنه، فكل هذا لَم يوجد فِي عصر السلف، فهل يقال بعد كل هذا فِي تلك الكيفيات؛ إنها بدعة ضالة ومنكرة لمخالفتها لقراءة الرسولﷺ وطريقة تلاوته، وكيفيات تدبره؟ كلا وألف كلا !! ولو أمرنا رسول الله ﷺ بطريقة خاصة ومحددة؛ لما استطاع ملايين المسلمين -فِي ظل النشر الإلكترونِي، والثورة الرقمية الهائلة- قراءة القرآن وتحفيظه، ولذلك فتح الباب للأمة يجتهدون حسب وسائل حفظهم، وحدود مداركهم، وأحوال مجتمعاتهم.

وكذلك النوافل كان عليه السلام يصلي ركعتين فأكثر قبل وبعد كل الصلوات المفروضة، وربما تركها أحيانًا، فإذا صلى الإنسان مثلاً، وشرع فِي الأذكار، وترك النوافل، وداوم على ذلك حتى ألِفَهُ، أو اعتاد أن يتصدق على الفقراء، والمحتاجين، دُبُرَ بعض الصلوات؛ فهل يقال له: إن تلك القربات، والطاعات، والأذكار، غير مقبولة أو لا تصل، أو كونها بدعًا ضالة لمخالفتها لسنة النوافل التِي يختص بها ذاك الوقت؟ كلا وألْف كلا.

وهذا التأويل يؤيده حديث أبِي هريرة المتفق عليه أن النبيﷺ سأله أعرابِي فقال يا رسول الله: دُلَّنِي على عمل يُدخلُنِي الجنة قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتؤتِي الزكاة، وتصوم رمضان..[1]» فقال الأعرابِي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فصرَّح أمام المصطفى عليه الصلاة والسلام بِتَرْك النوافل جملة، ولَم ينهَه عن ذلك، ولو لَم يكن فِي ذلك توسعة ولا اجتهاد حسب قدرة الناس وطاقتهم لأنكر عليه، فلما وَلَّى قال النبِي ﷺ للصحابة الذين حوله: «من سَرَّهُ أن ينظر إلَى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلَى هذا الرجل».

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة رقم الحديث [1397].

فتبين مما سلف أن القربات المندوبة، والطاعات الحسنة، التِي فعلها النبيﷺ كتلاوة القرآن، وكثرة النوافل، ورعاية اليتامى، والتصدق على المساكين، وصيام التطوع، والفرح بمولده.. وما يجري مجراها، ثَبَتَتْ أصولها مجملة، وقواعدها عامة، تُرِكَت كيفياتها مطلقة، وتفصيلاتها غير مقيدة، وهيئاتها غير مُحَدَّدَة، ونصوصها للأمة مفتوحة، يجتهدون فِي تطبيقها حسب ما يُناسب حالهم، فهناك من يتصدق على مئات الفقراء فِي يوم مولده ﷺ ولا يصومه، وهناك من يختصه بصلة الأرحام، وخَتْنِ الصبيان تبركًا، وهناك من يجتمع على سيرته، ويتذاكر فِي معجزاته، وأحوال دعوته، وهناك قوم آخرون يسردون قصائد وأشعاراً فِي مدحه عليه الصلاة والسلام، وهناك من يجمع بين هذه الأمور كلها، وهناك من يتركها بالجملة، حتى إنك لترى الناس فِي يوم مولده عليه السلام يكاد يَصْدُق عليهم قوله تعالَى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

ولو كلَّفَنا رسول اللهﷺ إلَى طرائقَ خاصة، وأوصاف محدَّدة فِي مولده وغيره من فضائل الأعمال، وأفعال الترغيب جملة؛ لَسُدَّت بذلك أبوابٌ كثيرة من وجوه الخير؛ ولعجز الكثيرون عن فعلها، وتعذر عليهم الحصول على ثوابها، ولَجَرَتْ تلك القربات -بذلك التكليف- مَجرى أحكام الفرائض والواجبات؛ بدل المندوبات والمستحبات.

والجدير بالذكر أن كتاباً صدر حديثًا حول الحوادث سماه مؤلفه: "معيار البدعة على طريقة القواعد الفقهية" وَوُصف عند معجبيه بأنه من أنفس ما كتبته الأقلام فِي أصول البدع، وملأه صاحبه بما سماه قواعد جديدة أغلبها معارض لِما سقناه، كقوله: «البدعة الإضافية كالحقيقية، والابتداع مذموم على الإطلاق والعموم، والبدعة والاستحسان لا يجتمعان، وقاعدة لابد للمبتدع من بدعة ولا عكس، وقوله ما شرع من العبادات على وجه العموم لا يدل على مشروعيته على

---

(1) من الآية 32 من سورة فاطر.

وجه الخصوص..إلخ[1]».

وكل هذه القواعد وغيرها؛ تصلح أن يستدل ببعضها -لا كلها- المنكرون للتقسيم الخماسي للبدع، فكيف بغيرهم، وإنما استعرضتها لئلاَّ يغتر بالكتاب بعض طلاب العلم، **لأنا لو عمِلنا بقاعدة واحدة من تلك القواعد؛ لعطلنا عمومات النصوص عن العمل بمحاسن العبادات، ولَقَلَّت صنوف الطاعات، وضاقت أبواب القربات، وتعذر على أهل الصلاح والخير؛ الإقبال على فضائل الأعمال، ولاحتاج الراغب فِي الخير، والمتعاون فِي المعروف إلَى دليل مستقل لكل أفعاله طاعة كان أم قربة، وإلا سُمِّي مبتدِعـًا.**

وهذا الضيق والتشديد والتعسير كان إحدى أكبر المقاصد التي جاءت الشريعة لرفعها حين فتحت الأبواب على مصراعيْها لشتى فنون الطاعات، وصنوف المبرات، وأنواع الصدقات، وضروب الخيرات، عن طريق أدلة عامة، ونصوص مطلقة من مثل قوله تعالَى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وقوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4] وقوله عز وجل: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[5] وغيرها من المقاصد الكلية التِي لا حصر لكيفياتها، ولا حد لأوصافها.

بيد أنها جميعـًا تَنْصَبُّ فِي مقصد واحد وهو؛ تعزيز الدين، وتعظيم أيامه المجيدة، والحث على إظهار تلك الأفراح للعموم والخصوص، لتَتَرَسَّخ أمجاد الإسلام فِي عقول الناشئة بتوسيع أنواع الطاعات فيها بما يتَّفِق مع ما نشطت النفس له، واشتاقت إلَى فعله، كي يتمرن الناس على ذلك ويَأْلَفُوهُ وتَتَطَبَّع الأيام الخالدة والذكريات

(1) معيار البدعة على طريقة القواعد الفقهية لمحمد بن حسن الجيزاني (ص/ 306-321) دار ابن الجوزي السعودية/ 1431.

(2) من الآية 75 من سورة الحج.

(3) من الآية 50 من سورة المائدة.

(4) الآية 58 من سورة يونس.

(5) من الآية 7 من سورة إبراهيم.

العظيمة فِي نفوسهم حتى تكون كالغريزة لهم.

وأكثر من هذا أن أسرار الشريعة ومقاصدها؛ تقتضي -بالتتبع والاستقراء- أن جنس هذه العبادات الموسعة قَصَدَ الشارع فِي إطلاقها أصالة، وفِي وضعها تبعًا؛ التيسير على المكلفين، والرفق بهم بما يناسب حالهم، وتسهيل الامتثال عليهم بما يتوافق مع اجتهادهم، قصد الإكثار منها، والمداومة عليها.

ولَم تقف الاحتفالات وأنواع السرور فِي يوم مولده عند حد ما ذُكر فحسب؛ بل هناك إشارات أخرى، وأمارات شتى خارقة للعادة وقعت فيه، فبالإضافة إلَى التخفيف عن أبِي لهب كل يوم اثنين لإعتاقه ثُوَيْبَة سُروراً بولادتهﷺ[1] هناك علامات أخرى تواتر نقلها فِي مصنفات أهل السير؛ كارتجاس إيوان كسرى واضطرابه[2] وتحركه حتى انصدع وانشق من أعلاه، وسقطت منه أربع عشرة شُرْفة، وإخماد نار فارس التِي كانوا يعبدونها، ولَم تُخمد قبل ذلك بألفَيْ عام، وغاضت[3] بحيرة ساوة الكبيرة الموجودة بمملكة العراق التِي نصبوها للشرك والعداء[4] فأصبحت فِي ليلة مولده عليه السلام ناشفة يابسة كأن لَم يكن بها شيء من الماء.

كما وقع فِي تلك الليلة رمي الشياطين بالشهب الثواقب، وأضاء نور قوي فِي قصور الشام، وبُشِّر أهل الكتاب بتلك الليلة[5] لِهذا كان الفقهاء، والصالحون يتبركون بهذه الإشارات، وخاصة مكان مولدهﷺ فهذا محمد بن جبير يقول فِي رحلته لما وصل إلَى مكان ولادتهﷺ قرب مكة: «ومسحنا الخدود فِي ذلك الموضع المقدس الذي هو مسقط لأكرم مولود على الأرض، ومَمَسٌّ لأطهر سلالة وأشرفها، وانتفَعْنا ببركة مشاهدة مولده الكريم، وبإزائه محراب حفيل القرنصة،

---

(1) تقدم تخريجه قريبـًا.

(2) جزء من حديث أخرجه أبو نُعيم فِي دلائل النبوة تحت رقم [82] والبيهقي فِي الدلائل (1/ 126).

(3) غاض الماء قل ونضب، ومنه قوله تعالَى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ انظر مادة [غ/ ي/ ض] فِي مختار الصحاح للرازي (ص/ 255) تحقيق أحمد جاد نشر دار الغد الجديد، الطبعة الأولَى/ 2007.

(4) لِمزيد من الإيضاح حول هذه المسألة ينظر البداية والنهاية لابن كثير (2/ 268).

(5) ينظر حديث طويل أخرجه الحاكم فِي المستدرك (2/ 601 -602) وعلق عليه بقوله: صحيح الإسناد ولَم يخرِّجاه.

مرسومة طرته بالذهب..[1]».

أما فِي زماننا هذا فيتعذر مشاهدة ذلكم الموطن الشريف[2] لأنه حُوِّل إلَى خزانة عامة للكتب، والمخطوطات كأن لَم يَغْنَ بالأمْس، كأن ذلكم المكان المقدس؛ استُحْدِثَ فِي الأزمنة المتأخرة، لما كتبوا فِي أعلى تلك البناية -أي مكان ولادته ﷺ- مكتبة مكة المكرمة !!

وكل كتب الرحلات الحِجازية -على كثرتها- أجمع أصحابها على تقديس مكان ولادته والتبرك به، واعتقاد الانتفاع بزيارته، فدونك سرد للإمام امَحمد الحضيكي [ت1189هـ] في رحلته الحجازية سبعة عشر موطناً مقدساً بمكة، ثُم استدل -قبل عرضها- بفقه حديث نقله عن الإمام ابن عبد البر قائلاً: «وفِي هذا الحديث؛ دليل على التبرك بِمواضع الأنبياء، والصالحين ومقامهم، ومساكنهم، وآثارهم.. ومن ذلك أماكن بمكة، أولها: البيت الذي ولد فيه رسول اللّه ﷺ..[3]».

ومهما يكن؛ فإن عدداً من الإرهاصات وقعت للنبي ﷺ قبل وأثناء وبعد ولادته اعْتَنَى بجمعها عدد من أهل السير كأبِي نعيم فِي الدلائل، والسهيلي فِي الروض، والحاكم فِي الإكليل، وأبِي سعيد النيسابوري فِي شرف المصطفى، والبيهقي فِي الدلائل، والقاضي عياض فِي الشفا، وغيرهم ممن يطول ذكرهم، يُسْتَدل بمجموع تلك الأمارات على فرح العالَم بأكمله بالمولود الجديد حتى سُرَّ الكون والطبيعة به كما أراد مُدَبِّرُ الأكوان، فهل يُعقل بعد كل هذا أن يقال: لماذا يحصل عند المسلمين هذا السرور والابتهاج بميلاد المصطفى ﷺ !!

---

(1) رحلة ابن جبير (ص/ 129) تح: إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2002.

(2) تيسر لِي أن زرت ذلك المكان والحمد لله مرات بإذن خاص، لأن بعض أصحابنا السعوديين هناك يشرف على تلك الخزانة، وصورت فيه بعض المخطوطات النادرة فجزاه الله خيراً، لكني لَم أسأله عن مكان مولده هناك بالذات، ويؤرقنِي أن أجد أمام الباب عدد من المغاربة والأفغانيين والباكستانيين وغيرهم وهم فِي منتهى الشوق للدخول؛ لكنهم مُنعوا لأسباب معلومة ومعلولة.

(3) الرحلة الحجازية للفقيه محمد الحُضَيْكي (ص/ 137) تحقيق عبد العالِي لمدبر نشر الرابطة المحمدية للعلماء ط الأولَى/ 2011.

وقد يتعجب المرء كيف يسوغ للمنكرين بعد كل هذه التأصيلات الواضحات أن يجعلوا المولد النبوي بدعة ضالة، ويمنعوا الاحتفال به، وقد تضافرت الأدلة وتنوعت بما يُشْبِهُ أن يكون استقراءً على وقوع أنواع الفرح فِي مولده ﷺ ومنها قوله تعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[1] فالله أمرنا أن نفرح بالرحمة، والنبِي ﷺ أعظم رحمة امتن الله به علينا على الإطلاق، ويؤيد هذا تأويل ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه للآية المذكورة: بقوله: «فضل الله العِلْم، ورحمته محمد رسول الله ﷺ لقوله تعالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

غير أن الفرح وإن كان مطلوباً فِي كل وقت وآن؛ فإنه يتأكد أكثر فِي يوم مولده عليه الصلاة والسلام، لقوة المناسبة بين إطلاق الآية: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ وبين بشائر الفرح في يوم مولده، بجامع علة السرور والابتهاج بين عموم اللفظ وخصوص السبب، لذا فإن احتفاله ﷺ بالصيام والتخفيف عن أبِي لهب وغيرها من الأمارات التي مضى ذكرها حول مولده ﷺ؛ اندرجت كلها تحت عموم قوله تعالَى: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ وهو من تفسير القرآن بالسنة، أقوى درجات التأويل بعد تفسير القرآن بالقرآن.

وقد استنبط جمهور الفقهاءِ الراسخينَ من مجموع ما ذُكر؛ استحسان الاحتفال بالمولد النبوي فعقدوا مجالس وملتقيات تطبيقاً لعموم الآيات، أما المنكرون فنسائلهم هل هناك من مناسبة عندكم تجتمعون فيها وتُظهرون فرحكم بالنبِي ﷺ فيها؟ فإن قالوا: لا !! قلنا: هذا تعطيل لعمومات القرآن، ومخالفة لمقاصد نصوص السنة، وتأويلات السلف، وإهمال لِكَثيرٍ من القرائن القوية، والاشارات الربانية، والأمارات العجيبة، والأسرار الخفية، والمعجزات الظاهرة القاضية بإظهار الفرح فِي مولده؟ وإن قالوا: نعم تَلَوْنَا عليهم قوله تعالَى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ

(1) من الآية 58 من سورة يونس.
(2) الدر المنثور فِي التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي (3/ 308) طبعة الميمنية/ 1314.

صَـٰدِقِينَ﴾[1].

ورغم ثبوت هذه المعجزات الحسية والمعنوية فِي صحاح مصنفات أهل السير عامة، وكتب دلائل النبوة خاصة؛ إلا أن بعض تلامذة المحدث الكبير الشيخ الألبانِي؛ محمود مهدي الاستانبولِي أنكرها جميعًا، فقال فِي معرض رده على الإمام البوصيري فِي قصيدته البردة عند الكلام على معجزاته ﷺ: «وينبغي أن نعلم أنه لَم يوجد شيء من هذه الخوارق فِي يوم مولده؛ ما عدا قوله ﷺ: رَأَتْ أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام، وسنده صحيح كما قال محقق الجامع..[2]» وهو يريد بمحقق الجامع شيخه الألبانِي؛ لكن لكثرة خلافاتهما لا يذكره باسمه.

والغريب فِي الأمر أن إيوان كسرى ينكر المعارضون انصداعه وانشقاقه يوم مولده عليه السلام لما سقطت من أعلاه أربع عشرة شُرْفة؛ لكنا نرد عليهم بقول العلامة الملا علي القاري: «قال شيخ مشايخنا ابن الجزيري: وهذا الشق إلَى الآن باقٍ، أخبرنا بذلك جماعة ممن رآه بالمدائن..[3]».

وختامًا فإن ذكرى المولد وإن ظهر حكمها فِي هذه التأصيلات، وبان استخراجها من نصوص السنة النبوية؛ لكن البعض حاول من جهة أخرى أن يُفَرِّعَها على أصول غريبة، ويستخرجها من فُهُومَاتٍ عجيبة، فبالغوا فِي ذلك حتى وصفوها بالبدعة المنكرة والضالة، وغالَى الآخرون عندما عَدُّوهَا معصية، بل إن بعضهم أخرج المحتفلين والعياذ بالله من الملة !! فمن أين يا تُرَى تُفَرَّعُ عوائد الاحتفال بذكرى المولد النبوي؟



---

(1) من الآية 66 من سورة النمل.

(2) انظر رسالته كتب ليست من الإسلام (ص/ 20).

(3) انظر المورد الروي (ص/ 44).

المبحث الثاني: تفريع مظاهر المولد النبوي على قواعد الأعراف والعادات لا على أصول الديانات والاعتقادات:

لا جرم أن معرفة حكم المولد النبوي الشريف تتوقف أولاً على تحديد محل تخريجه، وتعيين مجال تفريعه، ومن ثَم الحكم له، أو عليه، بحسب ما تقتضيه أصول الشريعة ومقاصدها العامة فِي تحقيق ذلك المناط، ويتلاءم مع قواعدها وضوابطها الكلية فِي ذاك الباب.

وقد دأب جمهور الفقهاء والأصوليين أن يُرَاعُوا فِي تفريع الأقوال، وتأصيل الحوادث، واستنباط الأحكام، خصوصيات كل مجال على حِدة، فميزوا فِي القياس على علل الأحكام بين مجال العبادات والمعاملات، ومنعوا الاجتهاد فِي القطعيات، وأجازوه فِي الظنيات، وفرقوا بين المُخطِّئة والمصَوِّبة فِي أصول الدين، وأصول الفقه، وتساهلوا فيما أحدثه الناس وابتدعوه فِي التقاليد والعادات، فأَقَرُّوا منها ما كان موافقًا لأصول الشرع، ومنعوا ما كان مُخَالفًا لها، كما تشددوا فِي المقابل فِي الأحكام، والأموال، وأصول الديانات.

وقد أدى عدم التمييز بين هذه القواعد فِي تلك المجالات بشكل عام، والحدود الفاصلة بينها بشكل أعم؛ إلَى وقوع انفلات كبير فِي موازين الاجتهاد، مما أفضى إلَى اختلاف وجهات النظر، وتناقض الآراء، ومن ثَم فتح باب الفوضى فِي الأحكام، فأطلقوا عنان الاجتهاد فِي القطعيات، وتوقفوا فِي الظنيات، وبدَّعُوا كل مستجد فِي العادات، وضَلَّلُوا كل حادث فِي العبادات، وحكموا على فروعٍ فقهية بأصولٍ عقدية، فأساءوا تنزيل قواعد الأحكام على نقيض مقاصدها، وعلى خلاف ما شُرعت من أجلها، فاختلت بذلك ضوابط التقعيد، ومعايير الاستدلال، فترتب على هذا الخطأِ أن أحس الناس بالضيق والتشديد فِي محل السعة والتيسير، وكان السبب فِي كل هذا؛ أن خفيت على هؤلاء أصول وقواعد كل باب، وضوابط ومقاصد كل مجال.

ومن هذا المنطلق؛ حكم ألئك الذين عَدَلُوا عن تلكم الضوابط على ذكرى المولد بأصول الديانات والاعتقادات، بدل أحكام الأعراف والعادات، فبعضهم يعتبرها معصية وضلالة، وآخر بدعة قبيحة وسيئة، بل بالغ بعضهم فأوجب على المحتفلين

به التعجيل بالتوبة، وغالَى الآخرون حين حكموا على السواد الأعظم من الأمة الإسلامية لاحتفالهم بمولد نبيهم عليه الصلاة والسلام بالانحراف الجماعي والخروج عن الملة.

ومن أشنع ما وقفت عليه في هذا الباب؛ لما تعرض حامد الفقي للمحتفلين بالمولد النبوي، فقال: «وانحرف المسلمون عن الصراط المستقيم حتى كانوا مع المغضوب عليهم والضالين..»[1]!! ولا يسعنا بعد هذا إلا أن نتلو قوله تعالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2] نعوذ بالله من غضبه وحال أهل هذا العصر ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[3] ولكن بعض إخواننا هداهم الله، يبالغون فيصفون المسلمين بما وصف الله به الكافرين والمشركين.

ولعل مثل هذه المواقف الغريبة التِي عُرف بها الشيخ حامد الفقي هي السبب فِي إضرام نار العداوة بينه وبين كثير من العلماء فِي عصره، فقد كانت بينه وبين المحدث أحمد شاكر صداقة وود؛ ثُم ما لبثت أن انقلبت إلَى بغض وعداوة، حتى ألَّفَ الشيخ أحمد شاكر رسالة غمزه فيها سماها: "بينِي وبين الشيخ حامد" وذكره كذلك معاصره الحافظ أحمد بن الصديق الغماري -أعنِي الفقي- قائلاً فيه: «وترجمته عندنا طويلة جِدّاً جِدّاً.. وصدرت منه مقالات لو كانت مصر دار إسلام لَقُتِلَ دون استتابة..[4]».

وزاد الشيخ حامد الفقي على ما ذُكر أضعافًا مضاعفة لما قال مخاطبًا المؤيدين

---

(1) هذا الكلام للشيخ محمد حامد الفقي، محقق كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص/ 294 هامش- 1) نشر المكتب الثقافِي السعودي المغرب/ 1417.

(2) الآيتان 35 و 36 من سورة القلم.

(3) من الآية 5 من سورة الكهف.

(4) انظر كتاب الجواب المفيد للسائل المستفيد لحافظ العصر أحمد بن الصديق الغماري (ص/ 46) نشر دار الكتب العلمية جمع بدر العمرانِي، تحت إشراف الشيخ بوخبزة التطوانِي الطبعة الأولَى/ 2002.

ومحتجـاً علـيهم؛ بـأن عيـد المولـد الـذي يحتفلـون بـه: «مـا هـو إلا غلبـة الجاهليـة، وتحكم الأهـواء، حملت النـاس على الإعـراض عـن هـدي رسـول الله ﷺ إلَى ديـن اليهود، والنصارى، والوثنيين، فعليهم ما يستحقونه من لعنة الله وغضبه..[1]» فقـاس الشيخ الفقي الاحتفال بالمولـد بطقـوس أهـل الكتـاب رغـم وجـود الفـارق، ثُـم أنـزل اللعنة على السواد الأعظم من المسلمين؛ نسأل الله السلامة والصون.

ولئن كانـت معرفـة حُـكم الاحتفـال بالمولـد تتوقـف أولاً علـى معرفـة مجـال هـذا الاحتفال؛ فإنه بيقين ليس نوعـاً من العبادات التِي نتعبد بها، أو اعتقادات ندين الله بها، أو معاملات نَتَّبِع المصالح فيها، وإنما هو من أنواع العادات الحميدة والبدع الحسنة التِي يستحدثها الناس، ثُم يأتِي الشرع بإباحتها إذا لَم يكـن فيهـا مـا يخـالف الأصـول، وبمنعها إذا عارضت مقاصد النقول، وأنظار ذوي العقـول، والحكـم يـدور مـع العلـة تبعـاً لكل عادة وجوداً وعدمـاً، فاتضح لمـن حقـق المنـاط الخـاص أن ذكـرى المولـد بعد النظر والتأمل؛ ليست بدعـة ضـالة، لأنهـا غيـر داخلـة فِـي أحكـام العبـادات، لكـن المخالفين اختلطت لديهم الأمور، واختلت عندهم الموازين.. فكان ما كان.

وقد اشتبه كذلك أمر المولد على الفقيه تاج الـدين الفاكهـانِي المـالكي حين خُـيِّل إليـه -علـى جلالـة قـدره، ومنزلـة علمـه- أن المحتفلـين «يرونـه مـن العبـادات لا مـن الأمور المنكرات المحرمات..[2]» فكما خَطَّأَ من يتصـور المولد بأنه داخل فِي فروع العبادات فأصاب؛ اجتهد فِي عَدِّ الذكرى الشريفة مـن الأمـور المنكـرات المحرمـات فأخطأَ، ولا يبعد أن يكون هذا الالتباس فِي التفريع هو السبب الذي جعله حامل لواء المنكرين للمولد فِي عصره؟

إن المتأمـل فِـي صـورة المولـد التِـي أنكرهـا الفاكهـانِي يتضـح أن المحتفلـين لا يتصورون ألبتة أن المولد من العبادات، فضلاً عن اعتقادهم أنه من أصول الاعتقـادات، بدليل ما ذكره الفاكهانِي نفسه عن صورة المولد قائلاً: «أن يعمـل الرجـل مـن عـين مالـه

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ 294 هامش- 1).

(2) المورد فِي عمل المولد للتاج الفاكهانِي (ص/ 12) وانظر كذلك حسن المقصد فِي عمل المولد للسيوطي (ص/ 48).

لأهله وأصحابه وعياله لا يجاوزون فِي ذلك الاجتماع على أكل الطعام، ولا يقربون شيئًا من الآثام، وهذا الذي وصفناه بأنه بدعة مكروهة وشناعة..[1]» فلم يستفرغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجهد فِي تحقيق المناط الخاص، وتحديد محل تفريعه، وتعيين موطن تخريجه، وصدق الإمام الشاطبِي لما عرَّف تحقيق المناط قائلاً: «معناه؛ أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي، لكن يبقى النظر فِي تعيين محله..[2]».

ومن مظاهر هذا الاختلال أيضًا عند بعض المعاصرين؛ قول الشيخ عبد المحسن العبَّاد فِي معرض رده على الرفاعي فِي مسألة الاحتفال بالمولد: «وفِي القول بالاحتفال بمولد الرسول تقليدٌ للنصارى فِي احتفالهم بميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قال السخاوي فِي كتابه: "التبر المسبوك فِي ذيل السلوك": إذا كان أهل الصليب اتخذوا ليلة مولد نبيهم عيداً أكبر؛ فأهل الإسلام أولَى بالتكريم وأجدر، وتعقبه مُلا على القارئ فِي كتابه: المورد الروي فِي المولد النبِي بقوله: قلت مما يرد عليه أنا مأمُورُون بِمخالفة أهل الكتاب..[3]».

ولا شك أن السخاوي وملا علي القاري من كبار المؤيدين للمولد، وقد يُخيل لمن تأمل هذا المقطع الذي نقله عنهما الشيخ العباد؛ أنهما من المنكرين، والحال أن لكل منهما تأليفًا مستقلاً فِي المولد يستحسنانه فيه، ويدافعان عن مشروعيته، فثبت أن ما نقله عنهما؛ لَم يقصداه لمن تأمل مقاصد سياق تلك النقول.

ولا أعتقد أن الشيخ العباد تـخفى عليه تأصيلات أُلئك الجهابذة فِي الرِّوَايَة والدِّرَايَة التِي تقدمت قريبًا؛ لكن مسألة التفريع على أصول الاعتقاد؛ ظلت تتحكم فِي طبيعة تأصيل الاحتفال بالمولد عند المنكرين، وإلا فلماذا يا ترى لَم يَستدل بتخريجات أُلئك الحفَّاظ ويردها إلَى قواعد الـمُصَوِّبة والمخطئة، ويُفَنِّدْها على ضوابط أحكام الأعراف والعادات؛ لكن أبَى إلا أن يربط الاحتفال بفروع الاعتقاد لِيُهَوِّلَ على المردود ويُرَوِّعَه على أنه تقليدٌ للنصارى، ومن ثَم فإن الحكم يُقَاس عنده

(1) حسن المقصد فِي عمل المولد (ص/ 47).

(2) الموافقات (5/ 12).

(3) الرد على الرفاعي والبوطي (ص/ 83) نشر دار ابن الأثير الطبعة الأولى/ 2000.

بفروع العقيدة بدْءاً، ويُفَرَّعُ على أصول الدين انتهاء.

ومن الخطر بمكان؛ أن نُشَبِّه المحتفلين المسلمين باليهود والنصارى فِي احتفالاتهم، وأتعجب من هذا القياس ولا زلت، وكثيراً ما أقول مع نفسي: هل اليهود يسردون قصيدتَيْ البردة والهمزية والأمداح النبوية؟ وهل النصارى يقصدون تمجيد المصطفى ﷺ وتبجيله؟

وكأنهم ظنوا أن أهل الشرائع الأخرى عمومـًا يقرءون القرآن، ويستغفرون الله، ويصلون على النبي ﷺ؟ ثُم بعد ذلك قلدهم السواد الأعظم من المسلمين، فاحتفلوا بمولد النبِي ﷺ وهذا الإحساس الغريب الذي يختلج صدر كل من تأمل هذا القياس العجيب؛ سبق أن أحس به ابن عباد، لذا ردَّ على من قاس الاحتفال بالمولد على مواسم النصارى بقوله: «ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان؛ أمر مستثقل، تشمئز منه النفوس السليمة، وترده الآراء المستقيمة..[1]».

وما زال شيوخ المالكية يشددون النكير على كل من يقارن ميلاده عليه السلام مع ميلاد المسيح بجامع التعبد فِي كليهما، رغم وجود الفارق بينهما، وهو ما أشار إليه شيخ الجماعة فِي تونس أبو عبد الله بن عرفة فِي معرض نقل تلميذه البرزلِي ذلك عنه قائلاً: « قوله فِي الميلاد؛ يعنِي به ميلاد المسيح عيسى عليه السلام فهو المعظم عند النصارى؛ وأما ميلاد النبِي وأنه موسم يعتنَى به فِي الحواضر تعظيمـًا له ﷺ على حد لا يقع فيه الناس بالعبودية كما فعلته النصارى..[2]» فقارنَ بين الاحتفالين مبينـًا البون الشاسع بينهما.

بيد أن بعض النوازليين كأبِي عبد الله الحفار لَم يتفطن إلَى منبع تفريع المولد، حين ظن كالتاج الفاكهاني أن المحتفلين يعتقدون دخوله فِي العبادات، فقد سئل عن رجل حبس أصل توت على ليلة مولد سيدنا محمد ﷺ ثُم مات المحبس فأراد ولده أن

---

(1) المعيار (11/ 279).

(2) فتاوى البرزلِي (3/ 273-274) تحقيق محمد الحبيب الهيلة نشر دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى/ 2002.

يتملك أصل التوت المذكور فهل له ذلك أم لا؟ وغلط الحفار فِي الجواب لما بنَى أصل فتواه على الأصل المذكور، فمنعه بسبب ذلك، فقال معلّلاً جوابه: « فلو كانت تلك الليلة التِي ولد فِي صبيحتها تحدث فيها عبادة بولادة خير الخلقﷺ لكانت معلومة مشهورة لا يقع فيها اختلاف، ولكن لَم تشرع زيادة تعظيم..[1]».

ويظهر أن المنكرين يرون أن اقتباس عادة حميدة من الأديان الأخرى يخالف قواعد الشريعة بدعوى أننا مأمورون بمخالفة أهل الكتاب؟ والحال أنهم أخطئوا فِي ذلك قطعـًا، ألا ترى أن اليهود كانوا يصومون يومَيْ الخميس، والاثنين، اعتقاداً منهم بأنَّ موسى عليه السلام صعد جبل سيناء يوم الخميس، ونزل منه يوم الاثنين، فلماذا لَم يخالفهم النبِيﷺ فِي صيام اليومين المذكورين؟ لشناعة اعتقادهم؛ وفساد تعليلهم، بل رغب إلَى صيامهما، وأناط عللاً وحِكمـًا معينة لذلك، مخالفـًا بذلك مقاصد اليهود مع اتفاقهما فِي صوم نفس اليوم، وكأن وَجْهَ الاختلاف آتٍ فِي السبب والعلة، ووجه الاتفاق حصل فِي صوم اليومين ولا تناقض، ويضاف إلَى هذا كثير من الفروع الفقهية والعقدية المخرجة على أصل شرع من قبلنا.

ولو أنْصَفَ المخالفون ورجعوا إلَى أصول نشوء هذه الذكرى الشريفة؛ لوجدوا أن الملك السني المصلح أبا سعيد الكوكبري التركمانِي هو أول من احتفل **من أهل السنة** بذكرى المولد النبوي الشريف فِي تاريخ الإسلام كما قال ابن ناصر الدمشقي[2] والسيوطي[3] وشهاب الدين الحلوانِي[4] فيجرونها بذلك على أصول الأعراف والعادات التِي استحدثها خيار سلاطين المسلمين؛ بدل التكلف وإلصاقها بقواعد الديانات، وقياسها على أصول الاعتقادات.

وعن المَلِك المذكور يقول الحافظ الذهبِي فِي السير: «وأما احتفاله بالمولد

(1) المعيار (7/ 100).

(2) جامع الآثار (1/ 63).

(3) حسن المقصد فِي عمل المولد (ص/ 24).

(4) مواكب ربيع فِي مولد الشفيع لشهاب الدين الحلوانِي (ص/ 305) تحقيق أحمد فريد المزيدي دار الكتب العلمية/ 2007.

فيقصر التعبير عنه؛ كان الخلق يقصدونه من العراق، والجزيرة، وتنصب قباب خشب له ولأمرائه وتزين، وفيها جوق المغانِي واللعب، وينزل كل يوم العصر، فيقف على كل قبة ويتفرج، ويعمل ذلك أياماً، ويخرج من البقر، والإبل، والغنم شيئاً كثيراً، فتنحر، وتطبخ الألوان، ويعمل عدة خلع للصوفية، ويتكلم الوعاظ فِي الميدان، فينفق أموالاً جزيلة، وقد جمع له ابن دحية "كتاب المولد" فأعطاه ألف دينار، وكان متواضعاً، خيراً، سُنِّيّاً، يُحِب الفقهاء، والمحدثين..[(1)]».

وقد لُوحِظ فِي رُدُود المانعين للمولد، وتأصيلهم لنكرانه؛ أنهم يبالغون فِي ارتباطه بأصول الاعتقاد ولو كان التأويل بعيداً، والتأصيل مرجُوحاً، كما وقع لأحد تلامذة الشيخ الألبانِي؛ الفاضل علي بن حسن الحلبِي، لما رَدَّ على بعض حجج المؤيدين للمولد، بأن الاحتفال فيه تعظيمٌ لمكانة النبِي ﷺ ومحبة له، واستدل بتفسير قوله تعالَى: نقلاً عن ابن كثير:

﴿وَقَالَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[(2)] أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن؛ لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً، وعماراً، وصُهيباً، وخباباً، وأشباههم من المستضعفين، والعبيد، والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة، ولهم به عناية، وقد غلطوا فِي ذلك غلطاً فاحشاً.. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: كل فعل وقول لَم يثبت عن الصحابة هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لَم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها..[(3)]».

ومن تأمل هذا الإقحام العقدي لِدَفْعِ هذه الحجة؛ سيرى مدى الخلط الواقع لهؤلاء فِي التفريع، ولو ألزمنا الحلبِي ببيانَ المقيس، والمقيس عليه، والعلة الجامعة

---

(1) سير أعلام النبلاء(22/ 336).

(2) من الآية 10 من سورة الأحقاف.

(3) الحكم الحق فِي الاحتفال بمولد سيد الخلق (ص/ 18 هامش- 3) لعلي حسن الحلبِي، نشر دار الصواب للكُتَّاب عمان الأردن الطبعة الأولَى/ 2007 وهو فِي الأصل تحقيق جواب الفاكهانِي فِي المولد.

بينهما؛ لوجدناه قاس الله على الرسول، والقرآن على عمل المولد، وكفار المشركين على المؤمنين والمسلمين، فهذا قياس غريب وتأويل معيب، لا نشك فِي فساده لفقدانه جميع الشروط السبعة التِي يشترطها الأصوليون فِي حكم الأصل؛ فكيف بالقيود الأخرى، فضلاً عن مخالفته بداءةً لِلْقاعدة المعروفة؛ لا قياس مع فارق.

وابن كثير كما هو معلوم؛ إنما ساق هذا التأويل مساق الكلام على أصول الديانات، وأجرى ذلك الحكم مجرى قواعد أحكام الاعتقاد، وشتانَ بين التأصيل لأصول الديانات ونتائج أحكامها؛ وبين التخريج على قواعد الأعراف والعادات ومقاصد فروعها، **لأن مباحث العقيدة لا يكون المصيب فيها إلا واحداً، بخلاف أبواب المعاملات وأحكام الفروع والعوائد عامة المصيب فيها مُتَعَدِّد، فإذا أُقحِمَت هذه الذكرى الشريفة تحت أبواب العقيدة يُخَيَّلُ إليهم أنهم المصِيبون وغيرهم مُخْطِئُون، وهي تصورات مجانبة للصواب لو كانوا يعلمون.**

ومما يؤكد بطلان استشهاد الحلبِي بنقل ابن كثير المذكور -وإن كان لا يحتاج إلَى تأكيد- أن الحافظ ابن كثير يُجَوِّزُ المولد ويستحسنه فِي العديد من تآليفه، قال فِي ترجمة الملك المظفر أبِي سعيد الكوكبري: «أحد الأجواد، والسادات الكبراء، والملوك الأمجاد، له آثار حسنة، وكان يعمل المولد الشريف فِي ربيع الأول، ويحتفل به احتفالاً هائلاً.. إلَى أن قال: وكان يصرف فِي المولد ثلاثمائة ألف دينار..[1]».

وأعلى من هذا كله؛ أن ابن كثير أفرد رسالة مستقلة جوَّز فيها الاحتفال بالمولد واستحسنه وهي مطبوعة متداولة، فكيف يستقيم بعد هذا؛ استحسان ابن كثير للمولد تصريحًا، ومع استشهاد الحلبِي بمفهوم كلامه لإبطال المولد تأويلاً !! ولو صح قياس الحلبِي واستقام تأويلُه؛ لَلَزِم منه إنكار ابن كثير للمولد، ومن هنا يتبين أن تنزيلَ كلامِه تنزيلٌ فِي غير محله، واستشهادٌ فِي غير موطنه، وتخريجٌ على غير أصله،

(1) البداية والنهاية (13/ 136).

وإقحام فِي غير موضعه، وكما لا يخفى على من له أدنَى إلمام بقواعد أصول الفقه؛ أن الـمعنَى المستنبط من النص إذا عاد عليه بالبطلان؛ فهو مردود.

وقبل أن أطوي الكلام مع الفاضل الحلبِي أشير إلَى أنه استدل بعدد من علماء المالكية قال إنهم أنكروا الاحتفال بالمولد، وانتقى من كتبهم ألفاظاً وردت فِي سياقات خاصة تظهر وكأنهم يبدعون المولد، مثله فِي ذلك كمثل الشيخ آل فوزان الذي عدّ الإمام ابن كثير وابن الحاج، ورشيد رضا من المنكرين للمولد.

إنه شيخ السادة المالكية فِي وقته؛ العلامة محمد عليش فقد نسب إليه الحلبِي أنه ينكر المولد[1] مع أن العلامة عليش شرح كتاب: "عقد الجوهر فِي مولد النبِي الأزهر" للبرزنجي وهو كما وصفه العلامة ابن علوي المالكي: «من أشهر الموالد، وأكثرها انتشاراً فِي البلاد العربية، بل ويكاد يحفظه الكثير من الأعاجم والبربر..[2]» يُقرأ فِي مناسبات قصة المولد النبوي.

والحاصل أن موقف العلامة عليش فِي المولد مشهور، واستحسانه للمولد فِي ذلك الكتاب بالتفصيل مذكور، وسمَّى شرحه ذاك بـ: "القول المنجي على مولد البرزنجي" كما على غلافه الخارجي مسطور، ونَظَمَه حفيد البرزنجي العلامة زين العابدين بن الهادي فِي 198 بيتاً.

كما نسب للشيخ العدوي أيضاً أنه يُبَدِّع المولد وينكره[3] وربما لَم يقف الشيخ الحلبِي على مولد أَلَّفَهُ الفقيه العدوي يستحسن فيه الاحتفال بالذكرى الشريفة، وهو مختصر مطبوع بمصر، وعليه حاشية واسعة للعلامة أَبِي إسحاق الباجوري المتوفَّى سنة [1277هـ] فقد أجاز فيه الاحتفال بالمولد، وأشاد به كثيراً، واستحسنه فِي غير موضع كما يظهر لمن طالعه.

---

(1) الحكم الحق فِي الاحتفال بمولد سيد الخلق لعلي حسن الحلبي (ص/ 16).

(2) حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف للعلوي المالكي الحسنِي (ص/ 92) دار الرشاد الحديثة البيضاء/ 2009.

(3) الحكم الحق فِي الاحتفال بمولد سيد الخلق للحلبِي (ص/ 16).

وقد يكون لكلام الذين التبست عندهم العادة بالعقيدة فِي المولد مسوغ مقبول؛ إذا توجهت سهام نقدهم إلَى المحتفلين فِي بعض المجالس التِي بُنيت أصالة على تقليد النصارى تصريحاً، قال الإمام الذهبِي فِي ترجمة السلطان الملك بدر الدين الذي تسلطن على الموصل فِي أواخر رمضان سنة ثلاثين وستمائة، مبيناً أبعاد استحداثه للمولد الشريف: «ولما رأى أن جاره مظفر الدين صاحب إربل يتغالَى فِي أمر المولد النبوي، ويغرم عليه فِي العام أموالاً عظيمة، ويظهر الفرح والزينة؛ عمد هو إلَى يوم فِي السنة، وهو عيد الشعانين الذي للنصارى.. فعمل فيه من اللهو، والخمور، والمغانِي ما يضاهي المولد المكرم، فكان يمد سماطاً طويلاً إلَى الغاية بظاهر البلد، ويجمع مغانِي البلاد، ويكون السماط خونجاً، وباطية خمر على هذا الترتيب، ويحضره خلائق، وينثر على الناس الذهب من القلعة، يسقي الذهب بالصينية الذهب، ويرميه عليهم، وهم يقتتلون ويتخاطفون الدنانير الخفيفة، ثُم يعمد إلَى الصينية فِي الآخر؛ فيقص له بالكازن من أقطارها إلَى المركز، وتخلى معلقة بحيث أنه إذا تجاذبوها؛ طلع فِي يد كل واحد منها قطعة..[1]».

وقد استفحل تخريج تفريع المولد الشريف على أصول الدين فِي مطلع القرن الخامس عشر الهجري، وخصوصاً أثناء رد بعض الهيئات العلمية على السيد محمد علوي المالكي لما ألف كتابه: "الذخائر المحمدية" ورسائل أخرى حول المولد النبوي، فوقعت مساجلات ومناوشات عديدة، أعقبتها ردود علمية عنيفة بين أتباع الشيخ العلوي –ومعه المؤيدين له فِي العالَم الإسلامي[2]– وبين تلك الهيئة التِي

(1) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (48/ 323).

(2) للشيخ محمد بن علوي المالكي علاقات قوية مع كثير من الدول الإسلامية، فعلى سبيل المثال أقام فِي أندونسيا أكثر من خمسين معهداً ومدرسة لتعليم أحكام الشريعة، وهو الذي يرشح جميع الأساتذة التِي يدرسون فيها، وسافر إلَى الهند وباكستان، وأخذ العلم عن كبار الأشياخ هناك، وقرأ كذلك فِي ليبيا فِي عهد الملك المصلح إدريس السنوسي، واستكمل دراسته الجامعية فِي مصر ومنها حصل على شهادتَيْ الماجستير والدكتوراه، أما المغرب فهو بلده الثانِي يحبه كثيراً ويزوره مرات كل سنة، وغالباً ما ينزل عند خاتمة المقرئين سيدي الحاج المكي بن كيران فِي منزله بزاويته بفاس ويزوره المغاربة كذلك بمنزله بمكة أثناء موسم الحج.

قالت فِي أولَى جلساتها المنعقدة يوم 11-11-1401هـ واصفة كتب المولد التِي ألفها الشيخ الدكتور العلوي المالكي: «إن لِمحمد علوي المالكي نشاطًا كبيراً متزايداً فِي نشر البدع والخرافات، والدعوة إلَى الضلال والوثنية، وأنه يؤلف الكتب ويتصل بالناس، ويقوم بالأسفار من أجل ذلك..[1]».

وزاد أحد أعضاء تلك الهيئة المذكورة انتقاداً حاداً للسيد العلوي لما قال هذا الأخير بأن مولده ﷺ يسعد به كل موجود فرد عليه قائلاً: «كم نتمنى أن يسعد بهﷺ كل موجود، فيسلم المجتمع الإنسانِي من دعاة جهنم من مشرك، وكافر، وملحد، وكائد للإسلام والمسلمين، ولكنها السجعة أعجبت شيخ البدعة فأوردها وهو لَم يدر معناها، مع أنه يزعم أنه عالِم كبير، ودكتور[2] نحرير..[3]».

وقد تتبعت مختلف النقول علِّي أجد أصلاً لهذا الانحراف فِي التأصيل؛ حتى وقفت على أول من استحدثه وفرع عليه فروعًا لا تعد تحت الحصر، قال صاحب حركة التجديد والإصلاح فِي نجد مبينًا جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب فِي الدعوة: «واختلف مع بعض معاصريه فِي حقيقة المتابعة لرسول اللهﷺ لا سيما أهل التذكير فِي ليلة الجمعة، ومتصوفة معكال فِي الرياض فِي احتفالات المولد النبوي، وعقيدتهم التِي كانت امتداداً لابن عربِي، وابن الفارض، وقولهم بالاتحاد، والحلول الذين كفرهم المسلمون قديمًا وحديثًا..[4]» مهلاً لم نصل بعد إلَى رد الشيخ؛ وإنما أطرقنا الآن باب الإلحاد والتكفير فِي الاحتفال بالمولد الذي يقام بمكة، والمدينة، منذ استحداثه إلَى عصر الشيخ المذكور.

ثُم استعرض المؤلف رد معارضي الشيخ بما نصه: «وقال خصومه من المتصوفة

---

(1) حوار مع المالكي فِي رد منكراته وضلالاته للشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع (ص/ 9) نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض السعودية/ 1984.

(2) حصل الشيخ محمد العلوي المالكي على شهادة الدكتوراه بالأزهر سنة [1394هـ] فِي موضوع: فضل الموطأ وعناية الأمة الإسلامية به.

(3) حوار مع المالكي فِي رد منكراته وضلالاته لابن منيع (ص/ 49).

(4) حركة التجديد والإصلاح فِي نجد لعبد الله الجعلان (ص/ 148) الطبعة الأولَى/ 1989.

إن احتفالات المولد، والاجتماع للأذكار، لا تخرج عن الاتباع؛ فهي وإن كانت بدعة لَم تكن موجودة فِي وقت النبِي ﷺ ولا فِي عهد أصحابه؛ فإنها بدعة حسنة، لأنها تربط المسلم بنبيه، وتُذَكره بسيرته العطرة، وشمائله الجمة، وتثير فيه نوازع المحبة، وتدعوه إلَى الاقتداء به، والاستقامة على منهجه، فهي ليست ضد الدين؛ بل هي فِي خدمته، وتتيح بها مواسم للخير، وهي تفعل منذ مئات السنين فِي مختلف الأمصار الإسلامية، ولَم ينكرها أحد من علماء الإسلام، إلا نفر قليل؛ إذا قيس بالجم الغفير من أعلام الإسلام.. [1]».

ولا شك أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يصعب أن يجد تفسيراً مقنعاً لهذا الاعتراض، فيستحيل أن يرد ما تواتر عليه السواد الأعظم من المسلمون قروناً متعددة، خلفاً عن سلف، ولطالما أنتظر ردوده العلمية على معارضيه؛ لكن لَم يسقها صاحب التجديد؛ لأن فكر هؤلاء لَم يخرج بعد من دائرة الكفر والإلحاد، نعم ساق كلاماً اعتبره رداً علمياً هذا نصه: «وقد شدد الشيخ النكير على المتصوفة لاسيما من أصحاب طريقة ابن عربِي القائل بالاتحاد والحلول، وكفَّرَهم فِي إصرارهم على هذه الطريقة، بعد أن وضح لهم الحق بدليله، ونقل من الإقناع فِي باب حكم المرتد..[2]» إلخ ما ذكره.

إن أمثال هذه الأساليب أعنِي؛ التبديع، والتفسيق، والتضليل، عادة ما نصادفها -أو بالأحرى ألِفناها- فِي الرد على غلاة المبتدعة فِي كتب أصول الدين كالفِصل لابن حزم، والملل للشهرستانِي، والفَرْقُ بين الفِرَق للبغدادي، أيام كانت الفرق الضالة والمذاهب المنحرفة منتشرة بين الناس فِي أفول القرن الثانِي إلَى أوائل الرابع، ولا أعتقد البتة -بعد تأصيل الأصول وتقعيد القواعد على مدار خمسة عشر قرناً- وجود بين أهل السنة والجماعة المنتحلين للمذاهب الأربعة فروعاً فقهية، وأحكاماً عقدية تستوجب التفسيق والتضليل، بَلْهَ التكفير.

---

(1) نفسه.

(2) حركة التجديد والإصلاح فِي نجد (ص/ 148).

وقد أشار التاج السبكي إلَى خصلة مذمومة توجد فِي المجسمة فِي نصرة مذهبهم فقال: «إنهم يرون الكذب لنصرة مذهبهم والشهادة على من يخالفهم فِي العقيدة بما يسوءه فِي نفسه وماله بالكذب تأييداً لاعتقادهم، ويزداد حنقهم وتقربهم إلَى الله بالكذب عليه بمقدار زيادته فِي النيل منهم، فهؤلاء لا يحل لمسلم أن يعتبر كلامهم..[1]».

ومع وُضُوح مواطن تفريعات المنكرين وضوح الشمس فِي رابعة النهار؛ لا بأس أن نقف على آخر نموذج ذكره الشيخ آل فوزان فِي مطويته حول المولد، وسأستل مقطعاً قصيراً من ذلك النقل، مبيناً كيفية عرضه لأحكام المولد على أصول الاعتقاد، فهو فِي عُمقه نقل شنيع، وتأويل فظيع، وُدِدتُّ أن أمسحه بدم قلبِي، أو بماء بصري، وتمنيت لو لَم تخطه يمين الشيخ المذكور.

قال بعد أن انتهى من إيراد الاعتراضات وشن الغارات على حجج المؤيدين للمولد فِي آخر مطويته وكأنه قَدَّم نُصْحاً للأمة: «فالواجب على من يفعل ذلك -أي الاحتفال بالمولد- أو يستحسنه أن يتوب إلى الله..!!».

وبناء على هذا الكلام الذي يفوق الحدَّ فِي الخطورة، ويتجاوز فِي الشَّنَاعَة النهاية أتساءل !! إذا كان السواد الأعظم من الأمة الإسلامية يحتفلون بمولد نبيهم منذ مئات السنين، وألف جهابذة علمائهم عدداً من التصانيف المستقلة يستحسنون فيها ذكرى المولد النبوي؛ فَمَن ذا يا تُرَى يستطيع أن يُصَحِّحَ هذا الخطأ الضخم الذي استمر ما يزيد على ألف عام؟

هل الواجب على هؤلاء العلماء جميعاً كما قال صاحب المطوية كالأئمة الحفَّاظ ابن الجوزي، والعز بن عبد السلام، والنووي، وابن رجب، وابن كثير، والعراقي، والحافظ ابن حجر، وشمس الدين السخاوي، والجلال السيوطي، والقسطلانِي، وابن حجر الهيتمي، وجمع غفير من المتأخرين.. - فضلاً عن ملايين الحاضرين فِي تلك

---

(1) طبقات الشافعية للسبكي (2/ 16) تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو نشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية/ 1992.

الاحتفالات على مدى العصور- أن يتوبوا إلَى الله؟ وإذا ماتوا على نية جواز الاحتفال ولَم يتوبوا؟ ترى كيف سيكون مآلهم فِي نظر صاحب المطوية؟ هل معنَى ذلك أن جمهور المسلمين والسواد الأعظم من الأمة الإسلامية على ضلالٍ طيلة ألف عام !!

ولو صحت هذه الدعوى الخطيرة واحتاج السواد الأعظم من المسلمين للتوبة على مدى تلك العصور والدهور؛ لما انتظرنا مطويات حديثة لإنقاذ الأمة، ومناشير سرية لإرجاعها إلَى الطريق المستقيم فِي صدر القرن الخامس عشر، بل إن ذلك يحتاج إلَى دعوة جهرية شاملة عن طريق رسولٍ جديدٍ يُبْعَث لإِصْلاح ما فَسد؟ أقول كل هذا -وحاشا أن نعتقده- لأتساءل مرة أخرى:

لِماذا نحكم على فروع الأعراف والعادات بأصول الديانات وقواعد الاعتقادات؟ ألا تدخل ذكرى المولد النبوي الشريف تفريعًا فِي مجال الـمُخَطِّئَة والمصوبة عند الـمحققين؟ فإذا صح هذا فلماذا يَحْكُم عليها البعضُ بِمنظار الكفر والإيمان؟

وأُذَكِّر سماحة صالِح آل فوزان؛ أن شيخ الإسلام ابن تيمية اسْتَحسن المولد فِي مواضع من كتابه: "اقتضاء الصراط المستقيم" كما مر قريبًا مفصَّلاً؟ تُرَى هل ابن تيمية تاب قبل أن يموت من استحسانه للمولد؟ وأتعجب من هذا التناقض إلَى درجة جعلتنِي أقول مع الإمام البوصيري:

ولَم أدْرِ لماذا تخالف الخُلَفَاء[1]؟؟

وأعتذر إن كانت هذه الأسئلة قد لا تُرضِي أذواق إخواننا؛ وإنما أثرتُها عملاً بقول سلطان العلماء فِي كتابه "الشجرة " فِي فصل سماه: "إلانة القول والفعل فِي مظانهما" «لِلِّينِ مواطن لا يليق بها غيره، ولِلْغِلْظَة مواطن لا يناسبها سواه، فمن استعمل أحد الأمرين فِي موضع الآخر فقد أخطأ..[2]».

---

(1) هذا عجز بيت للإمام البوصيري فِي همزيته، والبيت بتمامه:

حَالفُوهم وخَالفُوهم ولَم أدْ ۞ رِ لماذا تَخَالَفَ الخُلَفَاء

(2) شجرة المعارف والأحوال وصالِح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام (ص/ 297) تحقيق إياد خالد الطباع دار الفكر إعادة الطبعة الأولَى/ 2000.

هذا وقد رد غير واحد من العلماء على آل فوزان وغيره من الـمنكرين فِي عرضهم تفريع هذه الذكرى الشريفة على أصول الاعتقاد دون أن يُثِير المستحسنون للمولد جميعًا -حسب ما وقفت عليه- طبيعة ذلك التخريج على أنه يُفَرَّعُ على أصول الدين، وإنما تركزت رُدُودُهم على ما يُشْبِهُ أن يكون كالمساجلات العلمية، ومقارعة الْحُجَج، ومعارضة النصوص والأدلة، التي استمسكوا بظواهرها، واصفين المنكرين بالغُلُوِّ حينًا، وتبديع السواد الأعظم من الأمة الإسلامية حينًا آخر، وزادوا فاعترضوا بشدة على إطلاق الكفر على المحتفلين فِي كثير من الأحايين الأخرى، ولَم يتفطنوا لِسِرِّ الخلاف ومَنْبَعِه، ومكامِنِ تحرير محل النزاع وأصوله بهذا التفصيل والتمثيل المشار إليهما فِي هذه الرسالة.

ويكفيك في بيان ذلك؛ أن أحد علماء الشناقطة رد على عدد من علماء المشارقة لما ضَلَّلُوا السواد الأعظم من الأمة الإسلامية فقال: «على أنِّي توصلت بكتاب عنوانه: "حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال" لمؤلفه الشيخ صالِح بن فوزان آل فوزان، ومعه جماعة يصفهم بأنهم أعضاء فِي هيئة كبار العلماء، فلما نظرت فِي الكتاب؛ فإذا هو تبديع المحتفلين بذكرى مولده ﷺ..[1]».

وبقي الشنقيطي حائراً بين تأصيله لذكرى المولد على قواعد العادات؛ وبين ردوده على هؤلاء لتمسكهم بأصول الاعتقادات، فبدل أن يُقَرَّب الخلاف ويُحْسَم؛ تَتَّسِعُ فروعه وتتوالد جزئياته فِي خِضَمِّ الصراع الدائر بين الفريقين، وفِي ظل هذا؛ يَرُدُّ المانعون مرة أخرى على خلاف أصول المجيزين، فاتسع الخرق على الراقع.

والحاصل أن البون الشاسع وتوسيع الهوة بين المؤيدين والمعارضين مرده عدم تحقيق المناط الخاص فِي موطن الخلاف، لأن المنكرين يُـجادلون فِي غير موضع النزاع الذي يخوض فيه المؤيدون، ويحْتَجُّ كِلا الفريقين على الآخر بأصول مستقلة، وقواعد منفصلة، وباستمرارهم على هذا النهج؛ أعتقد أنه لن يحسم الخلاف بين الفريقين، ويرتفع النزاع بين المتخالفين، وستبقى هذه الذكرى الشريفة تتجاذبها الآراء، وتتنازعها الأهواء كلما قرب موعدها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(1) البشرى بمولد خير الورى للفقيه المختار بن أحمد فال الشنقيطي (ص/ 69).

لكن وما يُدْرِينَا !! لعل الكل مأجور إن شاء الله، كل واحد حسب نيته، وعلى مقدار حبه لرسول الله ﷺ وتفانيه فِي الذب عنه، واجتهاده فِي الفرح بمولده، فيصيبه من ذلك أجر واحد، أو أجران، وفِي كلا الاحتمالين والحمد لله مصيب، بل مأجور ومغفور له، هذا إن تجنَّب تفريع هذه الذكرى على أصول الاعتقاد لكي لا يؤدي به ذلك إلَى تكفير، أو تفسيق السواد الأعظم من الأمة الاسلامية، لذا أوصيك أن تعض بالنواجذ على هذه القواعد الحِسَان، فإنها مفيدة لكل إنسان.

ومهما يكن فإن الشنقيطي لم يجد بُدّاً من أن يُقَدِّم نُصْحاً عاماً لهؤلاء دون أن يكشف عن أصول أسباب الخلاف قائلاً: «يا شيخ آل فوزان والأخوة الذين معك؛ لعلكم لَم تمثلوا المملكة العربية السعودية، لأن هذا عكس ما كنا نتوقعه من إخواننا السعوديين، فإنا كنا نتوقع منهم توحيد صفوف المسلمين خصوصاً فِي هذا الزمن الذي كثر فيه أعداء الإسلام، فبدلاً من هذا؛ فإذا أنتم عفا الله عنكم تُبَدعون، وتضَلِّلُون، وتكفرون السواد الأعظم من المسلمين، كأنكم تتقربون إلَى الله تعالَى بتكفير المسلمين لتسابقكم للتبديع والتضليل والتكفير للسواد الأعظم من المسلمين، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..[1]».

ولله در الإمام العلامة الحافظ[2] عبد الله بن الصديق رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول:

إذا كان بحث فِي فروع شريعة ۞ فاحذر من التأثيم والتضليل

إذا كل فرع ليس يبلغ رتبة ۞ فِي الجرم كالتوحيد والتنزيل[3]

ومما يزيد الطينة بلَّة والداء عِلَّة أن بقيت الردود على هذا المنوال فِي التفريع

---

(1) البشرى بمولد خير الورى (ص/ 69).

(2) ذَكَر بعض كبار تلامذة الحافظ الغماري الشيخ محمود سعيد محمود فِي كتابه: تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ، أن شيخه عبد الله بن الصديق هو: «أحفظ من رأى..» (ص/ 25) فيكون بهذا آخر حفَّاظ الإسلام فِي هذا العصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والكتاب من نشر دار البشائر الإسلامية الطبعة الأولَى/ 1993.

(3) الرأي القويم فِي وجوب إتمام المسافر خلف المقيم للحافظ عبد الله بن الصديق (ص/ 5) نشر عالم الكتب.

والتخريج حين أُقْحِمَت هذه الذكرى الشريفة خطئًا -أو بالأحرى جهلاً- على أنها من فروع العقائد، فَيُقَاس المسلمون باليهود والنصارى، وكفار قريش دون أدنَى خجل، فاجتمعت هذه الفروع العقدية عند البعض، ولَم يجد أدنَى غضاضة بعد ذلك فِي أن يطلب من السواد الأعظم التوبة من الاحتفال بذكرى المولد، وأصغر طلاب العلم يعرف أن المخطئ فِي أصول الاعتقاد والديانات يقال له: ضَال، والمخطئ فِي فروع الفقه والمحدثات يقال له: مُخْطِئ.

وما زال هذا الطابع العقدي وللأسف ساريًا فِي الحكم على الموالد؛ بل إنه اشتد فِي الآونة الأخيرة، حتى خُيِّلَ للمانعين إِن احْتَفَلُوا مع المؤيدين؛ وكأنهم انتقلوا من دِينٍ إِلَى دِينٍ !!

وقد استغرب جَمْعٌ غفير من الباحثين المعاصرين من إطلاق التكفير على المحتفلين بالمولد، فهذا أحدهم يقول متعجبًا: «وإذا احتفل أحد بليلة مولده ﷺ تعظيمًا له؛ قالوا: هذا مشرك.. فنعوذ بالله من ناشئة تُكَفِّر الأمة بمدح النبي ﷺ..[1]».

وقد أعجبنِي الإمام العبدوسي لما رفع إليه بعض المستفتين سؤالاً حول حكم الاحتفال بالمولد، فرد على بعض متفيقهة ذلك الزمان الذي أنكره ومنعه، فجوزه العبدوسي واستحسنه، فختم جوابه بقوله: «ولا التفات إِلَى طالب جاهل جلف قح لا يفهم مذهب مالك ولا غيره، ولا يحمل الروايات على غير محملها، والكلام مع مثل هذا غصة فِي القلب، وتعطيل للزمان من غير فائدة عائدة على الإنسان فِي دنياه وأخراه، وبالله سبحانه التوفيق، وكتب مسلمًا عليكم وليكم فِي الله؛ عبد الله العبدوسي..[2]».

وقد عانَى العلامة محمد علوي المالكي الأَمَرَّين فِي بلده مكة المكرمة حين أعياه سيل من الايضاحات والشروحات للمنكرين من أن الاحتفال بالمولد ليس من

---

(1) إعلام النبيل بما فِي شرح الجزائري من التلبيس والتضليل (ص/ 17) لراشد المريخي تقديم المحدث عبد العزيز بن الصديق الغماري، وقد دافعا معًا عن محمد العلوي المالكي.

(2) المعيار (11/ 47).

العبادات والعقائد قائلاً: «ونحن نقول فِي كل محفل ومجمع ومناسبة؛ إن الاجتماع على المولد بهذه الكيفية؛ أمر عادي، ليس من العبادة فِي شيء، فهل يبقى بعد هذا إنكار لمنكر، واعتراض لِمعترض؛ لكن المصيبة الكبرى فِي عدم الفهم..[1]» ولعل أمثال هذه المسألة ونظائرها؛ هي التِي دفعه لاختيار عنوان مثير لكتابه الموسوم: "مفاهيم يجب أن تصحح".

وفِي مثل هذا يحذر أستاذنا الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مبيناً منهج تلك الطائفة فِي المغرب المعاصر، مضمناً كلامه بما يفيد عَدَّهم: «ضمن خانة تتردد بين الكفر والضلال..» لأنهم: «أدخلوا منطق التبديع والتضليل؛ إلَى مجالٍ الأصل فيه أن يُتَنَاول بمنطق التخطيء والتصويب، فبدل أن يتعاملوا مع الناس بميزان الخطإ الذي يرجى لصاحبه -على الأقل- أجر واحد؛ تعاملوا معهم بميزان "كل بدعة ضلالة" وكل ضلالة فِي النار، وكان ذلك كله من أشد أنواع الاستصنام المنهجي الواقع فِي صف العمل الإسلامي المعاصر..[2]».

عود على بدء:

إذا وجب على الناظر ابتداء -كما سبق فِي صدر هذا المبحث- تعيين مجال هذا الاحتفال قصد استيضاح الأحكام المتعلقة به، وبيان نوعية الأحكام التِي تلائم مختلف أحواله؛ فإن نتيجة ذلكم الخلاف- أو تحرير محل النزاع بعبارة الفقهاء- لا يعدو أن يكون بعد ذلك هو أُسُّ المسألة، وجوهر القضية، وصلب المشكلة، فهل فعلاً كل بدعة ضلالة مهما كانت !! وعلى فرض صحة هذا الاحتمال؛ هل يمكن أن يكون مثل ذلك الخلاف سبباً للتفريق بين المسلمين؟ ويرتقي إلَى أن يحصل بموجبه النزاع فِي الدين؟

---

(1) مفاهيم يجب أن تصحح للسيد محمد علوي المالكي (ص/ 310) بتصرف يسير نشر مطبعة النجاح الطبعة الأولَى/ 1993.

(2) الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب (ص/ 127) منشورات رسالة القرآن رقم -2- الطبعة الأولَى/ 2007.

وقد تَنَبَّه أستاذنا الدكتور محمد الروكي إلَى بعض الآثار التِي تُحْدِثُها مثل تلك الخلافات، وذكر أن بعض هذه الأنواع: «غاية ما يجب علينا فيه أن نتأدب فيه بآداب الإسلام، ونتحلى بمكارم أخلاقه، ومحاسن شمائله، حتى لا يكون سبباً لانفصام عُرَى الوحدة والأخوة الإسلامية..[1]».

والنتيجة نفسها توصل إليها العلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي بعد بحث طويل استعرض فيه مختلف البدع الواجبة والحسنة عند السلف والخلف، وما ترتب عن سوء فهم البعض لها، وما نتج عن ذلك من تشتيت وحدة الأمة وافتراق كلمتها قائلاً: «إن هذه المسائل لا يمكن أن تُتَّخَذ حاجزاً وفَيْصلاً يجعل من أهل السنة والجماعة فريقين، ويجعل لكل منهما الشخصية المتميزة به والمذهب الخاص به، بل هي يقيناً أقل من أن تصدع وحدة الجماعة الإسلامية إلَى مذهبين..[2]».



(1) نظرية التقعيد الفقهي وأثرها فِي اختلاف الفقهاء للدكتور محمد الروكي (ص/ 255) دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولَى/ 2000.

(2) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (ص/ 156).

المبحث الثالث: دفع شبهة: أن المولد لَم يفعله النبِي ﷺوعلاقتها بقاعدة الترك:

يستحسن بادئ ذي بدء توضيحـًا لهذه المسألة، وتيسيراً لفهمها؛ أن أسأل سؤالاً مفادُه: هل النبِي ﷺ إذا ترك شيئـًا ولَم يفعله فِي حياته، ولا فعله أصحابه من بعده؛ يكون حرامـًا، أو بدعة ضَالَّة؟

فأقول: إن النبِي ﷺ ترك أموراً جائزة لأسباب عدة، كتركه أكل الضب المشوي عندما مَدَّ يده الشريفة ليأكل منه، فقيل له: إنه ضبٌّ فأمسك عنه، فَسُئِل أحرام هو؟ فقال لا: ولكنه تركه، قال راوي الحديث خالد بن الوليد: فاجترته فأكلته والنبِي ﷺ ينظر[1] ومن هنا نستنبط أن ترك النبي ﷺ لشيء لا يفيد تحريمه، ومن هذه الأمثلة ونظائرها؛ انتزع الأصوليون قاعدة جليلة أَسْمَوْهَا: **ترك الشيء لا يقتضي تحريمه،** وقوى الإمام الشوكانِي هذه القاعدة بقوله: «وإذا كان الاحتياط فِي الترك فهو الورع؛ وإن كان فِي الفعل فكذلك..[2]».

ومن أوسع الأبواب تركـًا المندوبات، وهي: «على رتب متفاوتات[3]» كما قال الإمام الجوينِي، فقد ترك النبِي ﷺ منها شيئـًا كثيراً، كتركه صلاة الضحى، والتراويح، والوضوء مما مست النار.. خَشية أن يُفْرَض ذلك على أمته، فَخَفَّف علينا عليه الصلاة والسلام ليترك كل واحد منا مُختاراً حسب قوته، يجتهد فِي ذلك متى نَشِط لتلك العبادة، بما يتوافق مع عموم قولَه تعالَى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[4] و﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

---

(1) صحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح باب إباحة الضب رقم الحديث [1945].

(2) كشف الشبهات للشوكانِي (ص/ 90).

(3) البرهان فِي أصول الفقه للإمام الجويني (1/ 216) تحقيق عبد العظيم الديب نشر دار الوفاء المنصورة الطبعة الثالثة/ 1992.

(4) من الآية 50 من سورة المائدة.

(5) من الآية 75 من سورة الحج.

وترك أبو بكر، وعمر الأضحية حتى لا يعتقد الناس وجوبها[1] ويجوز العدول عنها سيما إذا رأى ولِي أمر الأمة موجباً لذلك، كضرورة مُلِحَّة، أو مصلحة عامة، كما فعل المغفور له -بإذن الله- الحسن الثانِي حين أصدر قراراً أعلن فيه عن ترك ذبح الأضاحي فِي المغرب سنة 1981 و 1996 لقلة الأمطار، واستفحال الجفاف، حتى لا يُعتقد فرضيتها جمعاً منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين حراسة الدين، وسياسة الدنيا على ضوء القاعدة المقاصدية المشهورة فِي تدبير السياسة الشرعية: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

هذا إن فعل ﷺ أمراً وتركه؛ أما إذا لَم يفعله قط كالاحتفال بمولده كما نحتفل به اليوم، وكان تركه ذاك موافقاً لأصول الشرع وقواعده وثبت أنه تركه؛ فإنه يدخل فِي دائرة المباح كما حققه جمهور الأصوليِّين، ومنهم ابن قدامة الحنبلي الذي قال: «وترك النبِي ﷺ لا يدل على الكراهة، فإنه قد يترك المباح وقد يفعله..[2]» وأزال شيخ الإسلام ابن تيمية اللبس عن هذه القاعدة، لما قال: «أما استحباب الترك؛ فلا يدل على تحريم الفعل..[3]».

وأضاف وارث سره الإمام ابن القيم لمفهوم الترك بياناً وتبصرة حين رأى أن كِلا الصنفين من الترك سنة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما نقلهم لتركه فهو نوعان: وكلاهما سنة – إلَى أن قال: فإنَّ تركَهﷺ سنة، كما أن فعله سُنَّةٌ.. فإذا استحببنا فعل ما تركه؛ كان نظير استحبابنا ترك ما فعله ولا فرق..[4]».

فأقول للمنكرين: إذا كان ابن قدامة الحنبلي يستدل على الترك بـمعنى المباح، ويستدل به شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم على أنه داخل فِي مقاصد السنة، فكيف

(1) السنن الكبرى للبيهقي كتاب: الضحايا، باب: "الأضحية سنة نحب لزومها ونكره تركها" رقم الحديث [19034].

(2) المغنِي لابن قدامة (1/ 161) .

(3) الاختيارات الفقهية لابن اللحام الدمشقي (ص/ 281) نشر دار المعرفة بيروت الطبعة/ 1978 .

(4) إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 281) تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 1991 .

تستدلون به أنتم على الحرمة رغم اتفاقكما فِي الأصول؟ بل تـجاوزتُموهما لتستدلوا بالترك على أنه بدعة ضالة ومنكرة !! وقد تفطن لِمعنى الترك حتى البلغاء والأدباء، وليسوا فقهاء، ولا عُلَماء، قال الجاحظ فِي رسالته المسماة القِيَان: «كل شيء لَم يوجد مُحَرَّماً فِي كتاب الله وسنة رسوله فمباح مُطْلَق، وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس..[1]».

هذا ورغم الاختلاف الواقع بين مدرسة المتكلمين فِي التنظير الأصولِي ومدرسة الفقهاء فِي التقعيد الفقهي[2]؛ إلا أن أبا بكر الجصاص وَافَقَ قواعد تخريج الحنابلة على مسألة الترك، عندما قال: «فمتى رأينا النبي ﷺ قد ترك فِعْلَ شيء ولَم نَدْرِ على أي وجه تركه؛ قلنا تركه على جهة الإباحة..[3]» وانضم إلَى التفطن لهذا المعنَى أبو إسحاق الشاطبِي -رغم تشدده فِي الحكم على البدع المحدثة- فنبه على أن «الصحابة عملوا على هذا الاحتياط فِي الدين لما فهموا فِي هذا الأصل من الشريعة، وكانوا أئمة يُقتدى بهم، فتركوا أشياء وأظهروا ذلك ليبينوا أن تركها غير قادح، وإن كانت مطلوبة..[4]».

فدل هذا على أن الترك لابد للمجتهد أن يستفرغ جهده فِي تنقيح المناط فيه، لأن: «ما تركه النبِي ﷺ ولَم يفعله ثُم أحدث من بعده؛ قد يكون مستحسناً مقبولاً إن أحاطت به أسباب الاستحسان والقبول، وقد يكون مذموماً مردوداً إن أحاطت به

(1) القيان للجاحظ (ص/ 103) نشر دار ابن الأرقم وضمن الكتاب رسالتين: الأولَى فِي الرد على النصارى، والثانية فِي ذم أخلاق الكتاب.

(2) يُقْصَدُ بمدرسة المتكلمين فِي العرف الأصولِي: المالكية والشافعية أصالةً والحنابلة تبعاً، ويقصد بمدرسة الفقهاء: الأحناف، ينظر أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة للدكتور طه جابر العلوانِي (ص/ 65-69) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن الطبعة الثانية/ 1995.

(3) الفصول فِي الأصول لأبِي بكر الجصاص (2/ 253) تحقيق الدكتور عجيل جاسم النشمي نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الطبعة الثانية/ 1994.

(4) الموافقات (3/ 288).

أسباب الذم والرد..[1]».

فاتَّضَح من مجموع ما ذُكر؛ أن الترك أو البدع الحسنة لا تدل على الكراهة عند محققي الحنابلة، وجمهور الأصوليين، فضلاً عن الحرمة، بَلْهَ كونها ضلالة وبدعة منكرة، خلافًا للشيخ آل فوزان، والشيخ حامد الفقي، والشيخ ابن باز، والشيخ الأنصاري، والجزائري.. وسائر كبار شيوخ الحنابلة المعاصرين؛ يرون أن ما تركه النبي ﷺ معصية وضلالة، خلافًا لمتقدميهم الذين يعتبرون الترك مندوبًا فِي قول، وسنة فِي قول آخر، فتبين بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن ألئك الشيوخ المذكورين خَرَّجُوا فروع الترك على أصول الدين، خلافًا لجمهور الأصوليين فِي المذاهب الأربعة الذين يفرعونه على أصول الفقه، ومما لا مراء فيه؛ أن ألئك الشيوخ المعاصرين مقلدون حقًا، وغيرهم مجتهدون قطعًا، فيجب أن يسلكوا مسلك متأخري الحنابلة فِي التخريج الأصولِي، ويَتْبعوا طريقتهم فِي التفريع الفقهي.

ومن هنا وقع الاختلاف، بل والخلاف فِي كل الأحكام المتفرعة على قاعدة الترك، فوجب تحرير محل النزاع بين متقدمي الحنابلة ومتأخريهم، وأن يصححوا منهج تفريعاتهم على أصول مذهب أحمد، لينضموا إلَى قول كبار المجتهدين والمقعدين داخل المذهب الحنبلي، لتتفق منابع آرائهم مع السواد الأعظم من المجتهدين فِي كل المذاهب الفقهية المعتبرة.

وقد أصَّل الإمام السبكي قاعدة ذهبية فِي هذا الصدد لما قال: «جائز الترك ليس بواجب الفعل..[2]» وزاد الشريف التلمسانِي لضابط التفريع على الترك فائدة أصولية أخرى لَما قعَّد عليها جملة من الأحكام فِي خاتمة شروط فعله ﷺ قائلاً: «ويُلْحق بالفعل فِي الدلالة الترك؛ فإنه كما يُسْتَدَلُّ بفعله ﷺ على عدم التحريم؛ يُسْتَدَلُّ

---

(1) من مقال الدكتور اليزيد الراضي الموسوم: "مزالق تبديع التروك" منشور ضمن مقالات أخرى فِي كتاب: البدعة مفهومها وضوابطها وهو فِي الأصل ندوة علمية نظمها المجلس العلمي بتارودانت يومي 9-10 يوليوز 2001 (ص/ 382) نشر دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولَى/ 2012.

(2) حاشية البنانِي على شرح الجلال المحلي على متن جمع الجوامع (1/ 168) طبعة دار الفكر بيروت/ 2003.

بتركه ﷺ على عدم الوجوب..» وعَلَّقَ الأصولِي أبو الطيب مولود السريري فِي شرحه لمفتاح التلمسانِي على هذا بقوله: «لأنه -أي الترك- داخل فِي حقيقة الفعل عند مُحَقِّقِي الأصوليين..[1]».

وهكذا يتضح أن الحنفية، والمالكية، والشافعية، وفُضلاء الحنابلة أجمعوا أن ترك النبي ﷺ يدخل أصالة فِي دائرة الإباحة؛ أما إطلاق البعض التبديع والحرمة عليه فيَلْزَم أن يكون ذلك التبديع بدليل آخر مستقل عنه، وتلك الحرمة بحكم ثان منفصل بنفسه، وهذه الدقيقة تفطن إليها العلامة الحافظ الأصولِي سيدي عبد الله الغماري لما قال: «والترك وحده إن لَم يصحبه نص على أن المتروك محظور؛ لا يكون حجة فِي ذلك؛ بل غايته أن يفيد أن ترك ذلك الفعل مشروع، وأما أن ذلك الفعل المتروك يكون محظوراً؛ فهذا لا يُستفاد من الترك وحده، وإنما يستفاد من دليل يدل عليه..[2]».

ومن هنا يتبين أن كثيراً من النزاعات التِي نسمعها ونشاهدها اليوم فِي المساجد والتِي يُثِيرها بعض من قال فِي مثلِهم الشيخ محمد الغزالِي: «إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويدرِّسونه يوم الأحد، ويعملون له أساتذة يوم الاثنين، أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار ويقولون هم رجال ونحن رجال..[3]» كلها دائرة بين الندب والجواز على أقل تقدير.

نعم قد تعتري تفريعات بعض تلك الأحكام الكراهة، لكن هؤلاء المثيرون لتلك الخلافات الجانبية يعممون ويُبَدِّعون أحكاماً كثيرة بدعوى أن النبِي ﷺ لَم يفعلها، من قبيل: عدم إيصال ثواب القرآن إلَى الميت، وإنكار الدعاء دبر الصلوات، ووجوب الخروج منها بتسليمتين، وتبديع القنوت فِي صلاة الصبح، وكراهة

---

(1) شرح مفتاح الوصول للتلمسانِي لأبِي الطيب مولود السريري (ص/ 433) نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2010.

(2) حُسْنُ التفهُّم والدَّرْك لمسألة الترك (ص/ 141) نشر عالَم الكتب/ 2006.

(3) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالِي من مقدمة الطبعة السادسة (ص/ 6) دار الشروق ط/ الرابعة عشرة 2006 .

الإنصات يوم الجمعة، وإحداث الأذان الثالث فيه، والتشنيع على الزيادة على أكثر من ثمان ركعات فِي التراويح، وحرمة المداومة على قراءة الحزب الراتب، وتبديع الاحتفال بمولده ﷺ وما يجري مجرى ما ذُكر.

فكل هذه الأمور وغيرها ترك النبي ﷺ بعضها ولَم يفعلها، لكنها جميعًا وافقت الشريعة وأغراضها، واندرجت تحت أصولٍ معمولٍ بها، وقواعدَ شهدت مقاصد السنة باعتبارها، ولَم تجلب مفاسد حَكم الشرع بإلغائها، ولا دَرَأَتْ مصالح أَمَرَ بِجَلْبِها، لذا لا يغتَرَّن أحد بقولهم: لَم يفعله النبي ﷺ أو تركه، فكل هذه الحوادث المبتدعة والعوائد الحميدة، تتنزل فِي التخريج الأصولِي منزلة المباح، وتجري فِي التنظير الفقهي مجرى البدع الحسنة.

وفِي مثل هذه المسائل-أو ما يمكن أن نصطلح عليه بالسنن التركية- يقول ابن حزم الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك الشيء إذا تركه ﷺ ولَم يَنْهَ عنه ولا أمر به فهو عندنا مباح..[1]» والمباح كما عرفه الإمام الجويني هو: «ما خَيَّر الشارع فيه بين الفعل والترك من غير اقتضاء ولا زجر..[2]» وقد تلتبس ألفاظ المسميات؛ لكن مقصود المعنَى واحد، وكأنِّي بابن حزم لمح إلَى هذا عندما قال: «وقد يسمى كل بر طاعة، والمعصية ضد ذلك، والندب أمر بتخيير فِي الترك، إلا أن فاعله مأجور، وتاركه لا آثم ولا مأجور..[3]».

والعجب أن كل هذه المسائل والحوادث لا يعاقب فاعلها كالاحتفال بالمولد وغيره، لأنها داخلة فِي دائرة المباح من غير اقتضاء ولا زجر على حد تعبير الإمام الجوينِي، لكن بعض إخواننا أشعلوا لهيب العداوة بين العوام، وشَوَّشَوا على السواد الأعظم من الناس فِي المناسبات الدينية، والمحافل التِي تقام بالمجامع والمساجد، فأوقدوا ناراً للحرب، ولَم يقفوا عند ذلك الحد؛ بل زادوا على كل ما ذُكر غِلْظَةً

(1) الإِحكام فِي أصول الأَحكام لابن حزم (4/ 436) تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر تقديم الدكتور إحسان عباس، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.
(2) البرهان فِي أصول الفقه للإمام الجويني (1/ 216).
(3) الإحكام فِي أصول الأحكام (1/ 43).

وشدة حتى انقلبت الألفة بين المسلمين عداوة، بسبب المباح: «الذي لا ذم على فعله ولا على تركه [(1)]» كما قال الشاطبِي، أو بسبب ما «تركه النبِيﷺ ولَم يَنْهَ عنه، ولا أمر به، فهو عندنا مباح..[(2)]» كما رجَّح ابن حزم، فتأمَّلْ !!

ومن دقائق أسرار الترك ما نبه عليه الإمام ابن لب -شيخ أبو إسحاق الشاطبِي- لَما احتج بالترك على جواز قراءة الحزب الراتب فقال معللاً جوازه به: «ثُم إن الترك المروي عن السلف لا يدل على حكم إذا لَم ينقل عن أحد منهم أنه كرهه أو منعه فِي ذينك الوقتين، وشأن نوافل الخير جواز تركها؛ فالحق فيه الأجر والثواب، لأنه داخل فِي باب الخير المرغب فيه على الجملة، ولا يعتقد فاعل ذلك أنه يقدم على مكروه تقليداً لمالك؛ بل يعتقد معنَى الحديث المتقدم[(3)] وتقليد من يَستَحِبُّ ذلك ويستحسنه، وَثَمَّ بدعٌ مستحسنة لاسيما فِي وقت قلة الخير وأهله، والكسل عن قوله وفعله، لطف الله بنا، ومنَّ علينا بصلاح أحوالنا بمنه وفضله..[(4)]».

فكذلك الاحتفال بالمولد لَم ينقل أن أحداً من السلف منعه، فتصير جميع تأصيلات ابن لب للحزب الراتب تجري مجرى المولد النبوي قياساً بجامع استحداثهما وشدة الحاجة إليهما؛ سيما فِي وقت قلة الخير كهذا العصر، بل ويشتد الاحتفال بالمولد به أكثر؛ فِي وقت استفحلت فيه الأفكار المادية، وتكاثرت التيارات المذهبية، دع عنك اشتهار الاحتفال بمولد سيدنا عيسى، والرسوم المسيئة لجنابه الشريف، فتناسل من رحم ما ذكر سيل من المكائد ضد الإسلام، ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[(5)].

وكان من الأولَى أن يتفق المنكرون مع المانعين، وينطلقون كالسهم الواحد تجاه

---

(1) الموافقات (1/ 106) بتصرف يسير.

(2) الإحكام فِي أصول الأَحكام (4/ 436).

(3) يقصد قوله ﷺ «ما اجتمع قوم فِي بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله وتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة..» إلخ الحديث أخرجه أحمد فِي المسند تحت رقم [7427] فِي مسند أبِي هريرة.

(4) المعيار (1/ 155-156) .

(5) من الآية 64 من سورة المؤمنون.

الخصوم لإظهار محاسن سيرة المصطفىﷺ والتبجيل به، والاحتفال بمولده، لكنَّ ضعفَ التخريج على الأصول عند المنكرين، وقصورهم فِي استفراغ الجهد لفهم مناط قاعدة الترك؛ سبَّبَ فِي بعدهم عن مزاوجة النقل بالعقل، وربما عُدَّ هذا اللون من الاحتجاج عندهم من باب فساد الدين، والتذرع به لاستحسان البدع، فيجب التعجيل بالتقريب بين المنهجين، لأن افتراقهما يفضي إلَى توسيع شقة الاختلاف، والتنابز بالألقاب، مما يسبب لا محالة فِي شق وحدة الأمة الإسلامية وتفريق كلمتها.

وحتى بعض من يحسنون من هؤلاء التخريجَ على القواعد الأصولية والتفريع على المقاصد الكلية للشرع ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1] فإنهم يرون أن حقيقة المندوب هو: ما طلبه الشرع من غير ذم على تركه، وذكرى المولد لَم يطلبها الشارع ولَم يَحُث عليها فِي القرآن ظاهراً، ولا نصت عليها السنة تصريحًا، كذا زعموا، فنقول لهؤلاء: إن حقيقة المندوب عند جمهور الأصوليين -لمن له أدنَى إلمام بهذا الفن- لا يتعلق بالأصلين: القرآن والسنة فقط؛ فإنه تارة يكون بهما وهو نادر، وتارة يكون بالقياس على القواعد العامة والمقاصد الكلية- وإن لَم يرد فيه نص- وهو الغالب.

فكشفوا مرة أخرى عن ظاهريتهم وتشبثهم بحرفية النص حتى فِي قواعد أصول الفقه، حين قصَّروا معنى تعريف المندوب على ظواهر القرآن، وألفاظ نصوص السنة، **وتجاهلوا أن التفريع جارٍ كذلك على الإجماع والقياس والاستحسان وغيرها من أصول الشرع المعتبرة وقواعده الكلية، فأسقطوا قسطًا كبيراً من فضائل الشرع ومحاسنه، فنتج عن ذلك أن تَعَطَّل تفريع كثيرٍ من الأحكام الشرعية فِي حياتنا المعاصرة، خاصَّة: المندوب والمباح، والمكروه فتم اختزال الأحكام التكليفية الخمسة عندهم فِي حُكْمَين[2] ولذلك تَقِلُّ -أو بالأحرى تنعدم- فِي اجتهاداتهم وفتاواهم واستنباطاتهم هذه الأحكام الثلاثة، وتَحُلُّ محلها الحرمة والوجوب، فأفضى بهم ذاك إلَى تضليل الحوادث والبدع الحسنة فِي العبادات، والتشديد فِي تأصيل النوازل والمستجدات فِي المعاملات، فغاب روح التشريع ولُبُّه، وغلب رسمه**

---

(1) من الآية 23 من سورة ص.

(2) أعنِي: الحرام والواجب.

وظاهره، فافتقدوا قبل غيرهم ما كانوا يترقبونه من حلاوة فضائل الأعمال ومحاسن الطاعات فِي العبادات، وجمالية تنزيل مقاصد الأحكام على مصالِح الأنام فِي المعاملات، فتنبه لهذا فإنه فِي غاية النفاسة.

ولو كانت النوازل تُنْظَر بـهذا المنهج الظاهري، والحوادث بتلك الرُّؤْيَة النَّصِّيَّة لتَوَقَّفَ الفقهُ قبل يوم السقيفة؛ بل لو عَمِل الصحابة بنفس هذا الـمنهج لَـمَا اجتمعوا فيها، لأنا إذا رددنا اجتماعهم ذاك إلَى القرآن والسنة لَم نجده فيهما إلا عن طريق نفس الاستخراجات التِي مضى ذكرها، وعلى نظائرها وأمثالها اجتهد الصحابة فَأَصَّلُوا للحوادث وقعَّدوا، وإلَى أمثال هذه الاستنباطات منذ وقت مبكر فَطِنُوا، مُسْتَلْهِمِين ذلك من منهج رسول الله وفازوا وأحسنوا، أما من تبعهم من ورثة الأنبياء والسواد الأعظم من علماء المسلمين فعلى ذلك المنهج مَضَوْا وسَارُوا، وزاغ البعض عنهم فتوهموا خلافَهُ فاعترضوا وأطْنَبُوا، وإلَى إنكار فعل ذلك ذهبُوا.

وما زال البعض- بعد هذا- يُضَيق واسعـًا فِي تأويل مفهوم المندوب سداً للذريعة، وينازع فِي التفريع على قاعدة الترك فيبدعها بدعوى التمسك بالسنة، فيكون:

كناطحٍ صخرةً يومـًا ليُوهِنَها ۞ فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

لذا فلا مانع أن نوجه دعوة إلَى الـمتخصِّصِين فِي أصول الفقه، وأسرار الشريعة ليوسعوا مباحث قاعدة الترك، وبسط معانيها، وبيان حقيقتها، وكشف مقاصدها، والتمثيل لها، لأن المنكرين يحتجون بنقيض ما شرعت من أجلها، وعلى خلاف ما وضعت لها، فهذا الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري يقول بعد استعراضه حشداً من النقول، وكأنه أَصَّلَ لإبطال المولد الشريف بقاعدة الترك قائلاً: «بـهذه النقول يتضح أن السلف الصالح لَم يـحتفلوا بـمولد النبِي بل تركوه؛ وما تركوه لا يمكن أن يكون تركهم إياه إلا لكونه لا خير فيه..[1]».

وزاد آخر تقعيداً بعيداً واستنباطـًا غريبـًا لـما قال عن بعض وجوه الترك -التِي قال

---

(1) القول الفصل فِي حكم الاحتفال بمولد خير الرسل (2/ 444) وهي الرسالة السادسة من كتاب: "رسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي".

عنها ابن القيم وكلاهما سنة- : «فإذا كان الأمر يفيد الوجوب؛ فالترك حينئذ يكون معصية..[1]» ونسي صاحب الكلام المذكور؛ أن إعماله العقل فِي إبطال الترك بالمفهوم يدل على نقيض ما استنبطه؛ لأن الترك جائز بالنص، والعقل، وما قول الإمام الرازي «وأما جواز الترك فقد كان معلوماً بالعقل..[2]» إلا أدل دليل على شدة وضوح الاستدلال به عند فحول العلماء، نعم قد يخفى على بعض الفقهاء إعماله ويتعذر على الآخرين بعض وجوه تطبيقاته، فكيف ألا يستشكله من هو دون دونهم فِي العلم بمديد المراحل.

وإلَى أمثال هؤلاء يشير الدكتور اليزيد الراضي بقوله: «واعتبروا ذلك الترك حجة مقبولة ومستنداً شرعياً لما ذهبوا إليه، وأوهموا العامة أن ترك النبِي ﷺ لأمر من الأمور يدل على عدم جواز ذلك الأمر، ونفروا الناس بهذا الأسلوب من أمور كثيرة، اعتادها الناس وألفوها، واستحسنوها، ووجدوا فيها مصلحة راجحة، ومنفعة واضحة.. والعامة وأشباه العامة يظنون أن هذا الدليل صحيح فيتجاوبون معهم، ويخضعون لآرائهم وفتاويهم، ويظنون أنهم على صواب، وأن من خالفهم على خطأ..[3]».

فاتضح بشكل جلي رجحان تأصيلات المنكرين وضعف تقعيداتهم مقارنة مع الأدلة القوية التِي استدل بها علماء المغرب للتأصيل للمولد؛ إلا أن الإشكال بعد كل هذا هو: أن صارت كما قال أستاذنا المرحوم الدكتور فريد الأنصاري: «أقوال المغاربة باطلة حتى يثبت بصحتها الدليل، بينما أقوالهم هم صحيحة حتى يثبت ببطلانها الدليل..[4]» وهذه قولة نفيسة تشد إليها الرحال، رحمك الله يا شيخي

(1) معيار البدعة على طريقة القواعد الفقهية لمحمد بن حسن الجيزانِي (ص/ 225).

(2) المحصول فِي أصول الفقه (2/ 95) للإمام الرازي دراسة وتحقيق الدكتور طه جابر فياض العلوانِي، نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة/ 1997.

(3) من مقاله الموسوم: "مزالق تبديع التروك" مضمن ضمن مقالات أخرى فِي كتاب: "البدعة مفهومها وضوابطها" وهو فِي الأصل ندوة علمية نظمها المجلس العلمي بتارودانت يومي 9-10 يوليوز 2001 (ص/ 376-377) نشر دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولَى/ 2012.

(4) الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب (ص/ 135).

الجليل، وأسكنك فسيح الجنان، نعم إن إخواننا أُلئك؛ هم على تلك الشاكلة لن يقبلوا حجتك ولو صحت، وما أحسن قول الشاعر فِي مثلهم:

ولن يرضوا بقولك إذْ أَبَيْتَ ❁ طريقتَهُم ولو كنت الْمُحِقَّا

وبالجملة فيكاد المولد النبوي يجري مجرى بعض قواعد أحكام المتعلمين التِي قال عنها أبو الحسن القابسي: «ولقد استغنَى سلف المؤمنين أن يتكلفوا الاحتجاج فِي مثل هذا، واكتفوا بما جعل الله فِي قلوبهم من الرغبة فِي ذلك فعملوا به، وأبقوا ذلك سنة ينقلها الخلف عن السلف..[1]» وعلى نفس القاعدة اعتمد المتأخرون فِي احتفالهم بالذكرى الشريفة دون أدنَى تكلف فِي الاستدلال.

ومن لطائف المراشقات العلمية حول الترك ما وقع بين عالمين كبيرين معاصرين: المحدث الكبير محمود سعيد ممدوح حفظه الله، والشيخ الجليل الأديب بكر أبِي زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال الأول: «زرته -أي بكر- مرة فِي الطائف، فقال لِي: إن عمل المولد بدعة، ويكفي فِي بدعته؛ أن أحداً من الصحابة والتابعين لَم يفعله، فقلت له: يا شيخ بكر: عيب وأنت الآن تسرد تفسير القرطبِي وتستخرج فوائده وتستدل بالترك وعدمه، وقلتُ له: ليس بعد كلام رسول اللهﷺ كلام، وقد قال فِي صحيح مسلم : "ذاك يوم ولدت فيه" فسكت الشيخ بكر شفاه الله تعالَى..[2]» هذا مع ما بينهما من اختلاف فِي المشرب الفكري، وتباين فِي الاتجاه العقدي، ومع ذلك؛ فإن خلافهما لا يفسد فِي الود قضية.

---

(1) الرسالة المفصلة للإمام أبِي الحسن القابسي (ص/ 79) تحقيق أحمد فؤاد الأهوانِي نشر دار المعارف الطبعة السادسة/ 2002.

(2) مداخلة للشيخ محمود سعيد فِي موقع ملتقى أهل الحديث، تحت رابط:
www.hdrmut.net/vb/showthread.php وجميع مداخلات الشيخ محمود سعيد المنشورة فِي ملتقى أهل الحديث جمعها شهاب الدين الأندلسي، ونشرت كاملة فِي موقع ملتقى حضر موت للحوار العربِي، وللإشارة فقد اضطر تلامذة الشيخ محمود إلَى تسجيله فِي ذلك الموقع لما كثرت الطعون على مشايخه السادة الغماريين، وخاصة الحافظ أحمد نادرة العصر، وشقيقه المتفنن العلامة سيدي عبد الله بن الصديق.

وقد أعجبنِي من جهة أخرى شيخ محمود سعيد وعمدته؛ الحافظ عبد الله بن الصديق الغماري لما قال فِي خاتمة رسالةٍ مُتْقَنَة له حول الترك -التِي ألفها بطلب من تلميذه المذكور-: «فمن حَرَّم هذه الأشياء -أي مسائل الترك- ونحوها بدعوى أن النبِي ﷺ لَم يفعلها، فَاتْلُ عليه قوله تعالَى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[1].

وبِمجموع هذه التقعيدات والتأصيلات؛ يتضح أن حكم المولد النبوي يدخل فِي دائرة الندب، ورغم أنه ﷺ تركه بهذا الشكل الذي نحتفل به اليوم؛ فلا ضير أن نفرح به، بل يندب إليه عند الفتور، وسآمة القلوب، ويبلغ هذا الندب مداه، والترغيب فِي الاحتفال بالمولد أقصاه، فِي عصرنا الحالِي الذي ظهرت فيه كثير من الأعياد المخالفة لديننا الحنيف، وذلك فِي غمرة سَيْلٍ من الاحتفالات الأخرى كالاحتفال برأس السنة الميلادية، وما يجري مجراها.

فدونك رسوخ كثير من أعياد النصارى فِي تقاليد مجتمعاتنا المعاصرة؛ وعن بعضها يقول بعض الباحثين التونسيين: «وولوع المجتمع الإفريقي بأفراح الأعياد بشتى أنواعها سواء كانت من أصل إسلامي سني، أو شيعي، أو مسيحي، أو يهودي، أو حتى وثنِي، كعيد عاشوراء، وطقوس "طانيت" [Tanit] البونيقية خلال فترات القحط، والمهرجان الفارسي، والقصف فِي عيد المسيح عدا عيدي الفطر، والأضحى، والأعياد الإسلامية الأخرى، كل ذلك لا يزال فِي أيامنا هذه بالبلاد التونسية واقعاً مثيراً للانتباه، منغرساً فِي التقاليد..[2]».

وإذا كان تقليد المجتمعات الغربية فِي عاداتها وتقاليدها قد أصبح اليوم وللأسف ظاهرة عند كثير من الشباب؛ فإن الأدهى والأمر أن يمارسوا ذلك التقليد على أنه

---

(1) حُسْنُ التفهُّم والدَّرْك لمسألة الترك (ص/ 151) عالَم الكتب/ 2006 وضمن الكتاب ثلاث رسائل أخرى نفيسة جدّاً لنفس المؤلف الأولَى: إتقان الصنعة فِي تحقيق معنى البدعة، والثانية: سُنية رفع اليدين فِي الدعاء بعد الصلاة، والثالثة: توضيح البيان لوصول ثواب القرآن.

(2) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للإمام أبِي الحسن القابسي (ص/ 47) مقدمة المحقق تحقيق أحمد خالد نشر الدار التونسية الطبعة الأولَى/ جانفي 1986.

مظهر من مظاهر التحضر والرقي، مجاراة منهم لليهود والنصارى فِي عاداتهم، وسيراً على طريقتهم، وتخلقاً بأخلاقهم فِي ارتكاب أبشع الرذائل، وزادت وسائل الإعلام الطين بلة، والداء علة، حين دأبت على نقل التصريحات بشأنها، والاستعدادات القبلية لها، واستطلاعات الرأي حولها، وبث مظاهر الاحتفال بها، وزادوا على ما ذُكر أضعافاً مضاعفة ليترسخ ذلك فِي نفوس الشباب حتى يصبح فِي النهاية وكأنه من صميم عاداتهم، فإذا كان ذلك كذلك؛ أفلا يستحيي مقابل ذلك من ينكر إظهار شعائر الإسلام وأيامه المجيدة، وذكرياته الشريفة، وفِي مقدمتها ذكرى مولد المصطفى ﷺ.

وتحاشياً للطول؛ فقد اكتفيت بهذا القدر من النقول حول مسألة الترك، تجنباً لإثقال هذه الرسالة بها، وأظن أن هذا القدر كافٍ لذوي الإنصاف، رادع لأهل الاعتساف، وبهذا تسقط أقوى الشبه التِي اتَّكَأ عليها المنكرون عامة.



المبحث الرابع: هل قوله ﷺ كل بدعة ضلالة محمول على الإطلاق؟:

تعتبر هذه الشبهة من أهم الشبه التِي يثيرها المانعون؛ وهي حمل قولهﷺ "كل بدعة ضلالة" على إطلاقه، وما تفرع عنه من قول المنكرين؛ ليس فِي البدع شيء حسن، فأقول:

أما استدلالهم بعموم قولهﷺ "كل بدعة ضلالة" فنلاحظ عليهم أنهم فهموا من الحديث أنه عام؛ والحال أن الحديث خاص بالبدع الضالة والسيئة؛ لا الحسنة والمحمودة، فأبطلوا بموجب ذلك كل بدعة مهما كانت، كما يظهر لما قال صاحب المطوية فِي معرض رده على بعض حجج المؤيدين للمولد: «والجواب أن يقال ليس فِي البدع شيء حسن..» فِي حين أن قوله ﷺ: "كل بدعة ضلالة" عند كثير من كبار المحققين، والعلماء المعتبرين؛ عام مخصوص بالبدعة السيئة التِي لَم يشهد لجنسها دليل لا من الكتاب، ولا من السنة.

ولو ذهبنا مع المخالفين وانتحلنا مذهبهم قليلاً وقلنا معهم: ليس فِي البدع شيء حسن؛ لطعَنَّا فِي حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم فِي صحيحه: أن النبِيﷺ قال: «من سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلَى يوم القيامة.. الحديث [1]» **فظاهره فيه تصريح على فتح أبواب الخير، وسَنِّ السنن الحميدة، واستحداث البدع الحسنة، بله الواجبة، وكل ما تشهد لجنسه أصول الدين، ويجلب المنفعة للمسلمين، ويُقَوِّي أواصر المحبة بِنَبِيِّنا الأمين، ولو أُحدِث فِي هذه السنين،** ويشهد لهذا صراحة قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن"[2] وقولهﷺ: "لا تجتمع أمتِي على ضلالة"[3] وقوله: "يد الله مع الجماعة"[4].

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى وضلالة تحت رقم [1017].

(2) أثر موقوف على ابن مسعود رواه الإمام أحمد فِي مسنده.

(3) أخرجه ابن عبد البر في الجامع باب معرفة أصول العلم وحقيقته وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقا تحت رقم [1390] . جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (1/ 756) تحقيق أبي الأشبال الزهري نشر دار ابن الجوزي السعودية الطبعة الأولى/ 1994.

(4) أخرجه الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء فِي لزوم الجماعة تحت رقم [2166].

بل لو عَمَّمْنا اللفظ فِي كل بدعة بأنها ضلالة؛ لكان ذلك معارضاً لقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صلاة التراويح «نعمت البدعة هذه..[1]» ولَكَانَ من باب أوْلَى جمع القرآن بعد موته ﷺ وجمع السنة فِي عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز من أكبر البدع الضالة فِي تاريخ الإسلام على الإطلاق، إذا أخذنا بمنطق من يقول: **ليس فِي البدع شيء حسن.. !!**

ونفس هذا المعنَى رجَّحه الإمام النووي بعد ذكره حديث: "من سن سنة حسنة" شارحاً فقهها، فقال مبيّناً معناها: «فيه الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات- إلَى أن قال- وفِي هذا الحديث تخصيص قوله ﷺ: "كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة" وأن المراد به؛ المحدثات الباطلة، والبدع المذمومة، وقد سبق بيان ذلك فِي كتاب صلاة الجمعة، وذكرنا هناك؛ أن البدع خمسة أقسام: واجبة، ومندوبة، ومحرمة، ومكروهة، ومباحة..[2]».

ويظهر أن الجنوح إلَى التقسيم الخماسي للبدع وتخصيص قوله ﷺ: كل محدثة بدعة بالبدع الضالة؛ مذهب قوي ووجيه، مال إليه أساطين الفقهاء المبرزين، واتكأ عليه أشهر المحققين الراسخين، فهذا الشيخ الطاهر بن عاشور -شيخ المالكية بالديار التونسية آخر من خَرَّج الفروع على الأصول هناك- استنبط من قوله تعالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[3] جواز البدع الحسنة، فقال مُؤَوِّلاً معنَى الآية:

«وفيها حجة لانقسام البدعة إلَى محمودة ومذمومة بِحسب اندراجها تحت نوع من أنواع المشروعية فتعتريها الأحكام الخمسة.. وأما الذين حاولوا حصرها فِي الذم؛

---

(1) جزء من حديث أخرجه الإمام مالك فِي الموطأ كتاب الصلاة في رمضان باب ما جاء في قيام رمضان (1/ 40) المطبعة الشرفية/ 1423هـ.

(2) شرح النووي عل صحيح مسلم (7/ 104-105) و (6/ 154 -155) نشر المطبعة المصرية.

(3) من الآية 26 من سورة الحديد.

فلم يجدوا مصرفاً..[1]» بخلاف الحافظ ابن كثير؛ فقد استنبط منها عدم المشروعية، لذا رد عليه تلميذ ابن عاشور الحافظ عبد الله بن الصديق بقوله: «وهذا يفيد مشروعية البدعة الحسنة كما هو ظاهر، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَم يدرك مغزى الآية فحملها على ذم البدعة مُطلقاً..[2]».

ولا شك أن مذهب تقسيم البدع إلَى محمودة ومذمومة استمده جمهور الفقهاء من مقاصد أصول التطبيقات الفقهية لكبار السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، كالحديث الذي رواه الإمام البخاري بسنده المتصل إلَى رفاعة بن رافع الزرقي قال: "كنا يوماً نصلي وراء النبِي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول..[3]» قال الحافظ ابن جحر مبيناً فقه هذا الحديث:

«واستُدل به على جواز إحداث ذكر فِي الصلاة غير مأثور، إذا كان غير مخالف للمأثور، وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لَم يشوش على من معه..[4]» فصار ما أحدثه الصحابِي الجليل رفاعة بن رافع الزرقي؛ داخلاً فِي صلب الصلاة، معدوداً فِي أحكامها، يكرره المانعون للبدع الحسنة مرات كل يوم، فهل يستطيعون بعد هذا أن ينكروا أن قوله ﷺ كل بدعة ضلالة عام فِي كل البدع؛ أم هو مخصوص بالسنن الحميدة، والبدع الحسنة !!

ويضاف إلَى هذا استحداث الصحابِي الجليل خبيب ركعتين عند القتل لما قال لمن حاصروه، كما في الصحيح: «دعونِي أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين فقال:

---

(1) التحرير والتنوير (27/ 424) نشر الدار التونسية للنشر الطبعة الأولَى/ 1984.

(2) إتقان الصنعة فِي تحقيق معنى البدعة (ص/ 28).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاري عن ابن رافع الزرقي كتاب الأذان باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد تحت رقم [799].

(4) فتح الباري (2/ 287) نشر دار المعرفة بيروت.

والله لولا أن تحسبوا أن ما بِي جزع لزدت، ثُم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، ثُم أنشأ يقول:

فلست أبالِي حين أُقتَلُ مسلماً ❁ على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك فِي ذات الإله وإن يشأ ❁ يبارك على أوصال شلو ممزع[1]»

ووجه الاستدلال بهذا الحديث؛ أن الصحابِي الجليل خبيب أول من استحدث صلاة ركعتين قبل قتله، فصارت بعده سنة حميدة، فقد مات المئات من الصحابة قبله ولَم يُنقل أنهم فعلوا ذلك، ومع علم الصحابة بعدم وجود نص فِي المسألة؛ أقروه جميعاً على فعله، واستحسنوا صنيعه، فهذه ولا شك محدثة بدعة، وافقه عليها من جاء بعده من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من دون نكير من أحد، حتى صارت سنة حميدة، وإن شئت قلت: بدعة حسنة، ولا مشاحاة فِي الاصطلاح.

فهل الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلَى يوم الدين لَم يتفطنوا إلَى إطلاق العموم فِي حديث البدعة؟ أم أنهم مخطئون فِي إجماعهم على حديث خبيب فِي سن صلاة القتل؟ بل ويشتد هذا الخطأ أكثر -من باب أولَى- قبول المصطفى ﷺ زيادة ربنا ولك الحمد فِي الصلاة؟

وكذلك بعض الصحابيات اقترحن على المصطفى ﷺ استحداث منبر للجمعة كما روى الإمام أحمد فِي مسنده بسنده عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلَى جذع نخلة قال: فقالت امرأة من الأنصار كان لها غلام نجار: يا رسول الله إن لِي غلاماً نجاراً، أفلا آمره أن يتخذ لك منبراً تخطب عليه؟ قال: بلى، قال: فاتخذ له منبراً قال: فلما كان يوم الجمعة خطب على المنبر، قال: فَأَنَّ الجذعُ الذي كان يقوم عليه كما يئن الصبي، فقال النبِي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر[2]».

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري عن أبِي هريرة تحت رقم [3989].

(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل تحت رقم [14206] تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون (22/ 118) إشراف: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ط الأولَى 2001.

وصفوة القول أن من تتبع حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجدُ جُلهم ابتدعوا أموراً كثيرة واستحسنوها من دون نكيرٍ من أَحد، ومن وقف فِي "تاريخ الخلفاء للسيوطي" على فصل: - أوَّلِيات عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]- وتصفَّح "إتقان الصنعة فِي تحقيق معنى البدعة" للحافظ عبد الله بن الصديق الغماري، وخاصة منه مبحث- نبذة مما أحدثه الصحابة بعد العهد النبوي[2]- وطالع كتاب "منهج عمر بن الخطاب فِي التشريع"[3] سيما الباب الثانِي منه والموسوم بـ: - ما ليس فيه نصوص خاصة- فضلاً عما فِي غير هذه الكتب عند التابعين والأئمة الأربعة[4] ومن جاء بعدهم من استحداث عشرات البدع الواجبة والحسنة، لاستغرب قول المنكرين: «**ليس فِي البدع شيء حسن!!** » ولَعَلِمَ أن رُدُودَهم واهية؛ ولاعْتَبر يقيناً أن سيف العموم الذي يُشْهِرونه فِي وجه كل بدعة؛ خاص بالحوادث السيئة، والبدع القبيحة، وليس عاماً فِي البدعة الواجبة؛ كالمناظرات فِي أصول العقائد، والحسنة كذكرى المولد النبوي الشريف.

وهل يتصور أن يخفى إطلاق العموم فِي حديث البدعة على النظار الكبير، والمحقق الناقد الإمام ابن العربِي؛ فاسمع إليه ماذا قال فِي العارضة: «المحدَثُ قسمان: محدث ليس له أصل إلا الشهوة والعمل بمقتضى الإرادة فهذا باطل قطعاً، ومُحدث بِحمل النظير إلَى النظير، فهذه سنة الخلفاء، والأئمة الفضلاء، وإنما يُذَمُّ من البدعة ما خالف السنة؛ ومن المحدثات ما دعا إلَى ضلالة..[5]».

إلَى هنا ينتهي تعقُّبُنَا لطائفة من العلماء المشارقة المنكرين للمولد؛ وقبل أن أختم: أود أن أبوح بكلماتٍ طالما راودتنِي منذ الشروع فِي هذه الرسالة؛ فأحببت لَمَّا صاحبتنِي ابتداء؛ أن أبسطها انتهاء فأقول:

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص/ 169) نشر مكتبة مصر الطبعة الأولَى/ 2001.

(2) إتقان الصنعة للحافظ عبد الله بن الصديق (ص/ 61).

(3) منهج عمر بن الخطاب فِي التشريع للدكتور بلتاجي (ص/ 307 -475) دار السلام الطبعة الأولَى/ 2002.

(4) لمزيد من الإيضاح انظر كتاب السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي للبوطي (ص/ 97 158).

(5) عارضة الأحوذي (10/ 147).

كثيراً ما أتساءل مع نفسي وأنا أُلاحظ أن كثيراً من المندوبات، والبدع الحسنة يفعلها كبار المنكرين للمولد فِي هذا العصر والـمُبَدِّعُون له، ولَم يفعلها الرسولﷺ ولا فعلها أصحابه من بعده فِي القرون المفضلة، بل استُحدِثَت بعدهم بأزمان طويلة، كاجتماعهم على إمام واحد فِي آخر اللَّيْل لأداء صلاة التهجد بعد صلاة التراويح، وكختم المصحف فيها[1] واستحداث دعاء ختم القرآن فِي آخر ليلة القدر، مع علمهم بتبديع ختم القرآن، والدعاء عقبه فِي رمضان سيما: «وأن الأمر المعمول به؛ إنما هو للصلاة من غير قصص ولا دعاء..[2]» كما قرر ذلك الإمام أبو بكر الطرطوشي فِي كتابه: الحوادث والبدع.

بل زادوا على كل ما سلف رفع الأذان على المنابر والإنصات فِي الصلوات، فَضْلاً عن تعدد الجمعات فِي مساجد متقاربة فِي كل الأمصار، مع أن النبِي ﷺ لَم يأذن لأهل العوالِي بإقامتها عندهم مع بُعد المسافة بينهم وبين المسجد النبوي، كما هو معروف خلافاً لِما وقع الآن.

وكذا توسيع أماكن مناسك الحج والشعائر -مع كون أصول تلكم المواطن تعبدية- خلافاً لِما كانت عليه فِي السابق، ونظائر هذا أكثر من أن تُحصى، لكن تبقى أشهر تلك البدع على الإطلاق التِي فعلوها هي التِي ذكرها سلطان العلماء العز بن عبد السلام حين قسم البدع إلَى خمسة أقسام قائلاً: «وللبدع المكروهة أمثلة: منها؛ زخرفة المساجد، وتزويق المصاحف..[3]».

بل أكثر من هذا وذاك؛ أن سماحة الشيخ المرحوم العلامة عبد العزيز بن باز قال فِي ذكرى الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب: «أيها الإخوة الكرام؛ إن الاجتماع لدراسة مذهب السلف الصالِح، ومنه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعريف

---

(1) انظر المدخل لابن الحاج (2/ 275) وكذا مدونة الإمام مالك (1/ 232).

(2) الحوادث والبدع للطرطوشي (ص/ 58) تحقيق محمد الطالبِي كتابة الدولة للتربية القومية تونس.

(3) قواعد الأحكام فِي مصالح الأنام، أو القواعد الكبرى (2/ 337).

الناس بها، وحثهم على الاستمساك بما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وسلف هذه الأمة، أمر واجب ومن أعظم القرب إلَى الله؛ لأنه تعاون على الخير، وتشاور فِي المعروف..[1]» .

فإذا كانت ذكرى الشيخ المجدد العلامة محمد بن عبد الوهاب أمراً واجباً؛ أفلا تكون من باب أولَى ذكرى مولد المصطفى ﷺ من أوكد الواجبات؟

لكنهم والحمد لله تراجعوا عن منهجهم الظاهري فِي هذه الأيام لما استحدثوا الاحتفال باليوم الوطنِي، وخصصوا يوم المولد النبوي الشريف بعطلة رسمية خاصة، كما أجازوا إنشاد الشعر وقرضه في يوم مولده، فكان ذلك بمجموعه؛ بمثابة مقدمات تمهيدية للاحتفال بالمولد النبوي مستقبلاً.

وكل هذه الأسئلة راودتنِي لأتساءل مرة أخرى؛ لماذا يا ترى لَم يحكموا على هذه البدع المستجدة على أنها بدع منكرة وضَالة عملاً بقولهم ليس فِي البدع شيء حسن؟ أو يفرعونها على أصول الاعتقاد وتكفير فاعلها !! أو ينكرونها لأنها لو كانت خيراً لَسبقُونا إليها؟ وما المانع أن يعرضُوا هذه البدع على القاعدة المعروفة: رَدُّ ما تنازع فيه الناس إلَى الكتاب والسنة، لِيَروْا هَلْ سيجدونها فيهما؟

وعملاً بالمثل السائر: "وبِضِدِّهَا تتميز الأشياء"[2]: لا أدري ماذا سيكون موقف المنكرين للمولد إن خَرَّجْتُ على أصولهم أحكاماً من قبيل: أنَّ مَنْ فعل شيئاً مما أسلفناه من البدع التِي أقروها؛ يُدْرَج ضمن المغضوب عليهم والضالين أسوة بقاعدة حامد الفقي، وكذا لا أعرف بما سيردون إن فَرَّعْت على قواعدهم بأن جميع المصلين صلاة التهجد فِي رمضان وحضروا لدعاء الختم؛ تلزمهم التوبة على أصل صاحب المطوية؟

---

(1) لقد خصص علماء السعودية أسبوعاً كاملاً لذكرى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحت عنوان: [كلمة فِي أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ] بجامعة الإمام محمد بن سعود.

(2) هذا عجز بيت للمتنبي صدره : ونُدِيمُهم وبهم عرفنا فضله.

ديوان المتنبِي (ص/ 85) البيت رقم [22] نشر دار صادر طُبع دون تاريخ.

وأن كل الجمعات المستحدثة القريبة من المسجد النبوي بدعة ضَالَّة ومنكرة، استحدثت بعد حين من الدهر من عصر السلف، بعد أن منع النبِي ﷺ استحداثها هناك، وأن صلاة هؤلاء غير مقبولة تعاد فِي الوقت، أو تتنزل فِي أقل أحوالها عند المتساهلين منزلة صلاة الظهر، وأن الحجاج الذين أحرموا فِي الطائرة وطافوا ورجموا فِي الطابقين الثانِي والثالث فِي حجهم قولان، لخروجها عن مواطن التعبد التي حج فيها النبِي ﷺ وأن زخرفة المساجد، وتزويق المصاحف بدعة مكروهة، وكل هذه الأمور تركها الصحابة؛ وما تركوه لا يمكن أن يكون تركهم إياه إلا لكونه لا خير فيه، اقتفاء بمنهج الشيخ محمد الأنصاري وتعليلاته، وسيراً على مسلكه الاجتهادي وتنزيلاته !!

أقول كل هذا وفق أصولهم وعلى ضوء قواعدهم مُستعرضاً فِي الوقت نفسه كل تلك البدع الأخرى التِي أنكروها: كالاحتفال بالمولد، والدعاء بعد الصلاة، والمصافحة عقبها، والانصات يوم الجمعة، والمداومة على الحزب الراتب، وغيرها.. **لأخلص فِي النهاية إلَى اتحاد عِلَل تلك البدع التِي استحدثها المؤيدون والمانعون جميعًا، وانطباق أمارات تلك الحوادث مِمَّا يستوجب معه لاَ مَحَالَةَ فِي التخريج الأصولِي توحيد الأحكام المنزلة على كل تلك البدع بجامع اشتراكهما معًا فِي عِلَّتَيْ: الاستحداث، والمبالغة فِي التَّعبد، فهي إما أن تكون جميعها آنئذ بدعة حسنة وعادة حميدة؛ وإلا فلْتَكن كلها كما قالوا بدعة ضالة ومنكرة !!**

ومن هنا تبَيَّنَ للعيان تناقض المنكرين، فَهُمْ بهذا إما أن يعترفوا بمشروعية البدع الحسنة وعدم الإنكار على المحتفلين، وإما أن أتركهم يردون على أنفسهم فِي الموطن الثانِي لما استحدثوا عدداً من البدع والحوادث الحسنة فأجازوها من دون نكير بينهم لِيُزيلوا ذلك التناقض بأنفسهم، فإن أبو ذاك وذلك؛ فيكفينا حكمًا بيننا قول الشاعر قيس بن الخطيم:

نحــن بمــا عنــدنا وأنــت بمــا ۞ عنـدك راضٍ والـرأي مختلـف[1]

أما فِي الاتِّجاه المقابل؛ فنجد المؤيدين للاحتفال بالمولد -وهم السواد الأعظم من الأمة الإسلامية- استحسنوا كل تلك البدع وجوَّزُوها بداءة، وانتزعُوا مشروعيتها من عمومات النصوص، وكليات الشرع، واستخرجوا حُسْنَها من مقاصده العامة، وقواعده المعتبرة، ولَم يلاحَظ على منهجهم -والحمد لله- أي تناقض، بل تخريجاتهم ما زالت جارية، وتفريعاتهم على الأصول الكلية سارية بشكل ينسجم مع أغراض النصوص الشرعية، ويتوافق مع تأويلاتها العامة، لأن النبِي ﷺ كما قال الحافظ عبدالله بن الصديق: «لَم يفعل جميع المندوبات؛ بل اكتفى بالإرشاد إليها فِي عموم الآيات والأحاديث الدالة على فعل الخير[2]».

ولو عمدنا إلَى تتبع كل نوع من أنواع هذه البدع الحسنة ومنعها بدعوى لَم يَنُص عليها فِي القرآن والسنة، وتبديعها تَحت ذريعة لَم يفعلها النبِي ﷺ لتعطلت عمومات النصوص، ولتوقفت كلِّيات الشرع عن التفريع، بل هذا المنهج فِي التأصيل عند من تأمل أبعاده، واسْتَبْصَر مآله؛ سيجد فيه تهديداً لحصوننا من داخلها، وهَدْماً لفضائل الشريعة ومقاصدها، وإبطال سريان مفعول محاسن الأعمال التطوعية، وأخشى أن يَجُرَّ ذلك إلَى اتهامها بأنها غير وافية بأحكام المستجدات والنوازل التِي تقع للناس على مدى العصور.

ومن قارن بين المؤيدين للتقسيم المذكور والمنكرين له؛ سيتعذر عليه أن يخالف ما استقر عليه جمهور العلماء الراسخين من أمثال الإمام الشافعي، وابن عبد البر، والإمام الغزالِي، وابن العربِي، وأبِي شامة المقدسي، والإمام النووي، والعز بن عبد السلام، وكبار الـمُحَدِّثين والحفاظ فِي تاريخ الإسلام، كابن الصلاح، والحافظ زين الدين العراقي، وابن حجر العسقلانِي، والسخاوي، والسيوطي، والقسطلانِي،

---

(1) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبِي الفتح العباسي (1/ 189) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد عالَم الكتب.

(2) سُنِّية رفع اليدين فِي الدعاء بعد الصلاة للمحدث محمد الأهدل تحقيق الحافظ عبد الله الغماري (ص/ 128) نشر عالَم الكتب/ 2006.

وأشهر النوازليين كالإمام ابن عبد النور صاحب الحاوي، والبرزلِي، والونشريسي، وابن عظوم، والوزانِي، وغيرهم فهؤلاء كلهم وعشرات أمثالهم مالوا إلَى التقسيم الخماسي للبدع على حسب الأحكام التكليفية الخمسة، ولو أردنا أن نعدد مخالفيهم؛ لما استطعنا عَدَّ عُشر معشار ما ذُكِر، بل ولا نصيفه، وأنصحك أيها الناظر الحصيف؛ ألا تكون منكراً ومحاجداً لهذا التقسيم؛ فبادر باتباع نصيحة ابن غازي:

كن تابعاً ووافقن من اتبع ۞ وقسمن لخمسة هذي البدع

وأنا أعتقد وأدين الله أن التقسيم الخماسي مذهب قوي اسْتَمده العلماء من أصول الشرع الكلية، وانتزعوه من قواعده المعتبرة، وإلا فهل يُعقل أن يجتمع هؤلاء العلماء على مدار أكثر من ألف سنة على ضلالة، فليحذر من يخالف أولئك السادة، وليتق الله من يشنع على هؤلاء الأئمة، وفِي أمثالهم يقول الحافظ ابن عساكر فِي مقدمة التبيين: «إن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله فِي هتك أستار مُنتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم..[1]».

ولئن كان ابن عساكر نبه على خطورة هتك أعراض العلماء؛ فإن الشيخ الطاهر ابن عاشور قرر قاعدة جليلة أخرى فِي التأدب معهم، واحترام أقوالهم قائلاً فِي مقدمة تفسيره: «رأيتُ الناس حول كلام الأقدمين أحد رَجُلَين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله فِي هدم ما مضت عليه القرون، وفِي كلتا الحالتين ضرٌّ كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير؛ وهي؛ أن نعمد إلَى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده..[2]».

ويجب التنبيه على أن إخواننا المنكرين والمانعين وإن أخطؤوا فِي تصورهم

(1) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلَى الإمام أبِي الحسن الأشعري لابن عساكر تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا (ص/ 41) نشر دار الجيل الطبعة الأولَى/ 1995.

(2) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور (1/ 7).

لمنابع تفريع ذكرى المولد الشريف؛ فإن ذلك مغمور فِي بحر حسناتهم، والجميل فِي شريعتنا الغراء؛ أن كِلا الفريقين مأجور؛ المتمسكون بحرفية النص، والوقوف على ظاهره وعدم تجاوزه، والـمُؤوِّلون لِمعانيه والغواصون فِي بحار أسراره ومقاصده، فكلاهما والحمد لله مصيب، عملاً بحادثة صلاة العصر فِي بنِي قريظة.

ويظهر أن هذه المساجلات والردود الواقعة بين الفريقين فِي مختلف الفروع والأحكام يمكن أن ننظر إليها بمنظار آخر، وهو أن هذا الاختلاف؛ سنة من السنن الكونية، ومقصد عظيم من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية.

لذا فإن احتكاك ثنائية النقل والعقل، والظاهر مع المؤول منهج شرعي امتد منذ عصر النبي ﷺ إلَى الآن، تختلف تفاعلاته حسب الأعصار، ومن ثَم نقع فجأة فِي الأخير على سر فلسفة الخلاف وما انطوى عليه من حكم ودلالات، ذلكم هو؛ ضمان استمرار آلية الاستخلاف فِي الأرض، تحقيقاً لقوله تعالَى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[1] فيكون مفهوم الآية؛ أن الصلاح يكون بموجب التدافع، والتناظر، وتلاقح الأفكار؛ والاختلاف المحمود، والفساد يكون بخلافهما، ونقيض مقصودهما فتأمَّل !!

وأحب أن أختم هذا السفر بما بدأ به الشيخ خليل مختصره، لما قال: «ثُم أعتذر لذوي الألباب، من التقصير الواقع فِي هذا الكتاب، وأسأل بلسان التضرع والخشوع، وخطاب التذلل والخضوع؛ أن ينظر بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، ومن خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنَّف من الهفوات، أو ينجو مؤلِّف من العثرات..[2]».



(1) من الآية 249 من سورة البقرة.

(2) مختصر خليل (ص/ 12) تحقيق أحمد جاد نشر دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولَى/ 2005.

خاتــمة

أَلَم يان للمنكرين أن يعلموا أن الاحتفال بذكرى المولد الشريف- على فرض اعتباره بدعة منكرة- أقل ضرراً من شق عصا الجماعة، وتفريق الكلمة، وتمزيق صف الأمة، وإيقاع الخُلْف بين المسلمين للعمل بالقول الراجح فِي المسائل الفرعية -هذا إن سلمنا صحة إطلاق العموم فِي قولهﷺ: كل بدعة ضلالة- فكيف إذا لَم يصح، علماً بأن الاحتفال بالمولد لا يحل حراماً، ولا يعطل واجباً، ولا يخالف أصول الإسلام، ولا يتعارض مع قواعد الدين، فكيف يتسبب فِي تشتُّتِهم وتمزيق وحدتهم؟

ولو فَقِهَ المسلمون من جهة أخرى مواطن تلك التخريجات التِي مضى الكلام عنها، ومجال تلكم التفريعات؛ لَقَلَّ الخلاف حول هذه الذكرى، ولانتهت كثير من المعارك بين الفريقين، والمساجلات العلمية بين المختلفين، ونحسب أن هذه الرسالة أتت فِي خضم هذه النزاعات لِتُسْهِمَ -ولو إلَى حين- فِي تقويم الفكر، وتسديد المنهج، وتأصيل هذا النوع من التخريجات حتى يهتدي بها الباحثون، وطلاب العلم، فِي العصر الحديث، فيحرصون على تقعيد أحكامها، من عمومات النصوص، وتأصيل مسالكها من أصول السنة النبوية، لتُصَان فروعها من التكفير، والتفسيق والتضليل، سَعْياً لتقريب الشُّقة، ولَمِّ الشَّعَث، وتوحيد الآراء.

وبهذا تكون أسرار هذه الذكرى الشريفة ومقاصدها قد ضاعت بين الغالين فيها بتكفير المحتفلين وإخراجهم من الملة؛ والجافين فيها بارتكابهم الطقوس الشاذة

والأفعال الشنيعة باسمها، وصدق أبو الحسنين علي بن أبِي طالب كرم الله وجهه لما قال: "ضاع هذا الدِّين بين الغالي فيه، والجافي عنه".

وهذا البون الشاسع بين هذين الفريقين؛ كان إحدى الأسباب التِي أتت هذه الرسالة من أجله، ولعل ما قرأتَه -أيها القارئ الفاضل- في مختلف فصولها ومباحثِها؛ فيه على ما أعتقد، ما يَحُدُّ من غلو الغالين، وما يقابله من تفريط المُفرطِين، للوصول إلَى منهج تفريعي وسطي، مُنْتَزَع من أدلة أصول الفقه وقواعده، ومُخَرَّج على أصول صحيحة من الأصلين الكتاب والسنة.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفهـارس العـامـة:

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الآثـار
- فهرس القواعد الأصولية
- فهرس الأشعار
- أشعار الملحون والأزجال الشعبية
- فهرس الأمثال
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنَ اَفْوَاهِهِمْ﴾	5	الكهف	249
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾	106	الأنبياء	246
﴿وَافْعَلُواْ اُلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	75	الحج	221-243-267
﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالاَبْصَارِ﴾	43	النور	136
﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَالِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾	64	المومنون	273
﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾	66	النمل	246
﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾	43	الأحزاب	67
﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾	32	فاطر	242
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	23	ص	274
﴿وَقَالَ اُلذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	101	الأحقاف	254
﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ اُلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾	18	الفتح	92
﴿ وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا ﴾	26	الحديد	281
﴿يَاتِي مِنْ بَعْدِيَ اَسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾	6	الصف	233
﴿ فَإِنَّ اُللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾	4	التحريم	238
﴿أَفَنَجْعَلُ اُلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾	35-36	القلم	249

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾	26	المطففين	56
﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾	14	الفجر	65

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار الموقوفة

فهرس القواعد الفقهية والأصولية

فهرس الأشعار والأنظام

ليت شعري يا سيدي لِم خصوا			143
لمن نلتجي يا من إليه تصير	أَحْمَد بن عبد الحي الحلبِي	الطويل	132
ما بال مراكش باتت على مضض	محمد بن اليمنِي الناصري		132
أتى المساجد مختالا بشرطته			
فإنِّي قد رأيت لكم صدوداً	الكميث		130

أشعار الملحون والأزجال الشعبية

فهرس الأمثال العربية

□

□

لائحة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

❖ كتب الحـديث:

2. صحيح البخاري تحقيق محمد زهير الناصر ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي نشر دار طوق النجاة الطبعة الأولَى/ 2001.
3. صحيح مسلم ترقيم فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر بيروت الطبعة الأولَى/ 1999.
4. صحيح مسلم تحقيق عصام الصبابطي طبعة القاهرة/ 1415.
5. سنن الترمذي تحقيق عزت عبيد الدعاس، نشر دار الدعوة الطبعة الأولَى/ 1385.
6. سنن أبِي داود تحقيق محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية صيدا بيروت طبع دون تاريخ.
7. الموطأ للإمام مالك نشر المطبعة الشرفية/ 1423هـ.
8. مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وآخرون، إشراف: الدكتور عبد الله بن عبدالمحسن التركي نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الأولَى/ 2001.
9. السنن الكبرى للبيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية الطبعة الثالثة/ 2003.
10. سنن الدرامي نشر دار الكتاب العربِي دون تاريخ.
11. مصنف عبد الرزاق تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي المكتب الإسلامي الطبعة الثانية/ 1403.

❖ شروح الحديث:

12. شرح صحيح البخاري لابن بطال تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم نشر دار النشر مكتبة الرشد السعودية الرياض الطبعة الثانية/ 2003.

13. إكمالالإكمال المعلم شرح مسلم للأبِي، نشر دار الفكر طبع دون تاريخ.

14. شرح النووي على صحيح مسلم نشر المطبعة المصرية.

15. النهاية فِي غريب الحديث والأثر لابن الأثير، طبعة مصطفى البابِي وأولاده القاهرة مصر.

16. فتح الباري لابن حجر العسقلانِي نشر دار إحياء التراث العربِي بيروت الطبعة الثانية/ 1406.

17. جامع العلوم والحكم لابن رجب تحقيق وليد بن سلامة الطبعة الأولَى مكتبة الصفا/ 2002.

18. حاشية السندي على صحيح البخاري، نشر دار صعب بيروت طبع دون تاريخ.

19. شرح الموطأ للزرقانِي الطبعة الثالثة المطبعة الأميرية/ 1303 .

20. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري نشر دار الأثر.

21. الرسالة المستطرفة للشيخ محمد جعفر الكتانِي دار البشائر الإسلامية الطبعة الخامسة/ 1993.

❖ كتب السيرة:

22. المبتدأ والمبعث والمغازي لابن إسحاق تح محمد حميد الله معهد الدراسات والأبحاث المغرب.

23. سيرة ابن هشام تحقيق طه عبد الرءوف سعد نشر دار الجيل، الطبعة الأولَى/ 1975.

24. الطبقات الكبرى لابن سعد، نشر دار الكتب العلمية طبعت دون تاريخ.

25. دلائل النبوة لأَبِي نعيم دار الكتب العلمية ط/ د.ت.

26. الروض الأنف للإمام السهيلي دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى بيروت.

27. زاد المعاد فِي هدي خير العباد لابن القيم الجوزية تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة/ 2003.

28. المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ لابن حبيب تحقيق مصطفى الذهبِي دار الحديث القاهرة/ 1996.

29. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب دار الجيل لبنان، طُبع دون تاريخ.

30. جنى الجنتين فِي شرف الليلتين ليلة القدر وليلة المولد لابن مرزوق التلمسانِي تحقيق إبراهيم بن الشيخ راشد المريخي نشر دار الضياء الكويت الطبعة الأولَى/ 2016.

31. حُسْن المقصد فِي عمل المولد للسيوطي تحقيق مصطفى عبد القادر عطا الطبعة الأولَى/ 1985 .

32. السيرة الشامية للشيخ محمد بن يوسف الصالحي/ طبعة مصر .

33. المنح المكية فِي شرح الهمزية لابن حجر حققه ثلاثة باحثين دار المنهاج الطبعة الثانية/ 2005.

34. إتمام النعمة الكبرى على العالَم بمولد سيد ولد آدم لابن حجر دار الكتب الطبعة الأولَى/ 2001.

35. ذخيرة المحتاج فِي الصلاة على صاحب اللواء والتاج لمحمد المعطي ابن الصالح الشرقاوي.

36. المولد الروي فِي مولد النبِي ﷺ لملا علي القاري تحقيق مبروك إسماعيل مكتبة القرآن طبع د.ت.

37. اليُمْن والإِسعاد بولادة خير العباد دار الكتب العلمية ط. الأولَى/ 2005 ضمن مجموع فِي خمسة رسائل طبع باسم -السفر الصوفِي- منها رسالتان حول المولد، كلتاهما لمحمد بن جعفر الكتانِي.

38. شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح لابن عاشور مطبعة فينزي تونس/ 2008 .

39. قصة المولِد للشيخ الطاهر بن عاشور نشر الدار التونسية للنشر.

40. مواكب ربيع فِي مولد الشفيع للحلوانِي تح أحمد المزيدي دار الكتب العلمية ط.الأولَى/ 2007.

41. إرشاد الطالب النجيب إلَى ما فِي المولد من الأكاذيب للشيخ عبد الله بن الصديق الغماري نشر دار الفرقان للنشر الحديث البيضاء طبعت دون تاريخ.

42. البيان والتعريف فِي ذكرى المولد النبوي الشريف لمحمد بن علوي المالكي دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

43. حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف لمحمد بن علوي دار الرشاد الطبعة الأولَى/ 2009.

44. المصنفات المغربية فِي السيرة النبوية ومصنفوها للدكتور محمد يسف مطبعة المعارف الجديدة الطبعة الأولَى/ 1992 .

45. رسائل فِي حكم الاحتفال بالمولد النبوي رئاسة إدارات البحوث العلمية الرياض ط.الأولَى 1981.

46. فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي دار السلام الطبعة السادسة/ 1999.

47. الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري نشر دار المعرفة الطبعة التاسعة/ 2008.
48. محمد رسول الله لمحمد رضا نشر دار الفكر طبع دون تاريخ .
49. الاحتفال بالمولد النبوي بين فتاوى التشريع وفتاوى التبديع للأستاذ البشير المحمودي نشر مطبعة الكرامة، وهي فِي الأصل محاضرة ألقاها فِي مقر المجلس العلمي بمراكش بتاريخ 06/ 07/ 2000.
50. رسالة البشرى بمولد خير الورى للمختار الشنقيطي دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.

❖ كتب العقيدة:

51. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلَى الإمام أبِي الحسن الأشعري لابن عساكر تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا نشر دار الجيل الطبعة الأولَى/ 1995 .
52. اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية تحقيق حامد الفِقِي المكتب الثقافِي السعودي بالمغرب 1988.
53. مفاهيم يجب أن تُصحَّح للسيد محمد بن علوي مطبعة النجاح البيضاء الطبعة الأولَى/ 1993.
54. هو الله للسيد محمد بن علوي المالكي نشر دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولَى/ 2009.
55. التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ ناصر الدين الألبانِي جمع تلميذه محمد عيد العباسي نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض/ 2001 .
56. كتاب نصيحة لعلماء نجد ليوسف هاشم الرفاعي طبعة الكويت دون تاريخ.
57. الرد على الرفاعي والبوطي فِي كذبهما على أهل السنة والجماعة ودعوتهما إلَى البدع والضلال لمحسن العباد نشر دار ابن الأثير الطبعة الأولَى/ 2000.

58. التَّنْديد بمن عَدَّدَ التوحيد للسيد حسن السقاف، دار الإمام النووي عمان الطبعة الأولَى/ 1991 .

59. السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي للبوطي دار الفكر المعاصر ط الأولَى/ 2004.

60. تعليقات على عقيدة أبِي حاتِم الرازي للحداد نشر دار المنهاج/ 1993 .

61. أبو النبي ﷺ وأمُّه ناجيان مرحومان لعدنان زهار نشر دار الرشاد الحديثة ط. الأولَى/ 2010 .

❖ كتب التفسير :

62. الجامع لأحكام القرآن للقرطبِي نشر دار الكتب الطبعة الأولَى/ 1945.

63. تفسير القرآن العظيم لابن كثير نشر دار الفكر بيروت.

64. الدر المنثور فِي التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي نشر المطبعة الميمنية/ 1314.

65. روح المعانِي للألوسي ضبطه علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية الطبعة الثانية/ 2003.

66. التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور نشر الدار التونسية للنشر الطبعة الأولَى/ 1984.

67. تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا المعروف بتفسير المنار تح: فؤاد عبد الغفار المكتبة التوفيقية.

❖ كتب الفقه:

68. المسالك فِي شرح الموطأ لأبِي بكر بن العربِي، تحقيق محمد بن الحسين السليمانِي، وشقيقته عائشة بنت الحسين السليمانِي تقديم يوسف القرضاوي دار الغرب الإسلامي ط. الأولَى 2007

69. المجموع شرح المهذب للإمام النووي نشر دار الفكر طُبع دون تاريخ.

70. المغنِي لابن قدامة نشر مكتبة عاطف وسيد طه طُبع بمصر دون تاريخ .

71. الفُرُوق لشهاب الدين القرافِي نشر دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولَى/ 1344.

72. الاختيارات الفقهية لابن تيمية لابن اللحام الدمشقي الحنبلي دار المعرفة بيروت طبعة/ 1978.

73. فتاوى البرزلِي تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولَى/ 2002.

74. المعيار المعرب للونشريسي تحقيق الدكتور محمد حجي وآخرون نشر وزارة الأوقاف المغربية الطبعة الأولَى/ 1981.

75. أنيس الفقهاء فِي تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء نشر دار ابن الجوزي تحقيق أحمد الكبسي ط/ 2007.

76. حاشية ابن الشاط مطبوعة مع الفروق نشر دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولَى/ 1344.

77. ترتيب الفروق واختصارها لمحمد البقوري تح: عمر بن عباد وزارة الأوقاف المغربية/ 1996.

78. شرح الزقاقية للفاسي نشر دار الفكر طبعة مصورة.

79. تحفة الأكياس للمهدي الوزانِي طبعت دون تاريخ .

80. تشنيف الأذان بأدلة استحباب السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام فِي الصلاة والإقامة والأذان للحافظ أحمد بن الصديق الغماري مراجعة علي جمعة محمد دار جوامع الكلم القاهرة ط. د.ت.

81. الرأي القويم فِي وجوب إتمام المسافر خلف المقيم للحافظ عبد الله بن الصديق نشر عالَم الكتب.

82. حَجَّة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر للشيخ الألبانِي نشر المكتب الإسلامي الطبعة السابعة/ 1985.

83. فتاوى الإمام الشاطِبِي جمع المرحوم أبو الأجفان الطبعة الرابعة العبيكان الرياض/ 2001.

84. فتاوى السيد رشيد رضا طبعة بيروت، بعناية صلاح الدين المنجد طبعت دون تاريخ.

85. منهج عمر بن الخطاب فِي التشريع للدكتور بلتاجي نشر دار السلام الطبعة الأولَى/ 2002 .

86. نظرية التقعيد الفقهي وأثرها فِي اختلاف الفقهاء للدكتور الروكي دار ابن حزم بيروت/ 2000.

87. فقه الصيام للدكتور يوسف القرضاوي الطبعة الأولَى طبعت دون تاريخ .

❖ كتب الأصول:

88. الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب دار ابن عفان الطبعة الأولَى/ 2008.

89. الفصول فِي الأصول لأبِي بكر الجصاص تحقيق عجيل جاسم النشمي وزارة الأوقاف الكويتية الطبعة الثانية/ 1994.

90. الإحكام فِي أصول الأحكام لابن حزم تقديم الدكتور إحسان عباس نشر دار الآفاق الجديدة بيروت/ 1980.

91. البرهان فِي أصول الفقه للجوينِي تح: عبد العظيم الديب دار الوفاء المنصورة ط.الثالثة/ 1992.

92. المحصول فِي أصول الفقه للرازي تحقيق طه جابر العلوانِي مؤسسة الرسالة ط.الثالثة/ 1997.

93. البحر المحيط فِي أصول الفقه لبدر الدين الزركشينشر دار الكتبِي الطبعة الأولَى/ 1994.

94. قواعد الأحكام فِي مصالح الأنام راجعه: طه عبد الرؤوف الكليات الأزهرية ط.الأولَى/ 1991.

95. شرح مفتاح الوصول إلَى بناء الفروع على الأصول للتلمسانِي لمولود السريري نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2010.

96. إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم تحقيق محمد عبد السلام نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 1991.

97. الموافقات للإمام الشاطبِي تحقيق العلامة عبد الله دراز نشر دار المعرفة طبعت دون تاريخ.

98. الموافقات للإمام الشاطبِي تحقيق مشهور حسن نشر دار ابن عفان الطبعة الأولَى/ 1997.

99. منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى للقانِي تحقيق عبد الله الهلالِي نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 2002.

100. حاشية البنانِي على شرح الجلال المحلي على متن جمع الجوامع نشر دار الفكر بيروت/ 2003.

101. حسن التفهم والدرك لمسألة الترك للعلامة عبد الله بن الصديق، نشر عالم الكتب/ 2006.

102. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث لمحمد الغزالِي دار الشروق الطبعة 14/ 2006.

103. كيف نتعامل مع السنة النبوية للقرضاوي نشر دار الشروق الطبعة الخامسة/ 2008.

104. أصول الفقه الإسلامي منهج بحث ومعرفة للدكتور طه جابر العلوانِي نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن الطبعة الثانية/ 1995.

105. المصطلح الأصولِي عند الإمام الشاطبِي للدكتور فريد الأنصاري نشره معهد الدراسات المصطلحية، بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الأولى/ 2004.

106. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبِي لأحمد الريسونِي المعهد العالمي للفكر الإسلامي واشنطن الطبعة الأولَى/ 1990.

❖ كتب البدع والحوادث:

107. الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبِي شامة تحقيق الشيخ مشهور سلمان نشر دار الراية الطبعة الأولَى/ 1990.

108. رسالة فِي ذم صلاة الرغائب للعز بن عبد السلام نشر دار الفكر المعاصر بيروت/ 2001 .

109. مساجلة علمية بين الإمامين الجليلين العز بن عبد السلام وابن الصلاح حول صلاة الرغائب تحقيق الشيخ ناصر الدين الألبانِي وزهير الشاويش المكتب الإسلامي الطبعة الثانية/ 1405هـ.

110. المدخل لابن الحاج طبعة دار الفكر للنشر والتوزيع طبعت دون تاريخ.

111. الاعتصام للشاطبِي نشر دار المعرفة بيروت طبع دون تاريخ.

112. أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام للشيخ بخيت المطيعي الكتب الثقافية/ 1988.

113. إتقان الصنعة فِي تحقيق معنَى البدعة للحافظ عبد الله بن الصديق الغماري عالَم الكتب/ 2006 .

114. البدع وآثارها السيئة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز نشر الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الطبعة الثانية الرياض/ 2009 .

115. الإبداع فِي مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 2001.

116. السنن والمبتدعات للشقيري تقديم محمد حامد الفقي نشر دار ابن الهيثم الطبعة الأولَى/ 2005 .

117. السنة والبدعة للدكتور يوسف القرضاوي نشر مكتبة وهبة الطبعة الثالثة/ 2003.

118. البدع المنكرة لوهبة الزحيلي نشر دار المكتبي دمشق الطبعة الأولى/ 2009.

119. معيار البدعة على طريقة القواعد الفقهية لمحمد الجيزانِي دار ابن الجوزي السعودية/ 1431.

120. حوار مع المالكي فِي رد منكراته وضلالاته للشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض السعودية/ 1984.

121. البدعة مفهومها وضوابطها ندوة نظمها المجلس العلمي لتارودانت نشردار ابن حزم بيروت الطبعة الأولَى/ 2012 .

❖ كتب التاريخ:

122. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين القريزي طبعة مصر.

123. البيان فِي أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى نشر دار الثقافة بيروت/ 1980.

124. مناقب الشام لابن تيمية، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانِي نشر المكتب الإسلامي.

125. قاعدة فِي الجرح والتعديل وقاعدة فِي المؤرخين للتاج السبكي بتحقيق عبد الفتاح أبو غُدَّة.

126. تاريخ عجائب الآثار فِي التراجم والأخبار لأبِي عبد الرحمن الجبرتِي دار الجيل بيروت .

127. النجوم الزاهرة فِي ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار الكتب المصرية.

128. الإعلان بالتوبيخ لِمن ذم أهل التاريخ للسخاوي نشر دار الجيل بيروت الطبعة الأولَى/ 1992.

129. حسن المحاضرة فِي أخبار مصر والقاهرة للحافظ السيوطي طبعة مصر/ 1332هـ.

130. تاريخ الخلفاء للسيوطي مكتبة مصر الطبعة الأولَى/ 2001.

131. مروج الذهب للمسعودي طبعة بيروت دون تاريخ .

132. الذخيرة السنية فِي تاريخ الدولة المرينية لابن أبِي زرع دار المنصور الطبعة الأولَى/ 1972.

133. الأنيس المطرب بروض القرطاس فِي أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس لابن زرع نشر دار المنصور للطباعة الرباط الطبعة الأولَى/ 1972.

134. الحلل الموشية فِي ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة نشر دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء الطبعة الأولَى/ 1979.

135. نفاضة الجراب فِي علالة الاغتراب لابن الخطيب تعليق الدكتور أحمد مختار العبادي دار المعرفة الدار البيضاء.

136. نصح ملوك الإسلام لابن السكاك الطبعة الأولَى فاس.

137. روضة الآس العاطرة فِي ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس للمقري المطبعة الملكية ط الثانية/ 1964.

138. النفحة المسكية فِي السفارة التركية لعلي بن محمد التمكروتِي تحقيق عبد اللطيف الشاذلِي المطبعة الملكية الرباط الطبعة الأولَى/ 2002.

139. مناهل الصفا فِي مآثر موالينا الشرفاء لأبِي فارس الفشتالِي تحقيق عبد الكريم كريم نشر مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة طبع دون تاريخ.

140. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد بن الصغير نشر علي يد بردين بمدينة أنجي الطبعة الأولَى/ 1888.

141. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفرانِي تحقيق: عبداللطيف الشاذلِي، نشر المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية/ 2015.

142. المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لأبِي العباس ابن القاضي تحقيق محمد زروق نشر مكتبة المعارف الجديدة الرباط الطبعة الأولَى/ 1986.

143. الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ لأبِي العباس بن مبارك السجلماسي نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1987.

144. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لابن أبِي الضياف نشر الدار العربية للكتاب تونس/ 1999.

145. تنبيه الـمُعْرِب عما عليه الآن حال المغرب للحسن بوعشرين تح محمد المنونِي دار المعرفة الطبعة الأولَى/ 1994.

146. تاريخ الضعيف لمحمد الضعيف الرباطي تحقيق أحمد العماري دار المأثورات ط.الأولَى/ 1986.

147. روضة التعريف لمحمد الصغير الإفرانِي تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية/ 1995.

148. الحلل البهية فِي ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية لمحمد المشرفِي تحقيق إدريس بوهليلة منشورات وزارة الأوقاف المغربية الطبعة الأولَى/ 2005.

149. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري تحقيق جعفر ومحمد الناصريَيْن نشر دار الكتاب الدار البيضاء.

150. الدارس فِي تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي تحقيق: إبراهيم شمس الدين نشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى/ 1990.

151. الزاوية الدلائية ودورها العلمي والدينِي والسياسي للدكتور محمد حجي وهو فِي الأصل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ملحق رقم [3] نشر المطبعة الوطنية بالرباط/ 1964.

152. حياة الوزان وآثاره لمحمد المهدي الحجوي المطبعة الاقتصادية الرباط الطبعة الأولَى/ 1953.

153. الحركة الفكرية بالمغرب فِي عهد السعديين لمحمد حجي مطبعة فضالة الطبعة الأولَى/ 1976.

154. العز والصولة فِي معالِم نُظُم الدولة لابن زيدان، مطبوعات القصر الملكي المطبعة الملكية، الطبعة الأولَى/ 1961.

155. المنزع اللطيف فِي مفاخر المولَى إسماعيل بن الشريف لابن زيدان تحقيق عبدالهادي التازي نشر مطبعة إديال الدار البيضاء الطبعة الأولَى/ 1993.

156. الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان شركة نوابغ الفكر القاهرة الطبعة الأولَى/ 2008.

157. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لابن زيدان تحقيق علي عمر نشر مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولَى/ 2008.

158. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس تح عبد اللطيف الشادلِي وزارة الأوقاف المغربية الطبعة الأولَى/ 2009.

159. عمدة الراوين فِي تاريخ تطاوين لأبِي العباس أحمد الرهونِي تحقيق الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي نشر جمعية تطاون أسمير الطبعة الأولَى/ 2001.

160. ورقات عن حضارة المرينيين للعلامة سيدي محمد المنونِي منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط –سلسلة بحوث رقم 20– / 1996.

161. سوس العالمة للعلامة المختار السوسي نشر مطبعة بنميد الدار البيضاء الطبعة الثانية/ 1984.

162. المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات نشر دار الرشاد الحديثة البيضاء الطبعة الثانية/ 2002.

163. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إِلَى وفاة الشيخ محمد الحنفي للدكتور أحمد عمالك نشر وزارة الأوقاف المغربية الطبعة الأولَى/ 2006 .

164. منار السعود عن تفراوت الملود ومدرستها العتيقة للفقيه أيت بومهاوت الطبعة الأولَى/ 1994.

165. تاريخ قبائل هلالة للأستاذ محمد بن أحمد البوقدوري نشر مطبعة النجاح الطبعة الأولَى/ 2001.

166. تحفة الأحقاب فيما لاستقرار السباعيين فِي شيشاوة من أسباب وما لهم وللشيشاويين الركراكيين فِي العلم والجهاد من أقطاب للأستاذ عمر العلاوي طبع سنة 2012 دون بيان جهة الطبع.

167. مدرسة بومروان وأنشطتها العملية والدينية للفقيه إبراهيم بوحيدة مطبعة الامنية الرباط/ 2004 .

168. مدرسة أنزا العتيقة بين الأصالة والمعاصرة لعبد الله جعفر مطبوعات السنتيسي/ 2007.

169. من تاريخ مدرسة إكضي إنتاجها العلمي وإشعاعها الثقافِي الطبعة الأولَى/ 2015.

170. الدر النضيد والخبر السديد فِي شخصية الشيخ سعيد للفقيه الحسن توفيق التجاجتِي نشر مطبعة سوماكرام الدار البيضاء الطبعة الأولَى/ 2017.

171. دراسة أنثربولوجية فِي تاريخ الحركة الجزولية البكرية عبر السوس والصحراء المغربية للأستاذ محمد الجوهري نشر مؤسسة سود كونتاكت الطبعة الأولَى/ 2010.

172. موسم زاوية آسا تاريخ يحمل نبراساً تأليف مجموعة من الباحثين سويدي تمكليت، وعبد القادر أنزيض، وسعيد ريش، وحافيظ الأسوي، ومبارك الطلب، نشر مركز الصحراء للدراسات والأبحاث الميدانية أسا الزاك الطبعة الأولَى/ 2016.

❖ كتب التراجم:

173. التشوف إلَى رجال التصوف للتادلِي تحقيق الأستاذ أحمد توفيق منشورات جامعة محمد الخامس سلسلة بحوث رقم [22] الرباط/ 1984.

174. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تح إحسان عباس دار صادر ط.الأولَى/ 1900.

175. أُنْسُ الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطينِي تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور نشر المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة أكدال جامعة محمد الخامس الرباط الطبعة الأولَى/ 1965.

176. الوافِي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى نشر دار إحياء التراث بيروت الطبعة الأولَى/ 2000.

177. سير أعلام النبلاء للإمام الذهبِي نشر دار الكتب المصرية طبع دون تاريخ.

178. إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر تحقيق د حسن حبشي نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، الطبعة الأولَى/ 1969.

179. إنباء الغمر لابن حجر نشر مطابع الأهرام التجارية القاهرة/ 1972.

180. الدُّرَر الكامنة فِي أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر دار الكتب العلمية طبعت دون تاريخ.

181. الجواهر والدرر فِي ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للحافظ السخاوي نشر دار ابن حزم/ 1994 .

182. الديباج المذهب لابن فرحون تح: مأمون الجنان دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1996.

183. المنهل الصافِي والمستوفى بعد الوافِي لابن تغري بردي تحقيق الدكتور محمد أمين نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

184. المنهل الصافِي للأتابكي نشر دار عالَم الكتب بيروت نسخة مصورة/ 1375.

185. المسند الصحيح الحسن فِي مآثر ومحاسن مولانا أبِي الحسن للإمام ابن مرزوق تحقيق الدكتوراه ماريا خيسوسبيغيرا أستاذة بكلية الآداب بجامعة سرقسطا نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر الطبعة الأولَى/ 1981.

186. بغية الوُعاة فِي طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي طبعة مصر/ 1326 .

187. أزهار الرياض للمقري نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي فِي حكومة المملكة المغربية والإمارات العربية.

188. نيل الابتهاج بتطريز الديباج تقديم عبد الحميد الهراحة دار الكاتب طرابلس الطبعة الثانية/ 2000.

189. المقصد الشريف فِي التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق بن إسماعيل البادسي تحقيق سعيد أعراب، نشر المطبعة الملكية، الطبعة الثانية/ 1993 .

190. جذوة الاقتباس فِي ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لابن القاضي نشر دار المنصور للطباعة الرباط/ 1973.

191. كشف الظنون عن أَسَامِي الكتب والفنون لحاجي خليفة طبعة دار إحياء التراث العربِي بيروت.

192. الأعلام لخير الدين الزِّرِكْلِي نشر دار العلم للملايين بيروت/ 1990.

193. روضات الجنات فِي أحوال العلماء والسادات للخوانساري طبعة/ 1327.

194. مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أَبِي المحاسن لأَبِي حامد الفاسي الفهري تحقيق حمزة الكتانِي نشر مركز التراث الثقافِي المغربِي ودار ابن حزم الطبعة الأولَى/ 2008.

195. بشارة الزائرين الباحثين فِي الصالحين لداود الكرامي تحقيق الطالب: الحسين بوشغلي، وحصل به على شهادة الإجازة العليا، شعبة التاريخ بكلية الآداب ابن زهر، تحت إشراف: الأستاذ: شفيق أرفاك، برسم السنة الجامعية/ 1996-1997.

196. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للسملالِي المطبعة الملكية الطبعة الثانية/ 1997.

197. شجرة النور الزكية فِي طبقات المالكية للشيخ محمد مخلوف طبعة دار الفكر دون تاريخ.

198. الجواب المفيد للسائل المستفيد للحافظ أحمد بن الصديق الغماري دار الكتب العلمية جمع بدر العمرانِي تحت إشراف بوخبزة التطوانِي الطبعة الأولَى/ 2002.

199. السيد رشيد للأمير شكيب أرسلان دار الفضيلة، تعليق الدكتور مدحت يوسف وطُبِع دون تاريخ.

200. سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال تحقيق محمد حجي دار الغرب الإسلامي/ 1997.

201. رجالات العلم العربِي فِي سوس من القرن الخامس الهجري إلَى منتصف القرن الرابع عشر للمختار السوسي الطبعة الأولَى/ 1989.

202. من أعلام الفكر والأدب فِي فجر الدولة العلوية: أبو سالِم العياشي المتصوف الأديب للأستاذ عبد الله بنصر العلوي نشر وزارة الأوقاف المغربية/ 1998.

203. محمد الطاهر بن عاشور للأستاذ إياد خالد الطباع سلسلة علماء ومفكرون معاصرون رقم [26] نشر دار القلم دمشق، الطبعة الأولَى/ 2005 .

❖ كتب الرحلات :

204. رحلة ابن بطوطة دار الكتب العلمية الطبعة الأولَى بيروت.

205. رحلة ابن جبير تحقيق إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 2002 .

206. رحلة محمد العبدري بتحقيق محمد الفاسي نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية/ 1968.

207. الرحلة الحجازية لمحمد الحضيكي تح عبد العالِي لمدبر الرابطة المحمدية الطبعة الأولَى/ 2011.

208. الرحلة المراكشية أو مرءاة المساوئ الوقتية لابن المؤقت نشر دار المعرفة طبعت دون تاريخ.

❖ كتب أدبية:

209. الأمثال لأبِي عُبيد القاسم بن سلاّم تحقيق عبد المجيد قطامش دار المأمون الطبعة الأولَى/ 1980.

210. ديوان المتنبي طبعة دار صادر دون تاريخ .

211. مجمع الأمثال للميدانِي تحقيق الأستاذ محمد قاسم مكتبة المعارف بيروت الطبعة الأولَى/ 1986.

212. أساس البلاغة للزمخشري تحقيق محمد باسل عيون السود نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1998.

213. مختار الصحاح للرازي تحقيق أحمد جاد دار الغد الجديد الطبعة الأولَى/ 2007.

214. التعريفات للشريف الجرجانِي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى/ 1983.

215. نثير الجمان فِي شعر من نظمني وإياه الزمان للأمير أبِي الوليد إسماعيل بن الأحمر تحقيق رضوان الداية نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية/ 1987 .

216. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبِي الفتح العباسي تحقيق محيي الدين عبدالحميد نشر عالَم الكتب بيروت.

217. تاج العروس لمرتضى الزبيدي حققه مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية طبع دون تاريخ.

218. عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالِم أديب للشيخ النيفر دار الغرب الإسلامي/ 1996.

219. ديوان الحسن البونعمانِي للحسين أفا منشورات كلية الآداب الرباط مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولَى/ 1996.

220. الأدب المغربِي من خلال ظواهره وقضاياه للأستاذ عباس الجراري مطبعة المعارف الجديدة ط. الأولَى/ 1986.

221. شعراء المغرب المرينِي للدكتور عبد السلام شقور جامعة عبد المالك السعدي منشورات كلية الآداب بتطوان.

❖ كتب متنوعة :

222. الآثار لأبِي يوسف تحقيق أبو الوفا نشر دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولَى.

223. الرسالة المفصلة للقابسي تحقيق أحمد فؤاد الأهوانِي نشر دار المعارف الطبعة السادسة/ 2002.

224. جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولَى.

225. تعليم المتعلم فِي طريق التعلم للزرنوجي تحقيق صلاح محمد الخيمي ونزيه حمدان نشر دار ابن كثير الطبعة الثانية/ 1987.

226. إحياء علوم الدين لأبِي حامد الغزالي مطبعة البابي الحلبِي/ 1939 .

227. شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام تحقيق إياد خالد الطباع دار الفكر المعاصر إعادة الطبعة الأولَى/ 2000.

228. رسائل النور اللمعات لبديع الزمان النورسي دار سولز للنشر إستانبول الطبعة الأولَى/ 2002 .

229. المطلع على مسائل المقنع للمرغتِي بتحشية الشيخ سيدي صالح الإلغي عليه المسمى: المقنع بتحقيق المطلع نشر مكتبة النجاح البيضاء الطبعة الأولَى/ 1999.

230. التراتيب الإدارية للشيخ عبد الحي الكتانِي المطبعة الجديدة/ فاس.

231. سُنِّية رفع اليدين فِي الدعاء بعد الصلاة لمحمد الأهدل الحسني تحقيق الحافظ عبدالله الغماري نشر عالَم الكتب الطبعة الأولَى/ 2006.

232. تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون دار النهضة العربية الطبعة الأولَى/ 2001.

233. نداء إلَى الجنس اللطيف لرشيد رضا تح الشحات أحمد الطحان دار الكلمة الطبعة الأولَى/ 2006 .

234. ومضات فكر للعلامة محمد الفاضل ابن عاشور الدار العربية للكتاب الطبعة الأولَى/ 1981.

235. الحرب الاثنوغرافية ضد العالَم الإسلامي لصبري فارس طبعة منظمة المؤتمر الإسلامي ببغداد.

236. تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ لمحمود سعيد نشر دار البشائر الطبعة الأولَى/ 1993.

237. الضياء اللامع من خطب الجوامع للشيخ ابن عثيمين الطبعة الأولَى نشر دار ابن الهيثم/ 2005.

238. الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب للدكتور فريد الأنصاري، منشورات رسالة القرآن رقم- 2- الطبعة الأولَى/ 2007 .

239. كُتُبٌ حَذَّرَ منها العلماء لمشهور سلمان تقديم بكر أبو زيد دار ابن حزم الطبعة الأولَى/ 1995 .

240. كشاف الكتب المخطوطة بالخزانة الحسنية إنجاز عمر عمور تحت إشراف أحمد شوقي بنبين نشر المطبعة الوطنية مراكشالطبعة الأولَى/ 2007.

241. فهارس الخزانة الملكية قسم الوثائق المجلد الأول القسم الأول -المراسلات- تصنيف أمينة الناير، وعمر عمرو نشر المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الطبعة الأولَى/ 2003.

242. الخط المغربِي تاريخ وواقع وآفاق للدكتور عمر أفا ومحمد المغراوي منشورات وزارة الأوقاف، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولَى/ 2007.

243. الثوابت الدينية والوطنية وأثرها فِي التحام الأمة الـمغربية للحسين أكروم بحث حصلت بموجبه على المرتبة الأولَى فِي المسابقة الثقافية التِي نظمها المجلس العلمي المحلي بالرباط سنة/ 2009 .

244. كتب ليست من الإسلام لمحمود مهدي الإستانبولِي المكتب الإسلامي ط الثانية/ 1983.

245. حركة التجديد والإصلاح فِي نجد لعبد الله الجعلان الطبعة الأولَى/ 1989.

❖ مجلات:

246. مجلة دار الحديث العدد الرابع الصادرة سنة/ 2008.

247. مجلة المجلس يصدرها المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية، عدد مزوج الثامن والتاسع السنة الثالثة الصادرة فِي محرم/ 1431هـ.

248. مجلة التذكرة التِي يصدرها المجلس العلمي بالدار البيضاء المجلد الثانِي العدد الخامس الصادرة سنة/ 1427 .

249. جريدة الوطن الآن عدد 294 الصادرة يوم الخميس 29 ماي/ 2008 .

250. مقال للمؤرخ الحبيب أرسموك تحت عنوان: "للآعزيزة السكسيوية ودورها الاجتماعي والديني والسياسي فِي منطقة الأطلس الكبير " وهو فِي الأصل مقدم إلَى الندوة التِي أقيمت بجوار ضريح الولية الصالحة فِي أحد ليالِي المولد .

251. مقال للأستاذ يحيا التجاجتِي بعنوان: "زاوية تيمكلجت وإقامة المولد النبوي الشريف" منشور بالعدد الثامن من سلسلة منشورات جمعية علماء سوس الموسوم:"زاوية تيمكيلجت بين الإشعاع الصوفِي والعلمي" نشر مطبعة النجاح الطبعة الأولَى/ 2010.

252. مقالة: "تعزية المبتغي نعي العلامة سيدي صالح الإلغي" للحسين أكروم نُشرت فِي عدة مواقع إلكترونية.

فهرس المـوضـوعات

الموضوع الصفحة

الفصل الأول: أصول نشأة ذكرى المولد بالـمغرب عبر التاريخ

الفصل الثاني: أضواء على شبهات جديدة حول ذكرى المولد النبوي الشريف

الفصل الثالث: حجج المنكرين على بدعية المولد والرد عليها